

شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

محمّد بن
محمّد بن الفضل بن حسين

دار النشر: دار الفكر للطباعة والنشر
بيروت - لبنان

شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد



الجزء السادس

دار الفکر للطباعة والنشر
بيروت - لبنان



مرکز تحقیقات کتاب و اسناد اسلامی

منشورات مکتبه آیه الله العظمیٰ المرعشی النجفی
قم - ایران ۱۴۰۴ هـ.ق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خير خلقه محمد وآله الطاهرين .

(٦٦)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام في معنى الأنصار :

قالوا : لما انتهت إلى أمير المؤمنين عليه السلام أباء السقيفة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله ، قال عليه السلام : ما قالت الأنصار ؟ قالوا : قالت : منا أمير ومنكم أمير ؟ قال عليه السلام :

فَهَلَّا أَسْتَجَبْتُمْ عَلَيْهِمْ بِأَنْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَنْ بَأْنُ يُحْسَنَ إِلَى مُحْسِنِهِمْ ، وَيُتَجَاوَزَ عَنْ مُسِيئَتِهِمْ ؟

قالوا : وما في هذا من الحجّة عليهم ؟ فقال عليه السلام : لو كانت الإمامة فيهم لم تكن الوصية يومئذ . ثم قال عليه السلام :

فَمَاذَا^(١) قَالَتْ قُرَيْشٌ ؟

قالوا : أَسْتَجَبْتُ بِأَنَّهَا شَجَرَةُ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ :

أَحْتَجُّوا بِالشَّجَرَةِ ، وَأَضَاعُوا الثَّمَرَةَ !

• • •

الْبَزْخُ :

قد ذكرنا فيما تقدم طرفاً من أخبار القينة ؛ فإما هذا الخبر الوارد في الوصية بالأنصار ؛ فهو خبر صحيح ، أخرجه الشيخان محمد بن إسماعيل البخاري ومسلم بن الحجاج القشيري في مسنديهما ، عن أنس بن مالك ، قال : مر أبو بكر والعباس رضي الله تعالى عنهما بمجلس من الأنصار ، في مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يبكون ، فقالا : ما يبكيكم ؟ قالوا : ذكرنا محاسن رسول الله صلى الله عليه وسلم . فدخلا على النبي صلى الله عليه وسلم وأخبراه بذلك ؛ فخرج صلى الله عليه وسلم وقد تعصب على رأسه حاشية بردة^(١) ، فصعد المنبر - ولم يصعد بمدة ذلك اليوم - فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « أوصيكم بالأنصار ، فإنهم كرشى وعيثي ، وقد قضاوا أدي عليهم ؛ وبنى أدي لهم ، فاقبلوا من محبتهم ، وتجاوزوا عن مسيئتهم »^(٢).

فإما كيفية الاحتجاج على الأنصار ، فقد ذكرها علي عليه السلام ؛ وهي أنه لو كان صلوات الله وسلامه عليه - ممن يجعل الإمامة فيهم ؛ لأوصى إليهم ، ولم يوصي بهم . وإلى هذا نظر عمرو بن سعيد بن العاص ، وهو للمسي بالاشدق ؛ فإن أبا له مات خلفه غلاماً ، فدخل إلى معاوية فقال : إلى من أوصى بك أبوك ؟ فقال : إن أبي أوصى إلي ولم يوصي بي ؛ فاستحسن معاوية منه ذلك ؛ فقال : إن هذا الغلام لأشدق ، فسمي الأشدق^(٣).

فأما قول أمير المؤمنين : « احتجوا بالشجرة وأضاعوا الثمرة » ؛ فكلام قد تكرر منه

(١) البخاري : ٥ بر ٥ .

(٢) صحيح البخاري ٢ : ٣١٢ ، صحيح مسلم ١٩٤٩ . (٣) الأشدق : البليغ .

عليه السلام أمثاله ؛ نحو قوله : « إذا احجج عليهم المهاجرون واقرئهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت الحجة لنا على المهاجرين بذلك قاعة ؛ فإن فلتجت حجتهم كانت لنا دونهم ؛ وإلا فالأنصار على دعوتهم » .

ونحو هذا المعنى قول العباس لأبي بكر : « وأما قولك : نحن شجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنكم جيرانها ؛ ونحن أغصانها » :

• • •

[يوم السقيفة]

ونحن نذكر خبر السقيفة^(١)؛ روى أبو بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهري في كتاب " السقيفة " قال :



أخبرني أحمد بن إسحاق ، قال : حدثنا أحمد بن سيار ، قال : حدثنا سعيد بن كثير ابن عفيرة الأنصاري أن النبي صلى الله عليه وآله لما قبض ، اجتمعت الأنصار في سقيفة بني ساعدة ، فقالوا : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قبض ، فقال سعد بن عبادة لابنه قيس - أو لبعض بنيه : إني لا أستطيع أن أسمع الناس كلامي لرضي ؛ ولكن تلق مني قولي فأتيممهم . فكان سعد يتكلم ، ويستمع ابنه ويرفع به صوته ليُسمع قومه ؛ فكان من قوله بعد حمد الله والثناء عليه أن قال :

إن لكم ساجدة إلى الدين ، وفضيلة في الإسلام ليست لقبيلة من العرب . إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليث في قومه بضع عشرة سنة ، يدعوهم إلى عبادة الرحمن ، وخلع الأوثان ؛ فما آمن به من قومه إلا قليل ، والله ما كانوا يقترون أن ينعوا رسول الله ،

(١) انظر أخبار السقيفة أيضاً في الجزء الأول ٢١ - ٦١ .

ولا يُمِرُّوا دينه ، ولا يدفعوا عنه عِداه ؛ حتى أراد الله بكم خيرَ الفضيلة ، وساق إليكم الكرامة ، وخصكم بدينه ، ورزقكم الإيمان به وبرسوله ، والإعزازَ لدينه ، والجهادَ لأعدائه ؛ فكنتم أشدَّ الناس على مَنْ تخلف عنه منكم ، وأثقله على عدوِّه من غيركم ؛ حتى استقاموا الأمر الله طوعاً وكرهاً ، وأعطى البعيدُ للقادة صاغراً ^(١) ، حتى أنجز الله لبيته الوعد ، ودانت لأسيا فيكم العربُ ، ثم توفاه الله تعالى وهو عنكم راضٍ ؛ وبكم قَريرٌ عَيْنٌ ؛ فشُدُّوا يديكم بهذا الأمر ، فإنكم أحقُّ الناس وأولاهم به .

فأجابوا جميعاً : أن وُقِّت في الرأي ، وأصبت في القول ، ولن نمدُّ ما أمرت . نوَّليكَ هذا الأمر ، فانت لنا مقنَّع ، ولصالح المؤمنين رضاء .
ثم إنهم تراذوا الكلام بينهم ، فقالوا : إن أبت مهاجرة قريش فقلوا : نحن للمهاجرين ، وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الأولون ؛ ونحن عشيرته وأوليائه ، فعلامَ تنازعونا هذا الأمر من بعده ؟ فحالت طائفة منهم : إذا قول : مِنَّا أمير ومندكم أمير ، لن نرضى بدون هذا منهم أبداً ، لنا في الإبراء والنصرة ما لهم في الهجرة ، ولنا في كتاب الله ما لهم ، فلبسوا بمدُّون شيئاً إلا ونمذَّ مثله ، وليس مِن رأينا الاستئثارَ عليهم ، فننا أمير ومنهم أمير .

قال سعد بن عباد : هذا أول الوهن !

وأتى الخبيرُ عمرَ ، فأتى منزلَ رسول الله صلى الله عليه وآله ، فوجد أبا بكرٍ في الدار وعليَّاني جِهاز رسول الله صلى الله عليه وآله - وكان الذي أتاه بالخبر معن بن عدى - فأخذ بيد عمر ، وقال : قم ، فقال عمر : إني عنك مشغول ، فقال : إنه لا بدَّ من قيام ، فقام معه ، فقال له : إن هذا الحى من الأنصار قد اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة ، معهم سعد بن حُباب ، يدورون حولَه ، ويقولون : أنت المرجى ، ونجلك للرجى - وثمَّ أناسٌ من

(١) كذا في ج ، والآخر : « القليل » ، ول ب : « فاحضاً » .

أشرفهم ، وقد خُيِّت الفتنة ، فانظر يا عمر ماذا ترى ! واذا ذكر لإخوتك من المهاجرين ، واختاروا لأنفسكم ، فإني أنظر إلى باب فتنة قد فتحت الساعة إلا أن يفلقه الله . ففرع عمر أشد الفرع ، حتى أتى أبا بكر ، فأخذ بيده ، فقال : قم ، فقال أبو بكر : إني عنك مشغول . فقال عمر : لا بد من قيام ! وسنرجع إن شاء الله .

فقام أبو بكر مع عمر ، فحدثته الحديث ، ففرع أبو بكر أشد الفرع ، وخرجامسرعين إلى سقيفة بني ساعدة ؛ وفيها رجال من أشرف الأنصار ؛ ومعهما سعد بن عبادة وهو مريض بين أظهرهم ، فأراد عمر أن يتكلم ويمهد لأبي بكر ؛ وقال : خُيِّت أن يتصر أبو بكر عن بعض الكلام ؛ فلما نبس^(١) عمر ، كفه أبو بكر وقال : على رِسلك ؛ فتلق الكلام ثم تكلم بعد كلامي بما بدا لك . فشهد أبو بكر ، ثم قال :

إن الله جل ثناؤه بعث محمداً بالهدى ودين الحق ، فدعا إلى الإسلام ، فأخذ الله بقلوبنا ونواصينا إلى مادانا إليه ، وكفنا - معاشر المسلمين المهاجرين - أول الناس إسلاماً ، والناس لنا في ذلك تبسع ؛ ونحن عشيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأوسط العرب أنساباً ، ليس من قبائل العرب إلا وتقرش فيها ولادة ؛ وأنتم أنصار الله ، وأنتم نصرتم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم أنتم وزراء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإخواننا في كتاب الله وشركاؤنا في الدين ؛ وفيما كنا فيه من خير ؛ فأنتم أحب الناس إلينا ، وأكرمهم علينا ، وأحق الناس بالرضا بقضاء الله ، والتسليم لما ساق الله إلى إخوانكم من المهاجرين ، وأحق الناس ألا تمسك دوماً ، فأنتم المؤثرون على أنفسكم حين الخصاصة ، وأحق الناس ألا يكون انتقاض هذا الدين واختلاطه على أيديكم ، وأنا أدعوكم إلى أبي عبيدة وعمر ؛ فكلما قدر صيبت لهذا الأمر ، وكلما أراه له أهلاً .

فقال عمر وأبو عبيدة : ما ينبغي لأحد من الناس أن يكون فوقك ، أنت صاحب الفار ، ثانی اثنين ، وأمرك رسول الله بالصلاة ، فأنت أحق الناس بهذا الأمر .
فقال الأنصار :

والله ما نحمدكم على خير ساقه الله إليكم ، ولا أحد أحب إلينا ولا أرضى عندنا منكم ، ولكننا نشفق فيما بعد هذا اليوم ، ونحذر أن يغلب على هذا الأمر من ليس منا ولا منكم ؛ فلو جعلتم اليوم رجلاً منكم بايعنا ورضينا - على أنه إذا هلك اخترنا واحداً من الأنصار ؛ فإذا هلك كان آخر من المهاجرين أبداً ما بقيت هذه الأمة - كان ذلك أجدر أن تميل^(١) في أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فيشفق الأنصارى أن يزيع فيقبض عليه القرشي ، ويشفق القرشي أن يزيع فيقبض عليه الأنصارى .

فقام أبو بكر فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بعث عظم على العرب أن يتركوا دين آبائهم ، يخالفوه وشاقوه ، وخس الله المهاجرين الأولين من قومه بتصديقه والإيمان به واللواصاة له ، والصبر معه على شدة أذى قومه ، ولم يستوحشوا الكثرة عدوهم ؛ فهم أول من عبد الله في الأرض ، وهم أول من آمن برسول الله ، وهم أولياؤه وحزنته ، وأحق الناس بالأمر بعده ، لا ينافيهم فيه إلا ظالم ؛ وليس أحد بعد المهاجرين فضلاً وقدما في الإسلام مثلكم ؛ فمنعنا الأمراء وأنتم الوزراء ، لا تمتاز دونكم بمشورة ، ولا تفضى دونكم الأمور .

فقام الحباب بن المنذر بن الجوح ، فقال :

يا ممشر الأنصار ؛ امسكوا عليكم أيديكم ؛ إنما الناس في فينكم وظنكم ؛ ولن يجترى .
مجترى على خلافكم ، ولا يصدر الناس إلا عن أمركم ، أنتم أهل الإيواء والنصرة ، وإليكم كانت الهجرة ، وأنتم أصحاب الدار والإيمان ؛ والله ما عيب الله علانية إلا عندكم وفي بلادكم ،

ولا جمعت الصلاة إلا في مساجدكم ، ولا عُرف الإيمان إلا من استياقكم ، فامليكم
عليكم أمركم ، فإن أبي هؤلاء ، فنأ أمير ومنهم أمير .

فقال عمر : هيهات ! لا يجمع سيفان في غمد ؛ إن العرب لا ترضى أن تؤمركم
ونبيها من غيركم ، وليس تمتنع العرب أن تولي أمرها من كانت النبوة فيهم ؛ وأولو
الأمر منهم ، لنا بذلك الحجة الظاهرة على من خالفنا ، والسلطان للبين على من نازعنا ،
من ذا يخاصمنا في سلطان محمد وميراثه ؛ ونحن أولياؤه وعشيرته ، إلا مدل بهاطل ، أو
متجانف لإثم ، أو متورط في هلكة !

فقام الحباب ، وقال :

يا معشر الأنصار ، لا تسموا مقالة هذا وأصحابه ، فيذهبوا بنصيبكم من الأمر ،
فإن أبوا عليكم ما أعطيتهم فاجلؤم عن بلادكم ، وتولوا هذا الأمر عليهم ، فأنتم
أولى الناس بهذا الأمر ، إنه دان لهذا الأمر بأسياقكم من لم يكن يدين له . أنا جذيلها
المحكك ، وعذيقها الرجب ^(١) ، إن شتم أهدنها جذعة ^(٢) ، والله لا يرد أحد على
ما أقول إلا عطمت أفعه بالسيف .

قال : فلما رأى بشير بن سعد الخزرجي ما اجتمعت عليه الأنصار من تأييد سعد بن عبادة
- وكان حاسداً له ، وكان من سادة الخزرج - قام فقال :

أيها الأنصار ، إنا وإن كنا ذوي سابقة ، فإننا لم نرد بجهادنا وإسلامنا إلا
رضاً ربنا وطاعة نبينا ، ولا ينبغي لنا أن نستطيل بذلك على الناس ، ولا نبتغي به عوضاً

(١) قال الزعشمري في الفائق ١ : ١٨١ : « الجذل : عود ينصب للابل الجري تحتك به فتستقي .
والمحكك : الذي كثر به الاحتكاك حتى صار ممسأ . والحذف : بالفتح : النخلة . وللرجب : المعوم
بالرجبة ؛ وهي خشبة ذات شعبتين ؛ وفلك لنا طال وكثر حله . وللعن : لاني ذو رأي يشي بالاستفاهة
به كثيراً في مثل هذه الحادثة ، وأنا في كثرة التجارب والعلم بموارد الأحوال فيها ، وفي أمثالها ومصادرها ،
كالنخلة الكثيرة الحل . ثم رى بالرأي العائب عنده ، فقال : منا أمير ومنكم أمير » .

(٢) قال في اللسان : « إن شتم أهدناها جذعة ، أي أول ما يبتدأ فيها » .

من الدنيا ، إن محمداً صلى الله عليه وسلم رجلٌ من قريش ؛ وقومه أحقُّ بميراثِ أمره ،
وأيُّمُ الله لا يراني الله أنزعهم هذا الأمر ؛ فاتقوا الله ولا تنازعوهم ولا تخالفوهم .

قام أبو بكر ، وقال : هذا عمر وأبو عبيدة ، تابعوا أيها شتم ؛ فقالا : والله لا نتولى
هذا الأمر عليك ؛ وأنت أفضلُ للمهاجرين ، وثاني اثنين ، وخليفة رسول الله صلى الله
عليه وسلم على الصلاة ؛ والصلاة أفضلُ الدين أسط يدك نيايتك .

فلما بسط يده ، وذهب يابعا ، سبقها بشر بن سعد ، فبايعه ، فناداه الخُباب
ابن المنذر : يا بشر ، حقك حَقِّي^(١) ؛ والله ما اضطررك إلى هذا الأمر إلا الحسدُ
لأبي عمك .

ولما رأت الأوس أن رئيساً من رؤساء الخزرج قد بايع ، قام أسيد بن حصير
- وهو رئيس الأوس - فبايع حذالسعد أيضاً ، ومنافسةً له أن يلى الأمر ، فبايعت الأوس
كلها لما بايع أسيد ، وحيل سعد بن عبادة وهو مريض ، فأدخل إلى منزله ، فامتنع من
السَّيحة في ذلك اليوم وفيها بعده ، وأراد عمر أن يُسكره عليها ، فأشهر عليه ألا يضل ،
وأنه لا يبايع حتى يقتل ، وأنه لا يقتل حتى يقتل أهله ، ولا يقتل أهله حتى يقتل
الخزرج ؛ وإن حوربت الخزرج كانت الأوس معها .

وفد الأمر فتركوه ، فكان لا يصلُ بصلاتهم ، ولا يجتمع بمساعمتهم ، ولا يقضى
بعضائهم ؛ ولو وجد أعواناً لضاربهم ، فلم يزل كذلك حتى مات أبو بكر ، ثم لقي عمر
في خلافته ؛ وهو على فارس ، وعمر على بصرى ، فقال له عمر : هيهات يا سعد ! فقال سعد :
هيهات يا عمر ! فقال : أنت صاحب مَنْ أنت صاحبه ؟ قال : نعم أما ذاك ؛ ثم قال لسر :
والله ما جاورني أحدٌ هو أبغضُ إليّ جواراً منك ، قال عمر : فإنه من كره جوار رجل
انتقل عنه ؛ فقال سعد : إني لأرجو أن أخليها لك عاجلاً إلى جوار مَنْ هو أحبُّ إليّ

(١) ج : يا طعان .

جواراً منك ومن أصحابك ؛ فلم يلبث سعدٌ بعد ذلك إلا قليلاً حتى خرج إلى الشام ، فمات
بمُحوران ولم يبايع لأحدٍ ؛ لا لأبي بكر ولا لعمر ولا لغيرهما .

قال : وكثر الناسُ على أبي بكر ، فبايعه معظمُ المسلمين في ذلك اليوم ؛ واجتمعت
بنو هاشم إلى بيت علي بن أبي طالب ، ومعهم الزبير ، وكان بعد نفسه رجلاً من بني
هاشم ؛ كان علي يقول : مازال الزبير مِن أهل البيت ؛ حتى نشأ بنوه ، فصرفوه عنّا .
 واجتمعت بنو أمية إلى عثمان بن عفان ، واجتمعت بنو زهرة إلى سعد وعبد الرحمن ؛
 فأقبل عمر إليهم وأبو عبيدة ، فقال : مالي أراكم ملتائين ؟ قوموا فبايعوا أبا بكر ؛ فقد
بايع له الناس ، وبايعه الأنصار . فقام عثمان ومن معه ، وقام سعد وعبد الرحمن ومن معهم ،
 فبايعوا أبا بكر .

وذهب عمر ومعه عصابة إلى بيت فاطمة ، منهم أسيد بن حصير وسلمة بن أسلم ، فقال
لهم : اطلقوا فبايعوا ، فأبوا عليه ؛ وخرج إليهم الزبير بسيفه ، فقال عمر : عليكم الكلب ،
 فوثب عليه سلمة بن أسلم ، فأخذ السيف من يده فضرب به الجدار ، ثم اطلقوا به وعليه
ومعها بنو هاشم ، وعليه يقول : أنا عبدُ الله وأخو رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ حتى
انتهوا به إلى أبي بكر ، فقيل له : بايع ، فقال : أنا أحقُّ بهذا الأمر منكم ، لا أبايكم
وأنتم أولى بالبيعة لي ، أحدثم هذا الأمر من الأنصار ، واحتججتُ عليهم بالقرابة من
رسول الله ، فأعطوكم القادة ، وسلّموا إليكم الإمارة ، وأنا أحتج عليكم بمثل ما احتججتُ
به على الأنصار . فأنصفونا إن كنتم تحفون الله من أنفسكم ، واعرفوا لنا من الأمر مثل
ما عرفت الأنصار لكم ، وإلا فقوموا باطلّم وأنتم تملكون .

فقال عمر : إنك لست متروكاً حتى تدابع . فقال له علي : احلب يا عمر حلباً لك شطراً !
اشدُّ^(١) له اليوم أمره ليرد عليك غداً ! إلا والله لا أقبل قولك ولا أبايعه . فقال له أبو بكر :

(١) ب : شدّ .

فإن لم تباينني لم أكرهك ، فقال له أبو عبيدة : يا أبا الحسن ، إنك حديث السن ، وهؤلاء مشيخة قريش قومك ، ليس لك مثل تجربتهم ومعرفتهم بالأمور ، ولا أرى أبا بكر إلا أقوى على هذا الأمر منك ، وأشدّ احتمالا له ؛ واضطلاعا به ، فسلم له هذا الأمر وارضى به ، فإنك إن تمس وبطل عرك فانت لهذا الأمر خليف وبه حقيق ؛ في فضلك وقرابتك ، وسابقتك وجهادك .

فقال عليّ : يا مشرّ المهاجرين ، الله الله ! لا تحرجوا سلطان محمد عن داره وبيته إلى بيوتكم ودوركم ، ولا تدفروا أهله عن مقامه في الناس وحقه ، فوالله يا مشرّ المهاجرين ، لنحنُ - أهل البيت - أحقُّ بهذا الأمر منكم . أما كان منا القارئ لكتاب الله ، الفقيه في دين الله ، العالم بالسنة ، المضطلع بأمر الرعية والله إلهنا ، فلانتسموا الهوى ، فزدادوا من الحقّ بعدا .

فقال شير بن سعد : لو كان هذا الكلام سمعته منك الأنصار باعلى قبل بيوتهم لأبى بكر ، ماختلف عليك اثنان ، ولكنهم قد يابسوا .
وانصرف عليّ إلى منزله ، ولم يابح ، ولزم بيته حتى ماتت فاطمة فبايع .

• • •

قلت : هذا الحديث يدلُّ على بطلان ما يدّعى من النصِّ على أمير المؤمنين وغيره ، لأنه لو كان هناك نصٌّ صريحٌ لاحتجَّ به ولم يجرِ للنصِّ ذكر ، وإنما كان الاحتجاج منه ومن أبي بكر ومن الأنصار بالسوابق والقصاصيل والتقرب ، فلو كان هناك نصٌّ على أمير المؤمنين أو على أبي بكر ، لاحتجَّ به أبو بكر أيضا على الأنصار ، ولاحتجَّ به أمير المؤمنين على أبي بكر ، فإن هذا الخبر وغيره من الأخبار للسفينة ، يدلُّ على أنه قد كان كاشفهم وهتك الحجاب بينه وبينهم ، ألا تراه كيف نسبهم إلى التعدّي عليه وظلمه ، ونمّع من طاعتهم ،

وَأَسْمَعَهُمْ مِنَ الْكَلَامِ أَشَدَّهُ وَأَغْلَظَهُ ! فَبَلَكَ هُنَاكَ نَصْرًا قَدِ كَرِهَ ، أَوْ ذَكَرَهُ بَعْضُ مَنْ كَانَ مِنْ شِيعَتِهِ وَحِزْبِهِ ؛ لِأَنَّهُ لَا يَطْرُقُ مَعَهُ عَرُوسٌ .

وَهَذَا أَيْضًا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْخَبَرَ لِلرُّوِيِّ فِي أَبِي بَكْرٍ فِي صَحِيحِي الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ غَيْرُ صَحِيحٍ ؛ وَهُوَ مَارُودِيٌّ مِنْ قَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا نَشَأَ فِي مَرَضِهِ : « ادْعِي لِي أَبَاكَ ، حَتَّى أَكْتُبَ لَكَ بِكْرَ كِتَابًا » ؛ فَإِنَّ أَخَافَ أَنْ يَقُولَ قَائِلٌ ، أَوْ يَتَنَبَّأَ مَتَنًا ، وَيَأْبَى اللَّهُ وَلِلْمُؤْمِنُونَ إِلَّا أَبَا بَكْرٍ » .

وَهَذَا هُوَ نَصْرٌ مَذْهَبٌ لِلْعِتْرَةِ .



وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الْمَرْزُوقِ الْجَوْهَرِيِّ أَيْضًا : حَدَّثَنَا أَحْمَدُ وَقَالَ : حَدَّثَنَا ابْنُ عُفَيْرٍ ، قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو عَرُوفٍ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، أَنَّ عَلِيًّا حَمَلَ فَاطِمَةَ عَلَى حِمَارٍ ، وَحَارَبَهَا لِيَأْتِيَ إِلَى بَيْتِ الْأَنْصَارِ ؛ يَسْأَلُ النَّصْرَةَ ، وَنَسَأَ فَاطِمَةَ الْإِنْتِصَارَ ، فَكَانُوا يَقُولُونَ : وَابْنَتُ رَسُولِ اللَّهِ ، قَدِمْتَ يَسْأَلُ هَذَا الرَّجُلَ ؛ لَوْ كَانَ ابْنُ عَمِّكَ سَبَقَ إِلَيْنَا أَبَا بَكْرٍ مَا عَدَلْنَا بِهِ ؛ فَقَالَ عَلِيٌّ : أَكُنْتُ أَتْرُكُ رَسُولَ اللَّهِ مَيِّتًا فِي بَيْتِهِ لَا أَجْتَرَهُ ، وَأَخْرَجُ إِلَى النَّاسِ أَنْ أَرَعَهُمْ فِي سُلْطَانِهِ .

وَقَالَتْ فَاطِمَةُ : مَا صَنَعَ أَبُو حَسَنِ إِلَّا مَا كَانَتْ يَنْبَغِي لَهُ ، وَصَدَّقُواهُمْ مَا اللَّهُ حَسْبُهُمْ عَلَيْهِ .

وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الْمَرْزُوقِ : وَحَدَّثَنَا أَحْمَدُ ، قَالَ : حَدَّثَنِي سَمِيدُ بْنُ كَثِيرٍ ، قَالَ : حَدَّثَنِي ابْنُ كَلْبَةَ ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ لَمَامَاتٌ وَأَبُو ذَرٍّ غَائِبٌ ، وَقَدِمَ وَقَدْ وُلِّيَ أَبُو بَكْرٍ ، فَقَالَ : أَصَبْتُمْ قِنَاعَهُ ، وَتَرَكْتُمْ قَرَابَهُ ؛ لَوْ جَعَلْتُمْ هَذَا الْأَمْرَ فِي أَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّكُمْ لَمَا اخْتَلَفَ عَلَيْكُمْ اثْنَانِ .

قال أبو بكر : وأخبرنا أبو زيد عمر بن شبة ، قال : حدثنا أبو قبيصة محمد بن حرب ، قال :
لما توفي النبي صلى الله عليه وآله ، وجرى في البقيعة ما جرى تمثل على :
وأصبح أقوام يقولون ما اشبهوا ، ويطفون لما غال زيدا غوائله

[قصيدة أبي القاسم المغربي وتخصبه للأنصار على قريش]

وحدثني أبو جعفر يحيى بن محمد بن زيد العلوي شبيب البصرة ؛ قال : لما قدم أبو القاسم
على بن الحسين المغربي من مصر إلى بغداد ، استكتبه شرف الدولة أبو علي بن بويه ،
وهو يومئذ سلطان الحضرة ، وأمير الأمراء بها ، والقادر خليفة ، فصدت الحال بينهما وبين
القادر ؛ واتفق لأبي القاسم الممرى أعداء سوء أوحشوا القادر منه ، وأوهموه أنه مع شرف الدولة
في التقيض عليه وخلفه من الخلافة فأنطلق ليلته في ذكره بالقصيح . وأوصل القول فيه ،
والتكوي منه ، ونسبه إلى الرقص وسب السلف ، وإلى كفران النعمة ، وأنه هرب من
يد الحاكم صاحب مصر مد إحسانه إليه .

قال النقيب أبو جعفر رحمه الله تعالى : فأما الرقص فنع ؛ وأما إحسان الحاكم إليه فلا كان
الحاكم أقتل أباه وعمه وأخاه من إخوانه ، وأظلمت منه أبو القاسم بخدمة الدين ، ولو ظفر
به لألقاه بهم .

قال أبو جعفر : وكان أبو القاسم المغربي ، بنسب في الأزدي ، ويشتمب لقحطان على
عدنان ، ولأنصار على قريش ، وكان عالما في ذلك مع تشييعه ، وكان أدبيا فاصلا شاعرا
متمسلا ، وكثير الفنون طامعا ، وانحدر مع شرف الدولة إلى واسط ، فاتفق أن حصل بيد
القادر كتاب بخطه شبه مجموع ؛ قد جمعه من خطه وشعره وكلامه مسود ، أنحفه به بعض من
كان يشأ أبا القاسم ، ويريد كيده ، فوجد القادر في ذلك المجموع قصيدة من شعره ، فيها
نمصب شديد للأنصار على المهاجرين ، حتى خرج إلى نوع من الإلحاد والزندقة ؛ لإفراط غلوته

وفيها تصرّح بالرفق مع ذلك ، فوجدتها القادر تمرة^(١) الثراب ، وأبرزها إلى ديوان الخلافة ،
فقرئ الجيوع والقصيدة بمحض من أعيان الناس من الأشراف والقضاة والمدّلين
والفقهاء ، وبشهاد أكثرهم أنه خطّه ، وأهمهم يعرفونه كما يعرفون وجهه ، وأمر بمكانة شرف
اللهوة بذلك ، فإلى أن وصل الكتاب إلى شرف اللهوة بما جرى ، اتصل الخبير بأبي القاسم
قبل وصول الكتاب إلى شرف اللهوة ، فهرب ليلاً ، ومعه بعض غلته ، وجارية كان
يهواها ويصغفها ، وذهب إلى البعلبة ، ثم منها إلى الموصل ، ثم إلى الشام ، وبات في طريقه ،
فأوصى أن تحمل جثته إلى مشهد علي^(٢) ، ففعلت في تاورث ، ومعهما خفراء العرب حتى دفن
بالمشهد بالقرب منه عليه السلام^(٣) .

وكتبت برقة أسأل النقيب أبا جعفر عن القصيدة ، وهو يدافع بها ، حتى أملاها
عليّ بعد حين ، وقد أوردتها هنا معها ؛ لأنني لم أستجز ولم أستحلّ إيرادها على وجهها ،
فمن جلتها - وهو يذكر في أولها رسول الله صلى الله عليه وآله ، ويقول : إنه لولا الأنصار
لم تستقم لهجوته دعاية ، ولا أرسيت له قاعدة ، في أبيات فاحشة كرهنا ذكرها :

نحن الذين بنا استجار فلم ينجح	فينا ، وأصبح في أمر جوار
بسوفنا أمست سفينة بركا	في بذرها صكناثير الجزلير ^(٤)
ولعن في أحد سمعنا دونه	بنفوسنا للموت خوف العار
فجعا بمهجته ، قلولا ذنبنا	معه تنشب في محالب صار
وحية السعدين بل بحماية الله	دين يوم الجفيل الجرار
في الخندق للشهور إذ ألقى بها	بيد ، ورام دقاها ببار
قالا : معاذ الله إن هزيمة	لم نطعها في سالف الأعصار

(١) يقال إذا أساب الرجل عند صاحبه أفضل ما يريد من الخير والمحبة : وجد تمرة الثراب ، وذلك
أن الثراب إنما يهبط من التمر أجوده . نهار الطوب ٣٦٦
(٢) ج : بالترى .
(٣) سفينة : لقب لرش ، ولأ : ج : وتركها .

ما عندنا إلا السيوف ، وأقبلنا
 ولنا يوم حين آثار متى
 لما تصدع جنة فنداء بنا
 صلفت عليه كائنات ، فصعصعت
 وفدته من أبناء قبيلة عصبية
 أفنحنا أولى بالخلافة بعده
 ما الأمر إلا أمرنا وسعدنا
 لكنا حشد النفوس وشحها
 أفضى إل مرج ومرج فاهرت
 وتدواتها أربع لولا أبو
 من طاجز ضريع ، ومن ذي عيلة
 ثم ارتدى المحروم فضل رداها
 فتأكلت تلك الجلدى ، وتلظت
 تالله لو أقروا إليه زمامها
 ولو أنها حلت بساحة مجده
 هو كائن فضيلة ، لكن ذا
 والقصل ليس بنافع أربابه
 ثم امعطها عهد شمس فافتدت
 وتنقلت في عصب أموية
 نحو الخثوف بها بدار بدار
 تذكر فهن كرائم الآثار
 مستعصرا بغيره وجوار
 منا جوع هوازن يفرار
 شروى النقيير وجنة البقار
 أم عهد تيم حائل الأوزار
 رقت عروس الملك غير نوار
 وتذكر الأذغال والأوتار
 عشواء خابطة بغير نهار
 نحن لقت لؤمت من إشتار^(١)
 جاف ، ومن ذي لؤمة خوار^(٢)
 قمت مراحل إحتار وشار
 تلك الظباء ، ورقا أجيح النار
 لشي هم سجعاً بغير عثار^(٣)
 بادي بدا مكنت بدار قرار
 من حظه كاس ، وهذا عار
 إلا بمعدة من الأقدار
 هرزا ، وبذل رنحها بمشار
 لبسوا بأطهار ولا أبرار

(١) الإسطار ، بالكسر : أريمة في الهند .

(٢) الضريع : الضعيف .

(٣) ج : ب تبار .

مايين مأفونٍ إلى مُترَندٍقٍ ومُداينٍ ومُضاعفٍ وحِجَارٍ

فهذه الأبيات، هي نظيفُ القصيدة، المتقطّعاتُها وحذفُنا للفاحش، وفي اللتقط للذكر
أيضاً مالا يَجُوزُ، وهو قوله: « نحن الذين بنا استجار »، وقوله: « ألقى بها يدي »،
وقوله: « فنجاً بمهجته... » البيت. وقوله عن أبي بكر: « هبديم »، وقوله:
« لولا عليّ لقلت في الأربعة إنهم إستار لؤم »، وذكره الثلاثة رضي الله عنهم بما ذكرهم
ونسبهم إليه. وقوله: « إن علياً كالنبي في الفضيلة »، وقوله: « إن النبوة حظاً أصليّه
وحُرّمه علىّ عليه السلام ».

فأما قوله في بني أمية: « مايين مأفون... » البيت، فأخوذ من قول عبد الملك بن
مروان، وقد خطب فذكر الخلفاء من بني أمية قبله، فقال: « إني والله لست بالخليفة
للتضعف، ولا بالخليفة المداين، ولا بالخليفة المأفون » عوّ بالتضعف عثمان، وبالمداين
معاوية، وبالمأفون يزيد بن معاوية، فإراد هذا الشاعر فيهم اثنين: وهما المترندق، وهو
الوليد بن يزيد بن عبد الملك، والحجار وهو مروان بن محمد بن مروان.



[أمر المهاجرين والأنصار بعد يعة أبي بكر]

وروى الزبير بن بكار في " الموقّيات " قال: لما بايع بشير بن سعد أبا بكر،
وازدحم الناس على أبي بكر فبايعوه، مرّ أبو سفيان بن حرب بالبيت الذي فيه عليّ بن
أبي طالب عليه السلام، فوقف وأنشد:

بني هاشم لا تطعموا الناس فيكم ولا سبياً تيم بن مرة أو عدي
فما الأمر إلا فيكم وإليكم وليس لها إلا أبو حسن عليّ

أبا حسن فاشدذ بها كف حازم فإنك بالأمر الذي يرتجى ملي
 وأى امرئ يرى قصياً ورأياً منيع الجلى والناس من غالب قصى
 فقال على لأبى سفيان : إنك تريدُ أمراً لنا من أصحابه ، وقد عهد إلى رسول الله
 صلى الله عليه وسلم بهذا فأنا عليه ؛ فتركه أبو سفيان وعدل إلى العباس بن عبد المطلب
 في منزله ، فقال : يا أبا الفضل^(١) ، أنت أحق بميراث ابن أهلك ، امدد يدك لأبايكم ،
 فلا يختلف عليك الناس بعد بيعتي إياك . فصحبك العباس ، وقال : يا أبا سفيان ، يدفعها
 على ويطلبها العباس افرح أبو سفيان خائباً .

قال الزبير : وذكر محمد بن إسحاق أن الأوس تزم أن أول من بايع أبا بكر بشير
 ابن سعد ، وتزم الخزرج أن أول من بايع أسيد بن حضير .

قلت : بشير بن سعد خرر حى وأسيد بن حضير أوتى ، وإنا ندفع الفريقان الروابطين
 تفادياً عن سعد بن عباد ، وكرهية كل حى مهبا أن يكون نقص أمره جاء من
 جهة صاحبه ؛ فالخزرج هم أهله وقرايته ، لا يقولون أن بشير بن سعد هو أول من
 بايع أبا بكر وأبطل أمر سعد بن عباد ، ويحبلون بذلك على أسيد بن حضير ؛ لأنه من
 الأوس أعداء الخزرج . وأما الأوس فحكه أيضاً أن ينسب أسيد إلى أنه أول من نقص
 أمر سعد بن عباد ، كي لا يرموه بالخسد للخزرج ؛ لأن سعد بن عباد حزر جى ، فيحبلون
 بانتقاص أمره على قبيلته - وهم الخزرج - ويقولون : إن أول من بايع أبا بكر ونقص
 دعوة سعد بن عباد بشير بن سعد . وكان بشير أغور .

والذى ثبت عدى أن أول من بايعه عمر ، ثم بشير بن سعد ، ثم أسيد بن حضير ،
 ثم أبو عبيدة بن الجراح ، ثم سالم مولى أبي حذيفة .

(١) كذا في ب ، ج ، و ، ا : أنت لها .

قال الزبير : وقد كان مალأً أبا بكر وعمر على نفض أمر سعد وإفساد حاله رجلاً من الأنصار ممن شهد بدرًا ، وهما عويم بن ساعدة ومعن بن هدي .

قلت : كان هذان الرجلان ذوي حُبٍّ لأبي بكر في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله واتفق مع ذلك نفض وشحناء ؛ كانت ^(١) بينهما وبين سعد بن عباد ، ولها سبب مذکور في كتاب " القبائل " لأبي عبيدة معمر بن المثنى ، فليطلب من هناك .

وعويم بن ساعدة ، هو القائل لما نصب الأنصار سعدًا : يا معشر الخزرج ؛ إن كان هذا الأمر فيكم دون قريش فمرفقونا ذلك وبرهناؤنا حتى يبايعكم عليه ؛ وإن كان لم دونكم ، فسلموا إليهم ؛ فوالله ما هلك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى عرفنا أن أبا بكر خليفة حين أمره أن يصلى بالناس ؛ فشقه الأنصار وأخرجوه ؛ فانطلق مسرعًا حتى التحق بأبي بكر ، فشجذ عزمه على طلب الخلافة .

ذكر هذا بعينه الزبير بن بكار في " اللوقيات " .

وذكر المدائني والواقدي أن من بن هدي اتفق هو وعويم بن ساعدة على تخريض أبي بكر وعمر على طلب الأمر ومرفقه عن الأنصار . قال : وكان من بن هدي يشخصهما إشخاصًا ، ويسوقهما سوقًا عنيفًا إلى القيعة ، مبادرة إلى الأمر قبل فواته .

• • •

قال الزبير بن بكار : فلما بُويع أبو بكر ، أقبلت الجماعة التي بايعته تزفة زفًا إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما كان آخر النهار ، افترقوا إلى منازلهم ، فاجتمع قوم من الأنصار وقوم من المهاجرين ، فتعابوا فيما بينهم ، فقال عبد الرحمن بن عوف : يا معشر الأنصار ، إنكم وإن كنتم أولى فضل ونصر وسابقة ؛ ولكن ليس فيكم مثل أبي بكر ولا عمر ولا علي ولا أي عبيدة . فقال زيد بن أرقم : إنا لا نشكر فضل من ذكرناه

(١) ج : « كانت » .

يا عبد الرحمن ؛ وإن مِنّا لسيّد الأنصار سعد بن عبادة ، ومنّ أمر الله رسوله أن يقرنه السلام ، وأن يأخذ عنه القرآن أبي بن كعب ، ومنّ يحيى يوم القيامة إمام العلماء معاذ بن جبل ، ومنّ أمّى رسول الله صلى الله عليه وسلم شهادته بشهادة رجلين خزّعة ابن ثابت ؛ وإنا لنعلم أنّ ممن سميت من قريش من لو طلب هذا الأمر لم يثارعه فيه أحد ؛ على بن أبي طالب .

قال الزبير : فلما كان من المد قام أبو بكر فخطب الناس وقال :

أيّها الناس ؛ إني وليت أمركم وليت بخيركم ، فإذا أحسنت فأعينوني ؛ وإن أسأت فتوموني ؛ إن لي شيطاناً يعتريني ؛ غيبتاكم وإيتاي إذا غصبت ؛ لا أوترق أشارككم وأبشاركم الصدق أمانة ، والكذب حيانة ، والضعيف منكم قوي حتى أردّ إليه حقه ، والقوي ضيف حتى آخذ الحق منه . إني لا يدع قوم الجهاد إلا ضربهم الله بالقلل ، ولا تشيع في قوم الفاحشة إلا أهملهم الله ؛ أطيعوني ما أطيع الله ، فإذا عصيت فلا طاعة لي عليكم . قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله .

قال ابن أبي حبة القرشي :

شكراً لمن هو بالثناء حقيق	ذهب القجاج وبوبع العديق
من بعد ما زلت سمع نعله	ورجا رجاء دونه العيوق
حفت به الأنصار عاصب رأيه	فأنام الصديق والفاروق
وأبو عبيدة والدين إليهم	نفس التوكل للقاء تنوق ^(١)
كنا قول : لما على والرضا	عمر وأولام بذاك عتيق
فدعت قريش باسمه فأجابها	إن المنوء باسمه الوثوق

قل للالى طلبوا الخلافة زلة لم يحط مثل خطاهم مخلوق
إن الخلافة في قريش مالكم فيها - ورب محمد - معزوق

•••

وروى الزبير بن بكار ، قال : روى محمد بن إسحاق أن أبا بكر لما يبيع اقتضت
تيم بن مرة - قال : وكان عامة المهاجرين وجل الأنصار لا يشكون أن عليا هو صاحب
الأمر بعد رسول الله ، صلى الله عليه وآله - فقال المنفل بن العباس : يا معشر قريش ،
وخصوصا يا بني تيم ، إنكم إنما أخذتم الخلافة بالنبوة ، ونحن أهلها دونكم ، ولو
طلبنا هذا الأمر الذي نحن أهله لكنا كراهة الناس لنا أعظم من كراهتهم لغيرنا ؟
حدا منهم لنا ، وحيدا علينا ، وإنا نعلم أن عبد صاحبنا عهدا هو ينتهي إليه .

وقال بعض وفد أبي لب بن عبد المطلب بن هاشم شعرا :

ما كنت أحيب أن الأمر منصرف
عن هاشم ثم منها عن أبي حسن
أليس أول من صلى لقبلكم
وأعلم الناس بالقرآن والسنن
وأقرب الناس عهدا بالنبى ومن
جبريل عون له في النسل والكفن
ما فيه ما فيهم لا يمترون به
وليس في القوم ما فيه من الحسن
ماذا الذى ردكم عنه فنتله
ها إن ذا غبتنا من أعظم النبين

قال الزبير . فبعث إليه على فهاء وأمره ألا يعود ، وقال : سلامة الله من أحب إلينا

من غيره .

قال الزبير : وكان خالد بن الوليد شيعاً لأبي بكر ، ومن المتعرفين عن علي ، قام خطيباً ، فقال : أيها الناس ، إنا رُسينا في بدء هذا الدين بأمر تَقُل علينا - والله - محله ، ومصُب علينا مُرتقاه ؛ وكُنّا كائنًا فيه على أوتار ؛ ثم والله ما لبثنا أن خَفَّ علينا ثقله ، وذل لنا صَغْبُه ، وهَجَبْنَا من شِكِّ فيه بعد هَجَبِنَا من آمِن به ؛ حتى أَمِرنا بما كُنّا نَهْتِي عنه ، ونُهِينَا عما كُنّا نَأْمُر به ؛ ولا والله ما سُبِقْنَا إليه بالعقول ؛ ولكن التوفيق . ألا وإن الوحي لم يَنْقُطْ حتى أحْكَمْ ؛ ولم يذهب النبي صلى الله عليه وسلم فَنَسْتَبْدِلَ بعده نبياً ؛ ولا بعد الوحي وحياً ؛ ونحن اليوم أكثر مِنَّا أمس ، ونحن أمس خيرٌ مِنَّا اليوم ؛ مَنْ دَخَلَ في هذا الدين كان ثوابه على حَسَبِ عمله ، وَمَنْ تركه رَدِمَاهُ إليه ، وإياه والله ماصاحب الأمر - يعني أبا بكر - بالثول عنه ، ولا اختلف فيه ، ولا اختلف الشخص ، ولا للمموز القنائة .



فصحب الناس من كلامه . ويُدعى حَزَن بن أبي وهب الخزومي ؛ وهو الذي سَمَّاه رسول الله صلى الله عليه وآله « سَمَلاً » ، وهو جد سعيد بن المسيب العنقي ، وقال :

وَقَامَتْ رِجَالٌ مِنْ قُرَيْشٍ كَثِيرَةٌ	فَلَمْ يَلِكْ مِنْهُمْ فِي الرِّجَالِ كَعْدٌ
تَرَقَّى ظِلُّ بَزَاقٍ بِهِ صَدْرُ صُلَّةٍ	وَكَفَتْ ظِلُّ يَمْضِي لَتَلِكِ الْأَوَابِدِ
فَجَاءَ بِهَا هَرَاءٌ كَالْبَدْرِ ضَوْعُهَا	فَسَمِيَتْهَا فِي الْحُسْنِ أُمُّ الْقَلَائِدِ
أَخَاهُ لَا تَعْدَمُ لَوَيٌّْ مِنْ غَالِرِ	فَيَأْمِكُ فِيهَا عِنْدَ قَذْفِ الْجَلَامِدِ
كَسَاكَ الْوَلِيدُ بْنُ الْعَمِيرةِ مَحْدَه	وَعَلَمَكَ الْأَشْيَاحُ ضَرْبَ الْقَمَاحِدِ ^(١)
تَقَارَعُ فِي الْإِسْلَامِ عَنْ مَكَلِّ دِينِهِ	وَفِي الشَّرِكِ عَنْ أَحْسَابِ جَدِّ وَوَالِدِ

(١) القماحد : جمع قعوده ؛ وهي الهمة الناشئة من قوى القما .

وكنْتَ لخرُوم بن يَظلة جَنَّةً يمدك فيها ماجداً وابنَ ماجدٍ
إذا ماسمأى حرَّيها ألفُ فارسٍ هَدَلْتُ بِألفٍ عندَ تلكَ الشدائدِ
ومن بَكَ في الحربِ الثيرةَ واحداً فأنت في الحربِ العَوَّانِ بواحدٍ
إذا ناب أمرٌ في قريشٍ محلجٌ تشيب له رُؤسُ النصارى النواهدِ^(١)
توأتيت منه ما يُخافُ وإن تَنَبَّ يقولوا جميعاً : حَفَلْنَا غيرَ شاهدٍ

قال الزبير : وحدثنا محمد بن موسى الأنصاري المعروف بان عكرمة ، قال : حدثني إبراهيم بن سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف الزهري ، قال : لما بُوع أبو بكر واستقرَّ أمرُهُ ، نَدِم قوم كثير من الأنصار على بيعته ، ولام بعضهم بعضاً ، وذكروا علي ابن أبي طالب ، وهتفوا باسمه ؛ وإنه في ذلك لم يخرج إليهم ، وجزع ذلك المهاجرون ، وكثُر في ذلك الكلام .

وكان أشدَّ قريش على الأنصار سرًّا فيهم ؛ وهم سهيل بن عمرو ؛ أحد بني عامر ابن لؤي ، والحارث بن هشام ، وعكرمة بن أبي جهل المخزوميان ؛ وهؤلاء أشرف قريش الذين حاربوا النبي صلى الله عليه وآله ، ثم دخلوا في الإسلام ، وكلهم موتورٌ قد وترَهُ الأنصار . أما سهيل بن عمرو فأسره مالك بن النخشم يوم بدر ، وأما الحارث ابن هشام ، فضربه عروة بن عمرو ، فخرجه يوم بدر ؛ وهو فارٌّ عن أخيه . وأما عكرمة ابن أبي جهل ، قُتِل أباه ابناً عَفْراء ، وسلبه دِرْعُه يوم بدر زيادُ بن لبيد ، وفي أنفسهم ذلك .

فلما اعترلت الأنصار تجمع هؤلاء ، فقام سهيل بن عمرو فقال : يا معشر قريش ؛ إن هؤلاء القوم قد ستمَّاهم الله الأنصار ، وأثنى عليهم في القرآن ؛ فلمهم بذلك حظٌّ عظيم ؛ وشأنٌ غالب ؛ وقد دَعَوْا إلى أنفسهم وإلى علي بن أبي طالب ؛ وعلى

(١) رؤس : جم رأس ، مثل رؤس .

في بيته لو شاء لردّهم ؛ فادعواهم إلى صاحبكم وإلى تحديد بيعته ؛ فإن أجابوكم وإلا فقاتلوهم ؛
فوالله إني لأرجو الله أن ينصرّكم عليهم كما يُصِرّتم بهم .

ثم قام الحارث بن هشام ، فقال : إن تكن الأنصارُ تبواتِ الدارَ والإيمانَ مِن قَبْلِ ،
وقتلوا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم إلى دررهم من دررنا ، فأووا ونصروا ، ثم مارضوا حق
قاسمونا الأموال ^(١) ، وكفرونا العمل ؛ فبهم قد أخرجوا بأمرٍ إن شئوا عليه ، فبهم قد خرجوا بما
وُصّوا به ؛ وليس بيننا وبينهم معانبة إلا التيف ؛ وإن نزعوا عنه فقد فعلوا الأولى بهم
والظنون معهم .

ثم قام عكرمة بن أبي جهل ، فقال : والله لاقولُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم : « الأئمة
من قريش » ، ما أسكرنا إمرة الأنصار ، ولكانوا لها أهلاً ، ولكنه قولٌ لاشك فيه
ولا خيار ، وقد جعلت الأنصار علينا ، والله ما قضينا عليهم الأمر ولا أخرجناهم من الشورى ؛
وإن القديهم فيه من فلتات الأمور ونزغات الشيطان ^(٢) ، وما لا يلبسنا ، ولا يحمله الأمل .
أعذروا إلى القوم ، فإن أبوا فقاتلوهم ؛ فواقعوا لم يفر من قريش كلها إلا رجل واحد لصير
الله هذا الأمر فيه .

قال : وحضر أبو سفيان بن حرب ، فقال :
يا معشر قريش ، إنه ليس للأنصار أن يفتصلوا على الناس حتى يُقرّوا بفضلنا عليهم ،
فإن تفصلوا فحسبنا حيث انتهى بها ، وإلا فحسبهم حيث انتهى بهم . وإيهم الله أن يعطروا
المعيشة ، وكفروا النعمة ، لنصرتهم على الإسلام كما ضرّ بوا عليه ، فأما علي بن أبي طالب
فأهل والله أن يسود على قريش ، ونطيعه الأنصار .

فلما بلغ الأنصار قول هؤلاء الرهط قام حطيهم ثابت بن قيس بن شماس فقال :
يا معشر الأنصار ، إنما يكبرُ عليكم هذا القول لو قاله أهل الدين من قريش ؛ فأما
إذا كان من أهل الدنيا ، لاسيا من أقوام كلهم موتور ؛ فلا يكبرن عليكم ؛ إنما الرأي

(١) كذا في ج ، ول ، أ ، ب : « الأمور » .

والقول مع الأخيار المهاجرين ؛ فإن تكلمت رجال قريش ؛ والذين هم أهل الآخرة مثل كلام هؤلاء ؛ فعند ذلك قولوا ما أحببتم وإلا فأمسكوا .

وقال حسان بن ثابت يذكر ذلك :

تَنَادَى سُهَيْلٌ وَابْنُ حَرْبٍ وَحَارِثُ	وَعِكْرِمَةُ الثَّانِي لَمَّا ابْنُ أَبِي جَهْلٍ
قَتَلْنَا أَبَاهُ وَانْتَرَعْنَا سِلَاحَهُ	فَأَصْبَحَ بِالْبَطْحَاءِ أَذْلٌ مِنَ النَّمْلِ
فَأَمَّا سُهَيْلٌ فَاحْتَوَاهُ ابْنُ دَخْشَمٍ	أَسِيرًا ذَلِيلًا لَا يُمِرُّ وَلَا يُحْمِلُ
وَصَغْرُ بْنُ حَرْبٍ قَدْ قَتَلْنَا رَجُلَهُ	فَدَاةَ لَوْ لَا بَذَرَ فَمَرَجَلَهُ بِفُلِي
وَرَاكُضُنَا نَحْتَهُ لِلْمَعَاجَةِ حَارِثُ	عَلَى طَهْرٍ جَزْدَاهُ كَبَاسِقَةِ الْمُخْلِ
يَقْبَلُهُمَا طَوْرًا وَطَوْرًا يَحْمِلُهَا	وَيُعْدِلُهَا بِالنَّفْسِ وَالسَّلَالِ وَالْأَهْلِ
أُولَئِكَ رَحِمْتَ مِنْ قُرَيْشٍ قَبَائِمُهَا	عَلَى خُطَّةٍ لَيْسَتْ مِنَ الْخُلُوطِ الْفُضْلِ
وَأَحْبَبُ مِنْهُمْ قَالُوا ذَاكَ مِنْهُمْ	كَأَنَّا اشْتَمَلْنَا مِنْ قُرَيْشٍ عَلَى دَخْلٍ
وَكَلَّمَهُ ثَلَاثٌ مِنَ الْحَقِّ عِطْفُهُ	يَقُولُ اقْتُلُوا الْأَنْصَارَ يَا بَنِي عَمَلٍ
نَصَرْنَا وَأَوْيَيْنَا النَّبِيَّ وَلَمْ نَحْفَ	صُرُوفَ اللَّيَالِ وَالْبَلَاءِ عَلَى رَجُلٍ
بَذَلْنَا لَهُمُ أَنْصَافَ مَا أَكْفَنَّا	كَقَسَمَةِ أَسَارِ الْجَزُورِ مِنَ الْفَضْلِ
وَمِنْ بَعْدِ ذَاكَ لِلَّالِ أَنْصَافُ دُورِنَا	وَكُنَّا أَمَامًا لَا نَعِيرُ بِالْبُخْسِ
وَنَحْيَى ذِمَارَ الْحَيِّ فَهَرَبَ بَنُ مَالِكٍ	وَنَوَقَدَ نَارَ الْحَرْبِ بِالْحَطَبِ الْجَزْلِ
فَكَانَ جَزَاءُ الْفَضِيلِ مَنَّا عَلَيْهِمْ	جَهَالَتِهِمْ حَقًّا وَمَا ذَاكَ بِالْعَدْلِ

فباغ شمرُ حسان قريشاً ، فنضبوا وأمروا ابن أبي عزة شاعرهم أن يحبيه ، فقال :

مَعَشَرَ الْأَنْصَارِ خَافُوا رَبَّكُمْ	وَاسْتَعْبَدُوا اللَّهَ مِنْ شَرِّ الْفِتَنِ
إِنِّي أَرْهَبُ حَرْبًا لَا حِمَا	بَشَرَقِ الْمَرْضَعُ فِيهَا بِاللَّيْنِ
جَرَّهَا سَعْدٌ وَسَعْدٌ فِتْنَةٌ	لَيْتَ سَعْدَ بْنَ عِبَادٍ لَمْ يَسْكُنْ
خَلْفَ بَرَهَوْتٍ خَفِيَا شَخْصُهُ ^(١)	بَيْنَ بَصْرَى ذِي رُعَيْنٍ وَجَدَنَ

(١) برهوت : واد باليمن .

ليس ما قدر سعد كائناً ما جرى البحر وما دام حَضَنُ (١)
 ليس بالقاطع مِنّا شعرة كيف يُرجى خير أمرٍ لم يَحِنْ !
 ليس بالمديك منها أبداً غير أضاعثِ أمانى الوَسَنِ

•••

قال الرُّبَيْرُ : لما اجتمع جمهور الناس لأبي بكر أكرمت قريش ممن بن عدى وعويم
 ابن ساعدة ؛ وكان لها فضلٌ قديم في الإسلام ؛ فاجتمعت الأنصار لها في مجلس ودعواهما ،
 فلما أحضرا أقبلت الأنصار عليهما فعبّروهما باطلاقهما إلى المهاجرين ، وأكبروا فعلهما
 في ذلك ؛ فتكلم ممن ، فقال :

يا معشر الأنصار إن الذي أراد الله بكم خيراً مما أردتم بأنفسكم ، وقد كاذبكم
 أمرٌ عظيم البلاء ، وصغرت العاقبة ؛ لو كان لكم على قريش ما لقريش عليكم ، ثم أردنهم
 لِمَا أرادوكم به لم آمن عليهم منكم مثل ما آمن عليكم منهم ؛ فإن تعرفوا الخطأ قد
 خرجتم منه وإلا فأنتم فيه .

قلت . قوله : « وقد كان منكم أمر عظيم البلاء ، وصغرت العاقبة » بدخ عاقبة الكف
 والإساءة ؛ يقول : قد كان منكم أمر عظيم ؛ وهو دعوى الخلافة لأنفسكم ؛ وإنما جعل
 البلاء معظماً له ، لأنه لو لم يتعقبه الإساءة ؛ لأحدث فتنة عظيمة ؛ وإنما صغره سكونهم
 ورجوعهم إلى بيعة المهاجرين .

وقوله : « وكان لكم على قريش ... » إلى آخر الكلام ، معناه : لو كان لكم الفضل
 على قريش كفضل قريش عليكم ، وادّعت قريش الخلافة لها ، ثم أردتم منهم الرجوع عن
 دعواهم ، وسبرت بينكم وبينهم من المنازعة مثل هذه المنازعة التي جرت الآن بينكم لم آمن عليهم
 منكم أن تقتلهم ؛ وتقدّموا على سفك دمائهم ؛ ولم يحصل لي من سكون النفس إلى
 (١) حَضَنُ : جبل بأهل نجد .

حلّكم عنهم وصبركم عليهم مثل ما أنا آمن بكم منهم ، فإنهم صبروا وحلّوا ، ولم يقدموا على استباحة حربكم والدخول في دمائكم .



قال الزبير : ثم تكلم عويم بن ساعدة ، فقال : يا معشر الأنصار ؛ إن من نعم الله عليكم أنه تعالى لم يردّكم ما أردتم بأنفسكم ، فاحملوا الله على حسن البلاء ، وطول العافية ، وصرف هذه البلية عنكم ، وقد نظرت في أول فتنةكم وآخرها فوجدتها جاءت من الأمانى والحد ؛ واحذروا التّمّ ؛ فوددت أن الله صير إليكم هذا الأمر محقه فكنا نعيش فيه .

فوثبت عليهما الأنصار ؛ فأغلظوا لها ، وغشوا عليها ، وانبرى لها فروة بن عمرو ، فقال : أنسيما قولكما لقريش : « إنا قد خلقنا رءاءاً قوماً قد حلت دماؤهم بفتنتهم » ! هذا والله ما لا يفخر ولا يبس ؛ قد تمردت الحية عن وجهها وسمها في^(١) منابها . فقال معن في ذلك :

وقالت لي الأنصار إنك لم نصّب	قلت : أمالي في الكلام نصيب !
فقالوا : بلى قل ما بدا لك راشداً	قلت ومثلي بالجواب طيب
تركعكم والله لنا رأيكم	ثبوا لها بالمرتين نيب ^(٢)
تنادون بالأمر الذي النجم دونه	ألا كل شيء ما سواه قريب
قلت لكم قول الشفيق عليكم	وقلّبت من خوف البلاء وجيب
دعوا الرّكص وانثوا من أعتة بغيكم	ودبوا فيز القاصدين ديب
وخلّوا قريشاً والأمور وبابموا	لمن بابموا ترشّدوا ونصيبوا

(١) ج : « فيها » .

(٢) النيب : صياح النمس عند الحاج ؛ ومنه قول عمر لوفد أهل الكوفة حين شكوا سعداً إليه : « ليكلسي بضعكم ولا تلبوا عندي نيب النبوس » .

أراكم أخذتم حَقَّكم بأكفكم
فلما أيتم زلت عنكم إليهم
فإن كان هذا الأمر ذنباً إليكم
فلا تبغثوا مني الكلام فإني
وإن لم يسلوا تعترفوا مرارة
لكل امرئ عندى الذى هو أهله
وقال عويم بن ساعدة فى ذلك :

وقالت لى الأنصار أضفاف قولهم
قلت : دعوني لا أبا لأبيكم
أنا صاحب القول الذى نعرفونه
فإن نكثوا أسكت وفى الصمت راحة
وما لمت نفسى فى الخلاف عليكم
أريد بذلك الله لا شئ غيره
وما لى ربحتم فى قريش قريصة
ولكنهم قوم علينا أئمة
وكان أحق الناس أن تقنموا به
لأن أخف الناس فباً بركم
لمن ، وذاك القول جهل من الجهل
فإن أحوكم صاحب الخطر الفصل (١)
أفطخ أخاص الرجال على مهل
وإن تطعموا أصمت مقالكم تبلى
وإن كنتم متعجبين على عذلى
وما عند رب الناس من درج الفضل
ولا دارها دارى ولا أصلها أصلي
أدين لهم ما أنفذت قدى نعلي
ويحتلوا من جاء فى قوله مثلي
وفيا بؤه لا أمير ولا أحلي

قال قروة بن عمر - وكان ممن تخلف عن بيعة أبى بكر ، وكان ممن جاهد مع

(١) الأجاج : الماء اللجج شديد اللوحة . والعروب : الماء دون المدن يصلح العرب من مرض كراهة .

(٢) ب : « الحلة الفصل » .

رسول الله، وقاد فرسين في سبيل الله؛ وكان يتصدق من غنله بألف وسق في كل عام؛ وكان سيداً؛ وهو من أصحاب علي؛ وممن شهد معه يوم الجمل. قال : فذكر معنًا وعويمًا، وعاتبهما على قولهما : « خلفنا وراءنا قوما قد حلت دماؤهم بفتنتهم » :

أَلَا قُلْ لِمَنِ إِذَا جُدَّتْهُ وَذَلِكَ الَّذِي شِيعَهُ سَاعِدَةٌ
بِأَنَّ الْقَالَ الَّذِي قُلْنَا حَافِيفٌ عَلَيْنَا سِوَى وَاحِدَةٍ
مَقَالِكُمْ : إِنْ مَنْ حَتَمْنَا مِرَاضٌ قُلُوبِهِمْ فَاسِدَةٌ
حِلَالُ الدَّمَاءِ عَلَى فَخْرٍ فَيَأْتِيهَا رَبَّتِ الْوَالِدَةُ
فَلَمْ تَأْخُذْ قَدْرَ أَمَانِهَا وَلَمْ تَسْتَفِيدِهَا هَا قَائِدَةٌ
لَقَسِدَ كَذَبُ اللَّهِ مَا قُنْنَا وَقَدْ يَكْذِبُ الرَّائِدُ الْوَاعِدَةُ^(١)



قال الريير : ثم إن الأنصار أصحوا بين يدين الرجلين وبين أصحابهما؛ ثم اجتمعت جماعة من قريش يوماً وفيهم ماس من الأنصار وأحلاط^(٢) من المهاجرين ؛ وذلك بعد انصراف الأنصار عن رأيها وسكون الفتنة ؛ فاتفق ذلك عند قدوم عمرو بن العاص من سفر كان فيه ، فغاء إليهم ، فأفاضوا في ذكر يوم السقيفة وسعد ودعواه الأمر ، فقال عمرو بن العاص : والله لقد دفع الله عنا من الأنصار عظيمة ، ولما دفع الله عنهم أعظم ، كادوا والله أن يحلوا جبل الإسلام كما قاتلوا عليه ، ويخرجوا منه من أدخلوا فيه ، والله لأن كانوا سمعوا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الأئمة من قريش » ، ثم ادعوا لها لقد هلكوا وأهلكوا ، وإن كانوا لم يسمعوها فها هم كالمهاجرين ، ولا - كأي بكر ، ولا للدينه

(١) يقال : سحاب واعد ؛ أي التي بعد الحضر ؛ ومؤنثه « واعد » .

(٢) الأخلاط : القوم المختلطون .

كمكة، ولقد قاتلونا أمس فملبونا على البدء ، ولو قاتلناهم اليوم لملبناهم على العاقبة ؛ فلم يحبه أحد ، وانصرف إلى منزله وقد غفر ، فقال :

وَقُلْ كَلَّمَا جِئْتَ لِلْخِزْرِجِ	أَلَا قُلْ لَأُؤْمِي إِذَا جِئَهَا
فَأَنْزَلْتُ الْقَيْدَ لَمْ تَنْصَحْ	تَمَيِّمٌ لِلَّكْ فِي يَدِي
وَأَهْبَيْتَ بَذَا لِمَجَلِّ الْخُدَجِ ^(١)	وَأَخَذَجْتُمُ الْأَمْرَ قَبْلَ التَّمَامِ
رَ وَلَمْ تَلْقَحُوهُ فَلَمْ يُنْتَجِ	تُرِيدُونَ تَنْتِجَ الْخِيَالِ الْعِشَا
وَلَوْ لَمْ يَهْبِعُوهُ لَمْ يَهْتَجِ	تَحِيَّتُ لِمَسْدٍ وَأَصْحَابِهِ
وَقَدْ يَخْلِفُ لِلرَّءِ مَا يَرْتَجِي	رَجَا الْخِزْرِجِي رَجَاءَ الشَّرَابِ
نَكَمَرٍ يَقْطَعُهَا أَهْوَجِ	فَكَانَ كَمَنْعٍ عَلَى كَمَةٍ

فلما بلغ الأنصار مقاتته وشعر^(٢) ، بعثوا إليه^(٣) إياهم وشاعرهم النعمان بن المعلان . وكان رجلاً أحمر قصيراً ، زردية اللون ، وكان سيداً نجماً . فأتى عمراً وهو في جماعة من قريش ، فقال : والله يا عمرو ما أكرهتم من حربنا إلا ما كرهنا من حركم ، وما كان الله ليخرجكم من الإسلام بمن أدخلكم فيه ؛ إن كان النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الأئمة من قريش » ، فقد قال : « لو سلك الناس شيعاء ، وسلك الأنصار شيعاء ، أسلكت شيعب الأنصار » ، والله ما أخرجناكم من الأمر إذ قلنا : منا أمير ومنكم أمير ، وأما من ذكرت ، فأبو بكر أمري خير من سئد ، لكن سعداً في الأنصار أطوع من أبي بكر في قريش ، فأما المهاجرون والأنصار ، فلا فرق بينهم أبداً ، ولكنك يا ابن العاص ، وتترت بني عبد مناف بمسيرك إلى الحبشة لقتل جعفر وأصحابه ، وتترت بني محزوم بإهلاك عمارة ابن الوليد . ثم انصرف فقال :

(١) يقال : أخذج الأمر ؛ إذا لم يحكه ، وأخذج : الناص .

فَقُلْ قَرِيشُ نَحْنُ أَهْبَابُ مَكَّةَ
وَأَهْبَابُ أَحَدٍ وَالنَّضِيرُ وَخَيْرُ
وَيَوْمَ بَارِضِ الشَّامِ أَدْخِلْ جَعْفَرَ
وَفِي كُلِّ يَوْمٍ يَنْكُرُ الْكَلْبُ أَهْلَهُ
وَنَضْرِبُ فِي قَعِّ الْمَعَاجَةِ أَرْوَاحًا
نَضْرِبُهَا وَأَوْبِنَا النَّبِيَّ وَلَمْ نَحْفَظْ
وَقُلْنَا لِقَوْمٍ هَاجَرُوا قَبْلُ: مَرْحَبًا
فَقَسَمْنَا أَمْوَالَنَا وَيَوْمَ نَسَا
وَنَكْفِيكُمْ الْأَمْرَ الَّذِي تَكْرَهُونَهُ
وَقُلْنَا: حَرَامٌ نَصَبُ سِدُونِ نَصَبِكُمْ
وَأَهْلُ أَبِي بَكْرٍ لَهَا خَيْرٌ قَائِمٌ
وَكَانَ حَوَانًا فِي عِلَى وَهَابٍ
فَذَلِكَ يَوْمَ أَفْعَى يَدْعُو إِلَى الْهَدْيِ
وَمَنْ النَّبِيُّ الْمُسْطَقَى وَابْنُ عَمَةٍ
وَهَذَا بِحَمْدِ اللَّهِ يَهْدِي مِنَ الْعَمَى
يَجِي رَسُولُ اللَّهِ فِي الْمَارِ وَحْدَهُ
فَلَوْلَا اتِّقَاءُ اللَّهِ لَمْ تَذْهَبُوا بِهَا
وَلَمْ تَرْضَ إِلَّا بِالرَّضَا وَلَرَبَّمَا

وَيَوْمَ حَنْبِنٍ وَالْفَوَارِسُ فِي بَذَرٍ
وَمَنْ رَجَعْنَا مِنْ قَرْيَظَةٍ بِاللَّذْكَرِ
وَزَيْدٌ وَعَبْدُ اللَّهِ فِي عِلْقَى يَجْزِي (١)
نَطَامِنُ فِيهِ بِالْمُتَقَقَّةِ السُّمْرِ
يَبِيضُ كَأَمْثَالِ الْبُرُوقِ إِذَا تَسْرَى
صُرُوفُ الْيَلَالِي وَالْمُظْهِمِ مِنَ الْأَمْرِ
وَأَهْلًا وَبَهْلًا، قَدْ أَهْنَمَ مِنَ الْفَقْرِ
كَقِسْمَةِ أَيْسَارِ الْجَزُورِ عَلَى الشُّطْرِ
وَكَيْتُ أَنَا لَأَنْذِرُ هِبَ الْمَسْرِ بِالْيُسْرِ
عَتِيقَ بْنِ عِمَانٍ - حَلَالٌ - أَبَا بَكْرٍ
وَأَنْ هَلِيمٌ كَانَ أَحْلَقَ بِالْأَمْرِ
لَأَهْلٌ لَهَا بِأَعْرُوسٍ مِنْ حَيْثُ لَا تَدْرِي
وَبِهِ عَنِ الْقَحْشَاءِ وَالنَّعْيِ وَالشُّكْرِ
وَقَاتِلُ فَرَسَانَ الصَّلَاةِ وَالْكَفْرِ
وَيَفْتَحُ آدَامًا ثَقُلْنَ مِنَ الْوَهْمِ
وَصَاحِبُهُ الصَّدِّيقُ فِي سَائِلِ الدَّهْرِ
وَلَكِنْ هَذَا الْخَيْرُ أَجْمَعُ لِلصَّبْرِ
ضَرَبْنَا بِأَيْدِينَا إِلَى أَسْفَلِ الْقَدْرِ

قلنا انتهى شعر النعمان وكلامه إلى قريش ، غضب كثير منها ، وأنتى ذلك قدوم خالد
ابن سعيد بن العاص من اليمن وكان رسول الله استعمله عليها ، وكان له ولأخيه أثر قديم

(١) الملقى : القدم ، وفي : ب : « في طلق » وما أتته من ج والاستجاب .

عظيم في الإسلام ؛ وهما من أول من أسلم من قريش ؛ ولهما عبادتة موقّض. فمصبب للأَنْصار،
 وشتم عمرو بن العاص ، وقال : يا معشر قريش ؛ إنَّ عمرأ دحل في الإسلام حين لم يحذ
 بدأ من الدخول فيه ، فلما لم يستطع أن يكيدَه بيده كاده بلسانه ، وإنَّ من كيدِه
 الإسلام تفريقه وقطعه بين المهاجرين والأنصار . والله ما حاربناهم للدين ولا للدنيا ؛ لقد
 بذلوا دماءهم لله تعالى فيما ؛ وما بذلنا دماءنا فيهم ؛ وقاسمونا ديارهم وأموالهم ، وما فعلنا
 مثل ذلك بهم ، وآثرونا على القرى ، وحرّمهم على المعى ، ولقد وصّى رسولُ الله بهم ،
 وعزّاهم عن جفوة السلطان ؛ فأعوذ بالله أن أكونَ وإياكم الخلف للضيّع ، والسلطان
 الجاني ١

قلت : هذا خالد بن سعيد بن العاص ؛ هو الذي امتنع من بيعة أبي بكر ، وقال :
 لا أبايع إلا علياً ، وقد ذكرنا حبره فيما تقدم .
 وأما قوله في الأنصار : « وعزّاهم عن جفوة السلطان » فإشارة إلى قول النبي صلى الله
 عليه وآله : « ستلقون بعدى أثره ، فاصبروا حتى تقدّموا على الخوض » ؛ وهذا الخبر
 هو الذي بكفر كثير من أصحابنا معاوية بالاستهزاء به ، وذلك أن النعمان بن بشير الأنصاري
 جاء في جماعة من الأنصار إلى معاوية ، وشكوا إليه قهرهم ، وقالوا : لقد صدق رسول الله
 صلى الله عليه وسلم في قوله لنا : « ستلقون بعدى أثره » ، فقد لقيناها . قال معاوية : فإذا
 قال لكم ؟ قالوا : قال لنا « فاصبروا حتى تردوا على الخوض » ، قال : فافعلوا ما أمركم به
 عماكم تلاقونه غدا عند الخوض كما أخبركم ؛ وحرّمهم ولم يعطهم شيئاً .

قال الزبير : وقال خالد بن سعيد بن العاص في ذلك :

تفوّه عمرو بالذي لا نريدُه ومصرح للأَنْصار عن شناعة النّفسِ
 فإن تَكُن الأَصار زَلّتْ فإنّا نُقِيلُ ولا نجزيهمُ بالقرَضِ

فلا تقطعن^١ يا عمرو ما كان بيننا ولا تحملن يا عمرو مصاً على بعير
أنتنى لم يا عمرو ما كان منهم ليالى جثام من النفل والعرض
وقسمتنا الأموال كاللحم بالمدى وقسمتنا الأوطان كل^٢ به بقضى
ليالى كل^٣ الناس بالكفر جبهة يقال علينا ، محمون على النقص
فساؤوا وآؤوا وانتهينا إلى اللئى وقر^٤ قراراً من الأمن والحضر^(١)

قال الزبير: ثم إن رجالاً من سفهاء قريش ومثیری الفتن منهم ، اجتمعوا إلى هروبن العاص ، فقالوا له : إنك لسان قريش ورجتها في الجاهلية والإسلام ، فلا تدع الأنصار وما قالت ؛ وأكثروا عليه من ذلك ، فراح إلى المسعد ، وفيه ناس من قريش وغيرهم ، فحكم وقال : إن الأنصار ترى نفسها باليس^٥ ، وكهم^٦ الله لوددت أن الله حلى عنا وعهم ، وقضى فيهم وفيما أنا أحب ، ولعن^٧ الذين أفعدنا على أمستنا أحرارهم عن كل مكروه ، وقد مساهم إلى كل محبوب ، حق أموا الخوف ، فلما جاز لم ذلك صغروا حقاً ، ولم يراعوا ما أفلطنا من حقوقهم .

ثم نفت فرأى الفضل بن العباس بن عبد المطلب ، وندم على قوله ، لا تحنولة التي بين وأد عبد المطلب وبين الأنصار ، ولأن الأنصار كانت تعظم علياً ، وتهتف باسمه حينئذ ، فقال الفضل : يا عمرو ، إنه ليس لنا أن سكتهم باسمنا منك ، وليس لنا أن نجيبك ؛ وأبو الحسن شاهد بالمدينة ؛ إلا أن يأمرنا فنعمل .

ثم رجع الفضل إلى على حدثه . فعصب وشتم عمرو . وقال : آذى الله ورسوله ؛ ثم قام فأتى المسعد ، فاجتمع إليه كثير من قريش وتسكلم مفضها ، فقال : يا معشر قريش ، إن حب^٨ الأنصار إيمان ، ومعضهم نفاق ، وقد قصوا ما عليهم ،

(١) كفا في ج ، و ، ا ، ب : « وقرأمرانا » .

وبقي ما عليكم ؛ واذكروا أن الله رغب لبيكم عن مكة ، فنقله إلى المدينة . وكره له قريشا ؛ فنقله إلى الأنصار ، ثم قدمنا عليهم دارهم ، فحاسبونا الأموال ، وكفونا العمل ، فصرنا منهم بين بذل النقي وإيثار الفقير ، ثم حاربنا الناس فوقونا بأنفسهم ؛ وقد أنزل الله تعالى فيهم آية من القرآن ، جمع لهم فيها بين خمس يتم ، فقال : ﴿ وَالَّذِينَ تَتَوَفَّوْا اللَّهَ أَرَأَيْتُمْ أَتَأْتُونَ مِنْ قَبْلِهِمْ يَحْسِبُونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ ^(١) ، ألا وإن عمرو بن العاص قد قام مقاماً آذى فيه لليت والحق ، ساء به الوأتر وسر به الموتور ؛ فاستعق من السمع الجواب ، ومن العائب اللقت ؛ وإياه من أحب الله ورسوله أحب الأنصار ، فليكفف عمرو عتاً نفسه .

قال الزبير : فشت قريش عند ذلك إلى عمرو بن العاص ، فقالوا : أيها الرجل ؛ أما إذا غضب علي فاكفف .

وقال خزيمه بن ثابت الأنصاري يحاطب قريشا :

أَيُّهَا قُرَيْشُ أَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِنَا وَيُسْكُمُ قَدْ طَالَ حَبْلُ التَّحَاكِ ^(٢)

فَلَا خَيْرَ فِيكُمْ بَعْدَنَا فَارْفُقُوا بِنَا وَلَا خَيْرَ فِينَا بَعْدَ قَتَرِ بْنِ مَالِكٍ

كَلَانَا عَلَى الْأَعْدَاءِ كَفَّ طَوْبُهُ إِذَا كَانَ يَوْمٌ فِيهِ جَبُّ الْحَوَارِكِ ^(٣)

فَلَا تَذْكُرُوا مَا كَانَ مِنَّا وَمِنْكُمْ فَنِي ذِكْرِ مَا قَدْ كَانَ مَشَى الْقَسَاوِكِ ^(٤)

قال الزبير : وقال عليّ الفضل : يا فضل ، انصر الأنصار بلسانك ويدك ، فإنهم منك

وإنك منهم ، فقال الفضل :

قُلْتُ يَا عَمْرُو مَقَالًا فَاحْشَا إِنْ نَعُدَّ بِأَعْمُرٍ وَاللَّهِ فَلَكُ

(١) سورة المصم ٩

(٢) التحاك : العاج .

(٣) كناية عن الشدة ؛ والحارك : عظم من الظهر .

(٤) القساوك : الذي الضعيف .

إِنَّمَا الْأَنْصَارُ سَيْفٌ قَاطِعٌ مَنْ نُصِبَ ظُبَّةُ السَّيْفِ هَكَذَا (١)
 وسيفٌ قاطعٌ مَضْرِبُهَا وسهام الله في يوم الحُلَّةِ
 نصرُوا الدِّينَ وَأَوَدُوا أَهْلَهُ منزل رَحْبٍ وَرِزْقٌ مُشْتَرَكٌ
 وَإِذَا الْعَرَبُ نَلَّظَتْ نَارُهَا بَرَكُوا فِيهَا إِذَا الْمَوْتُ بَرَكٌ

ودخل المصل على علي فأسمعه شعره ، ففرح به ، وقال وَرَيْتُ بِكَ زَنَادِي بِأَفْضَلِ !
 أنت شاعر قريش وفتاها ، فأظهر شعرك وأبست به إلى الأنصار ! فلما بلغ ذلك الأنصار ،
 قالت : لا أحد بحبيب إلا حسان العصام ! فمشتوا إلى حسان بن ثابت ، فعرضوا عليه شعر
 الفضل ، فقال : كيف أصنع بحوابه ! إن لم أنحر قوافيه فضحي ، فرويدا حتى أقصوا أثره
 في القوافي ! فقال له خزيمية بن ثابت : اذكر علينا وآله بكيفك من كل شيء ، فقال :

جزى الله عنا والجزاء بكف الْحَسَنُ عَنَّا وَمَنْ كَابَى حَسَنَ
 سبقت قريشا بالذي أنت كاهله فمدرتك شروح ، وقلبك ممتحن
 تمتت رجال من قريش أئمة مكاتك ، هيات الهزال من السمن
 وأنت من الإسلام في كل موطن بمنزلة الدلو البطين من الرسن
 غصبت لنا إداقام عمرؤ بمحبة أملت بها التقوى وأحياسها الإحن
 فكنت المرجى من لؤي بن غالب لما كان منهم ، والذي كان لم يكن
 حفظت رسول الله فينا وعهده إليك ومن أولى به منك من ومن
 ألت أخاه في الهدى ووصيه وأعلم منهم بالكتاب وبالسنن
 فحك مادامت بنجد وشيعة عظيم علينا ثم بعد على اليمن

قال الزبير : وبشت الأنصار بهذا الشعر إلى علي بن أبي طالب ، فخرج إلى المسجد ،

وقال لمن به من قريش وغيرهم . يا معشر قريش ، إن الله جعل الأنصار أنصاراً ، فأنى عليهم في الكتاب ، فلا حيرَ فيكم بعدم ؛ إنه لا يرال سفيه من سفهاء قريش وتره الإسلام ، ودفعه عن الحق ، وأطفا شرفه وفضل غيره عليه ؛ يقوم مقاماً فاحشاً فيذكر الأنصار ؛ فاتقوا الله وارعوا حقهم ، فوالله لو رالوا زلت معهم ؛ لأن رسول الله قال لهم : « أزلو معكم حينما رنتم » ، فقال المسلمون جميعاً : رحمتك الله يا أبا الحسن ! قلت قولاً صادقاً .

قال الزبير : وترك عمرو بن العاص الدمنسة ، وخرج عنها حتى رضى عنه على والمأخرون . قال الزبير : ثم إن الوليد بن عقبة بن أبي معيط - وكان يعض الأنصار ، لأنهم أسروا أباه يوم بدر ، وصروا عقه بين يدي رسول الله - قام يشتم الأنصار ، وذكرهم بالمجتر ، فقال : إن الأنصار كقريش لهم الحق علينا ما لا يراه ، والله لئن كانوا آووا لقد عروا بنا ، ولئن كانوا أسروا لقد مقروا علينا ، والله ما نستطيع مودتهم ، لأنه لا يزال قاتل منهم يذكر دلتنا بمكة ، وعرونا بالمدينة ، ولا يمتكون بديرون موتانا ، ويعيطون أحياءنا ، فإن أجبنهم قالوا : غصت قريش على عاربها ، ولكن قد هون على ذلك منهم حرصهم على الدين أجمع ، واعتدارهم من الدسب اليوم ، ثم قال :

تبادحت الأنصار في الناس باسمها ^(١)	وبدثت في الأزد عمرو بن عامر
وقالوا : أنساً حق عظيم ومينة	على كل باد من مقدر وحاضر
فإن بك للأنصار فصل فلم تنل	بحرمة الأنصار فصل المسماحر
وإن تكن الأنصار آوت وقاسمت	معاشها من جاء قسمة جار
فقد أفسدت ما كان منها بمنها	وما ذاك فصل الأكرمين الأكابر
إذا قل حان وكعب قصيدة	شتم قريش عنيت في المعاشير
وسار بها الرؤساء في كل وجهة	وأعمل فيها كل حفة وحاضر

فهذا لنا من كل صاحب خطبة يقوم بها منكم ومن كل شاعر
وأهل بأن يهجو بكل قصيدة وأهل بأن يرموا ببيل فواقير

قال : ففشا شعره في الناس ، ففضبت الأنصار ، وغضب لها من قريش قوم ، منهم
ضرار بن الخطاب المهرى ، وريد بن الخطاب ، ويزيد بن أبي سفيان ، فبعثوا إلى
الوليد الخاء .

فكلم زيد بن الخطاب ، فقال : يا بن عتبة بن أبي ميط ، أما والله لو كنت من
الفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ،
لأحببت الأنصار ، ولكنت من الخفاء في الإسلام البطأ عنه ، الذين دخلوا فيه بعد أن
ظهر أمر الله وهم كارهون ؛ إنا سلم أنا أتيناكم ونحن قراء ، فأغوتنا ، ثم أصبنا العنى فكفوا
عنا . ولم يردوا شيئاً . فاما دكرهم (ذلة قريش) عكة وعرها بالمدينة ، فكذلك كنا ،
وكذلك قال الله تعالى : ﴿ وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُتْتَصِفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ
يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ ﴾ ^(١) ، فصرنا الله تعالى بهم ، وآوانا إلى مدينتهم .

وأما غضبك لقريش فإنا لا نصر كافراً ، ولا نؤاد ملحداً ولا فاسقا ؛ ولقد قلت وقالوا ،
فقطعتك الخطيب ، وأجلك الشاعر .

وأما دكرك الذي كان بالأمس ، فدع المهاجرين والأنصار ؛ فإنك لست من الستم
في الرضا ، ولا نحن من أيديهم في الغضب .

وتكلم يزيد بن أبي سفيان ، فقال : يا بن عتبة ، الأنصار أحق بالغضب لقتلى أحد ،
فاكفف لساعتك ، فإن من قتل الحق لا يغضب له .

وتكلم ضرار بن الخطاب ، فقال : أما والله لو لا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« الأئمة من قريش » قلنا : الأئمة من الأنصار ، ولكن جاء أمر قلب الرأي ، فافهم
شركتكم أيها الرجل ؛ ولا تكن أمراً سوءاً ، فإن الله لم يفرق بين الأنصار والمهاجرين في الدنيا ،
وكذلك الله لا يفرق بينهم في الآخرة .

وأقبل حسان بن ثابت منضجاً من كلام الوليد بن عتبة وشعره ، فدخل المسجد
وفيه قوم من قريش ، فقال : يا معشر قريش ، إن أعظم ذنبنا إليكم قتلنا كفاركم ، وحايقنا
رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وإن كنتم تنقمون مِنَّا مئة كانت بالأمس ؛ فقد كفى الله
شرها ، هالنا وما لكم ؛ والله ما يمنعنا من قتالكم الجبن ، ولا من جوابكم العي . إنالحى
قال ومقال ؛ ولكنا قلنا : إنها حرب ؛ أولها عار وآخرها ذل ؛ فأغصينا عليها عيوننا ،
وسحبنا ذبولنا ، حتى نرعى وترّوا ، فإن قلتم قلنا ، وإن سكتم سكتمنا .

فلم يجبه أحدٌ من قريش ، ثم سكّت كلٌّ من الفريقين عن صاحبه ، ورضي القوم
أجمعون ، وقطعوا الخلاف والمصيبة .

انتهى ما ذكره الزبير بن بكار في " الموفيات " ونمود الآن إلى ذكر ما أورده
أبو بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهرى في كتاب " المسيفة " .

• • •

قال أبو بكر : حدثني أبو يوسف يعقوب بن شعبة ، عن بجر بن آدم عن رجاله ، عن
سالم بن عبيد ، قال : لما توفى رسول الله وقالت الأنصار : مِنَّا أميرٌ ومنكم أميرٌ ؛ أخذ عمر بن
أبي بكر ، وقال سيفان في عهد واحد ؛ إذا لا يصلحان . ثم قال : مَنْ له هذه الثلاث :
(ثابتي اثنين إذا هما في النار) مَنْ هما ؟ (إذ يقول لصاحبه لا تحزن) ، مَنْ صاحبه ؟
(إن الله ممّن) ^(١) مع مَنْ ؟ ثم بسط يده إلى أبي بكر فبايعه ، فبايعه الناس أحسن بيعة ،
وأجلها .

قال أبو بكر : حدثنا أحمد بن عبد الجبار المصاردى ، عن أبي بكر بن عياش ، عن زيد بن عبد الله ، قال : إن الله تعالى نظر في قلوب العباد ، فوجد قلب محمد عليه الصلاة والسلام خير قلوب العباد ، فاصطفاه لنفسه ، وابتعثه برسالة ، ثم نظر في قلوب الأمم بعد قلبه ، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد ، فجعلهم وزراء نبيه ، يقائلون عن دينه ، فأراى المسلمون حسناً فهو عند الله حسن ، وما راى المسلمون سيئاً فهو عند الله سيئ .

قال أبو بكر بن عياش : وقد راى المسلمون أن يوثقوا بأبى بكر بعد النبي صلى الله عليه وسلم ، فكانت ولايته حسنة .

قال أبو بكر : وحدثنا يعقوب بن شعبة ، قال : لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال الأنصار : « مينا أمير وسلكم أمير » ، قال عمر : أيتها الناس ، أبى بكر بعابى نفساً أن يتقدم قدمين قد هما رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصلاة ارضيك الله لديننا أفلا نرضاك لديننا !

•••

قال أبو بكر : وأخبرنا أبو زيد عمر بن شبة ، قال : حدثني زيد بن يحيى الأنماطى ، قال : حدثنا صخر بن جويرية ، عن عبد الرحمن بن القاسم ، عن أبيه ، قال : أخذ أبو بكر بيد عمر ويد رجل من المهاجرين - يروونه أبا عبيدة - حتى انطلقوا إلى الأنصار ، وقد اجتمعوا عند سمد في سقيفة بني ساعدة ، فقال عمر : قلت لأبى بكر : دعنى أتكلم ، وخشيت جد أبى بكر - وكان ذا جد - فقال أبو بكر لا ، بل أأنا أتكلم ، فإهو والله إلا أن اتهمنا إليهم ، فما كان في نفسى شيء أريد أن أقوله إلا أتى أبو بكر عليه ، فقال لهم :

يا معشر الأنصار ، ما ينكر حاكم مسلم ؛ إنا والله ما أصبنا خيراً قط إلا شركتمونا

فيه ، لقد آوَيْتُمْ ونصرتُمْ ، وآذرتُمْ وواسَيْتُمْ ؛ ولكن قد علمتُمْ أَنَّ العربَ لَا تُقَرِّ ولا تُطِيعُ إِلَّا لِمَرِيٍّ مِنْ قُرَيْشٍ ، هم رَحِمَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، أَوْسَطُ الْعَرَبِ وَشِيعَةُ رَجِيمٍ ، وَأَوْسَطُ النَّاسِ دَاراً ، وَأَعَرَبُ النَّاسِ أَلْسِنَةً ، وَأَصْبَحُ النَّاسُ أَوْجِهاً ؛ وَقَدْ عَرَفْتُمْ بَلَاءَ ابْنِ الْخَطَّابِ فِي الْإِسْلَامِ وَقَدَمَهُ ، هَلَمْ فَلْيَبَايَعُهُ .

قال عمر : بَلْ إِيَّاكَ يَبَايِعُ ، قال عمر : فَكُنْتُ أَوَّلَ النَّاسِ مَدَّ يَدَهُ إِلَى أَبِي بَكْرٍ فَبَايَعَهُ ، إِلَّا رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ أَدْخَلَ يَدَهُ بَيْنَ يَدَيَّ وَبَدَى أَبِي بَكْرٍ فَبَايَعَهُ قَبْلِي . وَوُطِئَ النَّاسُ فَرَّاشَ سَعْدٍ ، فَقِيلَ : قَتَلْتُمْ سَعْدًا . فقال عمر : قَتَلَ اللَّهُ سَعْدًا ؛ فَوُثِبَ رَحْلُ مِنَ الْأَنْصَارِ ، فَقَالَ : أَنَا جَدَّ بَنِي الْحَكَمِ وَالْمَحْكَمِ الْمَرْجَبِ . فَأَخِذَ وَوُطِئَ فِي بَطْنِهِ وَدَسُوا فِيهِ ^(١) التُّرَابَ .



قال أبو بكر : وَحَدَّثَنِي يَمْقُوبٌ ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سَعْدٍ ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ ، عَنْ مَخْتَارِ الْيَمَانِ ؛ عَنْ عِيسَى بْنِ زَيْدٍ ، قَالَ : لَمَّا بُويعَ أَبُو بَكْرٍ جَاءَ أَبُو سَفْيَانَ إِلَى عَلِيٍّ ، فَقَالَ : أَعْلَيْكُمْ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ أَدَلُّ يَتٍ مِنْ قُرَيْشٍ وَأَقْلَبُهَا ؛ أَمَا وَاللَّهِ لَنَنْتَ لَأَمَلَاتُهَا عَلَى أَبِي قَتِيلٍ خَيْلاً وَرَجُلًا ؛ وَلَأَسَدَّتْهَا عَلَيْهِ مِنْ أَقْطَارِهَا ، فَقَالَ عَلِيٌّ : يَا أَبَا سَفْيَانَ ، طَلَمَا كَذَبْتَ الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ ، فَخَضَرْتُمْ شَيْئًا ؛ أَمَّا لَكَ عَائِلَةٌ ؛ فَإِنَّا رَأَيْنَا أَبَا بَكْرٍ لَهَا أَهْلًا .

قال أبو بكر : وَحَدَّثَنَا يَمْقُوبٌ ، عَنْ رَجُلٍ ، قَالَ : لَمَّا بُويعَ أَبُو بَكْرٍ تَخَلَّفَ عَلِيٌّ فَلَمْ يَبَايِعْ ، فَقِيلَ لِأَبِي بَكْرٍ : إِنَّهُ كَرِهَ إِمَارَتَكَ ^(٢) ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ : أَلَا كَرِهْتَ إِمَارَتِي ؟ قَالَ : لَا ، وَلَكِنَّ الْقُرْآنَ حَشَيْتُ أَنْ يُزَادَ فِيهِ ، لَخِفْتُُ أَلَّا أَرْتَدِيَ رِذَاءَهُ حَتَّى أَجْمَعَ ؛ اللَّهُمَّ إِلَّا إِلَى صَلَاةِ الْجُمُعَةِ .

(١) ج : د ه ه .

(٢) ج : د إمرتك .

فقال أبو بكر : لقد أحسنت ، قال : فكتبه عليه الصلاة والسلام كما أنزل ،
بناسخة ومنسوخه .

قال أبو بكر : حدثنا يعقوب ، عن أبي العسر ، عن محمد بن راشد ، عن مكحول ، أن
رسول الله صلى الله عليه وسلم استعمل خالد بن سعيد بن العاص على عمل ، فقدم بمداقبض
رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد بايع للناس أبا بكر ، فدعاه إلى البيعة ، فأبى ، فقال عمر :
دعني وإياه ، فنهى أبو بكر حتى مضت عليه سنة ، ثم مرّ به أبو بكر وهو جالس على بابه
فدعاه خالد يا أبا بكر ؛ هل لك في البيعة ؟ قال : نعم ، قال : فاذن ، فدما منه ، فبايعه خالد
وهو قاعد على بابه .

قال أبو بكر : وحدثنا أبو يوسف يعقوب بن شيبة ، عن خالد بن مخلد ، عن يحيى
ابن عمر ، قال . حدثني أبو جعفر الباقر ، قال جاء أعرابي إلى أبي بكر على عهد رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، وقال له : أوصني ، فقال : لا تأمر على اثنين . ثم إن الأعرابي شخص
إلى الرّبذة ، فبكمه بعد ذلك وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسأل عن أمر الناس : من
وليه ؟ قيل : أبو بكر ؛ فقدم الأعرابي إلى المدينة ، قال لأبي بكر : ألت أمرتي
ألا أنا تأمر على اثنين ؟ قال : بلى ، قال : فما لك ؟ فقال أبو بكر : لم أجد لها أحداً غيري
أحقّ مني .

قال : ثم رفع أبو جعفر الباقر يديه وخفضهما ، فقال : صدق ، صدق .

قال أبو بكر : وقد روى هذا الخبر برواية أتم من هذه الرواية : حدثنا يعقوب بن
شعبة ، قال : حدثنا يحيى بن حماد ، قال : حدثنا أبو عوانة ، عن سليمان الأحفش ، عن
سليمان بن مبسرة ، عن طارق بن شهاب ، عن رافع بن أبي رافع الطائي ، قال : بعث رسول
الله صلى الله عليه وسلم جيشاً ، فأمر عليهم عمرو بن العاص ، وفيهم أبو بكر وعمر ، وأمرهم

أَنْ يَسْتَغْفِرُوا مَنْ مَرُّوا بِهِ ، فَمَرُّوا عَلَيْنَا فَاسْتَفْرَوْنَا ، فَغَفَرْنَا مَعَهُمْ فِي غَزَاةٍ ذَاتِ السَّلَاسِلِ .
 — وَهِيَ الَّتِي تَفْخَرُ بِهَا أَهْلُ الشَّامِ ، فَيَقُولُونَ : اسْتَعْمَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَمْرُو
 ابْنَ الْعَاصِ عَلَى جَيْشٍ فِيهِ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ . قُلْتُ : فَقُلْتُ : وَاللَّهِ لَا أُخْتَارُ فِي هَذِهِ الْقِرَاةِ
 لِنَفْسِي رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَسْتَهْدِيهِ ، فَإِنِ لَسْتُ أَسْتَطِيعُ إِيْتِيَانَهُ
 لِلدِّينَةِ ؛ فَاخْتَرْتُ أَبَا بَكْرٍ وَلَمْ آلْ ؛ وَكَانَ لَهُ كِسَاءٌ ، فَذَكَرْتُ يُخَذُّهُ ^(١) عَلَيْهِ إِذَا رَكِبَ ،
 وَيَلْبِسُهُ إِذَا نَزَلَ ؛ وَهُوَ الْقَدِيُّ عَيْتَرُهُ بِهِ هُوَ زَانٌ بَعْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَقُلُوا لَا يَبَاعِ
 ذَا الْخِلَالِ ، قَالَ : فَلَمَّا قَضَيْتُنَا غَزَاتِنَا ، قُلْتُ لَهُ : يَا أَبَا بَكْرٍ . إِنِّي قَدْ صَحَبْتُكَ وَإِنِّي عَلَىكَ حَقٌّ ،
 فَعَلِمْتُ شَيْئًا أَنْتَفِعَ بِهِ ؛ فَقَالَ : قَدْ كُنْتُ أُرِيدُ ذَلِكَ لَوْ لَمْ تَقُلْ لِي : تَهْدُ اللَّهُ لَا تَشْرِكُ بِهِ شَيْئًا ،
 وَتَقِيمُ الصَّلَاةَ الْمَكْتُوبَةَ ، وَتُؤَدِّي لِرُكَاةِ الْمَرْوُضَةِ ، وَتَحْجُجُ اللَّيْلَ ، وَتَصُومُ شَهْرَ رَمَضَانَ ،
 وَلَا تَتَأَمَّرَ عَلَى رَجُلَيْنِ ، فَقُلْتُ : أَمَّا الْعِبَادَاتُ فَقَدْ عَرَفْتُهَا ؛ أَرَأَيْتَ سَهَيْتُ لِي عَنِ الْإِمَارَةِ
 وَهَلْ يَصِيبُ النَّاسَ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ إِلَّا بِالْإِمَارَةِ ؟ فَقَالَ : إِنَّكَ اسْتَعْمَدْتَنِي فَجَهِدْتُ قَلْبَكَ ، إِنَّ
 النَّاسَ دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ طَوْعًا وَكَرْهًا فَاجْرِمُ اللَّهُ مِنْ الظُّلْمِ ، فَهُمْ جِيرَانُ اللَّهِ وَعَوَادُ اللَّهِ
 وَفِي ذِمَّةِ اللَّهِ ، فَمَنْ يَظْلِمُ مِنْكُمْ إِمَامًا يَصْغُرُ رِيبُهُ ، وَاللَّهُ إِنْ أَحَدَكُمْ لِيَأْخُذَ شَوْبَةً جَارَهُ أَوْ
 بَيْعَهُ ، فَيُظْلَمُ عَمَلُهُ بِأَسَاءِ جَارِهِ ، وَاللَّهُ مِنْ وَرَاءِ جَارِهِ ، قَالَ : لَمْ يَلْمِ إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى أَتَيْنَا
 وَفَاةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَسَأَلْتُ : مَنْ اسْتَخْلَفَ بَعْدَهُ ؟ قِيلَ : أَبُو بَكْرٍ ، قُلْتُ
 أَصَاحِبِي الَّذِي كَانَ يَنْهَانِي مِنَ الْإِمَارَةِ أَفْشَدْتُ عَلَى رَاحَتِي ، فَأَنْبَيْتُ لِلدِّينَةِ ، فَجَعَلْتُ
 أُطَلِّبُ خَلَوَتَهُ ، حَتَّى قَدَرْتُ عَلَيْهَا ، فَقُلْتُ أَنْعَمُ فَنِي ؟ أَمَا فَلَانُ بْنُ فَلَانٍ ، أَنْعَمُ فَوْصِيَّةٌ أَوْ صَيْتِي
 بِهَا ؟ قَالَ : نَعَمْ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُبِضَ وَالنَّاسُ حَدِيثُوا عَهْدَ بَاجِلِ الْهَلِيلَةِ ،
 نَعِشْتُمْ أَنْ يَفْتَنُوا ، وَإِنْ أَصْحَابِي خَلَوْنِيهَا ، فَمَا زَالَ يَمْتَدُّ إِلَى حَتَّى عَذَرْتَهُ ، وَصَارَ مِنْ
 أَمْرِي مَعْدَانٌ صَرْتُ عَرِيفًا .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : وَأَخْبَرَنَا أَبُو رَيْدٍ عَمْرُ بْنُ شُبَّةٍ ، عَنْ رَجَالِهِ ، عَنْ الشَّعْبِيِّ ، قَالَ : قَامَ الْحَسَنُ
 ابْنُ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى أَبِي بَكْرٍ وَهُوَ يَحْطُبُ عَلَى الْمَنِيرِ فَقَالَ لَهُ : أَنْزِلْ عَنْ مَنْبَرِ أَبِي ، فَقَالَ :

(١) يُخَذُّهُ عَلَيْهِ ، أَيْ يَجْمَعُ بَيْنَ طَرَفِي الْمَكْسَاءِ بِخِلَالٍ مِنْ عَوْدٍ أَوْ حَدِيدٍ .

أبو بكر : صدقت ؛ والله إنه لمنبر أليك لا منبر أبي ، فبعث علي إلى أبي بكر ؛ إنه غلام حدث ، وإنا لم نأمره ، فقال أبو بكر : صدقت ، إنا لم نهبك .

قال أبو بكر : وروى أبو زيد ، عن حباب بن يزيد ، عن جرير ، عن المغيرة أن سلمان والزبير وبعض الأنصار كان هوام أن يبايعوا عليا بعد النبي صلى الله عليه وآله ، فلما بوج أبو بكر ، قال سلمان للصحابه : أصبتم الخير ؛ ولكن أخطأتم للمعين قال : وفي رواية أخرى : أصبتم ذا السن منكم ، ولكنكم أخطأتم أهل بيت نبيكم . أما لو جعلتموها فيهم ما اختلف منكم اثنان ولا كلتموها رَغداً .

قلت : هذا الخير هو الذي رواه للتكلمون في باب الإمامة عن سلمان أنه قال : « كريد ونكرديد » ، تفسره الشيعة ، فنقول : أراد أسلمت وما أسلمت ، وتفسره أصحابنا فيقولون معناه : أخطأتم وأصبتم .

قال أبو بكر : وأخبرنا أبو زيد ، قال محمد بن محمد بن يحيى ، قال : حدثنا عثمان ابن عبد الحميد ، قال : لما أكر في تخلف علي عن البيعة ، واشتد أبو بكر وعمر في ذلك ، خرجت أم منطع بن أثاة ، فوقفت عند قبر النبي صلى الله عليه وآله ونادته : يا رسول الله ! قد كان صدك أنها وهينة^(١) لو كنت شاهدها لم تكفرا الخطب^(٢)

إنا قد ناك قد الأرض واجلها فاخل قومك ، فاشهدهم ولا تلب

قال أبو بكر أحمد بن عبد الميز : وصحت أبا زيد عمر بن شبة يحدث رجلا يحدث لم أحفظ إسنادَه ، قال : مر للمغيرة بن شبة بأبي بكر وعمر ، وهما جالسان على باب النبي حين قبض ، فقال : ما بعدكما ؟ قال : ننتظر هذا الرجل يخرج فنبأ به . يعنيان عليا . فقال : أتريدون أن تنظروا حبل الحقة^(٣) من أهل هذا البيت ! وسئوها في قريش تنسح .

(١) الهينة : الصوت الخفي . وفي اللسان - وسب الخين إلى طاعة . « وهينة » والهينة : الاختلاف في القول .

(٢) الحقة في الأصل : السكرم ؛ قيل : معاه حل السكرمة قبل أن يبلغ ؛ وله كناية عن صدق من طاعة .

قال : فقاما إلى سقيفة بني ساعدة ، أو كلاما هذا معناه .

قال أبو بكر : وأخبرنا أبو جعفر محمد بن عبد الملك الواسطي ، عن يزيد بن هارون ، عن سفيان بن حسين ، عن الزهري ، عن أس بن مالك ، قال : لما مرض رسول الله مرضه الذي مات فيه أتاه بلال يؤذنه بالصلاة ، فقال بعد مرتين : يا بلال ، قد أبلمت ؛ فمن شاء فليصل بالناس ، ومن شاء فليدع .

قال : ورُفعت الستور عن رسول الله ، فنظر ما إليه كأنه ورقة بيضاء ، وعليه خيصة^(١) له ، فرجع إليه بلال فقال : مُرُوا أبا بكر فليصل بالناس ، قال : فما رأيناه بعد ذلك عليه السلام .

وقال أبو بكر : وحدثني أبو الحسن علي بن سليمان النوفلي ، قال : سمعت أبا يقول : دگر سعد بن عبادة يوما عليا بعد يوم السقيفة ، فذكر أمر أمن أمره نسيه أبو الحسن ، بوجوب ولايته ، فقال له انه فیس بن سعد : أت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول هذا الكلام في علي بن أبي طالب ثم تطلب الخلافة ، ويقول أصحابك : منا أمير وممكم أمير ! لا كلنك والله من راسي بعد هذا كلمة أبدا .

قال أبو بكر : وحدثني أبو الحسن علي بن سليمان النوفلي ، قال : حدثني أبي ، قال : حدثني شريك بن عبد الله ، عن إسماعيل بن خالد ، عن زيد بن علي بن الحسين ، عن أبيه ، عن جده ، قال : قال علي : كنت مع الأنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة له في المحبوب والمكروه ، فلما عز الإسلام ، وكثر أهله ، قال : يا علي ؛ زد فيها ؛ علي أن تمنسوا رسول الله وأهل بيته عما تمنعون منه أخسكم وذرا ربكم ، قال : فحملها على ظهور القوم ، فوق بها من وثق ، وهلك من هلك .

قلت : هذا يطابق ما رواه أبو الفرج الأصفهاني في كتاب "مقاتل الطالبيين" أن

(١) الخيصة : كساء أسود مربع ؛ له عطن .

جعفر بن محمد عليه السلام وقف مستترا في خفية ، يشاهد الحامل التي تحمل عليها عبد الله ابن الحسن وأهله في القيود والحديد من المدينة إلى العراق ، فلما مروا به بكى ، وقال : ما وقت الأنصار ولا أبناء الأنصار لرسول الله صلى الله عليه وآله ، بأيهم هل أن يمحوا محمدا وأبناءه وأهله وذريته مما يمحون منه أنفسهم وأبناءهم وأهلهم وذرايتهم ، فلم يفوا . اللهم اشد وطأتك على الأنصار .

قال أبو بكر : وحدثنا أبو سعيد عبد الرحمن بن محمد ، قال : حدثنا أحمد بن الحكم ، قال : حدثنا عبد الله بن وهب ، عن ليث بن سعد ، قال : تخلف علي عن بيعة أبي بكر ، فأخرج ملتبسا^(١) يُمصى به رخصا ، وهو يقول : معاشر المسلمين ، علام تضرب عنق رجل من المسلمين ، لم يتخلف لخلاف ، وإنما تخلف لحاجة ! فامرت بمجلس من المجالس إلا يقال له : انطلق فبايع .

قال أبو بكر : وحدثنا علي بن جرير الطائي ، قال : حدثنا ابن فضال ، عن الأجلح ، عن حبيب بن ثعلبة بن يزيد ، قال : سمعت عليا يقول : أما ورب السماء والأرض ، ثلاثا : يا مهدي النبي الأمي إلى : « لتفدرن بك الأمة من بعدى » .

قال أبو بكر : وحدثنا أبو زيد عمر بن شبة بإسناد رفعه إلى ابن عباس ، قال : إني لأماشي عمر في سكة من سكك المدينة ، يده في يدي ، فقال : يا ابن عباس ، ما أظن صاحبك إلا مظلوما ، فقلت في نفسي : والله لا يسبقني بها ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، فاردد إليه ظلامته . فانتزع يده من يدي ، ثم مر بهمهم ساعة ثم وقف . فلحقته فقال لي : يا ابن عباس ، ما أظن القوم منهم من صاحبك إلا أنهم استصغروه ؛ فقلت في نفسي : هذه شر من الأولى ؛ فقلت : والله ما استصغره الله حين أمره أن يأخذ سورة براءة من أبي بكر .

(١) يقال : لب فلان فلانا : أخذ بجليه ، أي جمع لبايه عند صدره ونحره ثم جره .

[ذكر أمر فاطمة مع أبي بكر]

فأما ما رواه البخاري ومسلم في الصحيحين ^(١) من كيفية المباينة لأبي بكر بهذا اللفظ الذي أورده عليك؛ ولإسناد إلى عائشة: أن فاطمة والعماس أنيا أبا بكر، اتفان مبراهما من النبي صلى الله عليه وآله، وهما حينئذ بطيان أرضه من فذك، وسهته من حيدر، فقال لها أبو بكر: إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إنا معشر الأنبياء لا نورث؛ ما تركناه صدقة، إنما يأكل آل محمد من هذا المال»؛ وإني والله لأدع أمراً رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يصنعه إلا صنعته فمحرته فاطمة ولم تسكته في ذلك حتى ماتت. فدفعها علي ليلاً، ولم يؤذن بها أبا بكر. وكان لعلي وجه ^(٢) من الناس في حياة فاطمة. فلما توفيت فاطمة انصرفت وجوه الناس عن علي ^(٣)، فكثرت فاطمة ستة أشهر ثم توفيت. فقال رجل لآخرى وهو الراوى لهذا الخبر عن عائشة: نعم بما به علي ستة أشهر قال: ولا أحد من بني هاشم حتى يابسه علي. فلما رأي ذلك خرج إلى مباينة أبي بكر، فأرسل إلى أبي بكر أن اتنا. ولايات ^(٤) معك أحد، وذكره أن يأتيه عمر لما عرف من شدته، فقال عمر: لا تأتهم وحدك، فقال أبو بكر: والله لا يأتهم وحدي، وما عسى أن يصنعوا؟ فانطلق أبو بكر حتى دخل على علي، وقد جمع بني هاشم عنده؛ فقال علي: فعيد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: أما بعد، فإنه لم يمتنا أن نبأيتك بأبا بكر إنكاراً لمصلك، ولا منافاةً لخبر ساقه الله إليك، ولكننا كنا نرى أن لنا في هذا الأمر حقاً، فاستهددتم به علينا. وذكر قرابته من رسول الله صلى الله عليه وآله وحقه، فلم يزل علي يذكر ذلك حتى بكى أبو بكر، فلما صمت علي تشهد أبو بكر، فعيد الله وأثنى عليه بما هو أهله. ثم قال: أما بعد

(١) صحيح البخاري ٢ : ١٨٦ . ومسلم ٣ : ١٢٨٠ مع اختلاف في لفظ الحديث .

(٢) مسلم : « وجهه » .

(٣) مسلم : « استنكر على وجوه الناس » .

(٤) مسلم : « ولا يأتنا » .

فوالله لقد رآه رسول الله صلى الله عليه وآله أحب إلي من أن أصلها من قرابتي، وإني والله ما آلوكم من هذه الأموال التي كانت بيني وبينكم إلا الخير؛ ولكني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «لا نورث ما تركناه صدقة»؛ وإنما يأكل آل محمد في هذا المال، وإني والله لا أترك أمراً أحسنه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا صنعتُه إن شاء الله، قال علي: موهذك المشية للبيعة،، فلما صلى أبو بكر الظهر، أقبل على الناس ثم عذر علياً^(١) ببعض ما اعتفربه، ثم قام علي فمظم من حق أبي بكر، وذكر فضله وسابقته، ثم مضى إلى أبي بكر فبايعه، فأقبل الناس إلى علي، فقالوا: أصبت وأحسن، وكان علي قريباً إلى الناس حين قارب الأمر بالمعروف.

وروى أبو بكر أحمد بن عبد العزيز، قال: حدثني أبو زيد عمر بن شبة، قال: حدثني إبراهيم بن المنذر، قال: حدثنا ابن وهب، عن ابن أبي ليثة، عن أبي الأسود، قال: مضى رجال من المهاجرين في بيعة أبي بكر بن عبد الله مشورة، وعصب علي والزبير، فدخلوا بيتاً فاطمة، معها السلاح، فجاء عمر في مصابة، فيهم أشيد بن حضير، وسلمة بن سلامة بن قريش؛ وحما من بني عبد الأشهل، فاقصموا الدار، فصاحت فاطمة وناشدتها الله، فأخذوا سيفيهما، فضربوا بهما الحجر حتى كسروهما، فأخرجهما عمر يسوقهما حتى بايعا. ثم قام أبو بكر، فخطب الناس، فاعتذر إليهم، وقال: إن يبعث الله نبياً بعد موتي، فإني أول ما سأله من أمره ما حارصت عليها يوماً قط، ولا سألتها الله في سر ولا علانية قط، ولقد قلتُ أمراً عظيماً مالي به طقة، ولا بدآن، ولقد وددت أن أقرى الناس عليه مكانى.

(١) مسلم: «وذكر شأن علي وتعمقه من البيعة، وعذره الذي اعتذر إليه».

فقبل المهاجرون ، وقال عليّ والزبير : ما غضبنا إلا في المشورة ، وإنا لنرى أبا بكر أحقّ الناس بها ، إنه لصاحب الفار ، وثاني اثنين ، وإنا لنعرف له بينه ، ولقد أمره رسول الله صلى الله عليه وآله بالصلاة وهو حيّ .

قال أبو بكر : وذكر ابن شهاب بن ثابت أن قيس بن شماس أخا بني الحارث من الخزرج ، كان مع الجماعة الذين دخلوا بيت فاطمة .

قال : وروى سعد بن إبراهيم أن عبد الرحمن بن عوف كان مع عمر ذلك اليوم ، وأنّ محمد بن مسلمة كان معهم ، وأنه هو الذي كسر سيف الزبير .

قال أبو بكر : وحدثني أبو زيد عمر بن شبة ، عن رجالة ، قال : جاء عمر إلى بيت فاطمة في رجال من الأنصار ونظر قهقري من المهاجرين ، فقال : والذي نفسي بيده لتخرجن إلى البيعة أو لأحرقن البيت عليكم . فخرج إليه الزبير مصلتا بالسيف ، فاعتنقه زياد بن أبيه الأنصاري ورحل آخر ، فنذر^(١) السيف من يده ، فضرب به عمر الحجر فكسره ، ثم أخرجهم بتلابيبهم يساقون سوتاً عنيفاً ؛ حتى بايعوا أبا بكر .

قال أبو زيد : وروى النضر بن كميل ، قال : حبل سيف الزبير لما نذر من يده إلى أبي بكر وهو على المنبر يخطب ، فقال : اضربوا به الحجر ، قال أبو عمرو بن حماس : ولقد رأيت الحجر وفيه تلك للضربة ، والناس يقولون : هذا أثر ضربة سيف الزبير .

قال أبو بكر : وأخبرني أبو بكر الباهلي ، عن إسماعيل بن مجاهد ، عن الشعبي ، قال : قال أبو بكر : يا عمر ، أين خالد بن الوليد ؟ قال : هو هذا ، فقال : انطلقا إليهما - يعني عليا والزبير - فأنتهاني بهما ، فانطلقا ، فدخل عمر ووقف خالد على الباب من خارج ، فقال عمر للزبير : ما هذا السيف ؟ قال : أعدته لأبايع علياً ، قال : وكان في البيت ناس كثير منهم لقيط بن الأسود وجهور المشاشيين ، فاحترط عمر السيف فضرب به صخرة في البيت

(١) نذر : سقط .

فكسره ، ثم أخذ بيد الزبير ، فأقامه ثم دفعه فأخرجه ، وقال : يا خاله ، فونك هذا ، فأمسكه خاله . وكان خارجاً^(١) البيت مع خاله فجعل كثير من الناس ، أرسلهم أبو بكر ردها لهما . ثم دخل عمر فقال لعل : قم فبايع ، فتسكأ واحتبس^(٢) ، فأخذ بيده ، وقال : قم ، فأبى أن يقوم ، فعصاه ودفعه كما دفع الزبير ، ثم أمسكها خاله ، وساقها عمر ومن معه سوتفاً عنيفاً ، واجتمع الناس ينظرون ، وامتلات شوارع المدينة بالرجال ، ورات فاطمة ماصع عمر ، فصرخت وولولت ، واجتمع معها نساء كثير من الهاشميات وغيرهن ؛ فخرجت إلى باب حجرتها ، ونادت : يا أبا بكر ، ما أسرع ما أفرتم على أهل بيت رسول الله ! والله لا أكلم عمر حتى ألقى الله .

قال : فلما بايع علي والزبير ؛ وهذأت تلك الفورة ، مشى إليها أبو بكر بملذات فشفع لعمرو ، وطلب إليها فرضيت عنه .

قال أبو بكر : وحدثني الثؤمل بن جعفر ، قال : حدثني محمد بن ميمون ، قال : حدثني داود بن المبارك ، قال : أتينا عبد الله بن موسى بن عبد الله بن حسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام ونحن راجعون من الحج في جماعة ، فسألناه عن مسائل ، وكنت أحد من سأل ، فسأله عن أبي بكر وعمر ، فقال : أجيبك بما أجاب به جدتي عبد الله ابن الحسن ، فإنه سئل عنهما ، فقال : كانت أمنا صديقة ، ابنة نبي مرسل ، وماتت وهي غضبي على قوم ، فنحن غضاب لغضبها .

قلت : قد أخذ هذا اللعن بعض شعراء الطالبيين من أهل الحجاز ؛ أنشد به النقيب جلال الدين عبد الحميد بن محمد بن عبد الحميد النلوي قال : أنشدني هذا الشاعر نفسه . وذهب عنى أنا اسمه . قال :

يا أبا حفص الموصني وما كنت ملياً بذلك لولا الحسام

(٢) احتبس : توقف .

(١) ب : « في خارج البيت » .

أَمُوتُ الْبَتُولُ غَضَبِي وَتَرْضَى مَا كَذَا يَصْنَعُ الْبَنُونَ الْكَرَامُ ١

يخاطب عمر ويقول له: مهلا ورويدا^(١) يا عمر، أي ارقق وانشد ولا تنسف بنا. وما كنت مليا، أي وما كنت أهلا لأن تخاطب بهذا وتستعطف، ولا كنت قادرا على ولوج دار^(٢) فاطمة على ذلك الوجه الذي ولجتها عليه، لولا أن أباه الذي كان بينها يحترم ويصان لأجله مات فطمع فيها من لم يكن بطمع. ثم قال: أمتوت أنتا وهي غصبي وترضى عنن! إذا لست بكرام، فإن الولد الكريم يرضى لرضا أبيه وأمه وينضب لمضيهما.

والصحيح عندي أنها ماتت وهي واجدة على أبي بكر وعمر، وأنها أوصت^٣ ألا يصليا عليها؛ وذلك عند أصحابنا من الأمور للمفورة لها، وكان الأولى بهما إكرامها واحترام منزلها لكتهما خافا الفرقة، واشتقا من الفتنة، فعلا ما هو الأصلح بحسب ظنهما؛ وكانا من الدين وقوة اليقين فكان مكنين، لا شك في ذلك، والأمور للماضية بتعذر الوقوف على علقها وأسبابها، ولا يسلم حقائقها إلا من قد شاهدها ولا سيما، بل لعل الحاضرين المشاهدين لما يعلون باطن الأمر؛ فلا يحوز العدول عن حسن الاعتقاد فيهما بما جرى؛ والله ولي الغفيرة والمغفرة؛ فإن هذا لو ثبت أنه خطأ لم يكن كبيرة، بل كان من باب الصائر التي لا تقصى التبرؤ، ولا توجب زوال التولي.

قال أبو بكر: وأخبرنا أبو زيد عمر بن شبة، قال: حدثنا محمد بن حاتم، عن رجاله، عن ابن عباس، قال: مر عمر بعلي، وأما معه بفناء داره فسلم عليه، فقال له علي: أين تريد؟ قال: البقيع، قال: أفلا نصل صاحبك، ويقوم معك؟ قال: بلى، فقال لي علي: قم معه، فقممت فمشيت إلى جانبته، فشبك أصابعه في أصابعي، ومشينا قليلا، حتى إذا خلقنا البقيع قال لي: يا ابن عباس، أما والله إن صاحبك هذا لأولى الناس بالأمر بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، إلا أنا خفناه على اثنين؛ قال ابن عباس: فجاء بكلام لم أجده بد أمن

(٢) ج : « بيت » .

(١) ب : « رويدا » .

(٣-٣) ب : « نصل جناحك وهوم معك » .

مسأله منه ، قلت : ما هذا يا أمير المؤمنين ؟ قال : خِفْنَاهُ عَلَى حَدِيثَانِهِ ، وَحَبَّه بَنِي عَهْدٍ لِلطَّلَبِ .

قال أبو بكر : وحدثني أبو زيد ، قال : حدثني محمد بن عباد ، قال : حدثني أخى سعيد بن عباد ، عن أبيه بن سعد ، عن رجائه ، عن أبي بكر الصديق أنه قال : لينى لم أكشف بيت فاطمة ، ولو أعلن على الحرب !

قال أبو بكر : وحدثنا الحسن بن الربيع ، عن عهد الرزاق ، عن معمر ، عن الزهرى ، عن علي بن عبد الله بن العباس عن أبيه ، قال : لما حضرت رسول الله صلى الله عليه وآله الوفاة ، وفى البيت رجالٌ فيهم عمر بن الخطاب ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله : اتقوا بدواةً وصحيفةً ، أسكتت لكم كتاباً لا تفتنون بمدى ، فقال عمر كلمة منهاها أن الواسع قد غلب على رسول الله صلى الله عليه وآله ، ثم قال : عندنا القرآن حسبنا كتاب الله ؛ فاختلف من فى البيت واحتصموا ، فمن قاتل يقول : القول ما قال رسول الله صلى الله عليه وآله ، ومن قاتل يقول : القول ما قال عمر ، فلما أكتروا اللفظ واللفظ والاختلاف ، غضب رسول الله ، فقال : « قوموا ؛ إنه لا ينهى لى أن يختلف عنده هكذا » ، فقاموا ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وآله فى ذلك اليوم ؛ فكان ابن عباس يقول : إن الرزية كل الرزية ما حال بيننا وبين كتاب رسول الله صلى الله عليه وآله - بنى الاختلاف واللفظ .

قلت : هذا الحديث قد خرجه الشيخان محمد بن إسماعيل البخارى ، ومسلم بن الحجاج القشيرى فى صحيحيهما^(١) ، واتفق المحدثون كافة^(٢) على روايته .



قال أبو بكر : وحدثنا أبو زيد ، عن رجائه ، عن جابر بن عبد الله ، قال : قال رسول الله

(١) صحيح مسلم : ١٢٥٩ (٢) ب : « جبا » .

صلى الله عليه وآله : إن تولوها أبا بكر تجدوه ضعيفا في بدنه ، قويا في أمر الله ، وإن تولوها عمر تجدوه قويا في بدنه قويا في أمر الله ، وإن تولوها عليا - وما أراكم فاعلين - تجدوه هاديا مهديا ، يحملكم على المحبة البيضاء ، والصراط المستقيم .

قال أبو بكر : وحدثنا أحمد بن إسحاق بن صالح ، عن أحمد بن سيار ، عن سعيد بن كثير الأنصاري ، عن رجاله ، عن عبد الله بن عبد الرحمن ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله في مرض موته أمر أسامة بن زيد بن حارثة على جيش فيه جثة المهاجرين والأنصار ؛ منهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح وعبد الرحمن بن عوف وطلحة والزبير ، وأمره أن يغير على مؤنة حيث قتل أبوه زيد ، وأن يفرزوا وادي فلسطين . فتناقل أسامة وتناقل الجيش بتناقله ، وجعل رسول الله صلى الله عليه وآله في مرضه يشغل ويخيف ، ويؤكد القول في تنفيذ ذلك البعث ؛ حتى قال له أسامة : يا بني أنت وأمي ! أتأذن لي أن أمكث ألبما حتى يشفيتك الله تعالى ؟ فقال : ليخرج وسر على بركة الله ، فقال : يا رسول الله ، إن أنا خرجت وأنت على هذه الحال خرجت وفي قلبي قرحة منك ، فقال : سر على النصر والعافية ، فقال : يا رسول الله ، إني أكره أن أسأل عنك الركبان ، فقال : انقذ^(١) لما أمرتك به ، ثم أغشى على رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقام أسامة فتجهز للخروج ، فلما أفاق رسول الله صلى الله عليه وآله سأل عن أسامة والبعث ، فأخبر أنهم يتجهزون ، ففعل يقول : « انقذوا بعث أسامة ، لعن الله من تخلف عنه » ، وكرر^(٢) ذلك ، فخرج أسامة واللواء على رأسه والصحابة بين يديه ، حتى إذا كان بالجرف زل ومعه أبو بكر وعمر وأكثر المهاجرين ؛ ومن الأنصار أسيد بن حصير وبشير بن سعد وغيرهم من الوجوه ، فجاء رسول أم أيمن ، يقول له : ادخل فإن رسول الله يموت ، فقام من فوره ، فدخل المدينة واللواء معه ، فجاء به حتى ركزه بباب رسول الله ، ورسول الله قد مات في تلك الساعة . قال : فما كان أبو بكر وعمر يحاطبان أسامة إلى أن ماتا إلا بالأمير .

(١) انقذ : أي امنن له حيا . (٢) ج : هـ ونكرر .

(٦٧)

الأصل:

ومن كلام له عليه السلام لما قلد محمد بن أبي بكر مصر فلنكت عليه وقتل :
وَقَدْ أَرَدْتُ تَوَلِيَّةَ مِصْرَ هَاشِمِ بْنِ عُتْبَةَ ؛ وَلَوْ وَلَيْتُهُ أَبَاهَا لَمَا خَلَى لَهُمُ الْمَرْصَةَ ،
وَلَا أَتَهَزَّمُ الْمَرْصَةَ ، يَلَاذِمُ لِمُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ ، فَلَقَدْ كَانَ إِلَيَّ حَيِّيًا ، وَكَانَ
لِي رَيْبِيَا .

[ذكر محمد بن أبي بكر وذكر ولده]

الشرح :

أم محمد بن أبي بكر أسماء بنت هُبَيْس بن العُمان بن كعب بن مالك بن قحافة بن
خُثَيم ؛ كانت تحت جعفر بن أبي طالب ، وهاجرت معه إلى الحبشة ، فولدت له هناك عبد الله
ابن جعفر الجواد ، ثم قتل عنها يوم مؤتة ، تخلف عليها أبو بكر الصديق ، فأولدها محمدًا ،
ثم مات عنها ، تخلف عليها علي بن أبي طالب ؛ وكان محمد ربيبه وخير يحميه ، وجاريًا عنده
تحرى أولاده رصع الولاء والنشيع مد زمن الصبا ، فنشأ عليه ؛ فلم يكن يعرف له أبًا غير
علي ، ولا يعتقد لأحد فضيلة غيره ؛ حتى قال علي عليه السلام : محمد ابني من صلب
أبي بكر ؛ وكان يكنى أبا القاسم في قول ابن قتيبة ^(١) . وقال غيره : بل كان يكنى
أبا عبد الرحمن .

(١) في المعارف ص ١٧٥ .

وكان محمد من نُسك قريش ؛ وكان ممن أمان على عثمان في يوم الدار ؛ واختلف : هل باشر قتل عثمان أم لا ؛ ومن ولد محمد : القاسم بن محمد بن أبي بكر قتيبة الحجازي وفاضلها ؛ ومن ولد القاسم : عبد الرحمن بن القاسم بن محمد ؛ كان من فضلاء قريش ويكنى أبا محمد ؛ ومن ولد القاسم أبعاً أم قرّة ، تزوجها الباقر أبو جعفر محمد بن علي ، فأولدها الصادق أبا عبد الله جعفر بن محمد عليهما السلام ؛ وإلى أم قرّة أشار الرضا أبو الحسن بقوله :

بِئْسَ إِذَا عُدَّ السَّوَابِقُ أَوْ هَدَى ^(١)	بِأَخْرَجْنَا قَوْمٌ بَيْنَ لَمْ نَدْرُكْ
عِذَارَ جَوَادٍ فِي الْجِيَادِ مُقَلِّدٍ	وَيَنْتَوْنُ مَنْ لَوْ قَدَّمُوهُ لَقَدَّمُوا
لَمْ يَمْزِ عِلًّا أَوْ نِيلٍ مَجْدٍ وَسُودَدٍ	فَقِيَ هَاشِمٍ بَعْدَ النَّبِيِّ وَبَاعِيَا
وَلَا جَمَّعُوا فِيهَا بِمَرْحَى وَمَوْرِدٍ	وَلَوْلَا عَلَى مَا عُلُّوا سَرَوَاتِيهَا
بِلَاغِ السَّاعِي مِنْ مَقَامٍ وَمَقْعَدٍ	أَخَذْنَا عَلَيْكُمْ بِالنَّبِيِّ وَالْمَلِكِ
رِقَابَ الْوَرَى مِنْ مُتَهِمِينَ وَمُسْتَعِدِّ	وَمَلْنَا بِسَيْطَانٍ أَحْمَدٍ وَوَصِيَّةٍ
بِمَوْلِدِ بِنْتِ الْقَاسِمِ بْنِ عَمْرِو	وَحُزْنَا عَتِيفًا وَهُوَ غَايَةُ فَخْرِكُمْ
فَأَكْرَمَ مَحْدُنَا : هَتِيقٍ وَأَحْمَدٍ	فَجَدُّ نَبِيِّ نَحْنُ جَدُّ حَلِيفَةٍ
بَدَّ صَفَقَتِ يَوْمِ الْبَيْعِ عَلَى يَدِ	وَمَا افْتَخَرْتُ بَعْدَ النَّبِيِّ نَصِيرِهِ

قوله :

• ولولا على ما علوا سرواتها . . . البيت

ينظر فيه إلى قول المؤمن في آيات يمدح فيها علياً ، أولها :

الأمُّ على حُبِّي الوصي أبا الحسن وذلك عندي من أطايب ذا الزمن

والبيت المنظور إليه منها قوله :

وَتَوَلَّاهُ مَا عُدَّتْ لِسَانُهُ إِمْرَةً وَكَانَ مَدَى الْأَيَّامِ يَنْصَى وَيُجَنَّبُ

•••

[هاشم بن عتبة بن أبي وقاص ونسبه]

وأما هاشم بن عتبة بن أبي وقاص مالك بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة
ابن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب ، فعمه سمد بن أبي وقاص ، أحد
العشرة ، وأبوه عتبة بن أبي وقاص ، الذي كسر رباعية^(١) رسول الله صلى الله عليه وآله
يوم أحد ، وكلم شفتيه وشج وجهه ، فجعل يمسح الدم عن وجهه ، ويقول : « كيف يُفْلَح
قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم ، وهو يدعوهم إلى دينهم » ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ لَيْسَ
لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَلَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾^(٢) .

وقال حسان بن ثابت في ذلك اليوم :

إذا الله حياً معترأ بنفسه إليهم	وعصرهم الرحمن رب للشارق ^(٣)
فهدك ربي باعتب بن مالك	ولقدك قبل الموت إحدى الصوائق ^(٤)
بسطت يدياً لفتى عميد ^(٥)	فدبت فاء قطعت بالسوارق ^(٦)
فها ذا كرت الله وللنزل الذي ^(٧)	تصير إليه عند إحدى الصائق
فمن عاذري من عبد عذرة بعدما	هو في دجوجي شديد المضائق ^(٨)

(١) الرابعة : السن التي بين الثانية والثالثة .

(٢) سورة آل عمران ١٢٨ .

(٣) ديوانه ٢٩٩ .

(٤) الديوان : « ما خزاك ربي » .

(٥) الديوان : « فتى برية » . (٦) الوارق : السيوف .

(٧) الديوان : « فها خطبت الله » .

(٨) لم يذكر في الديوان .

وأورث عارا في الحياة لأهله وفي النار يوم البعث أم البوائق^(١)
وإعما قال ، « عبد عذرة » لأن عتبة بن أبي وقاص وإخوته وأقاربه في نسبهم كلام ،
ذكر قوم من أهل النسب أنهم من عذرة ، وأنهم ادعياء في قريش ؛ ولم خبر معروف ،
وقصة مذكورة في كتب النسب .

وتنازع عبد الله بن مسعود وسعد بن أبي وقاص في أيام عثمان في أمر فاحتصا ،
فقال سعد لعبد الله : اسكت يا عبد هذيل ، فقال له عبد الله : اسكت يا عبد عذرة .
وحاشم بن عتبة هو المرقال ، سمي المرقال ، لأنه كان يُرْقِل في الحرب إرقالا ؛ وهو من
شعبة علي ، وسند متصل^(٢) مقتله ، إذا اتبينا إلى فصل من كلامه يتضمن ذكر حنين .

فأما قوله : « لما خلى لم المرصة » فبمعنى عُرْصَة مصر ؛ وقد كان محمد رحمه الله
تعالى : لما خلى عليه الأمر ، ترك لم مصر ووطن أمه بالمرار ينحون منه ، فلم ينسج
وأخذ وقتل .

وقوله : « ولا أنهزم الفرصة » ، أي ولا جعلهم الفرصة منهزين . والهمزة للتعدي ،
يقال : أنهرت المرصة ، إذا أنهزتها غيري .

ونحن نذكر في هذا الموضع ابتداء أمر الدين وتلام علي عليه السلام مصر ، إلى أن
نقهي إلى كيفية ملك معاوية لها وقتل محمد بن أبي بكر ؛ وننقل ذلك من كتاب إبراهيم
ابن سعد بن هلال الضمى ، وهو كتاب " الفارات " .

(١) رواية الديوان :

لَقَدْ كَانَ حَرْبًا فِي الْحَيَاةِ إِقْوَمِهِ وَفِي الْبَيْتِ بَعْدَ اللَّوْتِ إِحْدَى الْعَوَائِقِ

(٢) ١ : « وسند ذكر » .

[ولاية قيس بن سعد على مصر ثم عزله]

قال إبراهيم : حدثنا محمد بن عبد الله بن عثمان الثقفي ، قال : حدثني علي بن محمد بن أبي سيف ، عن الكلبي ، أن محمد بن أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ، هو الذي حرّص المصريين على قتل عثمان وبتهم إليه ، وكان حينئذ بمصر ، فلما ساروا إلى عثمان وحصرّوه ، وثب هو بمصر على عامل عثمان عليها ، وهو عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، أحد بني عامر بن لؤي ، فطرده عنها ، وصلى بالناس ؛ فخرج ابن أبي سرح من مصر ، وزل على تخوم أرضها بما تلى فلسطين ، وانتظر ما يكون من أمر عثمان ، فطلع عليه راكب ، فقال له : يا عبد الله ، ما وراءك ؟ ما خبر الناس بالمدينة ؟ قال : قتل المسلمون عثمان ، فقال ابن أبي سرح : إنا لله وإنا إليه راجعون ! ثم صنعوا ماذا يا عبد الله ؟ قال : بايعوا ابن عم رسول الله علي بن أبي طالب ، فقال نأية : إنا لله وإنا إليه راجعون ! فقال الرجل : أرى أن ولاية علي عدلت عندك قتل عثمان ! قال : أجل ، فنظر إليه متأملاً له فمره ، فقال أظنك عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، أمير مصر ! قال : أجل ، قال : إن كانت لك في الحياة حاجة فالتجاء النجاء ؛ فإن رأيت علي فيك وفي أصحابك إن ظفر بكم قتلكم أو نفاكم عن بلاد المسلمين ؛ وهذا أمير تقدم بدمي عليكم . قال : ومن الأمير ؟ قال : قيس بن سعد بن عباد . فقال ابن أبي سرح : " إن شاء الله " ابن أبي حذيفة إني أظنه بقي علي ابن عمه ، وصلى عليه ، وقد كان كفله ورباه ، وأحسن إليه ، وأمين جواره ؛ فجهز الرجال إليه حتى قُتل ، ووثب على عامله .

وخرج ابن أبي سرح حتى قدم على معاوية بدمشق .

قال إبراهيم : وكان قيس بن سعد بن عباد من شيعة علي ومناصبه (٢) ؛ فلما ولي الخلافة ، قال له : سر إلى مصر فقد وليتكم ، وأخرج إلى ظاهر المدينة ، واجمع ثقاتك ومن

(٢) ج : د وناصبه .

(١ - ١) ساقط من ب .

أحييت أن يصحبك حتى تأتي مصر ومعك جند ، فإن ذلك أرعب لعدوك؛ وأعرض لولاك .
فإذا أنت قدمتها إن شاء الله ، فأحين إلى الحين ، واشتد^(١) على الريب ، وارفق بالعامّة
والخاصّة فإرفق بمن .

فقال قيس : رحمتك الله يا أمير المؤمنين ! قد فهمت ما ذكرت ، فأما الجند فأني أدعه
لك ، فإذا احتجبت إليهم كانوا قريباً منك ، وإن أردت بهم إلى وجه من وجوهك كان
لك عُدّة ، ولكي أسير إلى مصر بنفسى وهل يبتى ؛ وأما ما أوصيتني به من الرفق والإحسان
فإنه تعالى هو المستعان على ذلك .

قال : يخرج قيس في سبعة نفر من أهله حتى دخل مصر ، فصمد للنبر ، وأمر
بكتاب منه يُقرأ على الناس ، فيه :

من عبد الله على أمير المؤمنين إلى من بلغه كتابي هذا من المسلمين . سلام عليكم ؛ فإني
أحمد الله إليكم الذي لا إله إلا هو .

أما بعد ؛ فإن الله بحسن صنعه وقد ربه وتربى به أحسن الإسلام ديناً لنفسه وملائكته ورسله ،
وبعث به أنبياء إلى عباده ؛ فكان مما أكرم الله عز وجل به هذه الأمة وخصهم به من
الفضل أن بعث محمداً صلى الله عليه وسلم إليهم ، فعلمهم الكتاب والحكمة والسنة والفرائض
وأدبهم لكيما يهتدوا ، وجمعهم لكيلا يتفرقوا ، وزكّاهم لكيما يتطهروا ؛ فلما قضى من
ذلك ما عليه ، قبضه الله إليه ، فعليه صلوات الله وسلامه ورحته ورضوانه . ثم إن المسلمين
من بعده استغلّفوا أميرين منهم صالحين ، فعلا بالكتاب والسنة وأحيوا السيرة ؛ ولم يمدّوا
السنة . ثم توفّقيا رحمهما الله ، فوّلّى مدهما وإلّا أحدثا أحداثاً ، فوجدت الأمة عليه مقالا
قالوا ، ثم نقموا فغيروا ثم جادوني فبايموني ، وأنا أستهدي الله الهدى ، وأستعينه على
التقوى . ألا وإن لكم علينا الممل بكتاب الله وسنة رسوله والقيام بحقه ، والنصح لكم
بالغيب ، والله المستعان على ما تصفون ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

وقد بعث لكم قيس بن سعد الأنصاري أميراً ، فوازيروه وأعينوه على الحق ، وقد أمرته بالإحسان إلى محبتكم ، والشدة على مريكم ، والرفق بموالاتكم وحواسنكم ؛ وهو ممن أرضى هديته ، وأرجو صلاحه ونصحه . نأل الله لنا ولكم عملاً زاكياً ، وثواباً جزيلاً ورحمة واسعة ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وكتبه عبدالله بن أبي رافع في صفر سنة ست وثلاثين .

قال إبراهيم : فلما فرغ من قراءة الكتاب ، قام قيس حطياً فحيداً لله وأثنى عليه ، وقال : الحمد لله الذي جاء بالحق ، وأبطل الباطل ، وكبّت الظالمين . أيتها الناس ؛ إنا بأئسنا خيراً من علم من بعد نبينا محمد صلى الله عليه وآله ؛ فقوموا فبايعوا على كتاب الله وسنة رسوله ، فإن من لم يعمل بكتاب الله وسنة رسوله فلا بيعة لنا عليكم .

فقام الناس فبايعوا ، واستقامت مصر وأعمال قيس ، وبعث عليها عماله ؛ إلا أن قرية منها قد أعظم أهلها قتل عثمان ، وسأرحل من بني كنانة يقال له يزيد بن الحارث ، فبعث إلى قيس : إنا لا نأتيك فابست عثالك ، فالأرض أرحك ؛ ولكن أقرتنا على حالنا حتى نلظر إلى ما يصير أمر الناس

ووثب محمد بن مسلمة بن مخلد بن صامت الأنصاري فتنى عثمان ، ودعا إلى الطلب بدمه ؛ فأرسل إليه قيس : ويحك ! أعلّ تذيب ! والله ما أحب أن لي ملك الشام ومصر وأني قتلتك فاحسن دمع فأرسل إليه مسلمة : إني كاف عنك سادمت أنت وإلى مصر . وكان قيس بن سعد ذا رأي وحزم ، فبعث إلى الذين اعتزلوا : إني لا أكرهكم على البيعة ، ولكني أدعكم وأكف عنكم فهادنهم وهادن مسلمة بن مخلد ، وجبى الخراج ؛ وليس أحد ينازعه .

قال إبراهيم : وخرج علي عليه السلام إلى الجمل ؛ وقبس على مصر ، ورجع من البصرة إلى الكوفة ، وهو مكاه ، فكان اتقل خلق الله على معاوية لقرب مصر وأعمالها من الشام ، ومخافة أن يقبل على أهل العراق ، ويقبل إليه قيس بأهل مصر ؛ فيقع بينهما . فكتب معاوية إلى قيس ، وعلى يومئذ بالكوفة قبل أن يسير إلى صفين :

من معاوية بن أبي سفيان إلى قيس بن سعد . سلام عليك ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو .

أما بعد ؛ فاتكم إن كنتم تقيم على عثمان في أثره رأيتموها ، أو صرة سوط صرّ بها ، أو في شتمه رجلا ، أو تمبيره واحداً ، أو في استعماله الثياب من أهله - فاتكم قد علمتم إن كنتم تعلمون ، أن دمه لم يحل لكم بذلك ؛ فقد ركبتم عظيماً من الأمر ، وجئتم شيئاً إذا ، فقب يا قيس إلى ربك ، إن كنت من المحلين على عثمان ؛ إن كانت النوى قبل الموت نعى شيئاً وأما صاحبك فقد استيقنا أنه أغرى الناس بقتله ، وحملهم على قتله حتى قتلوه ، وأنه لم يسلم من دمه عظم قومك ، فإن استطعت يا قيس أن تكون ممن يطلب بدم عثمان فافعل ، وتابنا على في أمرنا . هذا ولك سلطان المراقين إن أبا ظفرت ما بقيت ؛ ولئن أحببت من أهل بيتك سلطان الحجاز مادام لي سلطان ، وسئني عن غير هذا مما تحب ، فإنك لا تسألني شيئاً إلا أتيتك ؛ واكتب إلى رابك فيما كتبت إليك .

فلما جاء إليه كتاب معاوية أحب أن يدعه ، ولا يبدى له أمره ، ولا يعجل له حربه ، فكتب إليه :

أما بعد ؛ فقد وصل إلى كتابك ، وفهمت قدي ذكرت من أمر عثمان ؛ وذلك أمر لم أقاربه . وذكرت أن صاحبى هو القدي الناس بثمان ودسهم إليه حتى قتلوه ؛ وهذا أمر لم أطلع عليه . وذكرت لي أن عظم حشيتي لم تسلم من دم عثمان ؛ فلمرى إن أولى

الناس كان في أمره عشرين ، وأما ما سألتني من مبايعتك على الطلب بدمه ، وما عرضته على فقد فهمته ، وهذا أمر لي نظر فيه وفكر ، وليس هذا مما يجعل إلى مثله ، وأنا كاف عنك ؛ وليس بأتيتك من قبلي شيء تكرهه ؛ حتى ترى وري ، إن شاء الله تعالى والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

قال إبراهيم : فلما قرأ معاوية كتابه لم يره إلا مقارباً مباعداً ، ولم يأمن أن يصحكون له في ذلك محادداً مكابداً ، فكتب إليه :

أما بعد ، فقد قرأت كتابك ؛ فلم أرك تدبر فأعدك سيئاً . ولم أرك تتباعد فأعدك حرباً ، أراك كعجل الجرور ؛ وليس مثلي يصانع بالخداع ، ولا يحدع بالمكايد ، ومعه عدد الرجال وأعيان الخيل ، فإن قبلت الذي عرضت عليك فلك ما أعطيتك ؛ وإن أنت لم تفعل ملأت مصر عليك خيلاً ورجلاً . والسلام .

فلما قرأ قيس كتابه ، وعلم أنه لا يقبل منه المدافعة والمطاولة ، أظهر له ما في نفسه ، فكتب إليه :

من قيس بن سعد ؛ إلى معاوية بن أبي سفيان :

أما بعد ، فالحجب من استسقاطك رأيي ، والطمع في أن تسومني - لا أباً لعمرك - الخروج من طاعة أولي الناس بالأمر ؛ وأقولهم بالحق ، وأهدام سبيلا ، وأقريهم من رسول الله وسيلة . وتأمري بالدخول في طاعتك وطاعة أمهات الناس من هذا الأمر ؛ وأقولهم بالزور . وأضلهم سبيلا ، وأدناهم من رسول الله وسيلة ؛ ولديك قوم ضالون مضلون . طواغيت من طواغيت إبليس . وأما قولك إنك تملأ على مصر خيلاً ورجلاً ؛ فلئن لم أشغلك عن ذلك حتى يكون منك ، إنك لقد وجد . والسلام .

فلما أتى معاوية كتاب قيس ؛ أبس وتقل مكانه عليه ؛ وكان ^(١) أن يكون مكانه غيره أحب إليه ، لما يعلم من قوته وتأنيبه ^(٢) وتبذره ، واشتداد أمره على معاوية ؛ فأظهر للناس أن

(١) ج : « ورأي » .

(٢) ج : « ويأسه » .

قيساً قد بابكم ، فادعوا الله . وقرأ عليهم كتابه الذي لان فيه وقاربه ، واخترق كتابا
نسيه إلى قيس فقرأه على أهل الشام :

للأمير معاوية بن أبي سفيان من قيس بن سعد :

أما بعد ؛ إن قتل عثمان كان حدثاً في الإسلام عظيماً ؛ وقد نظرتُ لنفسي ودينى ،
فلم أرى سعى مظاهره قوم قتلوا إمامهم مسلماً محرمّاً برّاً تقيّاً ، فاستمعر الله سبحانه لذنوبنا ،
ونسأله العصمة لديننا . ألا وإني قد أقيمت إليكم بالسلام ، وأحببتُك إلى قتال قتلة إمام
الهدى المظلوم ؛ فاطلب مِنِّي ما أحببتَ من الأموال والرجال أجمَله إليك إن شاء الله .
والسلام على الأمير ورحمة الله وبركاته .

قال : فشاع في الشام كلها أن قيساً صالح معاوية ، وأنت عيونُ علي بن أبي طالب
إليه بذلك ، فأعظمه وأكبره ونعجب به ، ودعا ابنه حسناً وحسيناً وابنه محمداً وعبد الله
ابن جعفر ، فأعلمهم بذلك ، وقال لسائر أربابكم ؛ فقال عبد الله بن جعفر : يا أمير المؤمنين ،
دع ما يربيك إلى ما لا يربيك . أعزل قيساً عن نصر . قال علي : والله إني غيرُ مصدق
بهذا على قيس . فقال عبد الله : أعزله يا أمير المؤمنين ، فإن كان ما قد قيل حقا فلا يعتزل
لك أن عزله ؛ قال : وإنهم لكذلك إذ جاءهم كتاب من قيس بن سعد ، فيه :

أما بعد ، فإني أخبرُ يا أمير المؤمنين - أسكرمك الله وأعزك - إن قبلي رجالا
معتزلين سألونني أن أكف عنهم وأدعهم على حالهم حتى يستقيم أمرُ الناس فترى
ويرون ، وقد رأيتُ أن أكف عنهم ولا أجهل بحرثهم ، وأن أنالهم فيما بين ذلك ؛
لعل الله أن يقبل بقلوبهم ، وبغرتهم عن ضلالهم إن شاء الله . والسلام

فقال عبد الله بن جعفر : يا أمير المؤمنين ، إنك إن أطلعت في تركهم واستزاليهم
استشرى الأمر وتفاقت الفتنة ، وقعدت عن يمينك كثير ممن تريد على الدخول فيها ،
ولكن مره بقتالهم . فكذب إليه :

أما بعد ؛ فير إلى القوم الذين ذكرت ، فإن دخلوا فيها دخل فيه السلون
ولا فاجزم ، والسلام .

قال : فلما أتى هذا الكتاب قيساً قراء لم يتألمك أن كتب إلى علي :
أما بعد ؛ يا أمير المؤمنين ، تأمرني بفصال قوم كافين منك ، ولم يمدوا يداً
للفتنة ، ولا أرسدوا لها ، فأطعني يا أمير المؤمنين ، وكف عنهم ، فلبت الرأي
تركهم ، والسلام .

فلما أتاه هذا الكتاب ، قال عبد الله بن جعفر : يا أمير المؤمنين ، ابست محمد بن أبي
بكر إلى مصر بكفك أمرها ، واعزل قيساً ؛ فوافقه لئلي أن قيساً يقول : إن سلطاننا لا يتم إلا
بقتل مسلمة بن مخلد لسلطان سوء ؛ والله ما أحب أن لي سلطان الشام مع سلطان مصر ، وأنتي
قلت إن مخلد . وكان عبد الله بن جعفر أخا محمد بن أبي بكر لأمه ؛ وكان يحب أن يكون
له إمرة وسلطان ؛ فاستعمل علي عليه السلام محمد بن أبي بكر على مصر ، لخبته له ولهو عبد
الله بن جعفر أخيه فيه ؛ وكتب معه كتاباً إلى أهل مصر ، فصار حق قدمها ، فقال له قيس :
ما بال أمير المؤمنين ما ففيرة ! أدخل أحد يني ويينه ! قال : لا وهذا السلطان سلطانك .
— وكان بينهما نسب ، كان تحت قيس قرربة بنت أبي قحافة أخت أبي بكر الصديق ، فكان
قيس زوج عمته — فقال قيس : لا والله لا أقم معك ساعة واحدة ، وغضب حين عزله علي
عنها ، وخرج منها مقبلاً إلى المدينة ولم يعض إلى علي بالكوفة .

قال إبراهيم : وكان قيس مع شجاعته ونجذته جواداً منضالاً ؛ فحدثني علي بن محمد
ابن أبي سيف ، عن هاشم ، عن عروة ، عن أبيه ، قال : لما خرج قيس بن سعد من مصر ، فر
بأهل بيت من بلقين ، فنزل بمائهم ، فنعره له صاحب المنزل جزوراً وأتاه بها ، فلما كان
الغد نحر له أخرى ، ثم حبستهم السماء اليوم الثالث ، فنعر لم ثلاثة ، ثم إن السماء أفلقت

فلما أراد قيس أن يرتحل ، وضع عشرين توباً من ثياب مصر ، وأربعة آلاف درهم عند امرأة الرجل ؛ وقال لها : إذا جاء صاحبك ، فادفني هذه إليه ، ثم رحل ؛ فلما أتت عليه إلا ساعة حتى لحقته الرجل صاحب المزل على فرس ، ومعه رمح ، والثياب والدرهم بين يديه ، فقال : يا هؤلاء ، خذوا ثيابكم ودراهمكم فقال قيس : انصرف أيها الرجل ، فإننا لم نكن لناخذها ؛ قال : والله لناخذنها ، فقال قيس : لله أبوك ! ألم تكرر لنا وتحسن ضيافتنا فكافأناك ! فليس بهذا بأس ؛ فقال الرجل : إنما لا مأخذ يقرى الأضياف ثمنا ؛ والله لا آخذها أبدا . فقال قيس : أما إذا بي ألا بأخذها فخذوها^(١) ؛ فوالله ما فضل رجل من العرب غيره .

قال إبراهيم : وقال أبو المنذر : مر قيس في طريقه برجل من كلب ، يقال له : الأسود ابن فلان ، فأكرمه ، فلما أراد قيس أن يرتحل وضع عند امرأته ثيابا ودرهما ، فلما جاء الرجل دفعته إليه ، فلقته فقال : ما أبا بائع ضيافتى ؛ والله لناخذن هذا أو لأهذن الرمح بين جنبتك ؛ فقال قيس : ويحكم خذوه !

قال إبراهيم : ثم أقبل قيس حتى قدم المدينة ، فجاءه حسان بن ثابت شامتا به . وكان حسانيا . فقال له : نزعك على بن أبي طالب ، وقد قتلت حسان ، فبقى عليك الإثم ، ولم يحسن لك الشكر ! فزجره قيس وقال : يا أعمى القلب ، يا أعمى البصر ، والله لو لا ألقى بين رجلي ودرهملك حرباً لضربت عنقك . ثم أخرجه من عنده .

قال إبراهيم : ثم إن قيساً وسهل بن حنيف ، خرجا حتى قدما على الكوفة ، فخبّر قيس الخبر وما كان بمصر فصدقه . وشهد مع عليّ صفيين هو وسهل بن حنيف قال إبراهيم : وكان قيس طويلاً أطول الناس وأمدّم قامه ، وكان^(٢) سباطاً أصلع شيخاً شجاعاً مجرباً متاعماً لعلّ ولولاه ، ولم يزل على ذلك إلى أن مات .

(١) هافطة من ب .

(٢) السناد : القى لا لجة له .

قال إبراهيم : حدثني أبو غسان ، قال : أخبرني علي بن أبي سيف ، قال : كان جيس بن سعد مع أبي بكر وعمر في سفر في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله ، فكان ينفق عليهما وعلى غيرهما وبفضل . فقال له أبو بكر : إن هذا لا يقوم به مال أبيك فأمسك يدك . فلما قدموا من سفرهم قال سعد بن عباد لأبي بكر : أردت أن تبخل ابني إنا نقوم لا نستطيع البخل .

قال : وكان قيس بن سعد يقول في دعائه : اللهم ارزقني تحداً ومجداً وشكراً ، فإنه لا تحداً إلا بفعل ، ولا مجد إلا بمال . اللهم وسع علي فإن القليل لا يسمي ولا أسه .

•••

[ولاية محمد بن أبي بكر على مصر وأخبار مقتله]

قال إبراهيم : وكان عهد علي إلى محمد بن أبي بكر الذي قرئ عصر : هذا ما عهد به الله على أمير المؤمنين إلى محمد بن أبي بكر حين ولاء مصر ؛ أمره بتقوى الله في السر والعلانية ، وخوف الله تعالى في الخفية والشهد ، وأمره باللين على المسلم ، واللفظ على الفاجر ، وبالمذل على أهل الذمة ، وبالإتصاف للظلم ، وبالشدّة على الظالم ، وبالعفو عن الناس وبالإحسان ما استطاع ؛ والله يجرى المحسن . وأمره أن يدعو من قبله إلى الطاعة والجماعة ؛ فإن لم في ذلك من العاقبة وعظم للثوبة ما لا يقدر قدره ولا يعرف كنهه . وأمره أن يجبي خراج الأرض على ما كانت تجبي عليه من قبل ، ولا ينتقص ولا يبتدع ، ثم يقسمه بين أهله كما كانوا يقسمونه عليه من قبل ؛ وإن تمكن لم حاجة يوايس بينهم في مجلسه ووجهه ؛ ليكون القريب والبعيد عنده على سواء . وأمره أن يحكم بين الناس بالحق ، وأن يقوم بالقسط ، ولا يتبع الهوى ، ولا يخاف [في الله ^(١)] لومة لائم ؛ فإن الله مع من اتقاها وآثر طاعته على من سواه .

(١) من الله ج .

وكتبه عبد الله بن أبي رافع مولى رسول الله لثروة شهر رمضان سنة ست وثلاثين .
 قال إبراهيم : ثم قام محمد بن أبي بكر خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ، وقال : أما بعد
 فالحمد لله الذي هدانا وإياكم لما اختلف فيه من الحق ، وبصرنا وإياكم كثيراً بما هي
 عنه الجاهلون . ألا وإن أمير المؤمنين ولأبي أمورك ، وعهد إلى بما سمعتم ، وأوصاني
 بكثير منه مشافهة ، ولن آلوكم خيراً ما استطعت ؛ وما توفيتي إلا بالله عليه توكلت وإليه
 أنيب . فإن يكن ما ترون من آثاري وأعمال طاعة لله وتقوى ، فاحمدوا الله على ما كان
 من ذلك ؛ فإنه هو الهادي إليه ؛ فإن رأيتم من ذلك مملاً بنير الحق ، فارفضوه إلى ، وعاتبوني
 عليه ، فإنني بذلك أسعد وأنتم بذلك جديرون . وقتنا الله وإياكم لصالح العمل .
 قال إبراهيم : وحدثني يحيى بن صالح ، عن مالك بن خالد الأسدي ، عن الحسن بن
 إبراهيم ، عن عبد الله بن الحسن بن الحسن ، قال : كتب علي عليه السلام إلى أهل مصر
 لما بعث محمد بن أبي بكر إليهم كتاباً يخاطبهم به ^(١) ، ومخاطب محمد أيضاً فيه :
 أما بعد ، فإن أوصيكم بتقوى الله في سر وأمركم وعلائقته ؛ وعلى أية حال كنتم
 عليها ؛ وليعلم الرء منكم أن الدنيا دار بلاء وفاء ، والآخرة دار جزاء وبقاء ؛ فمن استطاع
 أن يؤثر ما يبقى على ما يفسد فليفعل ؛ فإن الآخرة تبقى ، والدنيا تفسد . رزقنا الله وإياكم
 بصراً لما نعرفنا وفهمنا لما فهمنا ؛ حتى لا نقصر عما أمرنا ، ولا نتعدى إلى ما نهانا . واعلم
 يا محمد أنك وإن كنت محتاجاً إلى نصيبك من الدنيا إلا أنك إلى نصيبك من الآخرة
 أحوج ، فإن عرض لك أمران : أحدهما للآخرة والآخر للدنيا ، فابدأ بأمر الآخرة ،
 ولتعظم رغبتك في الخير ، ولتعسن فيه نفسك ، فإن الله عز وجل يعطي العبد على قدر نيته ؛
 وإذا أحبب الخير وأهله ولم يعمله كان إن شاء الله كمن عمله ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم
 قل حين رجع من تبوك : إن بالمدينة لأقواماً ماسرئاً من مسير ، ولا هم يهتم من واد إلا

(١) ب : د : ه : وما أئنه من ا : ج .

كانوا معكم؛ ما حبسهم إلا للرض - يقول : كانت لهم ثبة - ثم اعلم يا محمد أني قد وليتك أعظم
أجنادي أهل مصر ، ووليته ما وليتك من أمر الناس ، فأنت محقوق أن تخاف فيه على
نفسك ، وتحذر فيه على دينك ؛ ولو كان ساعة من نهار . فإن استطعت ألا تسخط ربك
رضا أحد من خلقه فافعل ، فإن في الله خفياً من غيره ، وليس في شيء خلف منه ، فاشتد على
الظالم ، وإن لأهل الخير ، وقرّبهم إليك ، واجعلهم بطانتك وإخوانك . والسلام .

قال إبراهيم : حدثني يحيى بن صالح ، عن مالك بن خالد ، عن الحسن بن إبراهيم ،
عن عبد الله بن الحسن بن الحسن ، قال : كتب عليّ إلى محمد بن أبي بكر وأهل مصر :
أما بعد ، فإنّي أوصيكم بتقوى الله والعمل بما أتم عنه مسؤولون ، فأتم به رهن ، وإليه
صاثرون ، فإن الله عزّ وجلّ يقول : ﴿ كَلِّمُوا نَفْسَكُمْ بِمَا كَسَبَتْ رَجِيئَةً ﴾ ^(١) . وقال :
﴿ وَيُحَذِّرُكُمْ أَفْهَ نَفْسِهِ وَإِلَى أَفْهٍ الْمَصِيرُ ﴾ ^(٢) . وقال : ﴿ مَوَدَّةُكَ لَنَا لَكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾
﴿ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ^(٣) .

واعلموا عباد الله أن الله سائلكم من الصغير من أمهالك والكبير ؛ فإن يذنب
فتعن الظالمون ، وإن يفر ويرحم فهو أرحم الراحمين . واعلموا أن أقرب ما يكون العبد
إلى الرحمة والمعرفة حينما يعمل طاعة لله ومناجاة في التوبة ، فمليكم بتقوى الله عزّ وجلّ ؛
فإنها تجمع من الخير ما لا يجمع غيرها ، ويذكر بها من الخير ما لا يدرك بغيرها خير الدنيا وخير
الآخرة ؛ يقول الله سبحانه : ﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ لِلَّذِينَ
أَخْسَرُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلِذَلِكَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴾ ^(٤) .
واعلموا عباد الله أن المؤمنين المؤمنين قد ذهبوا بساجل الخير وآجله ، شرّكوا أهل الدنيا في دنياهم

(١) سورة الذر ٣٨ .

(٢) سورة آل عمران ٢٨ .

(٣) سورة المجر ٩٢ ، ٩٣ .

(٤) سورة البقر ٣٠ .

ولم يشاركهم أهل الدنيا في آخرتهم ؛ يقول الله عز وجل : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ أَهْلِ
الْبَيْتِ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ قُلُوبُ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً
يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ ^(١) ؛ سكنوا الدنيا بأفضل ما سكنت ، وأكلوها بأفضل ما أكلت ، شاركوا
أهل الدنيا في دنياهم ، فأكلوا من أفضل ما يأكلون ، وشربوا من أفضل ما يشربون ، ويلبسون
من أفضل ما يلبسون ، ويسكنون من أفضل ما يسكنون ، أصابوا لذة أهل الدنيا مع أهل
الدنيا مع أنهم غداً من جيران الله عز وجل ، يبتغون عليه ، لا يرد لهم دهوة ، ولا ينقص لهم
لذة . أمانى هذا ما يشاق إليه مَنْ كان له عقل !

واعلموا عباد الله أنكم إذا اتقيتم ربكم ، وحفظتم نبيكم في أهل بيته ، فقد عبدتموه
بأفضل ما عبيد ، وذكركم بآله بأفضل ما ذكر ، وشكرتموه بأفضل ما شكر ، وأخذتم بأفضل الصبر ،
وجاهدتم بأفضل الجهاد ؛ وإن كان غيركم أطول صلاة منكم ، وأكثر صياماً ، إذا كنتم
أتقى لله وأنصح لأوليائه الله من آل محمد صلى الله عليه وآله وأخضع واحذروا عباد الله اللوت
وتزوله ، وخذوله ، فإنه يدخل بأمر عظيم ؛ خير لا يكون معه شر أبداً ، أو شر لا يكون معه
خير أبداً . وليس أحد من الناس يفارق روحه جسده ، حتى يعلم إلى أى النزلتين بصير ؛ إلى
الجنة أم إلى النار ! أعدو هو الله أم ولى له ! فإن كان ولياً فتحت له أبواب الجنة ، وشرع
له طريقها ، ونظر إلى ما أعد الله عز وجل لأوليائه فيها ؛ فرع من كل شغل ، ووضع عنه
كل ثقل ؛ وإن كان عدواً فتحت له أبواب النار ، وسهل له طريقها ، ونظر إلى ما أعد
الله فيها لأهلها . واستقبل كل مكروه ، وفارق كل سرور ، قال الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمْ
لِللَّائِكَةِ ظَالِمِينَ فَاَلْفَوْا السَّلَامَ مَا كُنْهُمْ أَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴾ فاذخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فلبئس مثوى المتكبرين ^(٢) .

واعلموا عباد الله أن اللوت ليس منه موت ، فاحذروه وأعدوا له عذته ، فإنكم

(١) سورة الأعراف ٣٢ .

(٢) سورة النحل ٢٨ ، ٢٩ .

طرداه للموت ؛ إن قم أخذكم ، وإن هربتم أدرككم ؛ وهو ألزم لكم من ظلمكم ، مفعولاً
بنواحيكم ، والدنيا تطوى من خفيكم ؛ فأكثرُوا ذكرَ الموتِ عند ما تنالِكم إليه
أنفسكم من الشهوات ، فإنه كفى بالموت واعظاً . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« أَكثَرُوا ذَكَرَ الْمَوْتِ فَإِنَّهُ هَاذِمُ الذَّاتِ ^(١) » .

واعلموا عبادَ الله أن ما بعد الموت أشد من الموت ؛ لمن لم ينفذ الله له ورجه .
واحذروا القبرَ وضيقه وخطفه ؛ فإنه لدى بكم كل يوم : أنا بيت القراب ،
وأنا بيت الغربة ، وأنا بيت الدود . والقبر روضة من رياض الجنة . أو حفرة من حفر
النار . إن المسلم إذا مات قالت له الأرض مرحباً وأهلاً ؛ قد كنت بمن أحب أن تمسى
على ظهري ، فإذا وليتك فستلم كيف يحسن بك فينزع له مد بصره . وإذا دُفِنَ الكافر
قالت له الأرض : لا مرحباً ولا أهلاً ؛ قد كنت بمن أبغض أن تمسى على ظهري ، فإذا
وليتك فستلم كيف يحسن بك فينزع عليه حتى يلتقي أخلاعه .

واعلموا أن الميعة الضئيلة التي قال سبحانه : (فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً) ^(٢) هي
عذابُ القبر ، فإنه يسلط على الكافر في قبره حياتٍ عظام تنهش لحمه حتى يبعث ، لو
أن تنبتاً منها نفع الأرض ما أنبت الزرع أبداً .

اعلموا عبادَ الله أن أنفسكم وأجسادكم الرقيقة الناعمة التي يكفيها اليسير من المقاب
ضعيفة عن هذا ، فإن استطعتم أن ترحموا أنفسكم وأجسادكم بما لا طاقة لكم به ،
ولا صبر لكم عليه ؛ فتعملوا بما أحب الله سبحانه وتتركوا ما كرهه ؛ فافعلوا ؛ ولا حول
ولا قوة إلا بالله !

واعلموا — عباد الله — أن ما بعد القبر أشد من القبر ؛ يوم يشيب فيه الصغير ، ويكره فيه

(١) هادم : طامع ، ونفية الحديث : « فإنه لا يكون كثير إلا فله ، ولا قلب إلا أجزله » ،

نقله في الجامع الصغير ١ : ٩٠ .

(٢) سورة طه ١٢٤ .

الكبير ؛ وتذهل كل مرضعة عما أرضعت . واحذروا يوماً عبوساً قطعيراً ، كان شره مستطيراً . أما إن شر ذلك اليوم وفزعه استطار حتى فزعت منه لللائكة الذين ليست لهم ذنوب ، والسبع الشداد ، والجبال الأوتاد ، والأرضون للهاد . وانشقت السماء فهي يومئذ واهية ، وتميرت فكانت وردة كالدخان ، وكانت الجبال سرايا ، بعد ما كانت صفاً صلاباً ؛ يقول الله سبحانه : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَقَّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ ^(١) . فكيف بمن يعصيه بالسمع والبصر ، واللسان واليد ، والفرج والبطن ؛ إن لم يغفر الله ويرحم !

واعلموا — عباد الله — أن ما بعد ذلك اليوم أشد وأذى ؛ نارٌ قمرها سيد ، وحرها شديد ، وعذاها جديد ، ومقاميها حديد ، وشم أبها حديد ، لا يفتقر عذاها ، ولا يموت ساكنها ؛ دارٌ ليست لله سبحانه فيها رحمة ، ولا يسع فيها دعوة ؛ ومع هذا رحمة الله التي وسعت كل شيء ، لا تعجز عن الساد ، وجنة عرشها كمرض السماء والأرض ، خير لا يكون بعده شر أبداً ، وشهوة لا تنفذ أبداً ، ولذة لا تنفد أبداً ، وجمع لا يتفرق أبداً . قوم قد جاؤوا الرحمن ، وقام بين أيديهم اللئان ، بصحافٍ من ذهب فيها الفاكية والريمان . وإن أهل الجنة يزورون الجبار سبحانه في كل جمعة ، فيكون أقربهم منه على منابر من نور ، والذين يلونهم على منابر من ياقوت ؛ والذين يلونهم على منابر من صلك ، فيبنام كذلك ينظرون الله جل جلاله ، وينظر الله في وجوههم ؛ إذ أقبلت سعابة تفشام فتمطير عليهم من النعمة واللذة والسرور والبهجة ما لا يعلمه إلا الله سبحانه ومع هذا ما هو أفضل منه ، رضوان الله الأكبر .

أما إنا لو لم نخوف إلا ببعض ما خوفنا به لكنا محقوقين أن يشدد خوفنا بما لا طاقة

فأبه ، ولا صبر لقوتنا عليه ؛ وأن يشتد شوقنا إلى ما لا غنى لنا عنه ولا بد لنا منه ؛ فإن استطعتم عباد الله أن يشتد خوفكم من ربكم فافعلوا ؛ فإن العبد إنما تكون طاعته على قدر خوفه ؛ وإن أحسن الناس لله طاعة ، أشدهم له خوفاً .

وانظر يا محمد صلاتك كيف تصلّيها ؛ فإنما أنت إمام ينبغي لك أن تتبها وأن تحققها وأن تصلّيها لوقتها ، فإنه ليس من إمام يصلي بقوم فيكون في صلاته وصلاتهم نقص إلا كان إثم ذلك عليه ، ولا ينقص من صلاتهم شيئاً .

واعلم أن كل شيء من هلك ينسب صلاتك ، فمن ضيع الصلاة فهو لمسيرها أشدّ تضييعاً ، ووضوءك من تمام الصلاة ، فأب به على وجهه ؛ فالوضوء نصف الإيمان . أسأل الله الذي يرى ولا يرى وهو المُنظر الأعلى ، أن يجعلنا وإياك من المتقين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

فإن استطعتم يا أهل مصر ، أن تصدق أقوالكم أفعالكم ، وأن يتوافق سيركم وعلايتكم ، ولا تحالف السننكم قلوبكم فافعلوا . عصمتنا الله وإياكم بالهدى ، وسلك بنا وبكم الحجة الوسطى . وإياكم ودعوة الكذاب ابن هند . وتأملوا واعلموا أنه لا سوى إمام الهدى وإمام الردى ، ووصى النبي وعدوّ النبي ؛ جعلنا الله وإياكم بمن يحب ويرضى . ولقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إني لا أخاف على أمتي مؤمناً ولا مشركاً ؛ أما للمؤمن فيمنعه الله بإيمانه ، وأما المشرك فيخربه الله بشركه ؛ ولست أرى أخاف عليهم كل منافق اللسان ؛ يقول ما يعرفون ، ويفعل ما تنكرون » .

واعلم يا محمد أن أفضل الفقه الورع في دين الله ، والعمل بطاعته ، فليكن بالتقوى في سير أمرك وعلايتك ، أو صيكت بسبع هن جوامع الإسلام : اخش الله ولا تخش الناس في الله ؛ وخير القول ما صدقه العمل ؛ ولا تقض في أمر واحد بقضاءين مختلفين فيتناقض

أمرُك وتزيغ عن الحق . وأحب لعامة رعيّتك ما تحبه لنفسك ، وأكره لهم ما تكره لنفسك . وأصلح أحوال رعيّتك ، وخض الصرات إلى الحق ، ولا تخف لومة لائم . وانصح لمن استشارك ، واجعل نفسك أسوة قريب المسلمين وميِّد . جعل الله خلتنا وودنا خلة المؤمنين وود الخالصين ، وجمع بيننا وبينكم في دار الرضوان إخوانا على سرر متقابلين . إن شاء الله .

قال إبراهيم بن سعد الثقفي : حدثني عبد الله بن محمد بن عثمان ، عن علي بن محمد بن أبي سيف ، عن أصحابه ، أن علياً لما كتب إلى محمد بن أبي بكر هذا الكتاب ، كان ينظر فيه ويتأدب بأدبه ، فلما ظهر عليه عمرو بن العاص وقتله ، أخذ كتبه أجمع ، فبثها إلى معاوية ، فكان معاوية ينظر في هذا الكتاب ويتمتع به ، فقال الوليد بن عتبة ، وهو عند معاوية ، وقد رأى إعجابه به : مرّ بهذه الأحاديث أن محرق ، فقال معاوية : مه ! لا رأي لك ! فقال الوليد : أفمن رأى أن يعلم الناس أن أحاديث أبي تراب عندك تتلم^(١) ، منها قال معاوية : وبحك ! أنا مرنى أن أحرق^(٢) مثل هذا والله ما سمعت به لم هو أجمع منه ولا أحكم . فقال الوليد : إن كنت تعجب من علمه وقصائه فسلام تقائه ! فقال : لولا أن أبا تراب قتل عثمان ثم أقتلنا لأخذنا منه . ثم سكّت هنيئة ، ثم نظر إلى جلسائه فقال : إنا لا نقول : إن هذه من كتب علي بن أبي طالب ، ولكن نقول : هذه من كتب أبي بكر الصديق كانت عند ابنه محمد ، فنعن ننظر فيها ، ونأخذ منها .

قال : فلم تزل تلك الكتب في خرائن بني أمية ! حتى ولي عمر بن عبد العزيز ، فهو الذي أظهر أنها من أحاديث علي بن أبي طالب عليه السلام .



قلت : الأليق أن يكون الكتاب الذي كان معاوية ينظر فيه ويعجب منه ،

(١) ج : • • • • •

(٢) ج : • • • • •

ويفتح به ويقضى بقضائه وأحكامه هو عهد على عليه السلام إلى الأشر، فإنه نسيج وحده،
ومنه تعلم الناس الآداب والقضايا والأحكام والسياسة؛ وهذا العهد صار إلى معاوية لما سم
الأشر ومات قبل وصوله إلى مصر؛ فكان ينظر فيه ويمعجب منه، وحقيق من مثله أن يقتنى
في خزائن الملوك.

قال إبراهيم: قلنا بلغ علينا عليه السلام أن ذلك الكتاب صار إلى معاوية، اشتد
عليه حزنا.

وحدثني بكر بن بكار، عن قيس بن الربيع، عن ميسرة بن حبيب، عن عمرو بن
هرة، عن عبد الله بن سفيان، قال: سئل ما على عليه السلام، قلنا انصرف قال:
لَقَدْ حَسَرْتُ حَزَنَةً لَا أُعِيدُ سَوْفَ أَكْبِسُ بِسُودِهَا وَأُسْتَمِيرُ^(١)
• وأجمع الأمر الشئيت المنشر^(٢) •

قلنا: ما بالك يا أمير المؤمنين قال: إني استعملت محمد بن أبي بكر على مصر؛
فكتب إلى أن لا أعلم بالهبة، فكتب إلي كتابا فيه أدب وسنة، فقتل وأخذ الكتاب.
قال إبراهيم: فحدثني عبد الله محمد؛ عن ابن أبي سيف المدايني، قال: فلم يلبث محمد
ابن أبي بكر شهرا كاملا حتى بعث إلى أولئك للمنزلة الذين كان قيس بن سعد موادعا
لهم، فقال: يا هؤلاء، إما أن تدخلوا في طاعتنا، وإما أن تخرجوا من بلادنا. فمشوا إليه:
إنا لا فعل، فدعنا حتى ننظر إلى ما يصير إليه أمر الناس، فلا تفعل علينا. فأبى عليهم،
فانتقموا منه وأخذوا حذرهم. ثم كانت وقعة صفين؛ وهم الحمد هائبون؛ فلما أتاهم خبر
معاوية وأهل الشام، ثم صار الأمر إلى الحكومة، وأن عليا وأهل العراق قد قتلوا عن
معاوية والشام إلى عراقهم، اجترأوا على محمد بن أبي بكر، وأظهروا المناذلة له. فلما رأى
محمد ذلك بعث إليهم ابن جهمان البلوي ومعه يزيد بن الحارث الكنانى قاتلاهم،

(١) كاس يكبس وأكبس، من الكبس؛ وهو صد الحق. واستمر، أى أبى واعتد.

(٢) المنشر: التفرق.

قتلوهما . ثم بعث إليهم رجلا من كلب قتلوهما أيضا . وخرج معاوية بن جندب من الكساسك يدعو إلى الطلب بدم هنان ، فأجابه القوم وناس كثير آخرون ، وفقدت مصر على محمد بن أبي بكر ؛ فبلغ عليها توثبهم عليه ، فقل ما أرى لمصر إلا أحد الرجلين : صاحبنا الذي هزلنا بالأمس - يعني قيس بن سعد بن عباد - أو مالك بن الحارث الأشتر . وكان على حين رجوع عن صفين ، رد الأشتر إلى حمير بالجزيرة ، وقلل قيس بن سعد : أقم أنت معي على شرطتي حتى نفرغ من أمر هذه الحكومة ، ثم اخرج إلى أذربيجان ، فكان قيس مقبلا على شرطته ، فلما انقضى أمر الحكومة كتب على الأشتر ، وهو يومئذ بنصيبين : أما بعد ، فإنك ممن استظهر به على إقامة الدين ، وأقم به نخوة الأئمة ، وأشد به الشغف والخوف . وقد كنت وليت محمد بن أبي بكر مصر ، نفرجت عليه خوارج ، وهو وغلाम حدث السن ، ليس بذى تجربة للحروب ، فأقدم ^(١) على النظر فيما ينبغي . واستخلف على عملك أهل الثقة والنصيحة من أصحابك . والسلام

فأقبل الأشتر إلى علي ، واستخلف على عمله شبيب بن عامر الأزدي - وهو جد الكرماني الذي كان بحراسان صاحب نصر بن سيار - فلما دخل الأشتر على علي حدثته حديث مصر وخبره خبر أهلها ، وقال له : ليس لها غيرك ، فأخرج إليها رحك الله ، فلما لا أوصيك اكتفاء برأيك ؛ واستعين بالله على ما أمرك ، واخبط الشدة بالين ، وارفق ما كان الرفق أبلغ ، واعتزم على الشدة حين لا ينفع منك إلا الشدة .

نفرج الأشتر من عنده ، فلما برحله وأنت معاوية عيونه فأخبروه بولاية الأشتر مصر ، فعظم ذلك عليه ، وقد كان طمع في مصر ، فلم أن الأشتر إن قدم عليها كان أشد عليه من محمد بن أبي بكر ، فبعث إلى رجل من أهل الخراج يثق به ، وقال له إن الأشتر قد ولي مصر ، فإن كفيئته لم آخذ منك خراجا ما بقيت وبقيت ؛ فاحتل في هلاكه ما قدرت عليه .

(١) يقال : قدم الرجل البلد بضمه ، من باب نسب

تفرج الأشتر حتى انتهى إلى القلزم^(١) حيث تركب السفن من مصر إلى الحجاز ، فأقام به ، فقال له ذلك الرجل ، وكان ذلك المكان مكانه : أيها الأمير ؛ هذا منزل فيه طعام وعلف ، وأما رجل من أهل الحراج ، فاقم واسترح ، وأتاه بالطعام حتى إذا طعم سقاه مربة عسل ؛ قد جعل فيها سماً ، فلما شربها مات .

قال إبراهيم : وقد كان أمير المؤمنين كتب على يد الأشتر كتاباً إلى أهل مصر ؛ روى ذلك الشعبي عن حنيفة بن صوحان :

من عبد الله على أمير المؤمنين إلى من ؛ مصر من المسلمين :

سلام الله عليكم ، فإني أحمد الله إليكم ، الذي لا إله إلا هو ؛ أما بعد فإني قد بعثت إليكم عبداً من عباد الله ، لا ينال أتيام الخوف ، ولا يكلل عن الأعداء حذار الدوائر . لا يأكل من قدم ، ولا يوا في حرم ، من أشد عباد الله بأساً ، وأكرمهم حسباً ، أضرم على المعبر من حريق النار ، وأبعد السائل من دبر العار ، وهو مالك بن الحارث الأشتر ، حسام صادم ، لا يابى الصربية ، ولا يكلل الخدي ، عليم في السلم ، ورزين في الحرب ، ذورأى أصيل ، وصبر جميل . فاسمعوا له وأطيعوا أمره ، فإن أمركم بالنظر فافعلوا ، وإن أمركم أن تقيموا فاقموا ، فإنه لا يُقدم ولا يحجم إلا بأمرى . وقد آثرناكم به على نفسى نصيحة لكم ، وشدة شكية^(٢) على عدوكم . عصمكم الله بالهدى ، وثبتكم بالقوى ، ووفقنا وإياكم لما يحب ويرضى . والسلام عليكم ورحمة الله .

قال إبراهيم : وروى جابر عن الشعبي قال : هلك الأشتر حين أنى عتبة أفيق^(٣) .

قال إبراهيم : وحدثنا وطبة بن العلاء بن السهال العنوي ، عن أبيه ، عن عامر

(١) القلزم : مدينة بمصر على رأس الخليج للصاب إليها ، وأطلالها الآن قرب مدينة السويس .

(٢) الشكية : الأفة والانتصار من العلم .

(٣) أفيق ، بالفتح ثم الكسر : قرية من حوران .

ابن كليب ، عن أبيه ، أن علياً لما بعث الأشتر إلى مصر والياً عليها ، وبلغ معاوية خبره ، بعث رسولاً يتبع الأشتر إلى مصر ، وأمره باختياره ؛ فحمل معه مِرْزُودَيْنِ فيهما شراب ، وصعب الأشتر ، فاستسقى الأشتر يوماً فسقاه من أحدهما ، ثم استسقى يوماً آخر منه فسقاه من الآخر وفيه سمٌ فشربه ، فمالت عنقه . وطُلب الرجل قتلتهم .

قال إبراهيم : وحدثنا محرز بن هشام ، عن جرير بن عبد الحميد ، عن مغيرة الضبي ؛ أن معاوية دس للأشتر مولى آل عمر ، فلم يزل المولى يذكر للأشتر فضل عليّ وبنى هاشم ؛ حتى اطمأن إليه ، واستأنس به ، فقدم الأشتر يوماً ثَقْلَهُ ^(١) أو تقدم ثَقْلَهُ ، فاستسقى ماءً ، فقال له مولى آل عمر ^(٢) : وهل لك في شربة سويق ؟ فسقاه شربة سويق فيها سمٌ فمات . وقد كان معاوية قال لأهل الشام لما دس إليه مولى آل عمر : ادعُوا عليّ الأشتر ، فدَعَوْا عليه ؛ فلما بلغه موته قال : ألا ترون كيف استصحب لكم ؟

قال إبراهيم : قد رَوِيَ من بعض الوجوه أن الأشتر قُتِلَ بمصر بعد قتال شديد . والصحيح أنه سُمِّيَ سُمًّا فمات قبل أن يبلغ مصر .

قال إبراهيم : وحدثنا محمد بن عبد الله بن عثمان ، عن عليّ بن محمد بن أبي سيف المدائني ، أن معاوية أقبل يقول لأهل الشام : أيتها الناس ، إن علياً قد وجه الأشتر إلى مصر ، فادعُوا الله أن يكفيناكموه ؛ فكأبوا يدعون عليه في دُبُرِ كل صلاة ، وأقبل الذي سقاه السم إلى معاوية ، فأخبره بهلاك الأشتر ، فقام معاوية في الناس خطيباً ، قال :

أما بعد ، فإنه كان لعليّ بن أبي طالب يدان يمينان ، قُطِعَت إحداهما يوم حنين وهو حنار بن ياسر ، وقد قُطِعَت الأخرى اليوم ؛ وهو مالك الأشتر .

(١) الثقل : زاد اللسان .

(٢) ب : « مولى عمر »

قال إبراهيم : فلما بلغ علياً موت الأشتر ، قال : إنا لله وإنا إليه راجعون ! والحمد لله رب العالمين ! اللهم إني أحسبه عندك ؛ فإن موته من مصائب الدهر . ثم قال : رحم الله مالكا ؛ فلقد وقى بمهده ؛ وقضى نحسه ، ولقي ربه ؛ مع أنا قد وطننا أنفسنا أن نصير على كل مصيبة بعد مصابنا برسول الله صلى الله عليه وسلم فإنها من أعظم المصيبات .

قال إبراهيم : وحدثنا محمد بن هشام المرادي ، عن جرير بن عبد الحميد ، عن منيرة الضبي ، قال : لم يزل أمر على شديداً حتى مات الأشتر ، وكان الأشتر بالكوفة أسوداً من الأحنف بالبصرة .

قال إبراهيم : وحدثنا سعد بن عبد الله ، عن ابن أبي سيف المدائني ، عن جماعة من أشياخ النخع ، قالوا : دخلنا على أمير المؤمنين حين بلغه موت الأشتر ، فوجدناه يتلوه ويتأسف عليه ، ثم قال : لله در مالكا ؛ وما مالكا ! لو كان من جبل لكان فتداً^(١) ، ولو كان من حجر لكان صلداً ، أما والله ليهدي موتك عالماً ، ولينرحن عالماً ، على مثل مالكا ؛ فلتبك البواكي ! وهل مرجو كمالك ؟ وهل موجود كمالك !

قال علقمة بن قيس النخعي : فما زال على يتلوه ويتأسف ؛ حتى ظننا أنه المصاب به خوفاً ، وعرف ذلك في وجه أبيه .

قال إبراهيم : وحدثنا محمد بن عبد الله ، عن المدائني ، قال : حدثنا مولى للأشتر ، قال : لما هلك الأشتر أصيب^(٢) في نقله رسالة على إلى أهل مصر : من عبد الله أمير المؤمنين إلى النفر من المسلمين الذين غضبوا الله إذ عصوا في الأرض ، وضرب الجوز برواقه على البر والفاجر ، فلا حق يستراح إليه ، ولا منكر ينتهي عنه . سلام عليكم ؛ فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو .

(١) الهد : الجبل العظيم .

(٢) أصيب : أي وجد .

أما بعد، فقد وجهت إليكم عبداً من عباد الله لا ينام في الخوف، ولا يفتك من الأعداء حذاراً لله واثراً، أشد على الكافرين من حريق النار، وهو مالك بن الحارث الأشتر أحو مذجج، فاسمعوا له وأطيعوا، فإنه سيف من سيوف الله، لا بابي الضريبة^(١)، ولا كليل الحدة؛ فإن أمركم أن تقيموا فأقيموا، وإن أمركم أن تنفروا فانفروا، وإن أمركم أن تقيموا فاجتمعوا؛ فإنه لا يقدر ولا يحجم إلا بأمرى، وقد آثرتمكم به على نفسى، لنصيحتي وشدة شكيمة على عدوه، عصمكم الله بالحق، وثبتكم بالقوى، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

قال إبراهيم: وحدثنا محمد بن عبد الله، عن الدائى، عن رجالة، أن محمد بن أبي بكر لما بلغه أن علياً قد وجه الأشتر إلى مصر، شق عليه، فكتب عليه السلام إليه عند مهلك الأشتر:

أما بعد، فقد بلقى موجدتك من نسيج الأشتر إلى صلتك، ولم أعمل ذلك استبطاء لك عن الجهاد، ولا استزادة^(٢) لك منى في الجدة؛ ولو نزع ما حوت يدك من سلطانك لوليتك ما هو أسر مؤنة عليك، وأحب ولاية إليك؛ إلا أن الرجل الذى وليته مصر، كان رجلاً لنا مناصحاً؛ وهو على عدو ما شديد، فرحمة الله عليه، فقد استكمل أيامه، ولاقى حكامه؛ وعمن عنه راضون؛ فرضى الله عنه، وخاضع له الثواب، وأحسن له المآب. فأصير^(٣) لمدوك وشمر للعرب، وادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة؛ وأكثرك الله والاستمانة به، والخوف منه، بكيمك ما همك، ويمنك على ما ولاك. أطاعنا الله وإياك على ما لا ينال إلا برحمته؛ والسلام.

قال: فكتب محمد بن أبي بكر إليه جوابه:

(١) الضريبة: السبب وحده.

(٢) ج: «استزادة»، براءة، أى رغبة.

(٣) أصير لمدوك: أى أبرزه في العراق.

إلى عبد الله أمير المؤمنين من محمد بن أبي بكر :

سلام عليك فإني أحمّد إليك الله الذي لا إله إلا هو ؛ أما بعد فقد انتهى إلى كتاب
أمير المؤمنين وفهمته ؛ وعرفت ما فيه ، وليس أحد من الناس أشدّ على عدو أمير المؤمنين ،
ولا أراف وأرق لوائه مني . وقد خرجت مسكراً ، وأمنت الناس ؛ إلا من نصب لنا
حزباً ، وأظهر لنا خلافاً ، وأنا أتع أمر أمير المؤمنين ، وحافظ ولاجىء إليه وقائم به ،
والله المستعان على كل حال ، والسلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته .

قال إبراهيم : حدث محمد بن عبد الله بن عثمان ، عن ابن سيف اللدائى ، عن أبي جهم
الأردى أن أهل الشام لما انصرفوا عن صيئين ، كانوا ينتظرون ما يأتى به الحكمان ، فلما
انصرفا وتفرقا ، وبايع أهل الشام معاوية بالخلافة لم يزد معاوية إلا قوة ؛ واختلف أهل
المراف على علي بن أبي طالب فلم يكن مع معاوية إلا معاوية ؛ وقد كان لأهلها هائبا فترهم منه ،
وشدّتهم على من كان على رأي عثمان ، وقد كان علم أن بها قوما قد ساءم قتل عثمان ،
وخالوا علياً ؛ مع أنه كان يرجو أن يكون له فيها معاونة إذا ظهر عليها على حرب علي ،
لوفور خراجها ، فدعا على من كان معه من قريش ؛ وهم عمرو بن العاص السهمى ، وحبيب
ابن مسلمة الفهرى ، وبسر بن أبي أرطاة العامرى ، والصنعاك بن قيس الليثى ، وعبد الرحمن
ابن خالد بن الوليد الخزومى . ودعا من غير قريش نحو شريح بن السطخ المزنى ، وأبي الأعور
السلمى ؛ وحزبة بن مالك الهمدانى ، فقال : أتدرون لماذا دعوتكم ؟ قالوا : لا ، قال : فإني
دعوتكم لأمر هو لى مهم ؛ وأرجو أن يكون الله عز وجل قد أعان عليه ، فقال له القوم
— أو من قال له منهم — : إن الله لم يطلع على ضيئه أحداً ، ولنا نرى ما تريد ؛ فقال عمرو بن
العاص : أرى والله أن أمر هذه البلاد المصرية لكثرة خراجها وعدد أهلها قد أهلك^(١) ،

معهوتنا نسالنا عن رأينا في ذلك، فإن كنت قد صدقنا، وله حمتنا، فعزم وامرهم، ونم
الرأي مارأيت؛ إن في اقتضاها عزك وحرأصحابك، وذل عدوك، وكبت أهل الخلاف عليك.

— قال معاوية : أهلك ما أهلك ابن العاص ! وذلك أن عمرأ كان بايع معاوية على قتال
علي، وأن مصر له طعمة ما بقى — فأقبل معاوية على أصحابه، وقال : إن هذا — يعني ابن العاص —
قد ظن وحقق ظنه ، قالوا : ولكننا لا ندرى، ولعل أبا عبد الله قد أصاب ؛ فقال عمرو :
وأنا أبو عبد الله ، إن أفضل الظنون ما شابه اليقين .

ثم إن معاوية حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

أما بعد ؛ فقد رأيتم كيف صنع الله لكم في حربكم هذه على عدوكم ؛ ولقد جاءكم
وم لا يشكون أنهم يتأصلون بفضلكم ويحوزون بلادكم ، ما كانوا يروون إلا أنكم في
أيديهم ، فردم الله بنفيهم لم ينالوا حيزاً ، وكفى الله للؤمنين القتال ، وكفاكم مؤتهم .
وحاكتهم إلى الله حكمكم عليهم . ثم جمع القتل ، وأصلح ذات بيننا ، وجعلهم
أعداء مفرقين ؛ يشهد بعضهم على بعض بالكفر ، وبفسك بعضهم دم بعض ؛ والله إنني
لأرجو أن يؤتم الله لنا هذا الأمر ؛ وقد رأيت أن أحاول حرب مصر ، فإذا تروون ؟

فقال عمرو بن العاص : قد أخبرتك بما سألت ، وأشرت عليك بما سمعت .

فقال معاوية : ماترون ؟ فقالوا : نرى مارأي عمرو بن العاص . فقال معاوية : إن
عمرأ قد عزم وامرهم بما قال ، ولم يخش كيف ينبت أن نصنع أ

قال عمرو : فإنني بشهد عليك بما نصنع ، أرى أن نبيت جيشاً كثيفاً ، عليهم رجل
صارم ، تأمته وتثق به ؛ فيأتي مصر فيدخلها فإنه سيأيننا من كان على مثل رأينا من
أهلها ، فظاهره على من كان من عدونا ، فإن اجتمع بها جندك ومن كان بها من
شيئك على من بها من أهل حربك ، رجوت الله أن يمز نصرك ، ويظهر قلوبك .

قال معاوية : هل عندك شيء غير هذا نعله فيا بيتنا وبينهم قبل هذا ؟
قال : ما أعلمه .

قال معاوية : فإن رأيت غير هذا ؛ أرى أن نكتب من كان بها من شيعتنا ، ومن كان بها من عدونا : أما شيعتنا فنأمرهم بالتباعد عن أمرهم ونمنّهم قدومنا عليهم ؛ وأما من كان بها من عدونا فنندعومهم إلى صلحنا ، ونمنّهم شكرنا ، ونخوفهم حربنا ، فإن صلح لنا ما قبلهم من غير حرب ولا قتال ، فذلك ما أحببنا ، وإلا لحربهم من وراء ذلك .
إنك يا ابن الداهية لا تروى^(١) بورك لك في العجلة ، وبورك لي في التؤدة .

قال عمرو : فاعمل بما أراك الله ، فوالله ما أرى أمرك وأمرهم بصير إلا إلى الحرب .
قال : فكتب معاوية عند ذلك إلى مسلمة بن مخلد الأنصاري ، وإلى معاوية بن خديج السكيتي ، وكانا قد خالفا عليا :

أما بعد ؛ فإن الله عز وجل قد أبغضنا لأسر عظيم ؛ أعظم به أجركا ورفع درجتك ومرتبته في المسلمين . طلبنا بدم الخليفة المظلوم ، وغضبنا لله ، إذ ترك حكم الكتاب ، وجاهدنا أهل الظلم والعدوان ، فأشرا برصوان الله ، وعاثنا نصرة أولياء الله ؛ واللواء لكما في دار الدنيا وسلطاننا ؛ حتى ينتهي ذلك إلى ما برضيكما ، ويؤدى^(٢) به حقكما . فالزمنا أمركا ، وجاهدنا عدوكا ، وادعوا الدبرين منكما إلى هنا ؛ فكأن الجيش قد أغلظ عليكما ، فاندفع كل متكرهان ، وداه كل متهويان ؛ والسلام عليكما ورحمة الله .

وبعث بالكتاب مع مولى له يقال له شبيب ، فخرج بكتابه حتى قدم به عليهما بمصر ،

(١) ساقطه س ، ا ، ب .

(٢) ا ، ج : « ويؤدى » .

ومحمد بن أبي بكر يومئذ أميرها قد ناصبه هؤلاء المنفر الحرب ؛ وهم هائثيون الإقدام عليه ؛
 فدفع الكتاب إلى مسلمة بن مخلد ، فقرأه فقل : القى به معاوية بن حديج ، ثم القى به
 حتى أجيب عني وعنه . فاطلق الرسول بكتاب معاوية فقرأه إياه ، ثم قال له إن مسلمة
 قد أمرني أن أرد الكتاب إليه لكي يجيبك عنه . قل : قل له فليفعل ؛ فأتى مسلمة
 بالكتاب . فكتب الجواب عنه ومن معاوية بن حديج . أما بعد ، فإن هذا الأمر الذي
 قد ندبنا له أنفسنا ، وابتغينا الله به على عدونا ، أمرٌ رجو به ثواب ربنا ، والنصر على من
 خالفنا ، ونعميل النعمة على من سعى على إمامنا ، وطأطأ الركن في مهادنا ، ونحن بهذه
 الأرض قد نمينا من كان بها من أهل البنى ، وأنهم ضامنٌ كان بها من أهل القسط والعدل
 وقد ذكرت مواردك في سلطانك وذات يدك ؛ والله إنه لا من أجل مال ههنا ، ولا إياه
 أردنا ، فإن يجمع الله لسا ما نريد ومطلب أو يرب ما تميتنا ، فإن الدنيا والآخرة لله
 رب العالمين ، وقد بتوسها الله جميعاً على من خلقه ، كما قال في كتابه : ﴿ فَآتَاهُمُ اللَّهُ
 ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسُنَ ثَوَابُ الْآخِرَةِ إِنَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ^(١) مجمل لنا بخيلك ورحك ؛
 فإن عدونا قد كان علينا جريماً ^(٢) ، وكنت فيهم قليلاً ، وقد أصبحوا لنا هائثين ، وأصبحنا
 لهم منازرين ، فإن بأننا مددٌ من قبلك مفتوح الله عليك ؛ ولا قوة إلا بالله ؛ وهو حسبنا
 ونعم الوكيل .

قال : فجاء هذا الكتاب معاوية وهو يومئذ بفلسطين ، فدعا المنفر الذين سمعناهم من
 قريش وغيرهم ، وأقرأهم الكتاب ، وقال لهم : ماذا ترون ؟ قالوا : نرى أن تسمعنا إليهم حبشاً
 من قبلك فأنت ممتنعها إن شاء الله ، بإذن الله .

قال معاوية : فتجهز إليها يا أبا عبد الله - يعني عمرو بن العاص - فبعثه في ستة آلاف

(١) سورة آل عمران ١٤٨ .

(٢) كما في ج ، وفي ا ، ب : و حرباً .

فخرج يسير ، وخرج معه معاوية يودّعه ، فقال له معاوية عند ودّاعه إياه : أوصيك بتقوى الله يا عمرو ، وبالرفق بإثته يُمنّ ، وبالتؤدة فإنّ المحلة من الشيطان ، وبأن تقبل من أقبل ، وتمنّو ممن أدبر ، أنظره فإن تاب وأتاب قبلت منه ، وإن أبى فإنّ السلوة بعد المعرفة أبلغ في الحجة ، وأحسن في العاقبة . وادع الناس إلى الصلح والجماعة ، فإنّ أت ظفرت فليكن أنصارك أيرّ الناس عندك ، وكلّ الناس فأول حسناً .

قال : فسار عمرو في الجيش حتى دنا من مصر ، فاجتمعت إليه المماتية ، فأقام وكتب إلى محمد بن أبي بكر :

أما بعد ، ففتح عنى بدمك بآبى بكر ، فإنى لا أحب أن بصيتك منى ظمّر ، وإنّ الناس هذه البلاد قد اجتمعوا على خلافتك ورفض أمرك ، وتديّموا على اتباعك ، وهم مسلموك لو قد التفت حنقتا البطالين ، فأخرج منى بآبى بكر من الساميين . والسلام .

قال : وبعث عمرو إلى محمد مع هذا الكتاب كتاب معاوية إليه ؛ وهو :

أما بعد ؛ فإنّ غيب^(١) الظلم والبنى عظيم الويل ، وإنّ سعتك الدم الحرام لا يسلم صاحبه من النّمة في الدنيا والتّبعة للورقة في الآخرة ، وما نعلم أحداً كان أعظم على عثمان بنياً ، ولا أسوأ له عيباً ، ولا أشدّ عليه خلافاً منك ؛ سمعت عليه الساعين ، وساعدت عليه مع الماعدين ، وسفكت دمه مع السافكين ، ثم نظنّ أى دئم عليك وفئانى لدة فتأمن فيها وحلّ أهلها أنصارى ؛ يروون رأبى ، ويرفصون قولك ، ويستصرخوننى عليك . وقد بعثت إليك قوماً حذافاً عليك ، يسفكون دمك ، وبقرت بون إلى الله عز وجلّ بجهاذك ؛ وقد أعطوا الله عهداً لهفتلتك ؛ ولو لم يكن منهم إليك ما قالوا لفتلك الله بأيديهم أو بأيدى غيرهم من أوليائه ؛ وأنا أحتذرك وأذكرك ؛ فإنّ الله مقيد منك ، ومقنص لوليه وحليفته بظلمك له ، وبصيتك عليه

(١) غيب الظلم : غابته .

ووقعتك فيه ، رحلوا ربك يوم الله أرطبه ، نطق بمشاقصك^(١) فيما بين أحشائهم وأوداجه ؛
ومع هذا قلني أكره قتلك ، ولا أحب أن أتولى ذلك منك ؛ ولن يسلك الله من النعمة
أين كنت أبداً ، فتتح وانج بنفسك . والسلام .

قال : فطوى محمد بن أبي بكر كتابيهما ، ويث بهما إلى علي عليه السلام ،
وكتب إليه :

أما بعد يا أمير المؤمنين ؛ فإن العاصم ابن العاص ، قد نزل أدارني مصر ، واجتمع إليه
من أهل البلد من كان يرى رأيهم ؛ وهو في جيش جرار ، وقد رأيت من قبل بعض
الغسل ، فإن كان لك في أرض مصر حاجة فامدني بالأموال والرجال ، والسلام عليك
ورحمة الله وبركاته .

قال : فكتب إليه علي :

أما بعد ، قد أتاني رسوالتك بكتابك ؛ تذكر أن ابن العاص قد نزل
في جيش جرار ، وأن من كان على مثل رأيه قد خرج إليه . وخروج من كان يرى رأيه
خير لك من إقامته عندك . ودكرت أنك قد رأيت من قبلك فشلاً ، فلا تفشل وإن فشلوا ؛
حصن قريشك ، واختم إليك شيعتك ، وأذك الحرس في عسكري ، وانطب إلى القوم كثافة
ابن بشر ، المعروف بالنصيحة والتجربة والبأس ، وأما نادب إليك الناس على الصنوب
والدلول . فاصبر لمدوك وامض على بصيرتك ، وقاتلهم على نيتك ، وجاهدكم بحسب الله
سبعاته ؛ وإن كانت فتك أقل الفتن ؛ فإن الله تعالى يمين القليل ويخذل الكثير .
وقد قرأت كتابي الفاجر بن المتحايين على المصبة ، والمتلائين على الصلاة ، والرتشين على
الحكومة ، والتكبرين على أهل الدين ؛ الذين استمتعوا بخلافهم ؛ كما استمتع الذين من

(١) الشافعي : جمع مغص ؛ وهو النعل المربص .

قبلهم بخلافهم ، فلا يضرّك إردعاها وإرافها ، وأجنّهما إن كتبت لم نجبهما بماها أهله ، فإنك تجد مقالا ما شئت . والسلام .

قال : فكتب محمد بن أبي بكر إلى معاوية جواب كتابه :

أما بعد ؛ فقد أتاني كتابك تذكر من أمر عثمان أمراً لا أعترف إليك منه ، وتأمرني بالتمنع عنك كأنك لي ناصح ، وتخوفني بالحرب كأنك عليّ شفيق ؛ وأنا أرجو أن تكون الدائرة عليكم ، وأن يهلككم الله في الوقعة ، وأن ينزل بكم القتل ، وأن تولوا الذُّبُر ؛ فإن يكن لكم الأمر في الدنيا فكم لكم لعسرى من ظالم قد نصرم وكم من مؤمن قد قتلتم ومثلتم ؛ وإلى الله الصير ، وإلى الله تركة الأمور ؛ وهو أرحم الراحمين ؛ والله المستعان على ما تصفون .

قال : وكتب محمد بن أبي بكر إلى عمرو بن العاص جواب كتابه :

أما بعد ، فهبت كتابك ، وعلقت مذكرة ؛ زعمت أنك تكرمان بصيبي منك ظفر ، فأشهد الله أنك لمن المبطلين . ورعت أنك ناصح لي ، وأقسم أنك عندي ظنين . وقد زعمت أن أهل البلد قدر قصوني ، وندموا على اتباعي ؛ فأولئك حزبك وحزب الشيطان الرجيم ؛ وحسبنا الله رب العالمين ومن الوكيل ، وتوكلت على الله العزيز الرحيم ، ربّ العرش العظيم .

• • •

قال إبراهيم : حدثنا محمد بن عبد الله ، عن المدائني ، قال : فأقبل عمرو بن العاص بقصد قصد مصر ، فقام محمد بن أبي بكر في الناس ، حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

أما بعد ؛ يا معاشر المؤمنين ، فإن القوم الذين كانوا ينتهكون الحرمات ، ويفشون^(١) الضلالة ، ويستطيّلون بالجبرية ، قد نصبوا لكم العداوة ، وساروا إليكم بالجنود ، فن أراد الجنة والمغفرة فليخرج إلى هؤلاء القوم فليجاهدكم في الله . اتدبوا^(٢) رحمكم الله مع

(٢) اتدبوا : أي خفوا .

(١) ب : « أرس الصلاة » .

كنانة بن بشر . سم نذب معه نحو ألقي رحل ، ونخف محمد في ألنين ، واستقبل عمرو بن العاص كنانة وهو على مقدمة محمد ، فلما دنا عمرو من كنانة مروح إليه الكتاب ؛ كتيبة بعد كتيبة ، فلم تأنه من كتاب الشام كتيبة إلا شدت عليها بمن معه فيصربها حتى يلحقها بعمرو ، ففعل ذلك مرارا . فلما رأى كنانة ذلك الجش ، نزل عن فرسه ؛ ونزل معه أصحابه فصار بهم في مثل الدِّهم^(١) . فلما رأى كنانة ذلك الجش ، نزل عن فرسه ؛ ونزل معه أصحابه فصار بهم بسيفه ، وهو يقول : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا ﴾^(٢) . فلم يزل يضاربهم بالسيف حتى استشهد رحمه الله .

قال إبراهيم : حدثنا محمد بن عبد الله ، عن المدائني ، عن محمد بن يوسف ، أن عمرو ابن العاص لما قتل كنانة أقبل نحو محمد بن أبي بكر ، وقد تفرق عنه أصحابه ؛ فخرج محمد متمهلا ، فمضى في طريقه حتى انتهى إلى حربة^(٣) فأوى إليها ، وجاء عمرو بن العاص حتى دخل الفسطاط ، وخرج معاوية بن حديج في طلب محمد ، حتى انتهى إلى علوج^(٤) على قارعة الطريق ، فسألم : هل مرَّ بهم أحد ينكرونه ؟ قالوا : لا ، قال أحدهم : إني دخلت تلك الحربة ، فإذا أنا برجل حابس . قال ابن حديج : هو هو ورب الكعبة ، فانطلقوا يركضون ، حتى دخلوا على محمد ، فاستخرجوه وقد كاد يموت عطشا ، فأقبلوا به نحو الفسطاط . قال : ووثب أخوه عبد الرحمن بن أبي بكر إلى عمرو بن العاص ، وكان في جنده ، فقال : لا والله لا يقتل أخى صبرا ، امث إلى معاوية بن حديج فأنه ، فأرسل عمرو ابن العاص : أن اتنى بمحمد ، فقال معاوية : أقتنم كنانة بن بشر ، ابن عتي ، وأخلى عن محمد !

(١) الدِّهم : العدد الكثير .

(٢) سورة آل عمران ١٤٥ .

(٣) الحربة : موضع الخراب .

(٤) علوج : جمع عليج ؛ وهو الرجل من كبار النجم .

حيث ١ ﴿ أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكَمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّمُرِ ﴾ ^(١). فقال محمد:
استقوني قطرة من الماء، فقال له معاوية بن حذّيج: لا سقاني الله إن سقيتك قطرة أبداً؛ إنكم
منعتم عثمان أن يشرب الماء حتى تخلصوه صائماً محرماً، فسقاه الله من الزّجّيق الخنوم؛ والله
لا أقتلك يا ابن أبي بكر وأنت ظمآن، ويستيق الله من الحميم والفيلين، فقال له محمد:
يا ابن اليهودية النّساجة؛ ليس ذلك اليوم إليك ولا إلى عثمان، إنما ذلك إلى الله يسقي أوليائه
ويظلي أعداءه؛ وهم أنت وقرناؤك ومن تولاك وتوليتهم؛ والله لو كان سيّفى في يدي ما بلغت
منى ما بلغت. فقال له معاوية بن حذّيج: أتدري ما أصنع بك؟ أدخلك جوف هذا الحجر
للميت ثم أحرقه عليك بالنار. قال: إن فعلتم ذلك بي فطما فعلتم ذلك بأوليائه الله، وإيم
الله إني لأرجو أن يحمل الله هذه النار التي تخوفني بها برداً وسلاماً، كما جعلها الله على
إبراهيم خليله، وأن يجعلها عليك وعلى أوليائك، كما جعلها على نمرود وأوليائه، وإني لأرجو
أن يحرقك الله وإمامك معاوية، وهذا - وأشار إلى عمرو بن العاص - بنار تطفى، كلما
خبث زادها الله عليكم سميراً. فقال له معاوية بن حذّيج: إني لا أقتك ظمآن، إنما أقتك
بثمان بن عفان، قال محمد: وما أنت وثمان! رجل تحمل بالجور، وبدل حكم الله والقرآن،
وقد قال الله عز وجل: ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ ^(٢)،
﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ ^(٣)، ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَاسِفُونَ ﴾ ^(٤)؛ فبقينا ^(٥) عليه أشياء
عملها، فأردنا أن يجمع من الخلافة عدناً، فلم بفعل، فقتله من قتل من الناس.

(١) سورة القمر ٤٣ .

(٢) سورة المائدة ٤٤ .

(٣) سورة المائدة ٤٥ .

(٤) سورة المائدة ٤٧ .

(٥) ظم عليه، بكسر الظاء: أنكر أمره .

فغضب معاوية بن حُذَيج ، فقدمه فضرب عنقه ، ثم ألقاه في جَوْفِ حمار وأحرقه بالنار .

فلما بلغ ذلك عائشة جَزَعَتْ عليه حزنا شديدا ، وقنَّتْ في دُبُر كل صلاة تدعو على معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص ومعاوية بن حُذَيج ، وقبضت عيالَ محمد أخيهما وولده إليها ، فكان القاسم بن محمد من عيالها .

قال : وكان ابن حُذَيج ملعونا خبيثا يسبُّ عليَّ بن أبي طالب عليه السلام . قال إبراهيم : وحدثني عمرو بن حماد بن طلحة القناد ، عن عليَّ بن هاشم ، عن أبيه ، عن داود بن أبي عوف ، قال : دخل معاوية بن حُذَيج عليَّ الحسن بن عليَّ في مسجد المدينة ، فقال له الحسن : ويلك يا معاوية ! أنت الذي نسبَ المؤمنين عليا عليه السلام ! أما والله لن رأيتَه يوم القيامة — وما أظنك تراه — لتزيغ كاشفا عن ساق ، يصرب وجوه أملاك من الخوض ضَرْبَ غرائب الإبل .

قال إبراهيم : وحدثني محمد بن عبد الله بن عثمان ، عن المدائني ، عن عبد الملك بن صمير ، عن عبد الله بن شداد ، قال : حلفت عائشة لا تأكل شواء^(١) أبدا بعد قتل محمد ، فلم تأكل شواء حتى لحقت بالله ، وما عثرت قط إلا قلت : تيس معاوية بن أبي سفيان^(٢) وعمرو بن العاص ، ومعاوية بن حُذَيج !

قال إبراهيم : وقد روى هاشم أن أسماء بنت عُبيس ، لما جاءها نبيُّ^(٣) محمد ابنها وما صنَّع به ، قامت إلى مسجدِها ، وكفَّمت غيظها حتى تشبَّت^(٤) دما .

قال إبراهيم : وروى ابنُ عائشة القيمي عن رجاله عن كثير السَّوء ، أن أبا بكر خرج

(١) الشواء ، بالكسر والضم : ما شوى من اللحم وغيره .

(٢) ماء له : أخرجه بموته .

(٣) يقال : تشبَّت دما : أي أظهر عرقه بالدم .

في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله في عِزَّة ، فرأت أسماء بنت عميس وهي تحتها ؛ كأن
أبا بكر مخضَّب بالخناء رأسه ولحيته ، وعليه ثياب بيض ، فجاءت إلى عائشة فأخبرتها ،
فقال : إن صدقت رؤياك فقد قُتِل أبو بكر ، إن خصابه الله ، وإن ثيابه أكرامه ،
ثم بكيت ، فدخل النبي صلى الله عليه وآله وهي كذلك ، فقال : ما أبكاها ؟ فقالوا :
يا رسول الله ، ما أبكاها أحد ، ولكن أسماء ذكرت رؤيا رأتها لأبي بكر ، فأخبر النبي
صلى الله عليه وآله ، فقال : « ليس كما عبرت عائشة ؛ ولكن يرجع أبو بكر صالحاً ، فيلقى
أسماء ، فنحصل منه غلام ، فنسبه محمداً ، يحمله الله غيظاً على الكافرين والمنافقين » .

قال : فكان كما أخبر صلى الله عليه وسلم .

قال إبراهيم : حدثنا محمد بن عبد الله ، عن المدائني ، قال : فكتب عمرو بن العاص
إلى معاوية بن أبي سفيان عند قتل محمد بن أبي بكر وكنانة بن بشر : أما بعد ، فإما لقينا
محمد بن أبي بكر وكنانة بن بشر في الجحيم من أهل مصر ، فدهونا ثم إلى الكتاب
والسنة ، فصوروا الحق ، فتهولوا ^(١) في الضلال ، فعاهدناهم ، واستنصرنا الله جل وعز
عليهم ، فضرب الله وجيحتهم وأديارهم ، ومنعنا ^(٢) أكتافهم ؛ فقتل محمد بن أبي بكر
وكنانة بن بشر ، والحمد لله رب العالمين .

قال إبراهيم : وحدثني محمد بن عبد الله ، عن المدائني ، عن الحارث بن كعب بن
عبد الله بن قعبين ، عن حبيب بن عبد الله ، قال : والله إني لعند علي جالس إذ جاء
عبد الله بن معين وكعب بن عبد الله من قتل محمد بن أبي بكر يستنصر خاله قبل الواقعة ؛
فقام علي فنادى في الناس : الصلاة جامعة ^(٣) ؛ فاجتمع الناس فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى

(١) للتهول : للتعجب ، وفي ب : « مهولوا » .

(٢) ج : « وأنقض أكتافهم » .

(٣) صافته من ج .

عليه ؛ وذكر رسول الله صلى الله عليه وآله ، فصلّى عليه ، ثم قال : أما بعدُ ، فهذا صريح^(١) محمد بن أبي بكر وإخوانكم من أهل مصر ، قد صار إليهم ابنُ النّاعة عدوّ الله وعدوّ من والاه ، وولى من عادى الله ، فلا يكونن أهلُ الصّلال إلى باطلهم ، والركون إلى سبيل الطّاغوت أشدّ احتما على باطلهم وضلالهم منكم على حقكم فكانكم بهم وقد بدوكم وإخوانكم بالقزوّ ، فاعجلوا إليهم بالمواساة والبشر عباد الله ؛ إن مصر أعظم من الشام وحير أهلها ، فلا تملؤوا على مصر ؛ فإن بقاء مصر في أيديكم عزّ لكم ، وكبت لعدوّكم ، اخرجوا إلى الجرّعة - قال : و الجرّعة^(٢) بين الخيرة والكوفة - لتواقي هناك كلنا غدا إن شاء الله .

قال : فلما كان العد ، خرج يمشي ، فتمزّطاً بكثرة ، فأقام بها حتى انتصف النهار ، فلم يوافه مائة رجل ، فرجع . فلما كان العشي^(٣) إلى الأشراف فجمعهم ، فدخلوا عليه القصر ، وهو كتيب حزين ، فقال : الحمد لله على ما قصي من أمر ، وقدّر من فعل ، واجتلاى لكم أيّها الفرقة التي لا تطيع إذا أمرتها ، ولا تحيب إذا دعوتها . لا أبا لميركم ! ماذا تنتظرون بنصركم ، والجهاد على حقكم الموت حير من الدّل في هذه الدنيا أمير الحق ؛ والله إن جاءني الموت - وليأتيني - لتجدنني لصحتكم حيداً قال .

ألا دين بمحكم ! ألا حيّة نفضكم ! ألا تسمعون بدوّكم ينتقص بلادكم ، ويشنّ الفارة عليكم ! أو ليس عجيباً أن معارفة بدعو الجفّاة الطّغام الظّلمة ، فيتبعونه على غير عطاء ولا معونة ، ويعيرونه في السنة المرة والمرتين والثلاث ، إلى أيّ وجه شاء ، ثم أنا أدعوكم - وأنتم أولو النهى وبقية الناس - تختلفون وتفترون على ، ونصون وتخالقون على !

(١) الصريح هنا : المستفيض .

(٢) في الأصول : « الجرّعة » تصحيف .

فقام إليه مالك بن كعب الأرحبي ، فقال يا أمير المؤمنين ، لئندب الناس معي ؛ فإنه لا يعطر بعد عروس^(١) ، وإن الأجر لا يأتي إلا بالكربة . ثم التفت إلى الناس وقال : اتقوا الله ، وأجيبوا دعوة إمامكم ، وانصروا دعوتَه ، وقتلوا عدوكم ، إنا سير إليهم يا أمير المؤمنين .

فأمر عليّ سعداً مولاه أن يسيروا مع مالك بن كعب إلى مصر ، وكان وجهاً مكروهاً ، فلم يحتموا إليه شهراً ، فلما اجتمع له منهم ما اجتمع خرج بهم مالك ابن كعب ، فمكّر بظاهر الكوفة ، وخرج معه عليّ ، فظفر فإذا جميع من خرج نحو من ألفين ، فقال عليّ : سيروا ، والله ما أستم ! ما إحالكم تدركون القوم حتى ينفضي أمرهم ! فخرج مالك بهم وسار خمس ليال ، وقدم الحجاج بن عروة الأنصاري على عليّ ، وقدم عليه عبد الرحمن بن السائب القراري من الشام ؛ فأما القراري ، فكان حينئذٍ لعلّ عليه السلام ، لا ينأى ، وأما الأنصاري فكان مع محمد بن أبي بكر ؛ فحدثه الأنصاري بما عاين وشاهد ، وأخبره بهلاك محمد ، وأخبر القراري أنه لم يخرج من الشام حتى قدّمت البصرة من قبل عمرو بن العاص ، يتبع بمصّها بمصّاً بفتح مصر ، وقتل محمد ابن أبي بكر ، وحتى أذن معاوية قتله على المنبر وقال : يا أمير المؤمنين ، ما رأيت يوماً قط سروراً مثل سرور رأيته بالشام حين أتهم قتل محمد بن أبي بكر ، فقال عليّ : أما إن حزننا على قتله ، على قدر سرورهم به ؛ لا بل يزيد أضعافاً .

قال : فسرح عليّ عبد الرحمن بن شريح إلى مالك بن كعب ، فردّه^(٢) من الطريق قال : وحزن عليّ على محمد بن أبي بكر حتى رُئي ذلك فيه ، وتبين في وجهه ، وقام في الناس خطيباً ، حمد الله . وأثنى عليه ، ثم قال : ألا وإن مصر قد افتتحم القفجرة

(١) لا يعطر بعد عروس ، مثل يضرب في دم ادخار النسي . وقت الحاجة ، وانظر مورد اللؤلؤ اليداني

٢ : ٢١١ ، ٢١٢ .

(٢) ب : ٢ : ٢١٢ .

أوليله الجور والظلم ، الذين صدّوا عن سبيل الله ، وبغوا الإسلام عوجاً ، ألا وإن محمد
ابن أبي بكر قد استشهد رحمة الله عليه ، وعند الله نحسبه . أما والله لقد كان - ما علمت -
ينظر القصاص ، ويصل للجزاء ، ويبص شكل العاجر ، ويحب سمّت المؤمن ؛ إني والله
لا ألوم نفسي على تقصير ولا مجز ؛ ولأنا بنقاسة الحرب لجذّ بصير ، إني لأقدم على
الحرب ، وأعرف وجه الحرم ، وأقوم بالرأي المصيب ، فأستصريحكم معلماً ، وأناديكم
مستعيناً ؛ فلا تسمعون لي قولاً ، ولا تطيعون لي أمراً ؛ حتى نصير الأمور إلى عواقب الساءة .
وأنتم القوم لا يدرككم النار ؛ ولا تنقض بكم الأوثار ؛ دعوتكم إلى ضياع إخوانكم
مند بضع وخمسين ليلة ؛ هجر جرّتم^(١) على حَزْجِرة الجبل الأسر^(٢) ، وتناقلتم إلى
الأرض تناقل من لانيّة له في الجهاد ، ولا رأي له في الاكتساب للأجر ، ثم خرج إلى
منكم جيّد متذات ضعيف ، كأنما يساقون إلى اللوت وهم ينظرون . فأفّ لكم !
ثم نزل فدخل رحله .

قال إبراهيم : حدثنا محمد بن عبد الله ؛ عن الدائقي ؛ قال : كتب عليّ إلى عبد الله
ابن عباس وهو على البصرة :

من عبد الله عليّ أمير المؤمنين عليه السلام ، إلى عبد الله بن عباس : سلام عليك
ورحمة الله وبركاته :

أما بعد ؛ فإن مصر قد افتتحت ، وقد استشهد محمد بن أبي بكر ، فعند الله عز وجل
نحسبه^(٣) . وقد كنت كفت إلى الناس ، وتقدّمت إليهم في بدء الأمر ، وأمرتهم بإغاثته

(١) ب : « خرجتم » صوابه في ح . واخر حره : تردد هدير الفعل .

(٢) الجبل الأسر ؛ السرور : وجم يأخذ الحير في كركرته .

(٣) ج : « احتسابه » .

قبل الوقعة ، ودعوتهم سرا وجهرا ، وعوداً وبدا ، فمنهم لآتى كارها ، ومنهم التعلل كاذباً ، ومنهم القاعد خاذلاً . أسأل الله أن يجعل لى منهم فرجاً ، وأن يرخصى منهم عاجلاً ؛ فوالله لولا طمعى عند لقاء عدوى فى الشهادة ، وتوطى نفسى عند ذلك ، لأحببت ألا أبقي مع هؤلاء يوماً واحداً . عزم الله لنا ولك على تقواه وهداه ، إنه على كل شئ قدير . والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

قال : فكتب إليه عبدالله بن عباس :

لحمد الله على أمير المؤمنين من عبدالله بن عباس سلام على أمير المؤمنين ، ورحمة الله وبركاته ؛

أما بعد ؛ فقد بلغنى كتابك تذكر فيه احتاح مصر وهلاك محمد بن أبى بكر ، وأنت سألت الله ربك أن يجعل لك من رعبتك لى إبطيت بها فرجاً ومخرجاً ، وأنا أسأل الله أن يُبلى كلمتك ، وأن يعشيك باللائكة عاجلاً . وأعلم أن الله صانع لك ، ومسر دعوتك ، وكأبت عدوك . وأخبرك يا أمير المؤمنين أن الناس ربما تباطئوا ثم يشطوا ؛ فافرق بهم يا أمير المؤمنين ودارهم ومنهم ، واستعن بالله عليهم . كفاك الله المم ! والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

قال إبراهيم بن زهير عن المدائنى ؛ أن عبدالله بن عباس قدّم من البصرة على على ، فمزمّاه عن محمد بن أبى بكر .

وروى المدائنى أن علياً قال : ربح الله محمداً كان غلاماً حدثاً ، لقد كنت أردت أن أولى للرقال^(١) هاشم بن عتبة مصر ، فإنه والله لو وليها لما خلى لابن العاص وأعوانه المرصّة ، ولا قتل إلا وسيفه فى يده ، بلا ذمّ لحمد ، فلقد أجهد نفسه ففنى ما عليه .

(١) للرجال : لقب هاشم بن عتبة الرهمى ؛ لأن علياً عليه السلام دفع إليه الراية يوم صفين ؛ فكان يرقل بها الرجال ، والإرغال : ضرب من الصنوف .

قال المدائني : وقيل لعل عليه السلام : لقد جزعت على محمد بن أبي بكر يا أمير المؤمنين . فقال : وما يعمى إنيته كان لي ريباً ، وكان ليلى أخاً ، وكنت له ولداً . أعدّه ولداً .

• • •

[خطبة للإمام علي بعد مقتل محمد بن أبي بكر]

وردى إبراهيم ، عن رجاله ، عن عبد الرحمن بن جندب ، عن أبيه ، قال : خطب علي عليه السلام بعد فتح مصر ، وقتل محمد بن أبي بكر ، فقال :

أما بعد ، فإن الله بعث محمداً نبيّاً للعالين ، وأمياً على التزليل ، وشهيداً على هذه الأمة ؛ وأنتم معاشر العرب يومئذ ^(على شر دين) في شر ديار ، مبيحون على حجارة حشن ، وحيات صم ، وشوك مشوث في البلاد ، تشرون الماء الخبيث ، وتأكلون الطعام الخبيث ؛ تسفكون دماءكم ، وتقتلون أولادكم ، وتقطعون أرحامكم ؛ وتأكلون أموالكم بينكم بالباطل . سئكم خائفة ، والأصنام فيكم منصوبة ، ولا يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون .

فإن الله - عز وجل - جعل عليكم محمد ، فبته إليكم رسولاً من أنفسكم ، فصلمكم الكتاب والحكمة ، والعرايض والسنن ، وأمركم بصلة أرحامكم وحسن دماءكم وصلاح ذات البين ، وأن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وأن تؤفوا بالعهود ؛ ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ، وأن تعافوا وتباروا وترأفوا . وهما لكم من التائبين والنظام والتعاضد والتباغي والتفادف ، وعن شرب الخمر ونحو الكيال ، ونقص اللبران . وتقدم إليكم فيما بُنئى عليكم : ألا تزنوا ولا تزنوا ، ولا تأكلوا أموال

التي تسمى ظُلماً ، وأن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، ولا تمشوا في الأرض مفسدين ، ولا تمتدوا إن الله لا يحب الممتدين ، وكل خير بُذِنَ إلى الجنة ، ويُبَاعِدُ عَنِ النَّارِ أَمْرٌ كُمْ بِهِ ، وَكُلُّ شَرٍّ بُذِنَ إِلَى النَّارِ وَيُبَاعِدُ عَنِ الْجَنَّةِ نَهَا كُمْ عَنْهُ .

فلما استكمل مدنه ، توفاه الله إليه سعيداً حَيِّداً ، فبِأَلِهَا مُصِيبَةً خَصَّتِ الْآفَرِيَيْنَ ، وَعَمَّتِ السَّلَافَيْنِ ، مَا أَصَابُوا قَبْلَهَا بِمِثْلِهَا ، وَلَنْ يُصَابُوا بَعْدَهَا بِأَحْتَبَا . فلما مضى لسبيله صلى الله عليه وسلم ، تنازع المسلمون الأمر بعده ، فوالله ما كَانَ يُبَلِّغُ فِي رَوْعِي ، وَلَا يَحْطُرُ عَلَى بَالِي أَنْ الْمَرْبَ تَعْدِلُ هَذَا الْأَمْرَ بَعْدَ مُحَمَّدٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ ، وَلَا أَنَّهُمْ مُدْخَوُهُ عَلَى مِنْ بَعْدِهِ . فمَارَافَتِي إِلَّا أَمْثِيَالُ النَّاسِ عَلَى أَبِي بَكْرٍ ، وَاجْعَالُهُمْ ^(١) إِلَيْهِ لِيُبَايِعُوهُ ، فَامْتَسَكْتُ بِيَدِي ، وَرَأَيْتُ أَنِّي أَحَقُّ بِمَقَامِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ النَّاسِ مَنْ تَوَلَّى الْأَمْرَ مِنْ بَعْدِهِ ، فَلَبِثْتُ بِذَلِكَ مَا شَاءَ اللَّهُ حَقَّ رَأْيْتُ رَاجِعَةً مِنَ النَّاسِ رَجَعَتْ عَنِ الْإِسْلَامِ ، يَدْعُونَ إِلَى تَحْقِيقِ دِينِ اللَّهِ وَمِلَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، لِحُبِّهِ . إِنْ لَمْ أَصِرْ الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ أَنْ أَرَى فِيهِ تَلْكَ وَهْمًا يَكُونُ لِلصَّابِ بِهِمَا عَلَى أَعْظَمَ مِنْ فَوَاتٍ وَآيَةِ أُمُورِكُمْ ، الَّتِي لِمَا هِيَ مَتَاعٌ أَبَامٍ قَلَائِلُ ، ثُمَّ يَزُولُ مَا كَانَ مِنْهَا كَمَا يَزُولُ السَّرَابُ ، وَكَأَيُّ قَشْعٍ السَّحَابِ ، فَثَبْتُ عِنْدَ ذَلِكَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ فَبَايَعْتُهُ ، وَنَهَضْتُ فِي تِلْكَ الْأَحْدَاثِ ، حَقَّ زَانِعِ الْهَاطِلُ وَزَهَقَ ، وَكَانَتْ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعَلِيَا ، وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ .

فَتَوَلَّى أَبُو بَكْرٍ تِلْكَ الْأُمُورَ ، فَبَسَّرَ وَسَدَّدَ ، وَقَارَبَ وَاقْتَصَدَ ، وَصَحِّبَتْهُ مُنَاصِحًا ، وَأَطَعَتْهُ فِيمَا أَطَاعَ اللَّهَ فِيهِ جَاهِدًا ، وَمَا طِيعْتُ سَأَلَ لَوْ حَدَّثَ بِهِ حَادِثٌ وَأَنَا حَيٌّ أَنْ يَرُدَّ إِلَى الْأَمْرِ الَّذِي نَازَعْتُهُ فِيهِ . طَمَعَ مُسْتَقْبَلِي ، وَلَا يَلِيسَتْ جِنَّتُهُ بِأَسَمَنْ لَا يَرْحُوهُ ، وَلَوْ لَا خَاصَّةٌ مَا كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَمْرٍ ، لَفَلَنْتُ أَنَّهُ لَا يَدَّ فَمُهَا عَلَى ؛ فَلَمَّا احْتَضَرَ بَعَثَ إِلَى عُمَرَ فَوَلَّاهُ فَمِيعًا وَأَطَعَنَا وَنَاصَحَنَا .

(١) أَجَلُ النَّاسِ وَاجْعَلُوا : أَيِ فَعِلُوا مَسْرَعِينَ .

وتولّى أمر الأمر ، فكان مرضى للسيرة ، ميسون النقيبة ؛ حتى إذا احتضر ، قلت
 في نفسي : لن يعلّوها عني ؛ ليس يدافعها عني ^(١) ، فجعلني سادس ستة ؛ فإكانوا لولاية
 أحدهم منهم أشدّ كراهة لولا بقاء عليهم ؛ كانوا يسمعون عند وفاة رسول الله صلى الله عليه
 وسلم لجأج أبي بكر ، وأقول : يا معشر قريش ، إنا - أهل البيت - أحقّ بهذا الأمر منكم
 ما كان فينا من يقرأ القرآن ، ويعرف السنة ، ويدين بدين الحق . فغشي القوم - إن أنا
 وليت عليهم - ألا يكون لهم من الأمر نصيب ما بقوا ، فأجمعوا إجماعاً واحداً ، فصرفوا
 الولاية إلى عثمان ، وأخرجوني منها ؛ رجاء أن ينالوها ، ويتداولوها إذ يشاءون أن ينالوها
 من قبلي ؛ ثم قالوا : هلمّ قبايع وإلا جاهدناك ؛ فبايت مستكراً ، وصبرت محتسباً ،
 فقال قائلهم : يا بن أبي طالب ، إنك على هذا الأمر الحريم ؛ فقلت أنتم أحرص مني
 وأبعد ؛ أيتنا أحرص ؟ أنا الذي طلبت ميراثي وحق الذي جعلني الله ورسوله أولى به ، أم
 أنتم إذ تضرّبون وجوه دونه ، وتقولون يقولون : فبهتوا ، والله لا يهدي القوم الظالمين .
 اللهم إني استعديك على قريش ، فإنهم قطعوا رجلي ، وأصاعوا إياي ، وصمروا عظيم
 منزلي ، وأجمعوا على منازعتي حقاً كنت أولى به منهم ، فسلبونيهم ثم قالوا : ألا إن في
 الحق أن تأخذ ، وفي الحق أن تمنه ؛ فاصبر كذا ، أومت أسيفاً حقيقاً .

ففظرت فإذا ليس مني رافد ولا ذاب ولا ناصر ولا ساعد إلا أهل بيتي ، فضننت
 بهم عن النية ، وأغضيت على القذى ، وتجرعت ريق على الشجى ؛ وصبرت من كظم
 الصف على أمر من التلم ، وآلم القلب من حزن الشفار ، حتى إذا بقيت على عثمان أنيتوه
 قتلتموه ؛ ثم جثمتوني لتبايعوني ، فأيت عليكم ، وأمسكت يدي فنازعتموني ودافعتموني ،
 وبسطتم يدي فكففتها ، ومددتموها فقبضتها ، وازدحمت على حتى ظننت أن بعضكم
 قاتل بعضكم أو أنكم قاتل . قلم : يا يثنا لا نجد غيرك ، ولا نرضى إلا بك ، يا يثنا

لا تفرق ولا تختلف كلمتنا. فبايعتكم ودموت الناس إلى بيعتي ، فمن بايع طوعاً قبلته ؛ ومن أبى لم أكرهه وتركته .

فبايعني فيمن بايعني طلعة والزير ؛ ولو أبياً ما أكرهتهما ، كما لم أكره غيرهما ؛ فالبثا إلا يسيراً حتى بلغني أنهما خرجا من مكة متوجهين إلى البصرة ؛ في جيش ما منهم رجل إلا قد أعطاني الطاعة ، وسمح لي بالبيعة ؛ فهدماً على طاملي وخرّان بيتي على وعلى أهل مصرى الدين كلهم على بيعتي وفي طاعتي ، فشتتوا كلمتهم ، وأفسدوا جماعتهم ، ثم وثبوا على شيعتي من المسلمين ، فقتلوا طائفة منهم قهراً ، وطائفة صبراً ^(١) . ومنهم طائفة غضبوا لله ولي ، فشهروا سيوفهم وضربوا بها ؛ حتى لقوا الله عز وجل صادقين ؛ فوالله لو لم يصيبوا منهم إلا رجلاً واحداً متعمدين لقتله لخل لي به قل ذلك الجيش بأسره ، فدمغ ماأنهم قد قتلوا من المسلمين أكثر من العدد الذي دخلوا بها عليهم ؛ وقد أدال الله منهم خبداً لقوم الظالمين !

ثم إلى نظرت في أمر أهل الشام ، فإذا أعراباً أحزاب وأهل طمع جفاة طغاة ، يجمعون من كل أوب ؛ من كان ينبغي أن يؤدب وأن يؤلى عليه ، ويؤخذ على يده ؛ ليسوا من الأنصار ولا المهاجرين ولا التابعين بإحسان . فسيرت إليهم ، فدعوتهم إلى الطاعة والجماعة ، فأبوا إلا شقاقاً وفراقاً ، وههوا في وحوه المسلمين ينصعونهم بالنبل ، ويشجرونهم ^(٢) بالرمح ؛ فهذاك نهذت ^(٣) إليهم بالمسلمين فقاتلتهم ، فلما عصفهم السلاح . ووجدوا ألم الجراح ، دفعوا المصاحف بدعوتكم إلى مافيها ؛ فأبأتكم أنهم ليسوا بأهل دين ولا قرآن ، وأنهم دفعوها مكيدة وخديعة ووهناً وضفا ، فامضوا على حقكم وقاتلكم . فأينهم على وقتلهم ؛ أقبل منهم ؛ فإن أحابوا إلى ما في الكتاب جامعوناً على ما نحن عليه من

(١) صبرا ، أي حباً

(٢) يشجرونهم بالرمح ؛ ينصعونهم .

(٣) نهذ للقتال ؛ نهض .

الحق، وإن أبوا كان أعظم لحبقتنا عليهم. قبلت منهم، وكففت عنهم؛ إذوئيتهم وأبيتهم؛ فكان الصلح بينكم وبينهم على رجلين، يُحْييان ما أحيا القرآن، ويميتان ما أمات القرآن؛ فاختلف رأيهما، وتفرق حكمهما، ونهَذَا ما في القرآن، وخالفنا ما في الكتاب؛ فجنبهما الله التداد، ودَلَّاهما في الضلالة، فانحرفت فرقة متافركنا متركونا؛ حتى إذا هشوا^(١) في الأرض يقتلون ويخسدون، أتيناهم قتلنا؛ اذْفَعُوا إلينا قتلنا إخواننا، ثم كتاب الله بيننا وبينكم. قالوا: كلنا قتلهم؛ وكلنا استعمل دماءهم. وشدت علينا خيلهم ورجالهم، فصرَّعهم الله مصارع الظالمين.

فلما كان ذلك من شأنهم أمرتكم أن تمضوا من فوركم ذلك إلى عدوكم، قتلتم؛ كلت سيوفنا، ونفدت نبأنا، ونصت أئمة رماحنا، وعاد أكثرها قصدا^(٢)، فارجع بنا إلى مصرنا لستم بأحسن عدتنا، فإذا رجعت زدت في مقاتلتنا عدة من هلك منا وهارقنا؛ فإن ذلك أقوى لنا على عدونا، فأقبلت بكم، حتى إذا أطلتكم على الكوفة أمرتكم أن تنزلوا بالنضيلة، وأن تلتزموا معكم، وأن تصوموا قواصمكم، وأن توطئوا على الجهاد أنفسكم، ولا تكثروا زيارة أبنائكم ونسبكم، فإن أهل الحرب للصابر وها، وأهل التمشير فيها الذين لا يتقادون من شهر لياهم ولا غلبا نهارهم، ولا يخص بطورهم، ولا نصب أبدانهم، فزلت طائفة منكم معي مديرة، ودخلت طائفة منكم إلى مصر عاصية؛ فلا من بقي منكم صبر وثبت، ولا من دخل إلى مصر عاد ورجع؛ فنظرت إلى معسكري، وليس فيه خسون رحلا؛ فلما رأيت ما أئيتم، دخلت إليكم فلم أقدر على أن تخرجوا معي إلى يومنا هذا، فما تنتظرون! أما تروون أطرافكم قد انتقصت، وإلى مصر قد فتحت، وإلى شيمتي بها قد قتلتم؛ وإلى مسالحكم تفرى، وإلى بلادكم تفرى! وأنتم ذوو عدد كثير،

(١) عن: أسد، مثل طث.

(٢) القصد: جمع قصدة؛ وهي النقلة للكسرة.

وشوكة وبأس شديد ؛ فإياكم الله أنتم من أين تؤثنون ! وما لكم تؤفكون !
وإني نصحرون !

ولو أنكم عزتم وأجتم لم ترواوا ؛ إلا أن القوم تراجعوا وتناشوا وتناصروا ، وأنتم قد وثيتم وتناشستم وافترقتم ، ما إن أنتم إن المسم عندى على هذا بسعداء ^(١) ؛ فانهوا بأجتمكم ، وأجتموا على حقكم ، وتجردوا للحرب عدوكم ؛ وقد أبدت الرغوة عن الصريح ، وبين الصبح لذى عيين ؛ إنما تقاتلون الطغاة ، وأبناء الطغاة وأولى الجفاء ، ومن أسلم كرها ؛ وكان لرسول الله صلى الله عليه وآله ^(٢) الإسلام كله حربا ؛ أعداء الله والسنة والقرآن ، وأهل البدع والأحداث ؛ ومن كان بوائقه تثنى ، وكان عن الإسلام متصرفا ، أكله الرشا ، وعبد الدنيا ؛ لقد أسهب إلى أن ابن النابغة لم يبايع معاوية حتى أعطاه ، وشرط له أن يؤتية ما هي أعظم مما في يده من سلطان ألا صيرت بدو هذا البائع دية بالديار ، وحريته أمانة هذا للشري نصره فأسبق بما نوال المسلمين ؛ وإن فيهم من قد شرب فيكم الخمر وجلب الخمر ؛ يعترف بالصادق الدين ، والفعل السيئ ؛ وإن فيهم من لم يسلم حتى رخص له رخصة ^(٣) .

فهؤلاء قادة القوم ؛ ومن تركت ذكر مساوئه من قاذهم مثل من ذكرت منهم ؛ بل هو شر ، وبود هؤلاء الذين ذكرت لو رلوا عليكم فأظهروا فيكم الكفر والفساد والفجور والفساد بجمرة ؛ واتبعوا الهوى وحكموا بغير الحق . ولأنتم - على ما كان فيكم من تواكل وتخاذل - خير منهم وأهدى سبيلا ؛ فيكم العلماء والفقهاء ، والنسابة والحكام ، وحملة الكتاب والتعبدون بالأسعار ، وعمار المساجد بتلاوة القرآن ؛ أفلا تسخطون وتهتمون أن ينزعكم الولاية عليكم سفهاؤكم ، والأشرار الأراذل منكم !

(١) كذا في ب ، وهي ساقطة من أ ، ج

(٢) أتق كل شيء : أوله .

(٣) الرخصة : العطية القليلة .

فاسمعوا قولي ، وأطيعوا أمري ؛ فوالله لئن أطعتموني لا تفنؤن ، وإن عصيتموني
لا ترشدون ؛ خذوا للحرب أهبتها وأعدوا لها عُدتها ؛ فقد شئت نَارها ، وعلا سنانها
وتجرّد لكم فيها الفاسقون ، كي يعضدوا عباد الله ، ويطفئوا نور الله . ألا إنه ليس أولياء
الشيطان من أهل الطمع والمكر والجفاء بأوّل في الجذقي غيهم وضلالهم من أهل البرّ
والزهادة والإخبات في حقهم وطاعة ربهم ؛ إني والله لو تقيتهم فرداً وهم ملاء الأرض ؛ ما باليت
ولا استوحشت ؛ وإني من ضلالهم لقيت هم فيها ، والهدى الذي بمن عليه ، لعلّ ثقة
وبيئة ، وعين وبصرة ؛ وإني إلى لقاء ربّي لشتاق ، ولحسن ثوابه لمتظر ؛ ولكن أسفاً
يعتريني ، وحزناً يخامرني ، أن يلى أمر هذه الأمة سفهاؤها وفجّارها ، فيخذلوا مال الله
دولاً ، وعباده خوّلاً ، والعاسقين حرباً . وإيم الله لولا ذلك لما أكرت تأييدكم
وتحريضكم ، ولتركتكم إذ وبتم وإيتم حقّ الله بنفسي ؛ متى حُتم لي لقاءهم فوالله إني
كملت الحق ، وإني للشهادة لمحّب ، فليقروا حقا وثقالاً ، وجاهدوا بأموالكم وأنفسيكم في
سبيل الله ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . ولا تناقلوا إلى الأرض فتقرّوا بالخلف ،
وتبوءوا بالقل ، ويكن نصيبكم الخسران [إن]^(١) أخا الحرب اليقظان ، ومن ضعف
أودى ، ومن ترك الجهاد كان كالمعبون المهين .

اللهم اجمعنا وإياهم على الهدى ، وزهّدنا وإياهم في الدنيا ، واجعل الآخرة خيراً لنا
ولهم من الأولى .

[خبر مقتل محمد بن أبي حذيفة]

قال إبراهيم : حدثني محمد بن عبد الله بن عثمان ، عن اللدائي ، أن محمد بن أبي
حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ، أصيب لما فتح عمرو بن العاص مصر ، فبث به
(١) كلمة يقتضها السياق .

إلى معاوية بن أبي سفيان وهو يومئذ بفسطاطين ، فحبسه معاوية في سجن له ، فكث فيه غير كثير ، ثم هرب - وكان ابن خال معاوية - فأرى معاوية الناس أنه كره انقلابه من السجن ؛ وكان يحب أن يبعوه ، فقال لأهل الشام : مَنْ يطلبه ؟ فقال رجل من خشم - يقال له عبيد الله ابن عمرو بن غلام ، وكان شعاعا وكان عثمانيا : أما أطلبه ، ونخرج في حبل فلحقته بمحوارين^(١) ، وقد دخل عمار هناك ، فجاءت حُرٌّ فدحتته ، لما رأت الرجل في العار فبرعت ونفرت ؛ فقال حمارون كانوا قريبا من العار : إن لهذه الحمر لثأبا ، ما نقرها من هذا العار إلا أمر إقذبهوا ينظرون ؛ فإداهم به ؛ فخرجوا به ؛ فوافاهم عبد الله بن عمرو بن غلام ؛ فألمهم ووصفهم فقالوا : ها هو هذا ؛ فجاء حتى استخرجه ، وكره أن يصير به إلى معاوية فيحلب سبيله ، فضرب عنقه . رحمه الله تعالى .

(١) حواريين ، من قرى حلب ، أو حصن ناحية حمص (مراسد الاعلام) .

(٦٨)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام في ذم أصحابه :

كَمْ أَدَارِيكُمْ كَمَا تُدَارَى الْبَكَارُ الْعَمِدةُ ، وَالثَّيَابُ الْمَتَدَاعِيَةُ ؛ كَلَّمَا جِئْتُمْ مِنْ جَانِبٍ تَهْتَكْتُمْ مِنْ آخَرٍ ، كَلَّمَا أَطَلَّ عَلَيْكُمْ يَنْسَرُّ مِنْ مَنَاسِيرِ أَهْلِ الشَّامِ أَغْلَقَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بَابَهُ ، وَانْتَجَحَرَ انْتِحَارَ الصَّبَةِ فِي جُحْرِهَا ، وَالضُّعُفُ فِي وَجَارِهَا .

الدَّلِيلُ وَأَقْرَبُ مَنْ نَصَرَ ثَمُوهُ ، وَمَنْ رُمِيَ بِكُمْ فَتَدْرِي بِأَفْوَقَ نَاصِلٍ .
إِنَّكُمْ وَأَنْفُكُمْ لَكَثِيرٌ فِي الْبَاحِيَّاتِ ، قَبِيلٌ تَحْتَ الرَّايَاتِ ، وَإِنِّي لَسَالِمٌ عَمَّا يُصْلِحُكُمْ ، وَيُقِيمُ أَوْدَكُمْ ، وَلَيْكِنِّي وَأَنْفُكُمْ لَا أَرَى إِصْلَاحَكُمْ بِإِفَادِ نَفْسِي .
أَضْرَعَ اللَّهُ خُدُودَكُمْ ، وَأَتَمَّ جُدُودَكُمْ ؛ لَا تَعْرِفُونَ الْحَقَّ كَمَعْرِفَتِكُمُ الْبَاطِلَ ، وَلَا تُظِلُّونَ الْبَاطِلَ كَمَا تُظِلُّونَ الْحَقَّ .

...

التلخيص :

البَكَارُ : جمع بَكَر ، وهو المعنى من الإبل . والعَمِدةُ : التي قد اشدخت أسنمتها من داخل وظاهرها صحيح ؛ وذلك لكثرة ركوبها .
وَالثَّيَابُ الْمَتَدَاعِيَةُ : الأثمال التي قد أحلقت ؛ وإنما سميت متداعية ، لأن بعضها يخرق فيدعو بعضها إلى مثل حاله .

وَجِئْتُمْ : خيبت ، والخرص : الخيانة . وتهتكت : تخزقت .

وأطلّ عليكم ، أى أشرف ، وروى : « أطلّ » بالناء للمعة ، والفتح واحد .
ومَنَسَر : قطعة من الجيش تمرّ قدام الجيش الكثير ، والأفصح « مَنَسَر » بكسر
للميم وفتح السين ، ويجوز « مَنَسِير » بفتح الليم وكسر السين .
وانبحر : استتر في بيته ، أجبرت الضب ، إذا ألبأته إلى جُفْره فانبجر .

والضبة : أنثى الضباب ، وإنما أوقع التشبيه على الضبة مهاللة في وصفهم بالجين
والفرار ؛ لأن الأنثى أجبن وأذل من الذكر . والموجار : بيت الضبع .

والسهم الأفوق : الناصل للكدور فوق ، للزروع التصل ، والفوق : موضع
الوتر من السهم ؛ يقال نَصَل السهم إذا خرج منه النصل فهو ناصل ؛ وهذا مثل يضرب
لمن امتنع بمن لا يتبعه .

والباحات : جمع باحة ، وهى ساحة الدار . والأود : العوج ، أود الشيء بكسر الواو
بأود أوداً ؛ أى اعوج ، وقاود ، أى تسوج . وأضرع الله خدودكم : أذلّ وجوهكم .
ضَرَعَ الرجل ذلّ وأضرعه غيره ، ومنه التل : « الحمى أضرت لك »^(١) .

وأنسَ جدودكم ، أى أحال حظوظكم وسعودكم وأهلكها فجعلها إداراً ونحسا .
والنمّس : الهلاك . وأصله الكب ؛ وهو ضد الاعتاش . نمّس الرجل ، بفتح العين
بعمّس نمّسا . يقول : كم أداربكم كما يدارى ركب البعير بعمّره المنفضح السنام ، وكما
يدارى لايس النوب السمل ثوبه للداعي ، القى كفاً خيط منه جانب تمرق جانب .

ثم ذكر خبثهم وذاتهم ، وقلة انتصار من ينتصر بهم ، وأنهم كثير في الصورة ،
قليل في القوى . ثم قال : إني عالم بما يصلحكم ؛ يقول : إنما يصلحكم في السياسة السيئة ؛
وصدق ؛ فإن كثيراً لا يصلح إلا عليه . كما فعل الحجاج بالجيش الذي تقاعد بالهلب ،

(١) الليثاني ١ : ٣٠٥ ، يضرب في القل عند الحاجة نزل .

فإنه نادى متنادية : مَنْ وجدناه بعد ثلاثة لم ينتحق بالمهلب فقد حل لنا دمه ؛ ثم قتل
عُمير بن صائغ وغيره ؛ فخرج الناس يهرعون إلى المهلب .

وأمر المؤمنين لم يكن يستحل من دماء أصحابه ما يستحل من يريد الدنيا وسياسة
الملك وانتظام الدولة ، قال عليه السلام : « لَكى لا أرى إصلاحكم بإفساد نفسى » ،
أى إفساد دينى عند الله تعالى .

فإن قلت : أليست نصرة الإمام راحة عليهم ؟ فلم لا يقتلهم إذا أخلوا بهذا الواجب ؟
قلت : ليس كل إخلال بواجب يكون عقوبته القتل ، كمن أخل بالحج . وأيضا
فإنه كان يعلم أن عاقبة القتل فسادهم عليه واضطرابهم ؛ فلو أسرع في قتلهم لشموا عليه
شعبا يقتضون أن يقتلوه ويقتلوا أولاده ، أو يسلموه ويسلموه إلى معارضة ؛ ومتى علم هذا
أو غلب على قلبه لم يجرؤ له أن يسوسهم بالقتل الذى يقتضى إلى هذه الفسدة ، ولو ساءلهم
بالقتل والحال هذه ؛ لكان آتيا عند الله تعالى ، وموانعا لقبيح ؛ وفى ذلك إفساد دينه
كما قال : « لا تعرفون الحق كعرفتكم الباطل ... » إلى آخر المصل ؛ فكأنه قال :
لا تعتقدون الصواب والحق كما تعتقدون الخطأ والباطل ؛ أى اعتقادكم الحق قليل ، واعتقادكم
الباطل كثير ؛ فمير عن الاعتقاد العام بالعروة الخامسة ؛ وهى نوع تحت جنسه محازا .
ثم قال : ولا تسرعون في قتل الباطل سرعتمكم في قتل الحق وهدمته .

• • •

[طائفة من الأشعار الواردة في ذم الجبن]

واعلم أن المجيء بالجبن والذل للفرق كثير جدا ، ونظير قوله : « إنكم لكثير في
الباحات ، قليل تحت الرايات » قول معدان الطائى :

فَأَمَّا الَّذِي يُحْصِيهِمْ فَكَثْرٌ وَأَمَّا الَّذِي يُطْرِبُهُمْ فَقَلِيلٌ^(١)

(١) ديوان الحماسة - يشرح الرزوقي ٣ : ١٤٦٣

ومحو قول فراد بن حنّش ، وهو من شعر الحماسة ^(١) :

وأنتم سماء بُعِثَ بِالنَّاسِ رِزْها نَابِدَةٌ تُنْجِي شَدِيدِ رَيْسِها ^(٢)
تَقْطَعُ أَطْنَابَ اللَّيْلِ بِحَاصِرِ وَأَكْذَبُ شَيْءٍ يَرْتَقِي رُغُودِها ^(٣)
فَوَيْلُكُمْ خَيْلاً بِهَا وَشَارَةً إِذَا لَاقَتِ الْأَعْدَاءَ قَوْلًا صَدُودِها !

ومن شعر الحماسة في هذا اللفظ :

لَقَدْ كَانَ فِيكُمْ تَوْفِيقٌ بِحَارِكُمْ لِحَى وَرِقَابٍ عَرْدَةٍ وَمَسَاخِرِ ^(٤)
مِنَ الصَّهْبِ أَتَاءٌ وَجُدْعًا كَانَهَا عَذَارَى عَلَيْهَا شَارَةٌ وَمَسَاخِرِ ^(٥)

ومن المعجزة بالجن والفرار ، قولُ بعض بني مطي : يهجو حاتمًا ، وهو من شعر

الحماسة أيضاً ^(٦) :

لَعَرَى وَمَا تَعْرِى عَلَى بَيْتِ كَيْسَ الْفَقَى لِلدُّعْوَى بِاللَّيْلِ حَاتِمُ
عَدَاةً أَنَّى كَالْتَوْرِ أَخْرَجَ قَاتِمِي بِجَبْهَتِهِ أَقْتَالَهُ وَهُوَ قَاتِمُ ^(٧)
كَأَنَّ بِصَعْرَاءَ الْمُرْبُطَ لَعَامَةً تَبَادَرُهَا جَنَحَ الظَّلَامِ نَعَامُ
أَعَارَتْكَ رِجْلَيْهَا وَهَارَى لَهَا وَقَدْ جُرِّدَتْ يَمِضُ لِلتَّوْنِ صَوَارِمُ

(١) ديوان الحماسة - بصرح الرزوقي ٣ : ١٤٣١ ؛ من أبيات أربعة أولها :

لَقَوْمِي أَرْغَى لِقْمًا مِنْ عَصَابَةٍ مِنَ النَّاسِ بِأَحَارِ بْنِ تَعْمِرٍ تَسْوَدُهَا

(٢) رزها : صوتها ، أى صوت رعدتها . والآبدة : القربة . وتنحي : تشد .

(٣) الحاصب : الريح تجيء بالحصى .

(٤) من أبيات منصور بن مسجاح الضبي : حماسة أبي تمام - بصرح التبريزي ١ : ٢٥ . عردة : فلاة .

(٥) يريد من الإبل الصهب ، والصبة : حرة يملؤها يابس . وأتاء : جمع نى ؟ وهو من الإبل ما يلقى نتيته ؟ وذلك في السنة الثالثة والجمع : جمع جمع ؟ وهو ما تلثى . والمعبر : توب أصغر من الرداء ثلثه المرأة . وقى التبريزي : « ومعاصر »

(٦) ليزيد بن قنافة . ديوان الحماسة - بصرح الرزوقي ٣ : ١٤٦٤

(٧) عداة أنى كالنور : يعنى حاتمًا ، وأخرج : سبق عليه وأخرج من عادته ، والأختال : الأثران والأعداء ،

ونظير للمنى الأول أيضاً قول بعضهم من شعر الجحاسة :

كأثر بسطير إن سداً كثيرةً ولا ترج من سعد وطاء ولا نصراً^(١)

يروك من سعد بن عمرو وجوئها وتزهد فيها حين تقتلها خبراً

ومنه قول مؤيد القوافي :

وما أمكم تحت الخوافق والفتا بشكلى ولا زهراء من نورة زهر^(٢)

السم أقل الناس عند لوائهم وأكثرهم عند القديحة والقدير

وممن حسن الجبن والفرار بعض الشعراء في قوله :

أضحت تشجئني هذا وقد علمت أن الشجاعة مقرون بها العطب^(٣)

لا والذي حجت الأنصار كمتته ما بشئ الموت عندي من له أرب

للعرب قوم أضل الله سبيلهم إذا همهم إلى حواميتها وثبوا

ولست منهم ولا أهوى ضالم لا تقتل يميني منها ولا السلب

ومن هذا قول أيمن بن خريم الأندلسي :

إن كنته ميطاً يئنا ووريد البيط منها يمتد^(٤)

فإذا كان خطاه فابتدر وإذا كان قتالاً فاعتزل

إنما يئرها جهالها حطب النار فدعها تشتعل

ومن عرف بالجن أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد ، عبده عبد الملك بن مروان

قال :

(١) ديوان الجحاسة - بصرح التبريزي ٤ : ٩١ ، من غير نسبة ، وبهذه :

ولا تلغ سداً للقراع وخلفاً إذا أمنت ونفثها البلد القفر^(١)

(٢) ديوان الجحاسة - بصرح التبريزي ٤ : ٩٩

(٣) ميوون الأخبار ٤ : ١٦٤ ، من غير نسبة ، الطد ١ : ١٦٦

(٤) ميوون الأخبار ١ : ١٦٤ ، الطد ١ : ١٦٧ ، والبط : المضب والشد

إِذَا صَوَّتَ الْمَصْفُورُ طَارَ فَوَادُهُ وَلَيْثٌ حَدِيدٌ النَّابِ عِنْدَ الثَّرَائِدِ^(١)
وَقَالَ آخَرُ :

يَطِيرُ فَوَادُهُ مِنْ تَحْتِ كَلْبٍ وَيَكْمِيهِ مِنَ الرَّجْرِ الصَّغِيرُ
وَقَالَ آخَرُ :

وَلَوْ أَنَّهَا عَصْفُورَةٌ لَحَبِثُهَا مُسَوِّمَةٌ تَدْعُو عَبِيدًا وَأَزْمًا^(٢)

[أخبار الجبناء وذوكر نوادرهم]

ومن أخبار الجبناء ما رواه ابن قتيبة في كتاب " عيون الأخبار " قال : رأى عمر بن العاص معاوية يوماً فصاحك ، وقال : **مَنْ تَصْعَكَ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، أَضَعَكَ اللَّهُ سَنَكَ** ! قال : **أَضَعَكَ مِنْ حُضُورِ ذَهْنِكَ عِنْدَ إِدَاكَ سَوْدَتِكَ** يوم ابن أبي طالب ؛ والله لقد وجدته **مَنَانًا** [كريماً]^(١) ولو شاء أن يَنْتَقِلَ قَتْلَكَ أَضَلَّ عَمْرُؤَ : **بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، أَمَا اللَّهُ إِنِّي لَمِنْ يَمِينِكَ** حين دعاك إلى البزار فاحولت عيناك ، واخضع سحرُك ، وبدا ملك ما أكرم ذكره لك ؛ فمن قدسك فأضحك أو فدَّع^(٢) .

قال ابن قتيبة : وقدم الحجاج على الوليد بن عبد الملك ، وعليه دِرْعٌ وحمالة سوداء ، وقوسٌ عربية وكفانة ، فبعثت أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان إلى الوليد - وهي تحت يومئذ : **مَنْ هَذَا الْأَمْرَأَةُ الْمَسْتَلِمَةُ فِي السِّلَاحِ عِنْدَكَ عَلَى خَلْوَةٍ ، وَأَنْتَ فِي غُلَاةٍ ؟**

(١) عيون الأخبار ١ : ١٦٦ ، المقدم ١ : ١٦٨

(٢) هو العوام بن حوشب القبياني ، عيون الأخبار ١ : ١٦٦ ولبيت من شواهد للنبي ٢ : ١٩٦

(٣) من عيون الأخبار .

(٤) عيون الأخبار ٤ : ١٦٩

فَارْسَلْ إِلَيْهَا الْوَلِيدَ : إِنَّهُ الْحَبَّاجُ ، فَأَعَادَتْ عَلَيْهِ الرِّسُولَ : وَاللَّهِ لَأَنْ يَحْمِلُوْكَ بِكَ مَلَأَكَ الْمَوْتُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَحْمِلُوْكَ بِكَ الْحَبَّاجُ أَفَضَعْتُ وَأَحْبَرُ الْحَبَّاجُ قُطُومًا وَهُوَ يَمَازِحُهُ ، فَقَالَ الْحَبَّاجُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، دَعِ عَيْتَكَ مِفْكَةَ السَّاءِ تَزْخَرُفُ الْقَوْلُ ، فَإِنَّمَا لِلرَّأَةِ رِيْحَانَةٌ وَلَيْسَتْ بِقَهْرْمَانَةٍ ؛ فَلَا تَطْلُبْنَهَا عَلَى سِرِّكَ ، وَمَسْكَبُذَةُ عَدُوِّكَ .

فَلَمَّا انْصَرَفَ الْحَبَّاجُ وَدَخَلَ الْوَلِيدُ عَلَى امْرَأَتِهِ أَخْبَرَهَا بِمَقَالَةِ الْحَبَّاجِ ، فَقَالَتْ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، حَاجَتِي إِلَيْكَ الْيَوْمَ أَنْ تَأْمُرَهُ غَدًا أَنْ يَأْتِيَنِي مُسْتَلْتِمًا ، فَفَعَلَ ذَلِكَ ، وَأَنَاهَا الْحَبَّاجَ لِحَبِيبَتِهِ ثُمَّ أَدْخَلَتْهُ ، وَلَمْ تَأْذَنْ لَهُ فِي الْقُعُودِ ، فَلَمْ يَزَلْ قَائِمًا ، ثُمَّ قَالَتْ : إِيَّاهُ بِالْحَبَّاجِ ! أَنْتَ الْمَتَنُ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِقَتْلِكَ ابْنَ الزَّيْبِرِ وَإِنَّ الْأَشْمَثَ ! أَمَا وَاللَّهِ لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ عَلِمَ أَنَّكَ شَرٌّ حَلَقَهُ مَا ابْتَلَاكَ بِرُمَى الْكُمْبَةِ الْحَرَامِ ، وَلَا بِقَتْلِ ابْنِ ذَاتِ النُّطَاقِينَ أَوَّلَ مَوْلُودٍ فِي الْإِسْلَامِ ؛ وَأَمَا نَهَيْتُكَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ مِفْكَةِ السَّاءِ وَبُلُوعِ لَذَائِهِ وَأَوْطَارِهِ ؛ فَإِنْ كُنَّ يَنْفَرُجْنَ عَنْ مِثْلِكَ فَمَا أَحَقُّهُ بِالتَّغْيِيلِ مِنْكَ لَوْ إِنْ كُنَّ يَنْفَرُجْنَ عَنْ مِثْلِهِ ، فَهُوَ خَيْرٌ قَابِلٌ لِقَوْلِكَ . أَمَا وَاللَّهِ لَوْ نَفَصَ سَاءُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ لِلطَّيِّبِ مِنْ غَدَائِرِهِ فِيمَتِهِ فِي أُعْطِيَةِ أَهْلِ الشَّامِ حِينَ كُنْتَ فِي أَضْيَاقٍ مِنَ الْقُرَى ، قَدْ أَظْلَمْتَكَ الرِّمَاحُ ، وَأَتَمَحْنَكَ السَّكْفَاحُ ؛ وَحِينَ كَانَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَبْنَائِهِمْ ؛ فَأَتَمَحْنَكَ اللَّهُ مِنْ عَدُوِّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِحُبِّهِمْ إِيَّاهُ ؛ قَاتِلِ اللَّهَ الْقَاتِلَ حِينَ يَنْظُرُ إِلَيْكَ وَسَيِّئَانِ غِرَاقَةٍ ^(١) بَيْنَ كَتْمِيكَ :

أَسَدٌ عَلَى وَفَى الْحُرُوبِ نِعَامَةً رَبَّذَاءُ تَنْفِرُ مِنْ صَهْبِ الصَّافِرِ
هَلَا بَرَزْتَ إِلَى عِزَالَةٍ فِي الْوَعْيِ أَمْ كَانَ قَلْبُكَ فِي جَنَاحَيْ طَائِرٍ !
ثُمَّ قَالَتْ لِحَوَارِيهَا : أَخْرِجْتَهُ ، فَأَخْرَجَ ^(٢) :

• • •

(١) غِرَاقَةٌ : امْرَأَةٌ شَيْبِ الْخَارِجِيِّ

(٢) عِيُونُ الْأَحْبَارِ ١ : ١٦٩ ، ١٧٠

ومن طرف حكايات الجبناء ما ذكره ابن قتيبة أيضاً في الكتاب المذكور : قال كان بالبصرة شيخ من بني نهشل بن دارم ، يقال له عروة بن مرثد ، ويكنى أبا الأعرز ، ينزل في بني أخت له من الأرذ في سكة بني مازن ، تفرج رحالم إلى ضياعهم في شهر رمضان ، وخرج النساء يصلين في مسجدهم ، ولم يبق في الدار إلا إماء ، فدخل كلب يستس ، فرأى بيتاً مفتوحاً فدخله ، وانصفق الباب عليه ، فسمع بعض الإماء الحركة ، فظنوا أنه لص فدخل الدار ، فذهبت إحداهن إلى أبي الأعرز ، فأخبرته ، فقال أبو الأعرز : إلام يفتني اللص عندنا ! وأخذ عصاه ، وجاء حتى وقف بباب البيت ، وقال : إيه يا فلان ! أما والله إني بك لمارف ، فهل أنت من لصوص بني مازن ! شرت حامضاً خبيثاً ، حق إذا دارت في رأسك متفكك فكك الأمان ، وقتت : أطرق دور بني عمرو ، والرجال خلوف ، والنساء يصلين في مسجدهن ، فأسرقهن ^(١) والله ما يصل هذا ولد الأحرار ! وإيم الله لتخرجن أو لأهتنن هتفة مشنومة يلقى فيها الحيان : عمرو وحنظلة ، ونجى سعد عند الحصى ، وتسل عليك الرجال ، من هنا وهنا ، ولتن فلتن لتكونن أشام مولودا !

فلما رأى أنه لا يجيبه ، أخذه بالعين ، فقال : اخرج - بأبي أنت - مستورا ، والله ما أراك تعرفني . ولو عرفتني لقتعت بقولي ، وأطأنت إلى ابن أخق الباز الوصول ، أنا - فديتك - أبو الأعرز النهشل ! وأنا خال القوم ، وجلدة بين أصيهم ! لا يصونني ، ولا تضارنا ليلة وأنت في ذمتي ، وعندى قوم صرطان ^(٢) ، أهداها إلى ابن أخق الباز الوصول ، فخذ إحداها ، فانهضها حلالاً من الله ورسوله .

وكان الكلب إذا سمع الكلام أطرق ، وإذا سكنت أبو الأعرز وثب يريد المخرج ، فتهاق ^(٣) أبو الأعرز ، ثم تضاحك ، وقال : يا ألام الناس وأوضهم ! ألا أراني لك منذ الليلة

(١) القومرة ، غلب ومثقل : وعاء يرفع به الخمر من البواري . (٢) التهاق : الضحك والاستهزاء .

في وادٍ وأنت لي في وادٍ آخر ، أقبلت السوداء والبيضاء ، فتصيح وتطرق ؛ فإذا مَكَتْ عنك وثُتْ تريد الخروج ! والله لتخرجن أو لألحنَّ عليك البيت .

فلما طال وقوفه جاءت إحدى الإماء قدالت : أعرابيٌ مجنون والله ، ما أرى في البيت شيئاً ، فدفت الباب فخرج الكلب شاردًا ، وحاد عنه أبو الأعرم ساقطًا على قفاه ، شائلة رجلاه ؛ وقال : تالله ما رأيت كالمثية هذه ! ما أراه إلا كلبًا ، ولو علمت بحاله لولجت عليه^(١) ونظير هذه الحكاية حكاية أبي حنيفة الحميري ، وكان جبانًا ، قيل : كن لأبي حنيفة سيفٌ ليس بينه وبين الخشب فرق ، كان يسميه ثعالب المثية ، فعكَّي عنه بعضُ جيرانه أنه قال : أشرفتُ عليه ليلة ، وقد اتصاه وهو واقفٌ بباب بيت في داره ، وقد سمع منه حياءً ، وهو يقول : أيها المتمرنا ، المحترى علينا ، بش والله ما احترتَ لنفسك ! خيرٌ قليلٌ وسيفٌ صليلٌ ؛ لعاب المثية الذي ضمتَ^(٢) هم مشهورة صولته ، ولا تخاف نبوته . أخرج بالعمو عنك ؛ لا أدخل بالمقوبة عليك ؛ إني والله إن أدعَ قيسًا نملًا القساء عليك خيلا ورجلا . سبحان الله ! ما أكرها وأظمها ؛ والله ما أت بيعد من تابعها ، والرسوب في تيار لجتها !

قال : وهبت ريحٌ ففتحت الباب ؛ فخرج كلب يشتد ، فلبط بأبي حنيفة واربدًا ، وشفر برجليه ، وتبادرت إليه نساء الحى ، فقل : يا أما حنيفة ، لتفرخ روعتك ؛ إنا هو كلب ؛ فجلس وهو : يقول الحمد لله الذي مسحك كلبًا ، وكفاني حرها^(٣) !

وخرج معيرة بن سعيد المجلِّي في ثلاثين رجلا يظهر الكوفة ، فسطعوا^(١) ، وخالد بن عبد الله القسري أمير العراق ، يخطب على المنبر فمرق ، واضطرب وتمخّر ، وجعل يقول : اطمئوني ماء ، فهجاه ابن نوفل فقال :

(١) عيون الأخبار ١ : ١٦٨ ، ١٦٩

(٢) عيون الأخبار ١ : ١٦٨

(٣) المطلة : تنابع الأصوات واختلافها .

أخاهُ لاجزاءك الله خيراً وإبرى في جرائمك من أمير^(١)
 تروم للفخر في أغرابِ قسِرٍ كأمك من سراته بنى جرير
 جرير من دوى بمن أصبل كرم الأصل ذو خطير كبير
 وأمك ملجة وأبوك وغد وما الأذنان عدل للصدور
 وكنت لدى للعبرة عبدة سوء تبول من الخفاقة للزئير
 لأعلاج نمانية وشيخ كبير السن ليس بنى خرب^(٢)
 صرحت من الخفاقة: أطموى شراباً تم بئت على السرير

وقال آخر يبيده بذلك :

بل للفاير من خوف ومن دقشني واعتطم الماء لما حدث في الحرب^(٣)
 ومن كلام ابن القفع في ذم الحين : الحين مقتلة ، والحرس محرمة ؛ فانظر
 فيما رأيت وسمعت : مَنْ قُتِلَ في الحرب حفيلاً أكثر أم مَنْ قُتِلَ مدبراً ؛
 وانظر مَنْ يطلب إليك بالإجمال والتسكرم أحق أن تسخو نفسك له بالمعطة ، أم من
 يطلب ذلك بالشره والحرس ؛

(١) من أبيات وردت متفرقة في البيان والتبيين ٣ : ٢٦٧ / ٤ : ٢٠٥ ، والمجولان ٢ : ٢٦٧ / ٤ : ٢٠٥

(٢) أورد للرزباني هذا البيت في الموشح ٢٣٥ ، وعده شاهداً على ما في الشعر من التناقض ، قال :
 لفظة « خرب » إنما تستعمل - وهي تعريب من الصر - في الأكثر لذي لا بصر له ، وقول هذا
 الشاعر في هذا البيت : إنه ذو بصر وأنه خرب تناقض من جهة القبة والدم ؛ وذلك أنه كأنه يقول : إن له
 بصرأ ولا بصر له ؛ فهو بصير أعشى .

(٣) البيت أيضاً لبحي بن نوفل ، ذكره الجاحظ في البيان ١ : ١٢٢ ، وأورد بعده :

وألحن الناس كل الناس قاطبة وكان يؤلّع بالتشديد في الخطيب

(٦٩)

الأصل :

وقال عليه السلام في سحرة اليوم الذي ضرب فيه :

مَلَكْتَنِي عَيْنِي وَأَنَا جَالِسٌ ، فَسَمِعَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ ، فَقُلْتُ :
يَا رَسُولَ اللَّهِ ! مَاذَا لَقِيتُ مِنْ أَمْتِكَ مِنَ الْأَوْدِ وَاللَّدَدِ ! فَقَالَ : أَدْعُ عَلَيْهِمْ ، فَقُلْتُ :
أَبْدَلْنِي اللَّهُ بِهِمْ خَيْرًا مِنْهُمْ ، وَأَبْدَأَهُمْ بِي شَرًّا لَهُمْ يَوْمَ .

قال الرضی رحمہ اللہ :

يُنِي بِالْأَوْدِ الْأَعْوَجِاجِ ، وَاللَّدَدِ الْخِلْعَامِ ، وَهَذَا مِنْ أَفْصَحِ الْكَلَامِ .

البيان :

قوله : « مَلَكْتَنِي عَيْنِي » من فصيح الكلام ، يريد غَلَبَنِي النوم .

قوله : « فَسَمِعَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ » ، يريد مرَّ بِي كما نَسَحَ الغُلباء والطير
بمرَّ بك ، ويمتض لك .

وذا هاهنا بمعنى « الذي » كقوله تعالى : ﴿ مَاذَا تَرَى ﴾ ^(١) ؛ أي ما الذي ترى ، يقول :
قلت له : ما الذي لقيتُ من أمتك ! وما هاهنا استفهامية كأي ، ويقال ذلك فيها يستعظم أمره ،
كقوله سبحانه : ﴿ الْفَارِغَةُ • مَا الْفَارِغَةُ ﴾ ^(٢) . و « شرًا » هاهنا لا يدل على أن فيه شرًا ،
كقوله : ﴿ قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ ﴾ ^(٣) لا يدل على أن في النار خيرًا .

[خبر مقتل الإمام علي كرم الله وجهه]

ومحب أن يذكر في هذا للوضع مقتله عليه السلام؛ وأصح ما ورد في ذلك ما ذكره أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني في كتاب "مقاتل الطالبين" (١).

قال أبو الفرج علي بن الحسين - بعد أسانيد ذكرها مختلفة متفرقة، تجتمع على معنى واحد نحن ذاكره : إن قرأ من الخوارج اجتمعوا بمكة فتذاكروا أمر المسلمين، فمابوم وعابوا أهالم عليهم، وذكروا أهل النهر وان، فترحموا عليهم، وقال بعضهم لبعض : لو أننا شربنا أنفسنا لله عز وجل فأتينا أئمة الضلال، وطلبنا غرثهم، وأرسلناهم المهاد والبلاد، وثأرنا ياخواننا الشهداء بالنهر وان !

فماقدوا عند انقضاء الحج، فقال عبد الرحمن بن ملجم : أنا أكنفكم علياً، وقال واحد : أنا أكنفكم معاوية، وقال الثالث : أنا أكنفكم عمرو بن العاص، فماتوا وتواثقوا على الوفاء، وألا ينكح أحد منهم عتر صاحب الذي يتوجه إليه ولا عن قتله، واتعدوا لشهر رمضان، في الليلة التي قتل فيها ابن ملجم علياً.

قال أبو الفرج : قال أبو مخنف : قال أبو زهير اللبسي : الرجلان الآخران البرك بن عبد الله التميمي، وهو صاحب معاوية، وعمرو بن بكر التميمي، وهو صاحب عمرو بن العاص. قال : فأما صاحب معاوية فإنه قصده، فلما وقعت عينه عليه ضربه، فوقعت ضربه على أليته، وأخذ فجاء الطيب إليه؛ فنظر إلى الضربة فقال : إن السيف مسموم؛ فاختر إنا أن أحیی لك حديدة فأجعلها في الضربة [فجراً] (٢)، وإنا أن أسقيك دواء فتبرأ وينقطع نسلك. فقال : أما النار فلا أطيئها، وأما النسل ففي يزيد وعبد الله ماتت عيني، وحسبي بهما. فسقاء الدواء فعوفي وعالج جرحه حتى التأم، ولم يولد له بعد ذلك.

(١) مقاتل الطالبين ص ٢٩ وما بعدها. (٢) من مقاتل الطالبين.

وقال له البرك بن عبدالله : إن لك عندي بشارة ؛ قال : وما هي ؟ فأخبره خبر صاحبه ؛ وقال له : إن عليا قُتل في هذه الليلة فاحتبسي عندك ، فإن قُتل فانت ولي ماتراه في أمري ، وإن لم يقتل أعطيتك العهد والمواثيق أن أضي إليه فأقتله ، ثم أعود إليك فأضع يدي في يدك ، حتى تحكم في بما ترى . فحبسه عنده ، فلما أتى الخبر أن عليا قُتل في تلك الليلة خَلَّ سبيله .

هذه رواية إسماعيل بن راشد . وقال غيره من الرواة : بل قتله من وقته .
وأما صاحب عمرو بن العاص ، فإنه وافاه في تلك الليلة ، وقد وجد علة فأخذ دواء ، واستخلف رجلاً يصلي بالناس ، يقال له خارجة بن أبي حبيبة ، أحد بني عامر بن لؤي ، فخرج للصلاة ، فشد عمرو بن بكر فضربه بالسيف فثبته ^(١) ؛ وأخذ الرجل ، فألقى به عمرو بن العاص فقتله ، ودخل من غد إلى خارجة وهو محمود بنفسه ؛ فقال : أما والله يا أبا عبدالله ما أراد هيرك . قال عمرو : ولكن الله أراد خارجة .
وأما ابن ملجم فإنه قتل علياً تلك الليلة .

قال أبو الفرج : وحدثني محمد بن الحسن الأحمدي وغيره ، قال : أخبرني علي بن المنذر الطريقي ، قال : حدثنا ابن فضيل ، قال : حدثنا فطر ^(٢) ، عن أبي الطفيل ، قال : جمع علي عليه السلام الناس للبيعة ، فعاء عبدالرحمن بن ملجم فردّه علي مرتين أو ثلاثاً ، ثم مد يده فبايعه ، فقال له علي : ما يحبس أشقاها ! هو الذي نفس بيده لتحصيّن هذه من هذه ، ثم أنشد :

أشدُّ حيازيمك للموت ت فإن الموت لافيكا
ولا تجزع من اللو ت إذا حلّ بواديك

قال أبو الفرج :

(١) أنبته : أي جرحه .

(٢) في الأصول : « فطر » ، تصحيف ، صوابه من مقاتل الطالبين ؛ وهو فطر بن خليفة الخزاعي . ذكره صاحب التهذيب فيمن روى عن أبي الطفيل عامر بن واثق .

وقد روى لنا من طرق غير هذه ، أن علياً أعطى الناس ، فلما بلغ ابن ملجم أعطاه ،
وقال له :

أريدُ حياتَهُ وبريدُ قَتْلِي عديركَ من خَليلِكَ من مُرادٍ^(١)

قال أبو الفرج : وحدثني أحمد بن عيسى العجليّ بإسناد ذكره في الكتاب ، إلى
أبي زهير العيسى ، قال : كان ابن ملجم من مُراد وهداه في كِنْدَةَ ، فأقبلَ حتى قدم
للكوفة ، فلقى بها أصحابه وكنتمهم أمره ، وطوى عنهم ما تعاقد هو وأصحابه عليه بمكة
من قتل أمراء المسلمين مخافة أن ينتشر ، وزار رجلاً من أصحابه ذات يوم من بني تميم
الرباب ، فصادف عنده قطام بنت الأخصر ، من بني تميم الرباب - وكان عليّ قتل أخاها
وأباها بالهروان ، وكانت من أجل ساء أهل رماها - فسارآها شُغِبَ بها ، واشتدَّ
إحبابه فخطبها ، فقالت له : ما الذي نُسِّيَ لَكَ من الصداق ؟ فقال : احتكي ما بَدَا لَكَ ،
فقلت : أحكم عليك ثلاثة آلاف درهم ووصيماً وخادماً ، وأن تقتل عليّ بن أبي طالب .
فقال لها : لك جميع ما سألت ، وأما قتلُ عليّ فأنِّي لِي بِذَلِكَ أقالت : تلتس غرته ،
فإن أمت قتلته شُغِبَتْ نفسي ؛ وهَمَّكَ العيش ممي ؛ وإن قُتِلْتَ فما عند الله خير لك من
الدنيا ، فقال لها : أما والله ما أقدمنى هذا للمصر ، وقد كنت هارباً منه لأمن أهله ، إلا
ما سألتني من قتل عليّ .

قالت له : فأما طلبة لك بعض من يساعدك على هذا ويؤويك ، ثم مضت إلى وردان
ابن مجالد ، أحد بني تميم الرباب ، فخطرت الخبر ، وسألته معاونة ابن ملجم ، فتعجل لها
ذلك ، وخرج ابن ملجم ، فأتى رجلاً من أشجع ، يقال له شبيب بن بَجْرَة ، وقال له :
يا شبيب ؛ هل لك في شرف الدنيا والآخرة ؟ قل : وما ذاك ؟ قال : تساعدني على قتل
عليّ - وكان شبيبٌ على رأى الخوارج - فقال له : هبْ نَتَكِ المَبُولُ^(٢) ! لقد جئت شيئاً
إذا ! وكيف تقدر ويحك على ذلك ! قال ابن ملجم : سكن له في اللبجد الأعظم ؟

(١) البيت لمعرو بن معديكرب ، الآتي ١٣٨ ، وروايته هناك : « أريدُ حياته » .

(٢) المَبُول : البول ، والمَبُول : المرأة الشكول .

فإذا خرج لصلاة الفجر فتكنا به ، وشفينا أنفسنا منه ، وأدركنا ثأرنا . فلم يزل به حتى أجابه .

فأقبل به حتى دخل على قطام ، وهي منكفة في المسجد الأعظم ، قد ضربت لها قبة ، فقالا لها : قد أجمع رأينا على قتل هذا الرجل ، قالت لها : فإذا أردتما ذلك فالتقياني في هذا الموضع . فانصرفا من عندها ، فلبث أياماً ثم أتياها ، ومعهما وردان بن عجلاد ، الذي كلفته مساعدة ابن ملجم ؛ وذلك في ليلة الجمعة لتسع عشرة ليلة خلت من رمضان سنة أربعين .

قال أبو الفرج : هكذا في رواية ابن مخنف ، وفي رواية^(١) أي عبد الرحمن السلمي أنها كانت ليلة سبع عشرة من شهر رمضان ، فقال لها ابن ملجم : هذه الليلة هي التي وعدت فيها صاحبي ووعداني أن يقتل كل من أتى منا صاحبه الذي يتوجه إليه . قالت : إنا نواعدوا بمكة : عبد الرحمن ، والبرك ، ونعمرو ؛ على هذه الليلة ؛ لأهم بمتقدون أن قتل ولاية الخوارج قرينة إلى الله ، وأحرى القربات ما تقرب به في الأوقات الشريفة للباركة .

ولما كانت ليلة الجمعة التاسعة عشرة من شهر رمضان ليلة شريفة ، يرجى أن تكون ليلة القدر ، عيّنوها لعمل ما يستدونه قرينة إلى الله ؛ فليعجب للتعجب من العقائد ، كيف تسري في القلوب ، وتغلب على العقول ، حتى يرتكب الناس عظام الأمور ، وأهوال الخطوب لأجلها !

^(٢) قال أبو الفرج : فدعت لهم بحريز فعصبت به صدورهم ، وتقلدوا سيوفهم ، ومضوا فجلسوا مقابل الشدة التي كان يخرج منها على عليه السلام إلى الصلاة^(٣) .



(١) ج ومقاتل الطالبيين : حديث .

(٢ - ٣) سائط من ب ، وهو ج ، و ج ومقاتل الطالبيين .

قال أبو الفرج : وقد كان ابن ملجم أكي الأشعث بن قيس في هذه الليلة ، فخلاه في
بعض نواحي المسجد ، ومرت بهما حُفْر بن عدي ، فسمع الأشعث وهو يقول لابن ملجم :
التَّجَاء النَّجَاء بِحَاجَتِكَ ! فقد فضحك الصبح ، قال له حُجْر : قتله بالأحور ! وخرج مبادراً
إلى علي^(١) ، وقد سبقه ابن ملجم فضربه^(٢) ، فأقبل حُجْر والناس يقولون : قُتِلَ أمير المؤمنين
قال أبو الفرج : وللأشعث بن قيس في إحرافه عن أمير المؤمنين أخبارٌ يطول شرحها ،
منها حديثٌ حدثني محمد بن الحسين الأشنادي ، قال : حدثني إسماعيل بن موسى :
قال : حدثنا علي بن مسهر ، عن الأجلح ، عن موسى بن أبي النعمان قال : جاء الأشعثُ
إلى علي بن أبي طالب عليه ، فردّه قنبر ، فأدّى الأشعثُ أنفه ، فخرج علي وهو يقول : مالي
ولك يا أشعث ! أما والله لو بعدت عني لموتت لأشعثت شعيرائك ! قيل : يا أمير
المؤمنين ، ومن عبد تقيف ؟ قال : **[علامٌ لم لا يبقى أهل بيت من العرب إلا أدخلهم**
دلاً ، قيل : يا أمير المؤمنين ، كم بقي - أبوكم يمكث ؟ قال : عشرين ، إن بلغها .

قال أبو الفرج : وحدثني محمد بن الحسين أيضا بإسناد ذكره ، أن الأشعث دخل
على علي فكلّمه فأعطاه علي له ، فمرّض له الأشعث : أمة سيفتك به ، فقال له علي :
أيا لموت نخوفني أو تهذدي ! فوالله ما أبالي وقتي على الموت أو وقع الموت علي !
قال أبو الفرج : قال أبو مخنف : حدثني أبي ، عن عبد الله بن محمد الأردني ، قال :
إني لأصلي تلك الليلة في المسجد الأعظم مع رجال من أهل مصر ، كانوا يصلّون في ذلك
الشهر من أول الليل إلى آخره ؛ إذ بطرت إلى رجال يصلّون قريباً من الشدة قياماً وقعوداً ،
وركوعاً وسجوداً ، ما يأمون ؛ إذ خرج عليهم علي بن أبي طالب المعبر ، فأقبل ينادي :
الصلاة الصلاة ! فرأيت بريق السيف ، وسمعت قولاً يقول : الحكم لله يا علي ! لك ،

(١) بعدما في مقاتل الطالبيين : « وأسرح دابته » .

(٢) في مقاتل الطالبيين : « ضرب علياً » .

ثم رأيت بريق سيف آخر ، وصمعت صوت علي عليه السلام ، يقول : لا يهوتنكم الرجل .
 قال أبو الفرج : فأما بريق السيف الأول ، فإنه كان شبيب بن بجرة ضربه فأخطأه ،
 ووقعت ضربه في اللطاق ، وأما بريق السيف الثاني ، فإنه ابن ملجم ، ضربه فأثبت الضربة
 في وسط رأسه ، وشد الناس عليهما من كل ناحية ، حتى أخذوهما ^(١) .

قال أبو مخنف : فهذان تذكر أن رجلا منهم ، يكنى أبا أدماء أخذ ابن ملجم .
 وقال غيره : بل أخذه الخيرة بن الحارث بن عبد المطلب ، طرح عليه قباينة ثم صرعه ،
 وأخذ السيف من يده وجاء به .

قال : وأما شبيب بن بجرة فإنه خرج هاربا ، فأخذه رجل فصرعه ، وجلس على
 صدره ، ^(٢) وأخذ السيف من يده ليقتله ، فرأى الناس يقصدون محوه ، فحشى أن يمتلوا عليه ،
 فوثب عن صدره ^(٣) ، وحلاه وطرح السيف عن يده ؛ وأما شبيب بن بجرة ففاته ، فخرج
 هاربا حتى دخل منزله ، فدخل عليه ابن عم له ^(٤) ، فرآه يحمل الحرير من صدره ، فقال له :
 ما هذا ؟ لعلك قتلت أمير المؤمنين ! فأراد أن يقول : لا ، فقال : نعم ، ففضى ابن عمه فاشتعل
 على سيفه ثم دخل عليه فضربه حتى قتله .

قال أبو مخنف : حدثني أبي ، عن عبد الله بن محمد الأردبي ، قال : أدخل ابن ملجم
 علي عليه السلام ، ودخلت عليه فيمن دخل ، فسمعت عليا يقول : النفس بالنفس ؛
 إن أنا ميت فاقبلوه كما قتلتني ، وإن سلمت رأيت فيه رأيي ؛ فقال ابن ملجم : وقد اشتريته
 بألف — يعني السيف — ، وسممته بألف ، فإن خشي فأعنه الله ! قال : فنادته أم كلثوم :
 يا عدو الله ، قتلت أمير المؤمنين ! قال : إنما قتلت أباك ، قالت : يا عدو الله ! إني لأرجو

(١) مقاتل الطالبين : « عليه من كل ناحية حتى أخذوه » .

(٢ - ٣) ساقط من أ ، ج ، وهو في مقاتل الطالبين .

(٣ - ٤) ساقط من أ ، ب ، وهو في مقاتل الطالبين .

ألا يكون عليه بأس ، قال : فأراك إنما تبكين علياً إذا والله لقد ضربته ضربة
لوقيت بين أهل الأرض لأهلكهم .

قال أبو الفرج : وأخرج ابن ملجم من بين يديه ، وهو يقول ^(١) :

نَحْنُ ضَرْبُ يَابِقَةِ الْخَيْلِ إِذْ طَلَى أَبَا حَسَنِ مَأْمُومَةً فَتَفَطَّرَا ^(٢)
وَحْنٌ حَمَلْنَا مَدَكَهُ مِنْ نَظْمِهِ نَصْرِيَّةً سَيْفٌ إِذَا حَلَا وَتَجَبَّرَا
وَحْنٌ كَرَامٌ فِي الصُّبْحِ أَعَزَّةٌ إِذَا الْمَوْتُ ارْتَدَى وَتَأَزَّرَا
قال : وانصرف الناسُ من صلاة الصبح ، فأخذ قوماً من ملجم ، ينهشون لحمه
بأسنانهم كأنهم السباع ، ويقولون : يا عدو الله ، ماذا صنعت ! أهلكت أمة محمد ،
وقتل خير الناس ! وإياه لصامت ما ينطق .

قال أبو الفرج : وروى أبو محمد عن أبي الطمیل ، أن مصمصاً بن صوحان ، استأذن
على علي عليه السلام ، وقد أناه عاكفاً لما ضرب به ، ^(٣) فلم يكن عليه إذن . فقال مصمص
للأذن : قل له : يرحمك الله يا أمير المؤمنين حياً وميتاً ، فلقد كان الله في صدرك عظيماً ،
ولقد كنت بذات الله علياً . فأباهم الأذن مقلته ، فقال : قل له : وأنت يرحمك الله ، فلقد
كنت خفيف المؤنة ، كثير المعونة .

قال أبو الفرج : ثم جمع له أطباء الكوفة ، فلم يكن منهم أحدٌ أعلم بحرحه من أنير بن
عمرو بن هاشم السكوني . وكان متعطباً صاحب كرم يبالغ الجراحات ، وكان من الأرباب
غلاماً الدين كان خالد بن الوليد أحاسهم في عين التمر فسيأهم . فلما نظر أنير إلى جرح
أمير المؤمنين دعا برثة شاة حارة ، فاستخرج منها عرقاً ، وأدخله في الجرح ، ثم نهجه ، ثم

(١) الأبيات في المؤلف والمختف الآمدي ٢٨٥ ، ونسبها إلى ابن ميسل قال : وهيبس أمة .

(٢) المأمومة : الشجة تسم أم الرأس

امتخرجه ، وإذاعه بياض الدِّماغ ، فقال : يا أمير المؤمنين ، اعهَد عهدك ؛ فإنَّ عدوَّ الله قد وصلتْ ضربته إلى أمِّ رأسك . فدعا على عبه السلام عند ذلك بدواة وصحيفة ، وكتب وصيته : هذا ما أوصى به أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ؛ أوصى بأنَّ يشهد أنَّ لا إله إلا الله ، وأنَّ محمدا عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ؛ صلوات الله وبركاته عليه ؛ إنَّ صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ، لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين . أوصيك بأحسن وجميع ولدي وأهل بيتي ومن بلغه كتابي هذا بتقوى الله ربنا وربكم ، ولا تموتنَّ إلا وأنتم مسلمون ، واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، فإنَّ سمعتُ رسول الله يقول : « صلاح ذات البين أَفصلُ من عامة الصلاة والصيام ، وإنَّ الميرة حاقة الدين إِمسا ذات البين ، ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم . انظروا إلى ذري أرحامكم فمِلُّوها يهوتُ الله عليكم الحساب . والله الله في الأيتام فلا تميزنَّ أفواههم مخفوتكم . والله الله في جيرانكم ، فإنَّها وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فما زال يوصيناهم حتى ظننا أنه سيورثهم الله ؛ والله الله في القرآن فلا يسبقنَّكم بالعمل به غيركم . والله الله في الصلاة ، فإنَّها عماد دينكم . والله الله في صيام شهر رمضان فإنه جنة من النار . والله الله في الجهاد بأموالكم وأنفُسكم ، والله الله في زكاة أموالكم ، فإنَّها تطفى غضب ربكم ، والله الله في أهل بيت سيكم فلا يطلنَّ بين أظهركم ، والله الله في أصحاب بيتكم فإنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله أوصى بهم . والله الله في الفقراء والمساكين فاشركوهم في معاشكم . والله الله فيما ملكت أيمانكم فإنه كانت آخر وصية رسول الله صلى الله عليه وآله إذ قال : « أوصيكم بالصَّيفين ؛ فيما ملكت أيمانكم » ، ثم الصلاة الصلاة لا تخافوا في الله لومة لائم يكفكم من نفي عليكم ، ومن أرادكم بسوء . قولوا للناس حسناً ، كما أمركم الله به ، ولا تتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيتولى ذلك غيركم ، وتدعون فلا يستجاب لكم . عليكم بالتواضع والتبادل والتباز ، وإياكم والتقاطع والتفرق

والتدابير ، تعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ، واتقوا الله إن الله شديد العقاب . حفظكم الله من أهل بيت ، وحفظ فيكم نبيه ؛ أستودعكم الله خير مستودع ، وعليك سلام الله ورحمته .

قلت : قوله : « والله الله في الأجسام ، فلا تميزن أفواههم بحفوتكم » ؛ يحتمل تفسيرين : أحدهما لا يجمعون ؛ فإن الجائع يخلف فيه ، وتمتد نكته . والثاني : لا يجوز جوفهم إلى تكرار الطلب والسؤال ، فإن السائل يفضى ريقه وتنشف لمواته ، ويختبر ريقه .

وقوله حكاية عن رسول الله صلى الله عليه وآله : « أوصيكم بالضعيفين فيما ملكت أيمانكم » ، يعنى به الحيوان الناطق والحيوان الأجم .

قال أبو الفرج : وحدثني أبو جعفر محمد بن حرير الطبري بإسناد ذكره في الكتاب ، عن أبي عبد الرحمن السلي ، قال : قال لي الحسن بن علي عليه السلام : خرجت وأبي يصلي في المسجد ، فقال لي : يا بني إني كنت ليلة أوقف أهلي ، لأنها ليلة الجمعة صبيحة يوم بدر لتسع^(١) عشرة ليلة خلت من شهر رمضان ، فلكنني عيناى ، فسمع لي رسول الله صلى الله عليه وآله ، قلت : يا رسول الله ؛ ماذا قيت من أمتك من الأود^(٢) والدد^(٣) ا فقال لي : أدع عليهم ؛ قلت : اللهم أبداني بهم حيرا منهم ، وأبدلم لي من هو شر^(٤) مني .

قال الحسن عليه السلام : وجاء ابن أبي الساج ، فأدنه بالصلاة ؛ فخرج فخرجت حله ، فاعتوره الرجلان ، فأما أحدهما فوقعت ضربته في الطاق ، وأما الآخر فأتبتها في رأسه .

قال أبو الفرج : قال : حدثني أحمد بن عيسى ، قال : حدثنا الحسين بن نصر ، قال :

(١) مقاتل الطالبين : « سبع عشرة » .

(٢) في مقاتل الطالبين : قال أبو الفرج : الأود : الصوج ، والدد : الحصومات .

حدثنا زيد بن المدلل ، عن يحيى بن شعيب ، عن أبي مخنف ، عن فضيل بن خديج ، عن الأسود الكندي والأجلح ؛ قالا ، توفي علي عليه السلام وهو ابن أربع وستين سنة في عام أربعين من الهجرة ، ليلة لإحدى وعشرين ليلة الأدمضت من شهر رمضان ، ووليَّه خُصمه ابنه الحسن وعبد الله بن العباس ، وكُفِّنَ في ثلاثة أثواب ليس فيها قيص ، وصلى عليه ابنه الحسن ، فكبر عليه خمس تكبيرات ، ودُفِنَ بالرَّحَّة ، مما يلي أبواب كِنْدَةَ عند صلاة الصبح .

هذه رواية أبي مخنف .

قال أبو الفرج : وحديثي أحمد بن سعيد ، قال : حدثنا يحيى بن الحسن الملوّي ، قال : حدثنا يعقوب بن زيد ، عن ابن أبي عمير ، عن الحسن بن علي الخلال ، عن جده ، قال : قلت للحسين ^(١) بن علي عليه السلام : أين دفنتم أمير المؤمنين عليه السلام ؟ قال : خرجنا به ليلاً من منزله حتى مررنا به على منزل الأشعث بن قيس ، ثم خرجنا به إلى الظهر بحسب العري .

قلت : وهذه الرواية هي الحق وعليها العمل ؛ وقد قلنا فيما تقدم أن أبناء الناس أعرفُ بقبور آبائهم من غيرهم من الأجانب ؛ وهذا القبر الذي بالعري ، هو الذي كان نحو علي يزورونه قديماً وحديثاً ؛ ويقولون : هذا قبر أينا ، لا يشك أحد في ذلك من الشيعة ، ولا من غيرهم ؛ أعني بنى علي من ظهر الحسن والحسين وغيرها من سلالة ، المتقدمين منهم والمتأخرين ، ما زاروا ولا وقفوا إلا على هذا القبر بعينه .

• • •

وقد روى أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي في تاريخه المعروف " بالمتنظم " ، ^(٢) وفاة

(١) مقاتل الطالبين : « الحسن » .

(٢) للتنظيم ٩ : ١٨٩ .

أبي السنان محمد بن علي بن ميمون الرمي^(١) المعروف بأبي^(٢) ، لجودة قراءته قل :
توفي أبو السنان هذا في سنة عشر وخمسة ، وكان محدثاً من أهل الكوفة ثقة حافظاً ،
وكان من قوام الليل ومن أهل السنة ، وكان يقول : ما بالكوفة من هو على مذهب أهل
السنة وأصحاب الحديث غيري ؛ وكان يقول : مات بالكوفة ثلاثمائة صحابي ليس قبر أحد
منهم معروف إلا قبر أمير المؤمنين ، وهو هذا القبر الذي يزوره الناس الآن ؛ جاء جعفر بن محمد
عليه السلام وأبوه محمد بن علي بن الحسين عليهم السلام إليه ، فرأوه ، ولم يكن إذ ذاك قبراً
معروفاً طاهراً ، وإنما كان به مريح عيضة ، حتى جاء محمد بن زيد الداعي صاحب الديلم ،
فأظهر القبر^(٣) .

وسألت بعض من أتق به من عتلاء شيوخ أهل الكوفة عما ذكره الخطيب أبو بكر
في تاريخه ، أن قوماً يقولون : إن هذا القبر الذي يزوره الشيعة إلى جانب الغري هو قبر
الميرة بن شعبة ، فقال : غلطوا في ذلك ، قبر الميرة وقبر زياد بالثوبة^(٤) من أرض الكوفة ،
ومن عرفها ونقل ذلك عن آثامنا وأحدادنا وأنشدني قول الشاعر ربي زياداً ، وقد ذكره
أبو تمام في الحاسة :

صَلَّى إِلَهُ عَلَى قَبْرِ وَطْئِهِ
عِنْدَ الثُّوبَةِ بِسَفَى فَوْقِ الْوَرُ^(٥)
زَقَّتْ إِلَيْهِ قَرِيشٌ نَشْ سَيِّدَهَا
فَالْحَمْدُ وَالْجُودُ فِيهِ الْيَوْمَ مَقْشُورُ^(٦)
أَمَّا الْمَعْبُورَةُ وَالْدُنْيَا مَفْعَمَةٌ
وَإِنْ مِنْ غَرَّتِ الدُّنْيَا لَمَسْرُورُ

(١) في الأصول : « الرمي » ، وما أثبتته عن النظم والنجوم الزاهرة ٥ : ٢١٢ .

(٢) أبي بن كعب بن قيس سيد الفراء .

(٣) في الأصول : « القبة » ، وما أثبتته من النظم .

(٤) الثوبة : موضع قريب من الكوفة .

(٥) الأبيات في السكامل لعدد ١ : ٢١٧ ، وسجها إلى حارثة بن بدر ؛ وهي أيضاً في معجم البلدان

٢٨ : ٢٨ بهذه النسبة . والور : الرأس ؛ يريد أن الريح تهبه بالتراب .

(٦) قال المبرد : قوله : « نش سيدة » يريد موضع من السب ؛ لأنه نسبة إلى أبي سفيان ؛ وكان

رئيس قريش قبل بعث النبي صلى الله عليه وسلم .

فقد كان عندك للمعروف معرفة وكان عندك للمفكور تذكر
وكنْتَ تُعْطَى وتُعْطَى لِلْمَالِ مِنْ سَمَةٍ وليوم قبرك أصحى وهو معجور
والنَّاسُ بِعَدِّكَ قَدْ خَفَّتْ حُلُومُهُمْ كأنما نُفِخَتْ فِيهِ الْأَعْمِيرُ^(١)

وسألت قطب الدين قبيب الطالبيين أبا عبد الله الحسين بن الأقباسي رحمه الله تعالى عن ذلك ، فقال : صدق من أحرك ؛ نحن وأهلها كافة نعرف مقابر ثقيف إلى الثوبة ، وهي إلى اليوم معروفة ، وقبر المعيرة فيها ، إلا أنها لا تعرف ، وقد ابتلعها السَّخُّ وَزَبَدُ الأرض وفورانها ، فطُمِئَتْ واحتلظ بمصها بعض .

ثم قال : إن شئت أن تتحقق أن قبر المعيرة في مقابر ثقيف فانظر إلى كتاب الأغاني^(٢) لأبي الفرج علي بن الحسين ، والمُحْكَمُ ما قاله في ترجمة المعيرة ، وأنه مدفون في مقابر ثقيف ، ويكتفيك قول أبي الفرج ، فإنه الناقد الصير ، والطبيب الخبير ؛ فتصفحت ترجمة المعيرة في الكتاب المذكور ، فوجدت الأمر كما قاله القبيب .

قال أبو العرج : كان مصقلة بن هبيرة الشيباني قد لاحت المعيرة في شيء كان بينهما منازعة ، فصرع له للميرة وتواضع في كلامه ، حتى طمع فيه مصقلة ، فاستعمل عليه وشتمه ، وقال : إني لأعرف شئ في عروة انك ، فأشهد المعيرة على قوله هذا شهوداً ، ثم قدمه إلى شريح القاضي ، فأقام عليه البينة ، فضربه شريح الحد وآلى مصقلة ألا يقيم ببلدة فيها المعيرة ، فلم يدخل الكوفة ، حتى مات المعيرة ، فدخلها ، فتلقاه قومه فسلموا عليه ، فما فرغ من السلام حتى سألهم عن مقابر ثقيف ، فأرشدوه إليها ، فجعل قوم من مواليه

(١) قال المبرد : قوله : كأنما نُفِخَتْ فِيهِ الْأَعْمِيرُ ؛ وإنما يريد خفة الخلوم . والإعصار - ما ذكر أبو عبيدة - ريح تهب بشدة فيما بين السماء والأرض . هذا ولم أجد الأبيات في المحاسة .
(٢) النظر الأغاني ١٦ : ٢٩ - ١٠٩ .

يلتقطون الحجارة ، فقال لهم : ما هذا ؟ فقالوا : نغان أملك تريد أن ترجم قبر المعيرة ، فقال :
ألقوا ما في أيديكم ، فانطلق حتى وقف على قبره ، ثم قال : والله لقد كنت - ما علمت - نافعا
لصديقك ، ضاراً لعدوك ، ومماثلك إلا كما قال مهلهل في كليب أخيه :

إِنْ نَحْتِ الْأَحْجَارَ حَزْماً وَعَزْماً وَخَيْباً أَلَدَ ذَا مِغْلَاقٍ^(١)
حَيَّةٌ فِي الرِّجَارِ أَرَادَ لَا يَدُ مَعَ سِهْ السَّيِّمِ مِثْلُ رَاقٍ

• • •

قال أبو الفرج : فأما ابن ملحمة ، فإن الحسن بن علي - بعد دفنه أمير المؤمنين دعاه به
وأمر بصرب عنقه ، فقال له : إن رأيت أن تأخذ علي العهود أن أرحم إليك حتى أضع يدي
في يدك ، بمد أن أبيض إلى الشام ، فأظفر ما صنع صاحبى بماوية ، فإن كان قتله وإلا فقتله
ثم عدت إليك حتى تحكم في حكمك . فقال : ههنا ، والله لا تشرب الماء البارد حتى
تلتحق روحك بالنار ، ثم ضرب عنقه ، واستوهبت أم المؤمنين بنت الأسود النخعية جثته منه ،
فوهبها لها ، فأحرقها بالنار .

وقال ابن أبي عباس الفزارى ، وهو من الخوارج :

فَلَمْ أَرْ مَهْراً سَأَلَهُ ذُو سَبَاحَةٍ كَهَرِ قَطَامٍ مِنْ غَنَى وَمُعْذِمٍ
ثَلَاثَةَ آلَافٍ وَهَبْتُ وَقِيَّةً وَضَرَبْتُ عَلَى الْخَسَامِ لِلصَّبْحِ
فَلَا مَهْرَ أَغْلَى مِنْ عَلَى وَإِنْ فَلَاحٌ وَلَا قَتْلَكَ إِلَّا دُونَ قَتْلِكَ ابْنَ مَلْجَمٍ

وقال عبد الله بن عباس بن عبد المطلب^(٢) :

وَهَزَّ عَلَى الْعِرَاقِينَ لَحِيَّةً مَصِيبَتُهَا جَنَّتْ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ
وَقَالَ سَيِّئَاتُهَا مِنْ اللَّهِ نَازِلٌ وَيَحْصِيهَا أَشَقَى الْبَرِيَّةِ بِاللَّهِ
فَعَاجَلَهُ بِالسَّيْفِ ثَلَاثُ يَمِينَةٍ لَشْرَمِ قَطَامٍ عِنْدَ ذَلِكَ ابْنِ مُنْجَمٍ

(١) الأغاني ١٦ : ٩٢ ، واللائق : اللع

(٢) الأبيات في الاستيعاب ٤٧٢ ، ونسبها إلى بكر بن حاد .

فياضربة من خاسر ضلّ سعيه تَبَوَّأَ مِنْهَا مَقْعَداً فِي جَهَنَّمَ

فَقَارَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَظَمَهُ وَإِنْ طَرَقَتْ إِحْدَى الْقِبَالِ بِمَعْظَمِ

أَلَا إِنَّمَا الدُّنْيَا بِلَاءٌ وَفِتْنَةٌ حَلَاوَتُهَا شَبِثَتْ بِصَاحِبِ وَعِلْمِ

قال أبو الفرج: وأنشدني عتي الحسن بن محمد، قال: أنشدني محمد بن سعد، لبعض بني

عبد المطلب، يرقى علياً، ولم يذكر اسمه:

بَاقِرٌ سَيِّدُنَا الْمَجَنِّ سَمَاحَةٌ صَلَّى إِلَهٌُ عَلَيْكَ يَا قَافِرٌ

مَاضِرٌ قَفِيراً أَنْتَ سَاكِنُهُ أَلَّا يُحْمِلَ بِأَرْضِهِ الْقَطَرُ

فَلْيَبْدِ بْنِ سَمَاحٍ كَعُكُكَ بِالْأَثَرِ وَلِيُورِثَنَّ بِمَحَبَّتِكَ الصَّخْرُ

وَاللَّهُ لَوْ بِكَ لَمْ أَجِدْ أَحَدًا^(١) إِلَّا قَتَلْتُ ، لَعَاتِي الْوَتَرُ

(١) في حاشية ج: «لم أدم أحداً» .

الأصل

ومن كلام له عليه السلام في ذم أهل العراق :

أَمَا تَعْدُونَا أَهْلَ الْعِرَاقِ ، قَبَائِمًا أَنْتُمْ كَالْمِرَاقِ وَالْحَامِلِ ، حَلَّتْ قَلْبًا أَنْتُمْ أَمَلْتُمْ
وَمَاتَ قِيَّتُهَا ، وَطَالَ تَأْنِيْمُهَا ، وَوَرِثَهَا أَبْنَدُهَا .

أَمَا وَاللَّهِ مَا اتَّيَشُّكُمْ أَحْتِيَارًا ؛ وَلَكِنْ جِئْتُ إِلَيْكُمْ مَوْفَا . وَلَقَدْ بَلَّغِي
أَنْتُمْ تَقُولُونَ : عَلَيَّ ^(١) بِكَذِبٍ ، قَاتِلُكُمْ اللَّهُ تَعَالَى ! قَتَلَ مَنْ أَكْذَبَ ! أَفَلَى اللَّهِ مَا
أَوَّلُ مَنْ آمَنَ بِهِ ! أَمْ عَلَى نَبِيِّ ؟ قَالُوا أَوَّلُ مَنْ صَدَّقَ ^(٢) بِهِ !

كَلَّا وَاللَّهِ ! لَكِنَّهَا لَهْجَةٌ غَشِيَتْ عَنْهَا ، وَلَمْ تَكُونُوا مِنْ أَهْلِهَا ، وَبِئْسَ أَتَمَّ كَيْدًا
يَصِيرُ ثَمَنٌ لَوْ كَانَ لَهُ وَعَاءٌ ؛ وَلَتَعْلَمُنَّ لَبَاءُ بَعْدَ حِينٍ !

الشرح :

أَمَلْتُمْ الْحَامِلَ : أَلْقَتْ وَلَدَهَا سَقَاطًا وَفِيهَا سُلْمًا . وَتَأْنِيْمُهَا : خَلَوْهَا عَنِ الْأَزْوَاجِ ؛ يَقُولُ :
لَمَّا شَارَقْتُمْ اسْتِثْنَالِ أَهْلِ الشَّامِ ، وَظَهَرَتْ أُمَارَاتُ الطُّغْرَى لَكُمْ ، وَدَلَّائِلُ الْفَتْحِ ؛ فَكَسَمْتُمْ
وَجِئْتُمْ إِلَى السَّلَامِ وَالْإِجَابَةِ إِلَى التَّحْكِيمِ عِنْدَ رَفْعِ الْمَصَاحِفِ ؛ فَكُنْتُمْ كَالْمِرَاقِ الْحَامِلِ لَمَّا أَنْتُمْ
أَشْهَرُ خَلْقٍ أَلْقَتْ وَلَدَهَا إِنْقَاءً غَيْرَ طَبِيعِي ؛ نَحْوَانُ تَلْقِيَهُ لِسُفْطَةٍ أَوْ ضَرْبَةٍ أَوْ عَارِضٍ يَنْتَضِي
أَنْ تَلْقِيَهُ هَالِكًا .

ثُمَّ لَمْ يَكْتَفِ بِذَلِكَ ، حَتَّى قَالَ : « وَمَاتَ بِسُلْمٍ ، وَطَالَ تَأْنِيْمُهَا ، وَوَرِثَهَا أَبْنَدُهَا » ، أَيْ
لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ وَهِيَ أَقْرَبُ الْخُلَفَاءِ إِلَى الْمَيْتِ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهَا بَعْلٌ فَوَرِثَهَا الْأَبَاعِدُ عَنْهَا .

(١) ساقطة من مخطوطة التهجد .

(٢) مخطوطة التهجد : « صدق » .

كالسافلين من بني مَمّ ، وكالمولاة تموت من غير ولد ولا من بحري مجراه ، فبرئها مولاهما ولا نسب بينها وبينه .

ثم أقسم أنه لم يأتهم اختياراً ، ولكن القادير ساقته إليهم سَوْقاً ، يعني اضطراراً . وصدق عليه السلام ، لأنه لو لا يوم الجَل لم يحتج إلى الخروج من المدينة إلى العراق ، وإنما استنجد بأهل الكوفة على أهل البصرة ، اضطراراً إليهم ، لأنه لم يكن جيشه الحجازي وافياً بأهل البصرة الذين أصفقوا على حربته وسكت بيئته ، ولم يكن خروجه عن المدينة سوى دار الهجرة ومفارقة لقبر رسول الله صلى الله عليه وآله وقبر فاطمة عن إيثاري ومحنة ؛ ولكن الأحوال تحكم وتسوق الناس إلى ما لا يختارونه ابتداء .

وقد روى هذا الكلام على وجه آخر : « ما أنيتكم اختياراً ، ولا جئت إليكم شوقاً ، بالشين المعجمة .

ثم قال : « بلغني أنكم تقولون يكذب » ؛ وكان كثيراً ما يخبر عن الملاحم والكائنات ويومئ إلى أمور أخبر بها رسول الله صلى الله عليه وآله ، فيقول المناقون من أصحابه : يكذب كما كان المناقون الأولون في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله يقولون منه : يكذب .

• • •

وروى صاحب كتاب " العارات " عن الأعمش ، عن رجاله ، قال : خطب على عليه السلام ، فقال :

والله لو أمرتكم فبعض من خياركم مائة ، ثم لو شئت لحدثتكم من غداة إلى أن تغيب الشمس ؛ لا أخبرتكم إلا حقاً ؛ ثم لتغرعن عن أي أكذب للناس وأخبرهم . وقد روى صاحب هذا الكتاب وغيره من الرواة أنه قال :

إن أمرنا صعب مستصعب ، لا يحمله إلا ملك مقرب ، أو نبي مرسل ، أو عبد امتحن الله قلبه للايمان .

وهذا الكلام منه كلام عارف عالم بأن في الناس من لا يصدق فيه^(١) بقول ؛ وهذا أمر مركوز في الجيلة البشرية ، وهو استبعاد الأمور العريية ، وتكذيب الإخبار بها . وإذا تأملت أحواله في خلافته كلها وجدتها هي مختصرة من أحوال رسول الله صلى الله عليه وآله في حياته ؛ كأنها نسخة منسّعة منها ؛ في حربه ودينه ، وسيرته وأخلاقه ، وكثرة شكايته من المنافقين من أصحابه والخائفين لأمره ؛ وإذا أردت أن تعلم ذلك علما واضعا ، فاقرا سورة « براءة » ففيها الجَمُّ المفبر من المدعى الذي أشرنا إليه .



[ذكر مطاعن النظام على الإمام علي والرد عليه]

واعلم أن النظام لما تكلم في كتاب " التكت " ، وانتصر لكون الإجماع ليس بحجة ، اضطر إلى ذكر عيوب الصحابة ، فذكر لكلٍ منهم عيبا ، ووجه إلى كل واحد منهم طعنا ، وقال في علي : إنه لما حارب الخوارج يوم النهروان ، كان يرفع رأسه إلى السماء تارة ينظر إليها ، ثم يطرق إلى الأرض فينظر إليها تارة أخرى ، يوم اصعابه أنه يؤسى إليه ، ثم يقول : « ما كذبت ولا كذبت » ، فلما فرغ من قتالهم وأذيل عليهم ، ووضعت الحرب أوزارها ، قال الحسن ابنه : يا أمير المؤمنين ، أكان رسول الله صلى الله عليه وآله تقدم إليك في أمر هؤلاء بشيء ؟ فقال : لا ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وآله أمرني بكل حق ، ومن الحق أن أقاتل الناكثين والمفاسقين والمارقين .

قال النظام^(٢) : وقوله : « ما كذبت ولا كذبت » ، ورفع رأسه أحيانا إلى السماء وإطرقه إلى الأرض إليهم ؛ إما لنزول الوحي عليه ، أو لأنه قد أوصى من قبل في شأن الخوارج بأمر . ثم هو يقول : ما أوصى فيهم على خصوصيتهم بأمر ؛ وإنما أوصى بكل الحق ، وقاتلهم من الحق .

(١) كذا في ج ، و ، ا ، ب : « كما » . (٢) هو إبراهيم بن سيار بن حازم البصري

أبو إسحاق النظام ، أحد أئمة المعتزلة ؛ ذكره ابن حجر في لسان الميراث ١ : ٦٧ ، وقال عنه « مات في خلافة المنعم سنة بضع وعشرين ومائتين » .

وهذا عجيب طريف .

فنقول : إن النظام أخطأ عندما في تعريضه بهذا الرجل خطأ قبيحاً ، وقال قولاً منكراً ؛ نستعفر الله له من عقابه ، ونسأله عفواً عنه ؛ وليست الرواية التي رواها عن الحسن وسؤاله لأبيه وجوابه له ، بصحيفة ولا معروفة ، والمشهور المعروف المقول نقلًا يكاد يبلغ درجة التواتر من الأخبار ، ما روى عن رسول الله صلى الله عليه وآله في معنى الخوارج بأعيانهم وذكرهم بصفاتهم ، وقوله صلى الله عليه وآله لملى عليه السلام : « إنك مقاتلهم وقاتلهم ، وإن الخدج ^(١) ذا الثدبة منهم ؛ وإنك ستقاتل بعدى الفاكثين والقاسطين والمارقين » ؛ فجعلهم أصنافاً ثلاثة حسب ما وقعت الحال عليه . وهذا من معجزات الرسول صلى الله عليه وآله ، وإخباره عن الميوسب المقعنة . فما أعلم من أى كتاب نقل النظام هذه الرواية ، ولا من أى محدث رواها ؛ ولقد كان رحمه الله تعالى سيداً عن معرفة الأخبار والسيرة منصفاً فكرياً ، مجهداً نفسه في الأمور النظرية الدقيقة ، كآلة الجرم . ومداخلة الأحكام وغيرها ، ولم يكن الحديث والسيرة من قسره ولا من علومه ؛ ولا ريب أنه سمعها ممن لا يوثق بقوله ، فنقلها كما سمعها .

فأما كونه عليه السلام كان ينظر تارة إلى السماء ، وتارة إلى الأرض . وقوله : « ما كذبت ولا كذبت » ، فصحيح وموثوق بنقله ، لاستقامته وشهرته وكثرة رواياته ؛ والوجه في ذلك أنه استبطأ وجود الخدج حيث طبع في جملة القتل ، فلما طال الزمان . وأشفق من دخول شبهة على أصحابه لما كان قدّمه إليهم من الأخبار فليقواهم . وجعل يكرر قوله : « ما كذبت ولا كذبت » أى ما كذبت على رسول الله صلى الله عليه وآله . ولا كذبتى رسول الله صلى الله عليه وآله فيما أخبرنى به .

فأما رفعه رأسه إلى السماء تارة . وإطرافه إلى الأرض أخرى ؛ فإنه حيث كان يرفع

(١) الخدج : الناس البد .

رأسه ، كان يدْعُو ويتضرع إلى الله في تعجيل الظفر بالحدّج ؛ وحيث يطرق كان ينثبهُ
الهمّ والفكر فيطرق .

ثم حين يقول : « ما كذبت ولا كذبت » ، كيف ينتظر نزول الوحي ، فإن من
نزل عليه الوحي لا يحتاج أن يُسَد الخبر إلى غيره ، ويقول : ما كذبت فيما أخبرتكم به
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وبما طعن به النظام عليه ^(١) أنه عليه السلام قال : إذا حدثتكم عن رسول الله صلى الله
عليه وآله فهو كما حدثتكم ، فوالله لأن أخبر من السماء أحب إليّ من أن أكذب على
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإذا سمعتموني أحدثتكم فيما بيني وبينكم ؛ فإنما
الحرب خدعة .

قال النظام : هذا يجري مجرى التذليس في الحديث ، ولو لم يحدثهم عن رسول الله
صلى الله عليه وآله بالمأربض ؛ وعلى طريق الإيهام لما اعتذر من ذلك .

فنقول في الجواب : إن النظام قد وهم وانكس عليه مقصد أمير المؤمنين ؛ وذلك أنه
عليه السلام ^(٢) لشدة ورعه أراد أن يفصل السامعين بين ما يخبر به عن نفسه وبين ما يرويه
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وذلك لأن الضرورة ربما تدعوه إلى استعماله للمأربض ،
لا سيما في الحرب للبتية على الخديعة والرأي ؛ فقال لم : كما أقول لكم قال لرسول الله
صلى الله عليه وسلم ، فاعلموا أنه سليم من للمأربض ، خالٍ من الرمز والكتابة ، لأنّ
لا أستعيز ولا أستعمل أن أعمى أو أنير في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .
وما حدثتكم به عن نفسي ، فربما أستعمل فيه للمأربض ؛ لأن الحرب خدعة .

وهذا كلام رجل قد استعمل التقوى والورع في جميع أموره ، وبلغ من تعظيم أمر الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام ، وإجلال قدره واحترام حديثه ألا يرويه إلا بالعاظه لا بمعانيه ، ولا بأسه يقتضى فيه إلباساً وتعميةً ، ولو كان مضطراً إلى ذلك ؛ ترجيحاً للجانب الذى على جانب مصاحته في خاص نفسه . فثما إذا هو قال كلاماً يبتدى به من نفسه ، فإنه قد يستعمل فيه المعارض إذا اقتضت الحكمة والتدبير ذلك ؛ فقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله باتفاق الرواة كافة إذا أراد أن يفرّج وجهاً ورى عنه بغيره ، ولما خرج عليه السلام من المدينة لفتح مكة ، قال لأصحابه كلاماً يقتضى أنه يقصد بنى بكر بن عبد مناة من كنانة ، فلم يعلّموا حقيقة حاله حتى شارف مكة . وقال حين هاجر وصحبته أبو بكر الصديق لأعرابي لقيهما : من أين أنت ؟ ومن أنت ؟ فلما اتسب لهما ، قال له الأعرابي : أما أما قد أطلقكم طلع أسرى ؟ فمن أنت ؟ فقال : من ماء ، لم يزد على ذلك ؛ فجعل الأعرابي يفكر ، ويقول : من أمة ماء ؟ من ماء بنى فلان ، من ماء بنى فلان ؟ فتركه ولم يفترله ؛ وإنما أراد عليه السلام أنه محبوق من نعمة .

فأما قول النظام : « لو لم يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمعارض لما اعتذر من ذلك » ؛ فليس في كلامه اعتذار ؛ ولكنه نفى أن يذلل للمعارض في روايته ؛ وأجازها فيها يبتدى به عن نفسه ؛ وليس يتصن هذا اعتذاراً . وقوله : « لأن آخر من السماء » يدل على أنه ما فعل ذلك ولا يفعله .

ثم قال : « قل من أكذب ؟ » بقول : كيف أكذب على الله وأنا أول المؤمنين به ؟ وكيف أكذب على رسول الله وأنا أول المصدقين به ؟ أخرجه مخرج الاستبعاد ليعواهم وزعمهم . فإن قلت : كيف يمكن أن يكون للكاف الذى هو من أتباع الرسول كاذباً على الله إلا بواسطة إخباره عن الرسول ؛ لأنه لا وصلة ولا واسطة بينه وبين الله تعالى إلا الرسول ؟

وإذا لم يمكن كذبه على الله إلا بكذبه على الرسول لم يبق لتقسيم الكذب وقوله :
« أفأنا أ كذب على الله أو على رسوله ؟ » معنى ^(١) .

قلت : يمكن أن يكذب الكاذب على الله دون أن يكون كاذباً على الرسول ؛ وإن
كان من أتباع الرسول ؛ نحو أن يقول : كنت مع الرسول صلى الله عليه وآله ليلة ومقبرة
فأحيا الله تعالى فلان الميت ؛ فقام وقال كذا . أو يقول : كنت معه يوم كذا ؛ فسمعت منادياً
يفاديه من السماء : اعمل كذا ، أو نحو ذلك من الإخبار بأمور لا تستند إلى حديث الرسول .

• • •

ثم قال عليه السلام ^(٢) : « كَلَّا رَاقَهُ » ، أي لا والله وقيل : إن « كَلَّا » بمعنى « حَقًّا »
وإنه إثبات .

قال : « ولكنها لَهْجَةٌ غَبِيْمَةٌ عِهَا » ، « لَهْجَةٌ » بفتح الجيم ؛ وهي آلة الطلق ؛ يقال له :
هو مصبح الالهة ، وصادق الالهة . ويمكن أن يعنى بها لهجة رسول الله صلى الله عليه وآله ،
فيقول : « شهدت وعسى » . ويمكن أن يعنى بها لهجة هو ؛ فيقول : إنها لهجة غبيمة عن
مناقضها ، وأعدتكم أنفسكم ممن مناصبها .

ثم قال : « وِيلَهُ » الصمير راجع إلى ما دلّ عليه معنى الكلام من العلم ؛ لأنه لما
ذكر الالهة وشهوده إياها وعيُوبتهم عِهَا دلّ ذلك على علمه به حصه به الرسول عليه
السلام . فقال : « وِيلَهُ » وهذه كلمة تقال للتعجب والاستعظام ؛ يقال : « وِيلَهُ فارساً »
وتكتب موصولة كما هي هذه الصورة ، وأصله « وِيلَ أُمِّهِ » مرادهم التعظيم والمدح ، وإن
كان اللفظ موصوعاً لضد ذلك ، كقوله عليه الصلاة والسلام : « فَاغْلُظْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ
يَدَاكَ » ، وكقولهم للرجل يصفونه وبغض ظنونه : « لَا أَبَاهُ » .

وقال الحسن البصري ؛ وهو يذكر عيياً عليه السلام ، ويصف كونه على الحق

(١) ساقطة من ا ، ب وهي في ج

(٢) ج : « رضى الله عنه » .

في جميع أموره ؛ حتى قال : « فلما شارب الظفر وافق على التحكيم ، ومالك في التحكيم والحق في يدك ، لا أبالك ١ » .

قال أبو العباس المبرد : هي ^(١) كلمة فيها جند وحشونة ؛ كانت الأعراب تستعملها فيمن يستعظمون أمره ، قال : ولما أئيد سليمان بن عبد الملك قول بعض الأعراب :
رَبِّ الْعِبَادِ مَالَتَا وَمَالَكَا قَدْ كُنْتَ نَسِيًّا فَمَا بَدَا لَكَ
• أَنْزِلْ عَلَيْنَا الْعَيْثَ لَا أَبَا لَكَ •

قال : أشهد أنه لا أب له ولا صاحبة ولا ولد ، فأخرجها أحسن مخرج .
ثم قال عليه السلام : « كيلا يمير ثمن لو كان له وعاء » ، انتصب « كيلا » لأنه مصدر في موضع الحال ، ويمكن أن ينتصب على التمهيد ، كقولهم : لله دره فارسا ! يقول : أنا أكيل لكم العلم والحكمة كيلا ولا أطلب قد علمكم بها لو وجدت وعاء ! أي حاملا للعلم ؛ وهذا مثل قوله عليه السلام : ها إنه بين حبي عما حبا لو أحده سحلة !
ثم ختم الفصل بقوله تعالى : (وَلَتَمَنَّيَنَّ نِسَاءُ الْمُؤْمِنِينَ بِمَدِينَةِ الَّتِي فِيهَا) ؛ وهو أحسن ما حتم هذا الكلام به .

[خطبة الإمام علي بعد يوم النهروان]

ورد في اللدائمي في كتاب « صيغين » ، قال : خطب علي عليه السلام بعد انقضاء أمر النهروان ، فذكر طرفاً من اللامح ، قال :
إِذَا كَثُرَتْ فِيكُمْ الْأَحْلَاطُ ، وَاسْتَوْلَتْ الْأَبْطَاطُ ؛ دَنَا حَرَابُ الْعِرَاقِ ؛ دَاكُ إِذَا
بُنِيَتْ مَدِينَةُ ذَاتِ أَثَلٍ وَأَنْهَارٍ . فَإِذَا عُلَتْ فِيهَا الْأَشْعَارُ ، وَشُيِّدَتْ فِيهَا الْبُنْيَانُ ، وَحُكِمَ فِيهَا
الْفُسَاقُ ، وَاشْتَدَّ التَّلَاءُ ، وَتَفَافَخَرَتِ الْقُرُوعَاءُ ؛ دَنَا خُسُوفُ الْمَيْدَاءِ ، وَطَابَ الْهَرَبُ وَالْجَلَاءُ .
وَسَتَكُونُ قَبْلَ الْجَلَاءِ أُمُورٌ يَشِيبُ مِنْهَا الصَّغِيرُ ، وَيَنْقُطُ الْكَبِيرُ ، وَيَخْرُسُ الْفَصِيحُ

وَيَهْتُمُّ الْاَيْبُ بِمَا جَلُونَ بِالسَّيْفِ صُنْثًا، وَقَدْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ فِي غَضَارَةٍ مِنْ عَيْشِهِمْ عَمْرُؤُونَ.
 فَيَا لَهَا مَعْصِيَةٌ حِينَئِذٍ مِنَ الْبَلَاءِ الْعَقِيمِ، وَالْكَاءِ الطَّوِيلِ، وَالْوَيْلِ وَالْمَوِيلِ، وَشِدَّةِ الصَّرِيحِ؛
 فِي ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ - وَهُوَ كَائِنٌ، وَقَفًا - بِرِيحٍ ^(١). فَيَا نَ حُرَّةَ ^(٢) الْإِمَاءِ، مَتَى تَنْتَظَرُ! أَبَشِيرُ
 بِنَصْرِ قَرِيبٍ مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ. أَلَا قَوْلُ الْمُنْكَبِّرِينَ؛ عِنْدَ حَصَادِ الْخَاصِدِينَ، وَقَتْلِ الْفَاسِقِينَ.
 عَصَا ذِي الْعَرْشِ الْعَظِيمِ؛ فَيَأْتِي وَاحِدٌ مِنْ عِدَّةٍ قَلِيلَةٍ أَسْمَاؤُهُمْ فِي الْأَرْضِ مَجْهُولَةٌ. قَدْ دُمَا
 حِينَئِذٍ ظُهُورُهُمْ، وَلَوْ شِئْتُ لَأَحْبَرْتُكُمْ عَمَّا بَأَى وَيَكُونُ مِنْ حَوَادِثِ دَهْرِكُمْ وَنَوَائِبِ
 زَمَانِكُمْ، وَمَلَايَا أَيَامِكُمْ، وَغَمَرَاتِ سَاعَاتِكُمْ، وَلَكِنَّهُ أَصِيبُهُ إِلَى مَنْ أَصِيبُهُ إِلَيْهِ، مُحَافَةً
 عَلَيْكُمْ، وَنَظَرًا لَكُمْ؛ عَلَامَتِي بِمَا هُوَ كَائِنٌ وَمَا يَكُونُ مِنَ الْبَلَاءِ الشَّامِلِ؛ ذَلِكَ عِنْدَ تَمَرُّدِ
 الْأَشْرَارِ، وَطَاعَةِ أَوْلَى الْخَسَارِ دَاكٍ أَوْ أَنْ الْخُتْفِ وَالْهِمَامِ، ذَاكَ إِدْبَارُ أَمْرِكُمْ، وَانْقِطَاعُ أَصْلِكُمْ
 وَتَشْتَبِ الْفَتَكُ؛ وَإِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ عِنْدَ ظُهُورِ الْمَصِيَا، وَانْفِشَارِ الْقُسُوقِ؛ حَيْثُ يَكُونُ
 الضَّرْبُ بِالسَّيْفِ أَهْوَى عَلَى الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْ يَكُنَّابَ دِرْهَمٍ حَلَالٍ؛ حِينَ لَا تُنَالُ الْمَيْشَةُ
 إِلَّا بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ فِي سَمَائِهِ، حِينَ تَشْكُرُونَ مِنْ غَيْرِ شَرَابٍ، وَتَحْلِقُونَ مِنْ غَيْرِ اضْطِرَارٍ،
 وَتُظَلِّمُونَ مِنْ غَيْرِ مَنَعَةٍ، وَتَكْذِبُونَ مِنْ غَيْرِ إِحْرَاجٍ. تَتَفَكَّهُونَ بِالْقُسُوقِ، وَتَهَادِرُونَ
 بِالْمَصِيَةِ. قَوْلُكُمْ الْهَيْتَانِ، وَحَدِيثُكُمْ الزُّورِ، وَأَهَالِكُمْ الْفُرُورِ؛ فَسَنَدَ ذَلِكَ لَا تَأْمَنُونَ
 الْهَيْتَاتِ، فَيَا لَهَا مِنْ بَيَاتٍ مَا أَشَدَّ ظِلْمَتُهُ! وَمَنْ صَامَحَ مَا أَظْفَعَ صَوْتُهُ! ذَلِكَ بَيَاتٌ لَا يَنْبَغِي
 صَاحِبُهُ؛ فَسَنَدَ ذَلِكَ تُقْتَلُونَ، وَبِأَبْوَابِ الْبَلَاءِ تُضْرَبُونَ، وَبِالسَّيْفِ تُحْصَدُونَ، وَإِلَى
 النَّارِ تُصِيرُونَ، وَيَمُضُّكُمْ الْبَلَاءُ كَمَا يَمُضُّ الْعَارِبُ الْقَتَبُ ^(٣). يَعْجَبُ كُلُّ الْمَعْجَبِ، بَيْنَ
 بُجَادِي وَرَجَبٍ! مَنْ جَمَعَ أَشْنَاتٍ، وَحَصَدَ نَبَاتٍ، وَمِنْ أَصْوَاتٍ بِمِثْلِهَا أَصْوَاتٍ.

ثم قال: سبق القضاء.. سبق القضاء!

(١) كذا وردت الصارفة في الأصول، وبها غموض.

(٢) كذا في ب، و، ح؛ «خرت الإماء»، و«أكلت غير واضحة».

(٣) الفارب منا: كاهل البعير. والقنب: رجل صمير على قدر النام؛ والكلام هنا جار على التل.

قال رجل من أهل البصرة لرجل من أهل الكوفة إلى جابه: أشهد أنه كاذب على الله ورسوله ! قال الكوفي: وما يدريك ؟ قال: فوالله ما رل على من السبر حتى فليح الرجل، فحبل إلى منزله في شق محمل، فمات من ليلته .

• • •

[من خطب الإمام علي أيضاً]

وروى المدائني أيضاً، قال: خطب علي عليه السلام^(١)، فقال: لو كُيُرت لي الوِسادة لحكمت بين أهل التوراة بنورانيهم، وبين أهل الإنجيل بإعماهم، وبين أهل الفرقان بفرقانهم، وما من آية في كتاب الله أنزلت في سهل أو جبل إلا وأنا عالم متى أنزلت، وفيمن أنزلت .

فقال رجل من القُعود تحت منبره: بالله وبنعم عوى الكاذبة ! وقال آخر إلى جابه: أشهد أنك أنت الله رب العالمين !

قال المدائني: فانظر إلى هذا الفناص ولسان قبيح !

• • •

وروى المدائني أيضاً، قال: خطب علي عليه السلام^(١)، فذكر الملاحم، فقال: سلوني قبل أن تفقدوني، أما والله لندشعن^(٢) الفتنة الصماء رحلها، ونطأ في خيطانها، يالها من فتنة^(٣) شُبَّت بارها بالخطب الحزل، مقبلة من شرق الأرض رافعة ديلها، داعية ويلها، بدجلة أو حولها . ذاك إذا استدَارَ العلك، وقلتم: مات أو هلك، بأيّ واد سلك !

فقال قوم تحت منبره: لله أبوه ! ما أفصحعه كاذباً !

• • •

وروى صاحب كتاب "الغارات" عن المنهال بن عمرو، عن عبد الله بن الحارث،

(١) ج: « رضى الله عنه » .

(٢) ج: « دقة » لصحيف .

قال : سمعت عليًا يقول على المنبر : ما أحد جرت عليه اللوامي إلا وقد أنزل الله فيه قرآنًا ؛
فقام إليه رجل ، فقال : يا أمير المؤمنين ، فما أنزل الله تعالى فيك ؟ قال : يريد تكذيبه .
فقام الناس إليه يلكزونه في صدره وجنبه ، فقال : دعوه ، أقرأت سورة هود ؟ قال نعم ،
قال : أقرأت قوله سبحانه : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ﴾ ^(١) قال :
نعم ، قال : صاحب البينة محمد ، والتالي الشاهد أنا .

(٧١)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام علم فيها الناس الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله :
 اللَّهُمَّ دَاخِي الْمَذْحُوثِ ، وَدَاخِي الْمُسُوكَاتِ ، وَجَابِلِ الْقُلُوبِ عَلَى فِطْرَانِهَا ^(١) شَقِيهَا
 وَسَعِيدِهَا ؛ اجْعَلْ شَرَائِفَ صَلَوَاتِكَ ، وَنَوَاسِي تَرَكَائِكَ ، عَلَى مُحَمَّدٍ عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ .
 انْطَاقِهِمْ لِمَا سَقَى ، وَالْعَافِيحِ لِمَا اسْتَلَقَ ، وَلِلدُّلَيْنِ الْحَقِّ بِالْحَقِّ ، وَالِدَّافِعِ جَبِشَاتِ
 الْأَبَاطِيلِ ، وَالِدَّافِعِ صَوْلَاتِ الْأَصَابِيلِ . كَمَا حُمِّلَ قَاصِطُكَ ، قَانِعًا بِأَمْرِكَ ، مُسْتَوْفِرًا
 فِي مَرْضَاتِكَ ، غَيْرَ مَا يَكِلِي عَنْ قَدِيمٍ ، وَلَا وَاهٍ فِي عَزَمٍ ، وَاعِيًا لَوْحِيكَ ، حَافِظًا لِمَهْدِكَ .
 مَاضِيًا عَلَى نَقَازِ أَمْرِكَ ؛ حَقٌّ أَوْزَى قَبَسِ الْفَافِيسِ ، مَرَامَاءِ الطَّرِيقِ لِلْحَافِطِ ، وَهُدًى بَتِ بِرِ
 الْقُلُوبِ مَذْحُوثَاتِ الْمَنَى وَالْآثَامِ ^(٢) لِدَوَاقِمِ مَوْضِعَاتِ الْأَعْلَامِ وَتَبَرَّاتِ الْأَحْكَامِ ؛
 فَهُوَ أَمِينُكَ الْمَأْمُونُ ، وَحَارِنُ عِلْمِكَ لِلْجُرُوبِ ، وَشَهِيدُكَ يَوْمَ الدُّيْنِ ، وَنَسِينُكَ بِالْحَقِّ ،
 وَرَسُولُكَ إِلَى الْخَلْقِ .

اللَّهُمَّ أَمْسَحْ لَهُ مَفْسَحًا فِي ظِلِّكَ ؛ وَأَجِرْهُ مَضَاعِفَاتِ أَنْظِيرٍ مِنْ فَضْلِكَ .
 اللَّهُمَّ وَأَعْلِ عَلَى بِنَاءِ الْبَآئِنِ بِنَاءَهُ ، وَأَكْرِمْ لَدَيْكَ مَزِينَتَهُ ، وَأَتِمِّمْ لَهُ نُورَهُ ،
 وَأَجِرْهُ مِنْ ابْتِغَائِكَ لَهُ مَقْبُولِ الشَّهَادَةِ ؛ مَرْضِي الْمَقَالَةِ ، ذَا مَنْطِقٍ قَدْلٍ ، وَخُطْبَةٍ
 فَصْلٍ .

اللَّهُمَّ اجْمَعْ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ فِي بَرْدِ الْعَبَاشِ وَفَرَارِ النِّعْمَةِ ، وَمَنْعِ الشَّهَوَاتِ ، وَأَهْوَاءِ
 الْهَذَاتِ ، وَرَخَاءِ الدُّعَاةِ ، وَمُنْهَى الْعُظْمَاءِ بَيْنَهُ ، وَتَحْفِ الْكِرَامَةِ .

(١) مغلطة التهج : « فطرانها »

(٢) مغلطة التهج : « بالآثم » .

البُنيْنُ :

دَحَوْتُ الرَّغِيفَ دَحْوًا : بَسَطْتَهُ ؛ وَالدَّحْوَاتُ هُنَا : الْأَرْضُونَ .
فَإِنْ قُلْتَ : قَدْ ثَبَتَ أَنَّ الْأَرْضَ كُرِّيَّةٌ ؛ فَكَيْفَ تَكُونُ بَسِيطَةً ، وَالبَسِيطُ هُوَ السَّطْحُ ،
وَالْكُرِّيُّ لَا يَكُونُ مَسْطَعًا ؟

قُلْتَ : الْأَرْضُ بِجَمْعِهَا شَكْلُ كُرَّةٍ ؛ وَذَلِكَ لَا يَمْنَعُ أَنْ تَكُونَ كُلُّ قِطْعَةٍ مِنْهَا مَبْسُوطَةً
تَصْلُحُ لِأَنْ تَكُونَ مُسْتَقَرًّا وَمَجَالًا لِلْبَشَرِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْحَيَوَانِ ؛ فَإِنَّ الْمُرَادَ بِإِبْسَاطِهَا هَذَا لَيْسَ
هُوَ السَّطْحُ الْحَقِيقِيُّ الَّذِي لَا يَوْجَدُ فِي الْكُرَّةِ ، بَلْ كَوْنُ كُلِّ قِطْعَةٍ مِنْهَا صَالِحَةً لِأَنْ يَتَصَرَّفَ
عَلَيْهَا الْحَيَوَانُ لَا يَمْنَعُ بِهِ غَيْرَ ذَلِكَ .

وَدَاحَى الدَّحْوَاتِ ، يَنْتَصِبُ لِأَنَّهُ مُنَادَى مُصَافٍ ، تَقْدِيرُهُ : بِإِبْسَاطِ الْأَرْضِينَ لِلْبَسُوطَاتِ .
قَوْلُهُ : « وَدَاعِمُ الْمَسْمُوكَاتِ » ، أَيْ [حَافِظُ السَّمَاوَاتِ] الْمَرْفُوعَاتِ ؛ دَعَمْتُ الشَّيْءَ إِذَا حَفَظْتَهُ
مِنَ الْهَوَىِّ بِدِعَامَةٍ ، وَالْمَسْمُوكُ بِالْمَرْفُوعِ ، قَالَ :

إِنَّ الَّذِي سَمَكَ السَّمَاءَ نَبَى لَنَا بَيْنَا دَعَامُهُ أَعَزُّ وَأَطْوَلُ^(١)

وَيَحْزَنُ أَنْ يَكُونَ عَمَى تَكُونُهَا مَسْمُوكَةٌ كَوْنُهَا مُخْبِتَةٌ وَتُسَمَّكَ الْجِسْمُ هُوَ الْبَعْدُ الَّذِي
يَعْبَرُ عَنْهُ الْمُتَسَكِّمُونَ بِالْعَمَقِ وَهُوَ قِسْمُ الطُّوْلِ وَالْمَرْتَضِ ، وَلَا شَيْءَ أَعْظَمَ نَحْمًا مِنَ الْأَفْلَاقِ .
فَإِنْ قُلْتَ : كَيْفَ قَالَ : إِنَّ تَعَالَى دَعَمَ السَّمَاوَاتِ وَهِيَ تُعْبَرُ تَحْدًا ؟
قُلْتَ : إِذَا كَانَ حَافِظًا لَهَا مِنَ الْهَوَىِّ تَعْدَرَتْهُ وَقُوَّتُهُ فَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِ كَوْنُهُ دَاعِمًا لَهَا ؛
لَأَنَّ قُوَّتَهُ الْحَافِظَةَ تَحْرِي مَحْرِي الدَّعَامَةِ .

قَوْلُهُ : « وَجَابِلُ الْقُلُوبِ » أَيْ حَافِظُهَا ، وَابْتِغَالُ الْحَقِّ ، وَحِيلَةُ الْإِنْسَانِ : خِيَاقَتُهُ ، وَفِطْرَانُهَا :
بِكْسَرِ الْمَاءِ وَفَتْحِ الطَّاءِ : جَمْعُ فِطْرَةٍ ، وَبِحُوزِ كَسْرِ الطَّاءِ ، كَمَا قَالُوا فِي سِدْرَةٍ : سِدَرَاتُ
وَسِدَرَاتُ ، وَالفِطْرَةُ : الْحَالَةُ الَّتِي يَفْطُرُ اللَّهُ عَلَيْهَا الْإِنْسَانَ ، أَيْ يَخْلُقُهَا عَلَيْهَا خَالِيًا مِنَ الْأَرَاءِ

والديانات والمقائد والأهوية ؛ وهى ما يقتضيه محض العقل ؛ وإنما يختار الإنسان بسوء نظره ما يفضى به إلى الشقوة ؛ وهذا معنى قول النبي صلى الله عليه وآله : « كل مولود يولد على الفطرة ، فلأبواه يهودانه أو ينصرانه » .

قوله : « شقيتها وسعيدها » بَدَل من القلوب ، وتقدير الكلام : وجايل الشقى من القلوب والسعيد على ما طُيرت عليه .

والنوامى : الزوائد . والخاتم لما سبق ؛ أى لما سبق من الملل . والفتاح لما انفلق من أسر الجاهلية والمملن الحق بالحق ، أى المظهر للحق الذى هو خلاف الباطل بالحق ، أى بالحرب والخصومة ؛ يقال : حاق فلان فلا بالحقة ، أى حاصمه قمصه . ويقال : ما به حق أى خصومة .

قوله : « والدافع جيشات الأباطيل » ، جمع حَيْشَم ، من جاشت القدر إذا ارتفع غلبتها . والأباطيل : جمع باطل على غير قياس ؛ والمراد أنه قاطع ما عم من الباطل . والدامغ : للمهلك ، من دَمَسَ أى شَحَّ ، حتى بلغ الدماغ ؛ ومع ذلك يكون الهلاك . والصوتلات : جمع صَوْتَة وهى السطوة . والأضاليل : جمع ضلال على غير قياس . قوله : « كما حُل » ، أى لأهل أنه يحمل ، والحرب تستعمل هذه الكاف بمعنى التعليل ، قال الشاعر :

فَقُلْتُ لَهُ أبا اللَّحَاءِ حُذِّهَا كَأَوْسَمَتَنَا نَفِيًا وَصَدِّهَا

أى هذه الضربة لبعميك علينا ، وتعديك .

وقوله : « كما حُل » يعنى حُل أعباء الرسالة . فاضطلع ، أى همس بهاقوبيا ؛ ومن ضلوع أى قوى ؛ وهى الصلاة ، أى القوة .

مستوفرا ، أى غير بطل ، بل بحث عنه ويُنْهَدُها فى رضا الله سبحانه ، والوفز : العجلة ، والمستوفز : المستعجل .

غير ناكل من قُدُم ، أى غير جبان ولا متأخر عن إقدام ، والإقدام : للتقدم ؛ يقال
مضى قُدُماً أى تقدم وسار ولم يرج .

قوله : « ولا واهٍ في عزم » ؛ وهى ، أى ضيف ، والواهى : الضعيف .

واعياً لوحيدك ، أى فاعها ، وَعَيْتُ الحديث ، أى ضيّتَه وَعَقَلْتَه .

ماضياً على نفاذ أمرك ؛ فى الكلام حذف تقديره : ماضياً مصراً على نفاذ أمرك ،

كقوله تعالى : « فى تسع آيات إلى فرعون »^(١) ، ولم يقل : « مرسلًا » لأن الكلام يدل
بمضه على بعض .

وقوله : « حتى أوزى قبس القاس » ؛ يقال : ورى الزند ، يرى ؛ أى خرج

ناره ، وأوريته أما . والقَبَس : شدة من النار ؛ والمراد بالقَبَس هاهنا نور الحق ، والقابِس :

الذى يطلب النار ، يقال : قَبَسْت منه ناراً ، وأقبستُ ناراً ؛ أى أعطانيها .

وقال الراوندى : أقبست الرجل علماً ، وقبسته نارا ؛ أعطيته ؛ فإن كنت طلبتها له

قلت : أقبسته ناراً .

وقال الكسائى : أقبسته ناراً وعلماً سواء ؛ قال : ويجوز « قبسته » بغير همزة فيهما .

قوله : « وأضاء الطريق للحابط » ، أى جعل الطريق للحابط مضبته ، والحابط :

الذى يسير ليلاً على غير جادة واضحة .

وهذه الألفاظ كلها استعارات ومحازات .

وخَوَضَاتِ الفتن : جمع خَوْضَةٍ ؛ وهى المرة الواحدة ، من خَضَتُ الماء والوحل ،

أخوضهما ، وتقدير الكلام : وهديت به القلوب إلى الأعلام للوضحة بعد أن خاضت

فى الفتن أطواراً . والأعلام : جمع عَلم ، وهو ما يستدل به على الطريق ، كالمنارة ونحوها .

والموضحة : التى توضح للناس الأمور وتكشفها . [والنبيرات]^(٢) : ذوات النور .

قوله : « فهو أمينك المؤمن » أى أمينك على وحيك ، وأؤمن من ألقاب رسول الله

صلى الله عليه وآله ، قال كعب بن زهير :

سَقَاكَ أَبُو بَكْرٍ بِكَاسٍ رَوْبِيٍّ وَأَنْهَكَ الْأَمُونَ مِنْهَا وَعَلَّكَ^(١)

وخازن عليك ، المحزون بالجر صفة « عليك » والعلم لإلهي المخزون : هو ما أطلع الله تعالى عليه ورسوله من الأمور الخفية التي لا تتعلق بالأحكام الشرعية كاللأحم وأحكام الآخرة وغير ذلك ، لأن الأمور الشرعية لا يجوز أن تكون مخزونة عن المكافئين .

وقوله : « وشهيدك يوم الدين » ، أى شاهدك ، قال سبحانه : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾^(٢) .

والبعيث : البعث « فعمل » بمعنى « مفعول » كقتيل وجريح وصريع . ومفسحاً مصدر ، أى وسع له مفسحاً .

وقوله : « في ظلك » يمكن أن يكون محاراً ، كقولهم : فلان يشملى بظله ، أى يحاسنه ويرته ، ويمكن أن يكون حقيقة ، ويعنى به الظل المدود الذى ذكره الله تعالى ، فقال : ﴿ وَظِلِّ تَمْدُودٍ ﴾ ^(٣) وَمَا مَكْنُوبٍ ^(٤) .

وقوله : « وأهل على بقاء البابين ساءه » ، أى أجمل منزلته فى دار الثواب أهل المنازل . وأنتم له نوره ، من قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا أَنْتُمْ لَنَا نُورٌ ﴾^(٥) . وقد روى أنه نطقاً سائر الأموار إلا نور محمد صلى الله عليه وآله ، ثم يعطى المخلصون^(٦) من أصحابه أنواراً يسيرة يبصرون بها مواطن الأقدام ، فيدعون إلى الله تعالى بزيادة تلك الأموار وإتمامها . ثم إن الله تعالى يتم نور محمد صلى الله عليه وآله ، فيستطيل حتى يملأ الآفاق ، فذلك هو إتمام نوره صلى الله عليه وآله .

قوله : « من اجتماعك له » ، أى فى الآخرة .

مقبول الشهادة ، أى مصدقاً فيها يشهد به على أمته وعلى غيرها من الأمم .

(١) ديوانه ٣ ، وروايته : « شربت مع ساءون » ، وقال فى شرحه : « وكانت قریش تسمى النبي صلى الله عليه وسلم للأمن الأميز » .

(٢) سورة النساء ٤١

(٣) سورة النجم ٨

(٤) سورة الواقعة ٣٠ ، ٣١

(٥) ج « الكافون » .

وقوله: «ذا منطلق عدل»، أى عادل، وهو مصدر أقيم مقام اسم الفاعل؛ كقولك: رجل
ذيل وصوم، أى مفطر وصائم.

وقوله: «وحطبة فصل» أى يخطب خطبة فاصلة يوم القيامة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ
فَصْلٍ ۖ وَمَا هُوَ إِلَّا هَزْلٌ﴾^(١)، أى فاصل بفصل بين الحق والباطل؛ وهذا هو المقام المحمود الذى
ذكره الله تعالى فى الكتاب، فقال: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾^(٢)، وهو
الذى يشار إليه فى الدعوات فى قولهم: «اللهم آت محمدًا الوسيلة والفضيلة، والدرجة الرفيعة،
واسمه المقام المحمود».

قوله: «ويزد البيش»؛ تقول العرب: عيش بارد ومبيشة باردة، أى لا حرب فيها
ولا نزاع، لأن البرد والكون متلازمان كتلازم الحر والحركة.
وقرار الدمة، أى مستقرتها، يقال: هذا قرار السيل، أى مستقره، ومن استألم: «لكل
سائلة قرار».

ومنى الشهوات: ما يتعلق به الشهوات من الأمنى. وأهواء اللذات: ما تهواه النفوس وتستلذه.
والرخاء، المصدر من قولك: رجل رخی البال فهو بين الرخاء، أى واسع الحال.
والدعة: السكون والطمأنينة، وأصلها الواو.
ومنتهى الطمأنينة: عايتها التى ليس بعدها غاية.
والثخف: جمع تحفة؛ وهى ما يكرم به الإنسان من اللب واللعف، ويجوز فتح الخاء.

[معنى الصلاة على النبي والخلاف فى جواز الصلاة على غيره]

فإن قلت: ما معنى الصلاة على الرسول صلى الله عليه وآله، التى قال الله تعالى فيها:

(١) سورة الطارق ١٣، ١٤

(٢) سورة الإسراء ٧٩.

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾^(١).

قلت : الصلاة من الله تعالى هي الإكرام والتبجيل ورفع المزية ، والصلاة منا على النبي صلى الله عليه وآله هي الدعاء له بذلك ، قوله سبحانه : ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ﴾^(٢) أى هو الذى يرفع منازلكم فى الآخرة ، وقوله : ﴿وَمَلَائِكَتُهُ﴾ أى يدعون لكم بذلك . وقيل : جعلوا لكونهم مستجابى الدعوة كأنهم قائلون التمجيد للؤمن ورفع المزية ، ونظيره قوله : «حياك الله» أى أحياك الله وأبشاك ، وحيثك أى دعوت لك بأن يحييك ، لأنك لا تعتمدك على إجابة دعوتك ووثوقك بذلك ، كأنك تمحييه وتبقيه على الحقيقة ، وهكذا القول فى قوله سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ .

وقد اختلف فى الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله : هل هي واجبة أم لا ؟

فمن الناس من لم يقل بوجوبها وجعل الأمر فى هذه الآية للذهب ومهم من قال : إنها واجبة .

واختلفوا فى حال وجوبها : فمنهم من أوجبها كلما جرى ذكره ، وفى الحديث : «مَنْ ذُكِرَتْ عِنْدَهُ فَلَمْ يَصَلِّ عَلَى دُخُلِ النَّارِ وَأَبْعَدَهُ اللَّهُ» ؛ ومنهم من قال : يجب فى كل مجلس مرة واحدة ، وإن تكرر ذكره . ومنهم من أوجبها الممر مرة واحدة ؛ وكذلك قال فى إظهار الشهادتين .

واختلف أيضا فى وجوبها فى الصلاة للفروضة ، فأبو حنيفة وأصحابه لا يوجبونها فيها . وروى عن إبراهيم النخعي أنهم كانوا يكتبون - بنى الصحابة - عنها بالشهاد ، وهو : «السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته» ، وأوجبها الشافعي وأصحابه . واختلف أصحابه فى وجوب الصلاة على آل محمد صلى الله عليه وآله ، فالأكثر على أنها واجبة ، وأنها شرط فى صحة الصلاة .

(١) سورة الأحزاب ٥٦

(٢) سورة الأحزاب ٥٦

فإن قلت : فما قول في الصلاة على الصَّعَابَةِ والصَّالِحِينَ من المسلمين ؟
قلت : القياس جواز الصلاة على كل مؤمن ، لقوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَصَلَّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ﴾ ^(١) ؛ وقوله : ﴿ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ ^(٢) ؛ ولكن السلام قالوا : إذا ذكرَ أحدٌ من المسلمين تباً للنبي عليه السلام فلا كلام في جواز ذلك ؛ وأما إذا أفردوا أو ذكرَ أحدٌ منهم ؛ فأكثر الناس كرهوا الصلاة عليه ؛ لأن ذلك شعارُ رسول الله فلا يشركه فيه غيره .

وأما أصحابنا من البندادين فلهم اصطلاح آخر ؛ وهو أنهم يكرهون إذا ذكروا عليه عليه السلام أن يقولوا : « صلَّى الله عليه » ولا يكرهون أن يقولوا : « صلوات الله عليه » ، وجعلوا اللقطة الأولى مختصة بالرسول صلَّى الله عليه وآله ، وجعلوا اللقطة الثانية مشتركة فيها بينهما عليهما السلام ، ولم يطلقوا لفظ الصلاة على أحدٍ من المسلمين إلا على علي وحده .

(١) سورة التوبة ١٠٣

(٢) سورة البقرة ١٥٧

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام قاله لمروان بن الحكم بالبصرة .

قالوا : أخذَ مروان بن الحكم أميرَ يومِ الجمل فاستشفع الحسن والحسين عليهما السلام إلى أمير المؤمنين عليه السلام ؛ فكلَّماهُ فيه فخلَّى سبيله ، فقال له : يُبايعُكَ يا أمير المؤمنين . قال عليه السلام :

أَوَلَمْ يَأْيِسْ بَعْدَ قَتْلِ عُمَانَ الْأَحَابَةِ لِي فِي بَيْعَتِهِ ؛ إِنْهَا كَفَّ يَهُودِيَّةٌ ،
لَوْ بَايَعَنِي بِيَدِهِ لَعَدَرْتُ سَيْتَهُ . أَمَا إِنْ لَهُ أَمْرَةٌ كَكَلْبَةِ الْكَلْبِ أَفْقَهُ ، وَهَرَأُ بُوَالَا كَبُشِ
الْأَرْثَمَةِ ، وَسَتَلَى الْأُمَّةُ مِنْهُ قَرِينٌ وَلَدِهِ يَوْمًا أَنْحَرُ .

• • •

التلخيص :

قد رُويَ هذا الخبر من طرق كثيرة ، ورويت فيه زيادة لم يذكرها صاحب " نهج البلاغة " ، وهي قوله عليه السلام في مروان : « يَحْمِلُ رَايَةَ ضَلَالَةٍ بَعْدَ مَا يَشِيبُ صُدُقَاهُ ، وَإِنَّ لَهُ أَمْرَةً ... » إلى آخر الكلام .

وقوله : « فاستشفع الحسن والحسين إلى أمير المؤمنين عليه السلام » ، هو الوجه ، يقال : استشفعتُ فلاناً إلى فلان ؛ أى سألتُه أن يشفع لى إليه ، ونشفتُ إلى فلان في فلان فشَفَّنِي فيه تشفيماً . وقول الناس : « استشفعتُ فلاناً إلى فلان » بالباء ليس بذلك الجيد . وقول أمير المؤمنين عليه السلام : « أو لم يبايعني بعد قتل عثمان ا » أى وَقَدْ خُذِرَ ؛ وهكذا فوبايعني الآن .

ومعنى قوله : « إنها كف يهودية » أى عادية ، واليهود تنسب إلى الفدر والخبث ، وقال تعالى : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ ﴾ ^(١) .

والسببة : الاست ، بفتح السين ، سبه بسبه أى طعنه فى الموضع ؛ ومعنى الكلام محمول على وجهين :

أحدهما : أن يكون ذكر الستة إهانة له وغضبة عليه ، والمرب نسلك مثل ذلك فى خطبها وكلامها ؛ قال للتوكل لأبى الميناء : إلى متى تمدح الناس وتذمهم ؟ فقال : ما أحسنوا وأساءوا ؛ ثم قال : يا أمير المؤمنين ؛ إن الله تعالى رضى عن واحد فمدحه ، وسخط على آخر فهجاه وهما أنه ؛ قال : ﴿ يَمْ يَمْ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ ^(٢) ، وقال : ﴿ عَتَلَ بِمَدَدِ ذَلِكَ رَيْمٌ ﴾ ^(٣) ؛ والزَّئِيم ولد الزنا ^(٤) .

الوجه الثانى : أن يريد بالكلام حقيقة لا مجازاً ؛ وذلك لأن العادِر من العرب كان إذا عَزَم على المدّر بعد عهدٍ قد عاهد أو عَقْدٍ قد عقد ، حتى استهزاء بما كان قد أظهره من اليمين والمهد ؛ وسُغَرِيه وتهكما .

والإمّرة : الولاية ، بكسر الهمزة . وقوله : « كَتَمَقَةِ الْكَلْبِ أَفْه » ، يريد قِصَر المدة ، وكذلك كانت مدة خلافة مروان ، فإمّة وليّ تسعة أشهر .

والأكبش : الأربعة بنو عهد الملك : الوليد ، سليمان ، يزيد ، وهشام ؛ ولم يَلِ الخلافة من بنى أمية ولا من غيرهم أربعة أخوة إلا هؤلاء .

وكلّ الناس فسّروا الأكبش الأربعة بمن ذكرناه ؛ وعندى أنه يجوز أن يعنى به

(١) سورة البقرة ٨٢

(٢) سورة م ٣٠ ، ٤٤

(٣) سورة القلم ١٣

(٤) العتل : الضديد .

بنى مروان لصلبه ؛ وهم : عبد الملك ، وعبد العزيز ، وبشر ، ومحمد ؛ وكانوا كباشاً أبطالاً
أنجاداً ، أما عبد الملك فولّى الخلافة ، وأما بشر فولّى العراق ، وأما محمد فولّى الجزيرة ،
وأما عبد العزيز فولّى مصر ، ولكلّ منهم آثار مشهورة . وهذا التفسير أولى ؛ لأن
الوليد وإخوته أبناء ابنه ، وهؤلاء بنوه لصلبه .

ويقال لليوم الشديد : يوم أحر ، وللسنة ذات الجذب : سنة سخراء .

وكلّ ما أخبر به أمير المؤمنين عليّ السلام في هذا الكلام وقع كما أخبر به ؛ وكذلك .
قوله : « يحمل راية خلافة بعد ما شيب مدغاه » ، فإنه وليّ الخلافة وهو ابن خمسة وستين
في أفضل الروايات .

[مروان بن الحكم ونسبه وأخباره]

وممن ذاكرون في هذا الموضع نسبّه ، ومجلاً من أمره وولايته الخلافة ؛ ووفاته على
سبيل الاختصار :

هو مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، وأمه آمنة
بنت علقمة بن صفوان بن أمية الكِنَاني . بُكِنى أبا عبد الملك ، ولِدَ على عهد رسول الله
صلّى الله عليه وآله ؛ منذ ستة اثنتين من الهجرة ، وقيل عام الخلق ، وقيل يوم أحد ؛
وقيل غير ذلك . وقال قومٌ : بل ولد بمكة ، وقيل : ولد بالطائف . ذكر ذلك كله أبو
عمر بن عبد البر في كتاب " الاستيعاب " (١) .

قال أبو عمر : ومن قال بولادته يوم أحد مالك بن أنس ، وعلى قوله يكون

(١) الاستيعاب ١٣٨٧ - ١٣٩٠ (طبعة نهضة مصر)

رسول الله صلى الله عليه وآله قد توفى ، وعمره ثمان سنين أو نحوها .

وقيل : إنه لما سبي مع أبيه إلى الطائف كان طفلاً لا يعقل ، وإنه لم ير رسول الله صلى الله عليه وآله ، وكان الحكم أبوهم قد طرده رسول الله من المدينة ، وسيّره إلى الطائف فلم يزل بها حتى وليّ عثمان ، فردّه إلى المدينة ، فقدمها هو وولده في خلافة عثمان ، وتوفى ، فاستكتبه عثمان وضمّه إليه ، فاستولى عليه إلى أن قتل .

والحكم بن أبي العاص^(١) هو عمّ عثمان بن عفان ، كان من سلسلة الفتح ، ومن المؤلفة قلوبهم ، وتوفى الحكم في خلافة عثمان قبل قتله بشهور .

واختلاف في السبب الموجب لنفي رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ قيل : إنه كان يتعيل ويستغنى ويتسّع^(٢) ما يسيرهم (رسول الله صلى الله عليه وآله إلى أكار الصعابة في مشركي فريش وسائر الكفار والمناقضين ، ويقتل ذلك عنه ، حتى ظهر ذلك عنه^(٣) . وقيل كان يتجسس على رسول الله صلى الله عليه وآله وهو عند نسائه ، ويسترق السمع ، ويصني إلى ما يجري هناك بما لا يحوز الإطلاع عليه ، ثم يحدث به للناقضين على طريق الاستهزاء .

وقيل : كان يحكيه في بعض مشيته وبعض حركانه ، فقد قيل : إن النبي صلى الله عليه وآله كان إذا مشى يركعاً^(٤) ، وكان الحكم بن أبي العاص يحكيه ، وكان شاتكاً له مبهضاً حاسداً ، فالتفت رسول الله صلى الله عليه وآله يوماً ، فراه يمشي خافه يحكيه في مشيته ؛

(١) الأسدياب ٣٥٩ ، ٣٩٠

(٢) كذا في الأسدياب ، وفي الأصول : « يسع » .

(٣) ج : « منه » .

(٤) قال ابن الأثير في النهاية ١ : ٢١ في صفة مشيه عليه الصلاة والسلام : « كان إذا مشى يركعاً تركعاً أي تمايل إلى لقدام ؛ مكناً روى غير مهوز ، والأسل المنز ، وبصم يرويه مهوزاً لأنه مصدر ثقل . . . » .

خَيْطُ بَاطِلٍ ؛ قِيلَ : لِأَنَّهُ كَانَ طَوِيلًا مُضْطَرَبًا .

وَضُرِبَ يَوْمَ الدَّارِ عَلَى قَعْلِهِ غَرَّةً لَيْقِيهِ ^(١) فَلَمَّا بُويعَ لَهُ بِالْخِلَافَةِ ، قَالَ فِيهِ أَخُوهُ عَبْدِ
الرَّحْمَنِ بْنِ الْحَكَمِ - وَكَانَ مَاجِنًا شَاعِرًا [مُخَيَّنًا] ^(٢) ؛ وَكَانَ لَا يَرَى رَأْيَ مَرْوَانَ :

فَوَاللَّهِ مَا أَذْرِي وَإِنِّي لَسَائِلٌ حَلِيقَةُ مُضْرَبٍ الْقَفَا كَيْفَ تَصْنَعُ
لِحَافَةِ قَوْمًا أَمْرُوا خَيْطَ بَاطِلٍ عَلَى النَّاسِ يُعْطَى مَا يَشَاءُ وَيَمْنَعُ

وَقِيلَ : إِنَّمَا قَالَ لَهُ أَخُوهُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ذَلِكَ حِينَ وَلَّاهُ مُعَاوِيَةُ أُمْرَةَ الْمَدِينَةِ ، وَكَانَ
كَثِيرًا مَا يَهْجُوهُ ؛ وَمِنْ شَعْرِهِ فِيهِ :

وَحَبِثُ نَصِيبِي مِنْكَ بِأَمْرٍ وَكَغَلُهُ لِعَمْرٍو وَمَرْوَانَ الطَّوِيلِ وَحَالِدِ
وَرَبِّ ابْنِ أُمِّ زَيْدٍ غَيْرِ نَاقِصٍ وَأَنْتَ ابْنُ أُمِّ نَاقِصٍ غَيْرُ زَائِدِ
وَقَالَ مَالِكُ بْنُ الرَّيْتِ يَهْجُو مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ :

لِعَمْرُكَ مَا مَرْوَانَ يَقْصِي أُمُورِيَا ^(٣) وَلَكِنْ مَا يَقْصِي لَنَا بَنْتُ جَعْفَرٍ
فِي أَيْتِمَائِهَا كَانَتْ عَلَيْنَا أُمِيرَةً وَلَيْتَكَ بِأَمْرٍ وَأَنْ أَمِيتَ ذَا حِرٍ

وَمِنْ شَعْرِ أَخِيهِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ فِيهِ :

أَلَا مَنْ يُبْلِغُنِي مَرْوَانَ عَنِّي ^(٤) رَسُولًا وَالرَّسُولُ مِنَ الْيَكِينِ
بَأَنَّكَ لَنْ تَرَى طَرْدًا لِحُرٍّ كَالصَّاقِ بِهِ بَعْضَ الْهَوَانِ ^(٥)
وَهَلْ حَدَّثْتَ قَبْلِي عَنْ كَرِيمٍ مَعِينٍ فِي الْحَوَادِثِ أَوْ مُعَانٍ
يَقِيمُ بَدَارَ مُضِيبَةٍ إِذَا لَمْ يَكُنْ حَيْرَانٍ أَوْ خَفِيقَ الْجَلَانِ

(١) الْأَسْتِغَابَ : دَ جَرَى لَيْقِيهِ .

(٢) مِنَ الْأَسْتِغَابِ .

(٣) فِي الْأَسْوَلِ : دَ يَا مَرْوَانَ ، وَالصَّوَابُ : أُنْبِئْتَهُ مِنَ الْأَسْتِغَابِ .

(٤) الْأَسْتِغَابَ : دَ مِنْ مَلْعَ .

(٥) وَرَدَ الْبَيْتُ مَحْرَفًا فِي الْأَسْوَلِ ، وَمَا أُنْبِئْتَهُ مِنَ الْأَسْتِغَابِ .

فلا تخذف بي الرجوين إلى أقل القوم من يعني مكاني^(١)
 ما كفيك الذي استكفيت مني بأمر لا تخالجه لليدان
 فلو أنا بمنزلة جريتنا جريت وأنت مضطرب العنان
 ولولا أن أم أمك أمي وأن من قد هباك فقد هجاني
 لقد جاهرت بالبعضاء إلى إلى أمر الجهارة والعلان

ولما صار أمر الخلافة إلى معاوية ، رثى مروان المدينة ، ثم جمع له إلى المدينة مكة والطائف ، ثم عزله وولى سعيد بن العاص ، فلما مات يزيد بن معاوية ، وولى ابنه أبو ليلى معاوية بن يزيد في سنة أربع وستين ، عاش في الخلافة أربعين يوما ومات ، فقالت له أمه أم خالد بنت أبي هاشم بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس : اجعل الخلافة من بعدك لأخيك ، فأبى وقال : لا يكون لي مرءها ولكم حلوها ، فمكث مروان عليها ، وأشد :
 إنني أرى فتنة تلي مراجعها والملك بعداني ليل لمن غلبا

وذكر أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني في كتاب " الأغاني " : أن^(٢) معاوية لما عزل مروان بن الحكم عن إمرة المدينة والحجاز ، وولى مكانه سعيد بن العاص ، وجه مروان أخاه عبد الرحمن بن الحكم أمامه إلى معاوية ، وقال له : ألقه قبل فئانيه لي واستصلحه .

قال أبو الفرج : وقد روي أن عبد الرحمن كان بدمشق يومئذ ، فلما بلغه خبر عزل مروان وقدمه إلى الشام ، خرج وتلقاه ، وقال له : أقم حتى أدخل إلى أخيك^(٣) ، فإن كان عزلك عن موقعة دخلت إليه منفردا ، وإن كان عن غير موقعة دخلت إليه مع الناس

(١) الربا : ناحية الثمن أعلاها ، ولأسفلها ، وجبته رجوان ، (على البناء للجھول) وروى به الرجوان ، أي استهين به ، فكأنه روى به هناك ، أي طرح لي الهالك .

(٢) الأغاني ١٣ : ٢٥٩ وما بعدها (طبعة المحار) .

(٣) الأغاني : ٥ الرجل .

فَأَقَامَ مَرْوَانَ وَمَضَى عَبْدُ الرَّحْمَنِ ، فَلَمَّا قَدِمَ عَلَى مَعَاوِيَةَ دَخَلَ إِلَيْهِ وَهُوَ يُشَى
النَّاسَ ، فَأَنشَدَهُ :

أَتَتَكَ الْعَيْسُ تَنْفُخُ فِي بُرَاهَا تَكْشِفُ عَنْ مَنَازِكِهَا الْقَطُوعُ^(١)
بِأَيْتِصَ مِنْ أُمِّيَّةٍ مَضِيحِي كَانَ جَيْتَهُ سَيْفٌ صَنِيعٌ^(٢)

فَقَالَ لَهُ مَعَاوِيَةُ : أَزَاثَرَأَجِثْتُ أَمْ مَفَاخِرًا مَكَابِرًا ؟ فَقَالَ : أَيْ ذَلِكَ شِئْتُ ! فَقَالَ :
مَا أَشَاءُ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا ؛ وَأَرَادَ مَعَاوِيَةُ أَنْ يَقْطَعَهُ عَنْ كَلَامِهِ الَّذِي عَنْهُ ، فَقَالَ لَهُ : عَلَى أَيْ
ظَهَرَ جِثَّتُنَا ؟ فَقَالَ : عَلَى فَرْسٍ ، قَالَ : مَا صَعْتَهُ ؟ قَالَ : أَجِثُّ هَزِيمٌ - بِمَرَضٍ بِقَوْلِ
الْجَبَاشِيِّ فِي مَعَاوِيَةَ يَوْمَ صِفِّينَ :

وَمَحَى ابْنُ حَرْبٍ سَاحَ ذَوْعُلَالَةٍ أَجِثُّ هَزِيمٌ ، الرِّمَاحُ دَوَانٍ^(٣)
إِذَا قَلَّتْ أَطْرَافُ الرِّمَاحِ تَقَالُ مَرَّتُهُ^(٤) لَهُ السَّاقَانِ وَالْقَدَمَانِ^(٥)

فَنَصِيبُ مَعَاوِيَةَ ، وَقَالَ : إِلَّا أَنَّهُ لَا يَرْكَبُهُ صَاحِبُهُ فِي الظُّلَمِ إِلَى الرَّيِّبِ ؛ وَلَا هُوَ يَمُنُّ
بِقُورٍ عَلَى جَارَاتِهِ ، وَلَا يَتَوَثَّبُ بِسَدِّ هَجُجَةِ النَّاسِ عَلَى كِمَاتِهِ^(٦) - وَكَانَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ يُتَهَمُّ
بِذَلِكَ فِي أَمْرَةِ أَخِيهِ - فَعَجَلَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ ، وَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، مَا حَمَلَكَ عَلَى عَزْلِ ابْنِ عَمِّكَ ؟
أَغْلِيَانِي أَوْ جِئْتَ ذَلِكَ ، أَمْ لَرَأَى رَأْيَتَهُ وَتَدَبَّرَ اسْتَصْدَعْتَهُ ؟ قَالَ : بَلْ لَتَدَبَّرَ اسْتَصْلَحْتَهُ ، قَالَ : فَلَا
بَأْسَ بِذَلِكَ ، فَخَرَجَ مِنْ عِنْدِهِ فَلَقِيَ أَخَاهُ مَرْوَانَ ، فَأَحْبَرَهُ بِمَا دَارَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَعَاوِيَةَ ، فَاسْتَشَارَ غَيْظًا
وَقَالَ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ : قَبِّحَكَ اللَّهُ ، مَا أَضْعَفَكَ ! عَرَّضْتَ لِلرَّجُلِ بِمَا أَغْصَبَهُ ، حَتَّى إِذَا انْتَصَرَ^(٧)

(١) الْعَيْسُ : النَّوْثِيُّ الْيَيْسُ ، يُقَالُ بِأَصْحَابِ شَفَرَةٍ . وَالْبَرَى : حَمَّ بَرَهُ ، بِعَمِّ فَتَحَ ، وَهِيَ حَلْقَةُ تَجْمَلُ
فِي أَلْفِ السِّيرِ : وَالْقَطُوعُ : جَمْعُ قَطْعٍ ، بِالْكَسْرِ ؛ وَهُوَ الطَّمْعَةُ تَكُونُ تَحْتَ الرَّجْلِ .
(٢) الْمَضِيحِيُّ : السَّيِّدُ الْمَكْرَمُ ، وَالصَنِيعُ : السَّيِّدُ الْمُهْرَبُ الْمَخْلُوعُ .
(٣) السَّاحُ : الْفَرَسُ السَّرِيعُ . وَالْعُلَالَةُ : الْقَبِيحَةُ مِنَ السِّيرِ . وَالْأَحْشُ : الْغَلِيظُ الصَّوْتُ مِنَ الْإِنْسَانِ وَمِنْ
الْحَيْلِ وَمِنْ الرَّمْعِ . وَالْهَزِيمُ : الْفَرَسُ الشَّدِيدُ الصَّوْتِ .
(٤) مَرَّتُهُ : اسْتَدْرَبَ جَرِيهَ . وَفِي الْأَعْيَانِ : « إِذَا حَلَبَ » .
(٥) كِمَاتِي : جَمْعُ كِمَةٍ ؛ أَمْرَةٌ الْأَخِ أَوْ الْأُمِّ .
(٦) الْأَعْيَانُ : « انْصَبَّ » .

منك أحجمت عنه . ثم لبس حُلَّته ، وركب فرسه ، وتقلَّد سيفه ، ودخل على معاوية ، فقال له حين رآه وتبين الغضب في وجهه : مَرَحَبًا يَا عَبْدَ الْمَلِكِ ! لقد زرتنا عند اشتقاق ميتا إليك ، فقال : [لا] ^(١) ها الله ، مازرتك لذلك ولا قدمت عليك فألفيتك إلا عاقبا قاطعا ؛ والله ما أنصفتنا ولا جزيتنا حزاءنا ، لقد كات الساقة من بني عبد شمس لآل أبي العاص ، والمُصَّهر من رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم ، والخلافة منهم ^(٢) ، فوصلوكم بأبى حرب وشرفوكم ووثقوكم ، فاعزلوكم ولا آثروا عليكم ؛ حتى إذا وليتم وأفضى الأمر إليكم أيتم إلا أثره وسوء صبيحة وقبح قطيعة ، فروبدا رويدا فقد بلغ بنو الحكم وبنو بنيه ثيفا وعشرين ، وإنا هي أيام قلائل حتى يكملوا أربعين ، ثم يعلم امرؤ ما يكون منهم حينئذ ؛ ثم هم للجزاء بالحق والسوء بالمرصاد .

قال أبو الفرج : هذا رمز إلى قول رسول الله صلى الله عليه وآله : « إذا بلغ بنو أبي العاص أربعين رجلا ، اتخذوا مال الله دولا وعباد الله سولا » ، فكان بنو أبي العاص يذكرون أنهم سيلون أمر الأمة إذا بلغوا هذه العدة .

قال أبو الفرج : فقال له معاوية : مهلاً أبا عبد الملك ، إني لم أعزلك عن خيانة ، وإنا عزلتك لثلاثة لو لم يكن منهم إلا واحدة لأوحشت عزلك ؛ إحداهن أني أمرتك على عبد الله بن عاص ، وبينكما ما بينكما ، فمن تستطيع أن تشتفي منه ، والثانية كراهيتك للإمرة زياد ، والثالثة أن ابنتي رَمْلَةَ استمدتْك على زوجها عمرو بن عثمان ، فلم تعدّها . فقال مروان : أمّا ابن عامر فإني لأعصر منه في سلطاني ، ولكن إذا تساوت الأقدام علم أين موقعه ، وأما كراهتي للإمرة زياد فإن سائر بني أمية كرهوه ؛ وجعل الله لنا في ذلك الكرم خيرا كثيرا . وأما استمداء رَمْلَةَ على عمرو ؛ فوالله إنه ليأثني على منة أوا كثر

(١) من الأغاني ، وما هنا قصيه وبعدها حرف قسم محذوف (انظر الفتي ١ : ٣٤٩) .

(٢) الأغاني : « فيهم » .

وعندي بنت عثمان ، فأتى كشف لها ثوباً - بعرض بأن رملة إنما تستعدي على عمرو بن عثمان طلب النكاح - فغضب معاوية ، فقال : يا ابن الوزغ^(١) ؛ لست هنالك فقال مروان : هو ما قلت لك ؛ وإني الآن لأبو عشرة ، وأخوة عشرة ، وعم عشرة ، وقد كاد ولد أبي^(٢) أن يكلوا العدة - يعني أربعين ؛ ولو قد بلغوها لعلت ابن تقع مني . فانخرزل^(٣) معاوية ، وقال : فإن أك في شيراركم قليلاً فإنني في خياركم كثير^(٤) .
سألت العنبر أكرها فراحاً وأم الصفر بفلات زور^(٥) .
ثم استغذى معاوية في يد مروان^(٦) وحض ، وقال : [لك]^(٧) المتى ، وأمرادك إلى عملك . فوثب مروان ، وقال : كلاً وعبيك لا رأيتني عائداً وخرج .

فقال الأحنف لمعاوية : ما رأيت قط لك سقطة مثلها ! أما هذا الخصوع لمروان ! وأى شيء يكون منه ومن بني أبيه إذا سمعوا أربعين ؟ أما الذي نحشاء منهم ؟ فقال : اذن مني أحبك ذلك ، فدعا الأحنف منه ، فقال [له]^(٨) [إن الحكم بن أبي العاص كان أحدهم من قديم مع [أحنف]^(٩) أم حبيبة لما رقت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وهو يتولى نقلها إليه ، فعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم بخبر النظر إليه ، فداخرج من عنده ، قيل : يا رسول الله ، لقد أحدثت التطر إلى الحكم ! فقال : ابن الخزومية ، ذاك رجل إذا بلغ صو^(١٠) أبيه ثلاثين أو أربعين ، ملكوا الأمر من بعدى ، فوافقه لقد تلقاها مروان من عين صافية . فقال الأحنف : رويداً يا أمير المؤمنين ؛ لا يسمع هذا منك أحد ؛ فإنك تصع من قدرك وقدر ولدك بعدك ؛ وإن يقص الله أمراً يكن . فقال :

(١) الوزغ : جمع ورغة ، سم أرم ، سميت بها لمائها وسرعة حركتها .

(٢) الأعشى : ولد . (٣) انخرزل ، أى تراجع .

(٤) البيتان من مقطوعة العاص بن مرداس - ٣ - أسمة أى تمام - بشرح المروقي ٣ - ١٤٥٣ .
وسب صاحب اللسان في (قلت) البيت الثاني إلى كثير عزة

(٥) الفلات : معال ، من الفلت ، وهو الخلاق والبرور ، القليلة .

(٦) الأعشى : في يد مروان .

(٧) من الأعشى .

(٨) الأعشى : ولد .

معاوية : اَكْثَمَهَا يَا أَبَا بَجْرٍ هَلْ إِذَا ؛ قَدْ لَعَنُوكَ ^(١) صدقت ونصحت .

• • •

وذكر شيخنا أبو عثمان الجاحظ في كتاب "مفاخرة هاشم وعبد شمس" ، أن مروان كان يُصَفِّ ، وأنه كان ينشد يوم مرج راحط والروس تُنْذِرُ عن كواهلها :
وما ضَرَّتْهُمْ غَيْرَ حَتْنِ الثَّنْفُوسِ من أي غلامي قريش غَلَبَ !
قال : وهذا حق شديد ، وضعف عظيم ! قال : وإنما ساد مروان وذُكِرَ بابنه
عبد الملك ، كما ساد بنوه ؛ ولم يكن في نفسه هناك .

• • •

فأما خلافة مروان ، فذكر أبو حنيفة محمد بن جرير الطبري في التاريخ ^(٢) أن
عبد الله بن الزبير لما أخرج بني أمية عن الحجاز إلى الشام في خلافة يزيد بن معاوية ،
خرجوا وفيهم مروان ، وابنه عبد الملك ، ولم تَطُلْ مدَّةُ يزيد ، فتوفي ، ومات ابنه بعده
بأيام يسيرة . وكان من رأى مروان أن يدخل إلى ابن الزبير عكة فبهايمه بالخلافة ،
فقدَّم عبيد الله بن زياد ، وقد أخرج أهل البصرة عنها بعد وفاة يزيد ؛ فاجتمع هو
وبنو أمية ؛ وأحبروه بما قد أجمع عليه مروان ، فناء إليه ، وقال : استجبت لك يا أبا عبد الملك ،
فما يريد ! أنت كبير قريش وسيد ما تصنع ما تصنع ، وتشخص إلى أبي خُبَيْبٍ فتبهايمه
بالخلافة ! فقال مروان : ما فات شيء ؛ فقام مروان ، واجتمع إليه بنو أمية ومواليهم
وعبيد الله بن زياد وكثير من أهل اليمن وكثير من كُتُب ، فقدم دمشق وعليها الصَّحَّاح
ابن قيس الفهري ، قد بايمه الناس على أن يُصَالَى بهم ، ويقبَل لهم أمرهم ، حتى يجتمع

(١) الأغاني : ٥ لصري .

(٢) تاريخ الطبري : ٥ : ٣٠ وما بعدها ؛ مع تصرف واحتمار .

الناس على إمام ، وكان هوى الضعاك مع ابن الزبير إلا أنه لم يبايع له بعد ، وكان زفر
ابن الحارث الكلبي يفتسرين يخطب لابن الزبير ، والنعمان بن بشير الأنصاري يخاص
يخطب لابن الزبير ، وكان حسان بن مالك بن جندل الكلبي بفلسطين يهوى
هوى بني أمية ، ثم من بينهم بني حرب ، لأنه كان عاملاً لمعاوية ، ثم يزيد بن معاوية
بعده ، وكان حسان بن مالك مطاعاً في قومه ، عظيماً عندهم ؛ فخرج عن فلسطين يريد
الأردن ، واستخلف على فلسطين رَوْح بن زنباع الجذامي ، فوثب عليه بعد شخص من
حسان بن مالك وباتل^(١) بن قيس الجذامي أيضاً ، فأخرجه من فلسطين ، وخطب
لابن الزبير ، وكان له فيه هوى ، فاستولت الشام كلها لابن الزبير ، ماعداً الأردن ؛
فإن حسان بن مالك الكلبي كان يهوى هوى بني أمية ، وبدعو إليهم ؛ فقام في
أهل الأردن يعظيهم ؛ وقال لهم : ما شهداكم على ابن الزبير وقتل المدينة بالحرة ؟
قالوا : نشهد أن ابن الزبير كان منافقاً ؛ وأن قتل أهل المدينة بالحرة في النار ، قال :
فما شهداكم على يزيد بن معاوية وقتلكم بالحرة ؟ قالوا : نشهد أن يزيد بن معاوية
كان مؤمناً ، وكان قتلنا بالحرة في الجنة ، قال : وأنا أشهد أنه إن كان دين يزيد
ابن معاوية وهو حق ، فإنه اليوم كعليّ حق هو وشيعته ، وإن كان ابن الزبير يومئذ
هو وشيعته على باطل ؛ فإنه اليوم وشيعته على باطل ؛ قالوا : صدقت ، نحن نبايعك على أن
تقاتل معك من خالفك من الناس وأطاع ابن الزبير ، على أن تجتنبنا ولاية هذين الفلامين
ابني يزيد بن معاوية ، وهما خالد وعبد الله ، فإنهما حديثا أسفاهما ونحن نكره أن
يأتينا الناس بشيخ ونايهم بصي !

قال : وقد كان الضعاك بن قيس يوالى ابن الزبير باطلاً ، ويهوى هواه ، ويعتمسه
إظهار ذلك بدمشق والبيعة له أن بني أمية وكلبنا كانوا بحضرته ، وكلب أخوال يزيد

(١) في الأصول : « باتل » ، والصواب ما أتت به عن تاريخ الطبري .

ابن معاوية وبنيه ، وبطلون الإمارة لم ، فكان الضعك يعمل في ذلك سرًا ، وبلغ حسان ابن مالك بن محمد ما أجمع عليه الضعك ، فكتب إليه كتابا يعظم فيه حق بني أمية ، وبذكر الطاعة والجماعة وحسن بلاء بني أمية عنده وصنيعهم إليه ، ويدعوه إلى بيعتهم وطاعتهم وبذكر ابن الزبير ويقع فيه وبشتمه ، وبذكر أنه منافق قد خلع خليفتين ، وأمره أن يقرأ كتابه على الناس ؛ ثم دعا رجلا من كُتب يقال له ناغضة ، فسرح بالكتاب معه إلى الضعك بن قيس ، وكتب حسان نسخة ذلك الكتاب ، ودفعه إلى ناغضة ، وقال له : إن قرأ الضعك كتابي على الناس ، وإلا فم أنت وقرأ هذا الكتاب عليهم ، وكتب حسان إلى بني أمية بأمرهم أن يحضروا ذلك ، فقدم ناغضة بالكتاب على الضعك ، فدفعه إليه ، ودفع كتاب بني أمية إليهم سرًا .

فلما كان يوم الجمعة ، وصعد الضعك على المنبر ، وقدم إليه ناغضة ، فقال : أصلح الله الأمير ! ادع بكتاب حسان فقرأه على الناس . فقال له الضعك : اجلس ، اجلس ثم قام ثانية فكلّم مثل ذلك ، فقال له قيس : اجلس ، فجلس ثم قام ثالثة وكان كالثانية والأولى ، فلما رآه ناغضة لا يقرأ للكتاب أخرج الكتاب الذي معه ، فقرأه على الناس . فقام الوليد بن عتبة بن أبي سفيان ، فصدق حسان ، وكذب ابن الزبير وشتمه ، وقام يزيد بن أبي الحس العسائي ، فصدق مقالة حسان وكتابه ، وشتم ابن الزبير ، وقام سفيان بن أبرد الكلبي ، فصدق مقالة حسان وشتم ابن الزبير ، وقام عمر بن يزيد الحكمي ، فشتم حسان ، وأثنى على ابن الزبير ، فاضطرب الناس ، ونزل الضعك بن قيس ، فأمر بالوليد بن عتبة ، وسفيان ابن الأبرد ، ويزيد بن أبي التمس الذين كانوا صدقوا حسان ، وشتموا ابن الزبير . فحسوا ، وجال الناس بعضهم في بعض ، ووثبت كل على عمر بن يزيد الحكمي فصره ؛ وحرّقوا ثيابه . وقد كان قام يزيد بن معاوية فصعد منبر قاتين^(١) من المنبر ، وهو يومئذ غلام . والضعك بن قيس فوق المنبر ، فكلّم بكلام أوجر فيه ، لم يُسمع بمثله ، ثم نزل .

فلما دخل الضعّاك بن قيس داره ، جاءت كلب إلى السجن فأخرجوا سفيان بن أبرو الكلبى ، وجاءت غسان ؛ فأخرجوا يزيد بن أبي القيس ؛ وقال الوليد بن عتبة : لو كنت من كلب أو غسان ؛ لأخرجت ؛ فجاء ابن يزيد بن معاوية : خالا وعبد الله ؛ ومعهما أخوالهما من كلب ، فأخرجوه من السجن .

ثم إن الضعّاك بن قيس خرج إلى مسعدة مشق ، فجلس فيه ؛ وذكر يزيد بن معاوية فوقع فيه ، فقام إليه سنان من كلب ومعه عصا ؛ فضربه بها ؛ والناس جلوس حلقاً . متقلّدي السهوف . فقام بعضهم إلى بعض في المسعد ؛ فاقبلوا ، فكانت قيس عيلان قاطبة تدمو إلى ابن الزبير ومعهما الضعّاك ، وكلّب تدعو إلى بنى أمية ، ثم إلى خالد بن يزيد ، فتعصبون له ، فدخل الضعّاك دار الإمارة ، وأصبح الناس ، فلم يخرج الضعّاك إلى صلاة العصر .

فلما ارتفع النهار بحث إلى بنى أمية ، فدعوا عليه ، فاعتذر إليهم ، وذكر حسن بلائهم عنده ، وأنه ليس يهوى شيئاً يكرهونه ، ثم قال : تكتبون إلى حسان ونكتب ، ويسر حسان من الأردن حتى ينزل الجابية^(١) ونسرد نحن وأنتم حتى نوافيه بها ؛ فيجتمع رأي الناس على رجل منكم ؛ فرضيت بذلك بنو أمية ، وكتبوا إلى حسان وهو بالأردن وكتب إليه للضعّاك بأمره بالمواظاة في الجابية ، وأخذ الناس في الجهاز للرحيل .

وخرج الضعّاك بن قيس من دمشق ، وخرج الناس وخرجت بنو أمية ، وتوجهت الرايات يريدون الجابية ، فجاء ثور بن معن يريد بن الأخنس الثلى إلى الضعّاك ؛ فقال : دعوتنا إلى طاعة ابن الزبير فبايئناك هل ذلك ؛ ثم أنت الآن تسير إلى هذا الأعراى من كلب لتستخلف ابن أخيه خالد بن يزيد بن معاوية ؛ فقال الضعّاك : فما الرأي ؟ قال : الرأي أن

(١) الجابية ، بكسر الباء وباء خفيفة : من أعمال دمشق .

فظهر ما كفاً نُسراً، وندعو إلى طاعة ابن الزبير، وقاتل عليها . قال الضعاك بمن معه من الناس ، وانخزل من بني أمية ومن معهم من قبائل اليمن فنزل مرج راحط .

قال أبو جعفر : واختلف في أي وقت كانت الواقعة بمرج راحط فقال الواقدي : كانت في سنة خمس وستين . وقال غيره : في سنة أربع وستين .

قال أبو جعفر : وسارت بنو أمية ووقفينها حتى وافوا أحسان بالجابية ، فصل بهم أربعين يوماً ، والناس ينشاورون ، وكتب الضعاك بن قيس من مرج راحط إلى الثعمان بن بشير

الأنصاري ، وهو على حِمْيَر يستنجد به ؛ وإلى زُفَر بن الحارث وهو في قُدْسرين ، وإلى نائل ^(١)

ابن قيس وهو على فلسطين يستعدهم ؛ وكلهم على طاعة ابن الزبير ، فأمدوه ، فاجتمعت الأجناد إلى مرج راحط ، وأما الذين بالجابية فكانت أهواؤهم مختلفة ، فأما مالك

ابن هيرة السكوني ، فكان يهوى هوى يزيد بن معاوية ، ويجب أن تكون الخلافة في ولده ، وأما حصين بن نعيم السكوني ^(٢) فكان يهوى هوى بني أمية ؛ ويجب أن

تكون الخلافة لمروان بن الحكم ؛ فقال مالك بن هيرة للحصين بن نعيم : هلم فلنباع لهذا الغلام الذي نحن ولدنا أباه ؛ وهو ابن أخنا ؛ فقد عرفت منزلتنا التي كانت من أبيه ؛ إنك

إن تباينه يملك خدا على رقاب العرب - يعني خالد بن يزيد - فقال الحصين : لا لعمر الله ؛ لا يأتينا العرب بشيخ ؛ ونأتيها بصبي ؛ فقال مالك : أظن هَوَاك في مروان واقف إن

استغفلت مروان ليعبدك هل سَوَّطَكَ وشِراك نَمَلِكْ ، وظلَّ شجرة تستظل بها . إن مروان أبو عشرة ، وأخو عشرة قوم عشرة ، فإن يامتموه كنتم عبيداً لهم ، ولكن عليكم

بإبن أخكم خالد بن يزيد قال الحصين : إني رأيت في المنام قنديلاً معلقاً من السماء ، وإله جاء كل من يمدُّ يده إلى الخلافة ليندأه ، فلم يصل إليه . وجاء مروان فتناوله ، والله لتستغلفته .

(١) في الأصول : « نائل » وصوابه من تاريخ الطبري .

(٢) في الأصول : « السلول » ، وما أتته من طريق الطبري .

فلما اجتمع رأيهم على بيعته ، واستأخوا حسان بن بحدل إليها ، قام رَوْح بن زُبَاع الجذامي ، فحَمِدَ اللهَ وأثنى عليه ، فقال :

أيها الناس ؛ إنكم تدكرون لهذا الأمر عبدَ الله بن عمر بن الخطاب ، وتدكرون صحبته لرسول الله صلى الله عليه ، وقَدَّمه في الإسلام ، وهو كما تدكرون ؛ لكتفه رجل ضعيف ، وليس صاحبُ أمة محمد بالصنيف ؛ وأما عبد الله بن الزبير وما يذكركم الناس من أمره ، وأن أباه حواري رسول الله صلى الله عليه ، وأمه أساء بنت أبي بكر ذات النطاقين ؛ فهو امرئ كما تدكرون ، ولكنه منافق قد خلع خليفتين ؛ يزيد وأباه معاوية ، وسَفَكَ الدماء ، وشق عصا المسلمين ؛ وأبى صاحبُ أمة محمد صلى الله عليه بالمنافق ؛ وأما مروان بن الحكم فوالله ما كان في الإسلام صدِّعَ قط إلا كان مروان ممن يشعب ذلك الصدِّع ، وهو الذي قاتل عن عثمان بن عفان يوم الحار ، والذي قاتل علي بن أبي طالب يوم الجمل ؛ وإنا نرى للناس أن يبايعوا الكبير ، ويستشَبُّوا^(١) الصغير - يعني بالكبير مروان ، وبالصغير خالد بن يزيد .

فاجتمع رأيُ الناس على البيعة لمروان ، ثم خلاه بن يزيد من بعده ؛ ثم لمرو بن سعيد ابن الناصر بعدها ؛ على أن تكونَ في أيام خلافة مروان إمرة دمشق لمرو بن سعيد ، وإمارة حمص لخالد بن يزيد . فلما استقرَّ الأمر على ذلك ، دعا حسان بن بحدل خالد بن يزيد ؛ فقال : يا ابن أختي ؛ إنَّ الناس قد أبوك لخدائتي سينك ، وإني والله ما أريدُ هذا الأمر إلا لك ولأهل بيتك ؛ وما أبايع مروان إلا نظراً لكم ، فقال خالد : بل هجرت عتاً ، فقال : لا والله لم أهجرتُ عنك ؛ ولكن الرأي لك ما رأيت .

ثم إن حسان دعا مروان بن الحكم ، فقال له : يا مروان ؛ إنَّ الناس كلَّهم لا يرضون

(١) في الأصول : « وبعثوا » وما أنبت من تاريخ الطبري .

بك ، فما ترى ؟ فقال مروان : إن يرد الله أن يعطينيها لم يمنحها أحد من خلقه ؛ وإن يرد أن يمنحها لا يعطينيها أحد من خلقه ، قال حسان : صدقت .

ثم صعد حسان المنبر ، فقال : أيها الناس ؛ إني مستعيف في غير أحدكم إن شاء الله ؛ فاجتمع الناس بكثرة ألفد ينظرون ، فصعد حسان المنبر ، وباع مروان ، وباع الناس ؛ وسار من الجابية حتى نزل بمرج راهط ؛ حيث الضحك بن قيس نازل ، فعزل مروان على مهمته عمرو بن سميد بن العاص ، وعلى ميسرة حميد الله بن زياد ؛ وجعل الضحك على مهمته رباد بن عمرو بن مساوية الشكي ، وعلى ميسرة نور بن منبثي ؛ وكان يزيد ابن أبي النمس الغساني بدمشق ، لم يشهد الجابية ، وكان مريضاً ؛ فلما حصل الضحك بمرج راهط^(١) ، ثار بأهل دمشق عبيد وأهل ، فطلب عليها ، وأخرج عامل الضحك منها ؛ وغلب على الخزائن ويث اللال ، وباع مروان ، وأخذ من دمشق بمرج جال والمال والسلاح ؛ فكان ذلك أول فتح فتح لمروان .

ثم وقعت الحرب بين مروان والضحك ؛ فآقتلوا بمرج راهط عشرين ليلة ؛ فهزم أصحاب الضحك وقتلوا ؛ وقتل أشرف الناس من أهل الشام ؛ وقبعت قيس مقتلة لم تقتل مثلها في موطن قط ، وقتل نور بن منبثي الذي ردة الضحك عن رأيه .

قال أبو جعفر : وروى أن بشير بن مروان كان صاحب الراية ذلك اليوم ، وأنه كان ينشد :

إن على الرئيس حقاً حقاً أن يخضب الصمدة أو يصدقها
وصريح ذلك اليوم عبد العزيز بن مروان^(٢) .

قال : ومروان برجل من محارب وهو في نفر يسير من أصحاب مروان ، فقال له :

(١) مرج راهط : موضع في القنطرة من دمشق ؛ بها الواقعة المشهورة بين قيس وطلب .
(٢) (٦ - ٧) لم يذكر في الطبري .

لو انضمت إلى أصحابك رحمتك الله ! فإن أراك في قفّة ، فقال : إن معنا يا أمير المؤمنين من الملائكة مددا أضاعف من تأمرنا بالأصنام إليهم ؛ قال : فضحك مروان وصرت بذلك ، وقال للناس ممن كان حوله : ألا تستمعون !

قال أبو جعفر : وكان قاتل الضعك رجلاً من كلب ، يقال له زحنة بن عبد الله ، فلما قتله وأحضر الرأس إلى مروان ، ظهرت عليه كآبة ، وقال : الآن حين كبرت سني ، ودق عظمي ، وصرت في مثل غيم^(١) الحمار ؛ أقبلت أصرب الكتاب بعضها ببعض !

قل أبو جعفر : وروى أن مروان أشد ما بويح ودعا إلى نفسه :

لما رأيت الأمر أمراً تهناً
ميرت غمان لهم وكلنا
والسككين رجلاً غلباً^(٢) وعليها أباه إلا ضرباً
والقبن تمش في الحديد وكبياً^(٣) ومن قروح مشخراً صعباً
لا يملكون الملك إلا غصباً^(٤) وإن دنت قيس قتل لا قرناً

قال أبو جعفر : وخرج الناس مهزمين بعد قتل الضعك ؛ فأنهى أهل يخص إلى يخص ؛ وعليها التمان بن بشير ، فلما عرف الخبر خرج هارباً ومعه ثقله وولده ، وتغير ليلته كلها ، وأصبح وهو بباب مدينة حمص ، فرآه أهل يخص فقتلوه ، وخرج زفر بن الحارث الكلبي من قنسرين هارباً ، فلحق بقرقيبياء ؛ وعليها عياض بن أسلم الجرشي^(٥) فلم يمكنه من دخولها ، فحلف له زفر بالطلاق والعتاق أنه إذا دخل تخامها خرج منها ، وقال له : إن لي حاجة إلى دخول الحمام ، فلما دخلها لم يدخل تخامها وأقام بها ، وأخرج عياضاً

(١) أي لم يبق من حمري غير وقت قصير ، والظم في الأصل : ما بين الصردين ، وقال : إنه ليس شيء من الدواب أقصر ظمناً من الحمار .

(٢) الطبري : لا يأخذون الملك .

(٣) في الطبري : وهو ابن أسلم بن كعب بن ملك .

منها، ومحصن فيها، وثابت إليه قيس عبلان؛ وخرج نائل بن قيس الجذامي من فلسطين هاربا؛ فالصق ابن الزبير بمكة، وأطبق أهل الشام على مروان واستوثقوا له، واستعمل عليهم حمالة، ففي ذلك يقول زفر بن الحارث:

أَرِنِي سِلَاحِي لَا أَبَاكَ إِنِّي أَرَى الْحَرْبَ لَا تَزْدَادُ إِلَّا تَمَادِيَا^(١)
أَتَانِي عَنْ مَرَوَاتٍ بِالْمَيْمِ أَمَ مِرْبُوقٍ دُمِي، أَوْ قَاطِعٍ مِنْ لَسَانِيَا
وَفِي الْمَيْمِ مَنَاجَاةٌ، وَفِي الْأَرْضِ مَهْرَبٌ إِذَا نَحْنُ رَفَعْنَا لَهْنَ اللَّبَانِيَا^(٢)
قَدْ بَنَتْ الرَّمَى عَلَى دِمَنِ الثَّرَى وَتَنَقَّى حَرَارَاتُ النَّفُوسِ كَمَا هِيَا
أَنْذَهَبُ كَلْبٌ لَمْ تَنْلُهَا رَمَاحُنَا وَتَرَكْتُ قَتْلَ رَاهِطٍ هِيَ مَا هِيَا
لَمَرِي لَقَدْ أَبَقْتُ وَقِيعةً رَاهِطٍ لِحَسَانٍ صَسْدَا بَيْنَا مَتْنَانِيَا
أَبْسَدَ ابْنُ عَمْرٍو وَابْنُ مَسْنَانِيَا وَكُفِّلَ قَمَامٍ أَمَّتِي الْأَمَانِيَا !
وَلَمْ تَرُ مَيِّتِي بِسُوءٍ قَبْلَ هَدِيءٍ فِرَارِي وَتَرْكِي صَاحِبِي وَرَانِيَا
أَيَنْهَبُ يَوْمٌ وَاحِدٌ إِنْ آسَأَتْ نَصَلُحُ أُمَامِي وَحَسَنُ بِلَانِيَا
فَلَا صَلَاحٌ حَتَّى تَنْجِطَ الْخَلِيلُ بَاقِنَا وَتَتَارَ مِنْ نِسْوَانٍ كَلْبِي نِسَانِيَا^(٣)

وقال زفر بن الحارث أيضا، وهو من شعر الحلاسة:

أَفِي أَفٍّ أَمَّا بِمَحْدَلٍ وَابْنُ بِمَحْدَلٍ نَبِيحَا وَأَمَّا ابْنُ الزَّيْبِرِ فَيَقْتُلُ^(٤) !
كَذَّبْتُمْ وَيَتَرِ اللَّهُ لَا تَقْتُونَهُ وَلَمَّا بَكُنْ يَوْمٌ أَغْرُ عَجَلُ

(١) الأبيات في مجسم البلدان ٤ : ٢١٦، والأمان ١٧ : ١١١ (سأسي)، مع اختلاف في الرواية بينها وبين رواية الطبري.

(٢) في الطبري: «للتانينا» «هده»:

فَلَا تَحْسِبُونِي إِنْ تَعَيَّتْ غَافِلًا وَلَا تَفْرَحُوا إِنْ جَشْتُكُمْ بَلَقَانِيَا

(٣) النقط: صوت المد من الإيماء «هده» في الطبري:

أَلَا لَيْتَ شَمْرِي هَلْ تُصَيِّبُنَّ غَارِي تَنُوحَا وَحَيِّي طَيِّبِي مِنْ شِفَانِيَا

(٤) «هوان الحلاسة» - بصرح للرزول ٢ : ١٤٩

وَلَمَّا بَكَنْ لِلْمَشْرِقِيَّةِ فَوْقَكُمْ شَعَاعٌ كَقَرْنِ الشَّسِ حِينَ تَرَجُلُ^(١)

وأما وفاة مروان ، والسبب فيها أنه كان قد استقر الأمر بعده خالد بن يزيد بن معاوية على ما قدما ذكره ، فلما استوثق له الأمر ، أحب أن يبايع لعبد الملك وعبد العزيز ابنيه ، فاستشار في ذلك ، فأشير عليه أن يتزوج أم خالد بن يزيد ، وهي ابنة أبي هاشم بن عتبة بن ربيعة ليصغر شأنه فلا يرشح للخلافة ، فتزوجها . ثم قال خالد يوما في كلام دار بينهما والمجلس غاص مأهله : اسكت يا ابن الرطبة^(٢) ، فقال خالد : أنت لعمرى مؤتمن وخير . ثم قام باكيا من مجلسه - وكان غلاما حينئذ - فدخل على أمه ، فأخبرها ، فقالت له : لا يعرفن ذلك فيك ، واسكت فأما أكفبك أمر . فلما دخل عليها مروان ، قال لها : ما قال لك خالد ؟ قالت : وما جاء يقول ؟ قال : ألم يشكك فيك ؟ قالت : إن خالدا أشد إعظاما لك من أن يشكك ، فصدقها . ثم مكثت أياما ، فقام عندها وقد أعدت جواربها ، وقمن إليه ، فجعلن الوالدوا العراذع عليه ، وجلسن عليه حتى حقه ، وذلك بدمشق في شهر رمضان . وهو ابن ثلاث وستين سنة ، في قول الواقدي .

وأما هشام بن محمد الكلبي ، فقال : ابن إحدى وثمانين سنة ، وقال : كان ابن إحدى وثمانين ، عاش في الخلافة تسعة أشهر . وقبل عشرة أشهر ، وكان في أيام كتابته لعثمان بن عفان أكثر حُكْمًا ، وأشد تعلقا وتسلطا منه في أيام خلافته ، وكان ذلك من أعظم الأسباب الداعية إلى خلع عثمان وقتله .

وقد قال قوم : إن الصعاليك بن قيس لما نزل مَرَجَ راحط لم يدع إلى ابن الزبير ، وإنما دعا إلى نفسه . وبوبع بالخلافة ، وكان قرشيا . والأكثر الأشهر أنه كان يدعو إلى ابن الزبير .

(١) قرن الشمس : أول ما ظهر منها . الترجل : هو المتوج ، والتوج : قبل اكشاف التاج .

(٢) الطبري : « يا ابن الرطبة الاست » .

(٧٣)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام لما عزموا على بيعة عثمان :

لَقَدْ عَلِمْتُ أَنِّي أَحَقُّ بِهَا مِنْ غَيْرِي؛ وَوَاللَّهِ لَا سَلِمَ مَسَلَّتْ أُمُورُ الْمُسْلِمِينَ؛ وَلَمْ
يَكُنْ فِيهَا جَوْرٌ إِلَّا قَلِيٌّ خَاصَّةٌ، أَلْيَاسًا لِأَخْرِ دَلِيلَ وَفَصْلِهِ، وَزُهْدًا عِيمًا تَنَافَسْتُمُوهُ
مِنْ زُخْرُفِهِ وَزِينَتِهِ.

•••

الشرح :

(١)

نافست في الشيء . متنافسة وغالباً ؛ إذ رعبت فيه على وجه المبالاة في الكرم ، وتنافسوا
فيه ، أي رغوا .

والزخرف : الذهب ، ثم شبه به كل موه مرور ، قال تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ
الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا ﴾ ^(١) والمزخرف : المرين .

والزبرج : الزينة من وثى أو جواهر ، وبحر ذلك . ويقال : الزبرج الذهب أيضاً .
يقول لأهل الشورى : إنكم تعلمون أنني أحق بالخلافة من غيري ، وتعدلون عني . ثم
أقسم ليؤمنين وليتركن الخالفة لهم ، إذا كان في تسليمه ونزوله عن حقه سلامة أمور المسلمين ،
ولم يكن الجور والخيف إلا عليه خاصة ، وهذا كلام مثله عليه السلام ، لأنه إذا علم أو غلب
على ظنه أنه إن نازع وحارب دخل على الإسلام وهن وتلم لم يحترق له المنازعة ، وإن كان

يطلب بالمنازعة ما هو حق ؛ وإن هُيِم أو غلب على خلقه بالإمساك من طلب حقه أنما يدخل التَّم والثَّمن عليه خاصة ، وبسَلَم الإسلام من الفتنة ، وَجَب عليه أن يُفَضِّلَ ويصبر على ما أتوا إليه من أخذ حقه ، وكفَّ يده ؛ حراسة للإسلام من الفتنة .
فإن قلت : فهَلَّا سَلِمَ إلى معاوية وإلى أصحاب الجمل ، وأغصى على اختصاص حقه حفظاً للإسلام من الفتنة ؟

قلت : إن الجورَ الداخل عليه من أصحاب الجمل ومن معاوية وأهل الشام ، لم يكن مقصوداً عليه خاصة ؛ بل كان يَمُومُ الإسلام والمسلمين جميعاً ؛ لأنهم لم يكونوا عنده ممن يصلح لرياسة الأمة وتحمل أعباء الخلافة ، فلم يكن الشرط الذي اشترطه متحققاً ، وهو قوله : « ولم يكن فيه جورٌ إلَّا على خاصة » .

وهذا الكلام يدل على أنه عليه السلام لم يكن يذهب إلى أن خلافة عثمان كانت تتضمن جوراً على المسلمين والإسلام ، وإلَّا كانت تتضمن جوراً عليه خاصة ، وأنها وقعت على جهة مخالفة الأولى ؛ لا على جهة الفساد الكلي والبطلان الأصل ؛ وهذا محض مذهب أصحابنا .



[كلام لعلّ قبل المبايعة لعثمان]

ونحن مذكر في هذا الموضع ما استفاض في الروايات من مناشدته أصحاب الثوري ، وتعديله فضائله وخصائصه التي بان بها منهم ومن غيرهم . قد روى الناس ذلك فأكثرُوا ؛ والذي صحَّ عندنا أنه لم يكن الأمرُ كما روى من تلك التعديلات الطويلة ؛ ولكنه قال لم بعد أن بايع عبد الرحمن والحاضرون عثمان ، وتذكراً هو عليه السلام عن البيعة : إن لنا حقاً إن نعطه نأخذ ، وإن نمنعه ركب أبحاز الإبل وإن طال الشرى ؛ في كلام قد ذكره أهل السيرة ؛ وقد أوردنا بعضه فيما تقدم ، ثم قال لم : أشدكم الله ! أفيكم أحدٌ آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينه وبين نفسه ؛ حيث آخى بين بعض المسلمين وبعض غيري ؟

قالوا: لا؛ قال: أفبكم أحد؟ قال: رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من كنت مولاه فهذا مولاه»، غيري؟ قالوا: لا، قال: أفبكم أحد؟ قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي»، غيري؟ قالوا: لا، قال: أفبكم من أوثمن على سورة براءة، وقال له رسول الله صلى الله عليه وآله إنه لا يؤدي عني إلا أنا أو رجل مني غيري؟ قالوا: لا، قال: ألا تعلمون أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قرءوا عنه في مأقط^(١) الحرب في غير موطن، وما فررت قط؟ قالوا: بلى، قال: ألا تعلمون أني أول الناس إسلاماً؟ قالوا: بلى، قال: فأينما أقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سباً؟ قالوا: أنت. قطع عليه عبد الرحمن بن عوف كلامه، وقال: يا علي: قد آوى الناس إلا على عثمان، فلا تجملن على نفسك سبيلاً، ثم قال: يا أبا طلحة، ما الذي أمرك به عمر؟ قال: أن أقتل من شق عصا الجماعة، فقال عبد الرحمن لعلي: يا بيع إذن؛ وإلا كنت متبهاً غير سبيل المؤمنين، وأخذت يديك ما أمرت به. فقال: «لقد علمت أني أحق بها من غيري، والله لأستلين...» الفصل إلى آخره، ثم مد يده فبايع.

(٧٤)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام لما بلمه اتهام بني أمية له بالشاركة في دم عثمان :
 أَوْ لَمْ يَنْتَ بِبَنِي أُمَيَّةَ عَلِمَهَا بِي عَنْ قَرْنِي أَوْ مَا وَزَعَ الْجَهْلُ مَا بَقِيَ مِنْ نَهْمِي
 وَلَمَّا وَعَظَهُمْ أَفَّهُ بِهِ أَبْلَغُ مِنْ رِسَالِي .
 أَنَا حَاجِبُ الْمَارِقِينَ ، وَحَصِيمُ التَّكِيثِينَ لِلرَّنَائِينَ ، وَكَلَى كِتَابِ اللَّهِ تَرْضَى
 الْأَمْثَالَ ، وَمَا فِي الصَّدُورِ يُجَازَى الْعِبَادُ .



التفسير :

القرنف : الميب ؛ فرفته : كذا أي عته . ووزع : كغف ورددع ؛ ومه قوله : « لا بد
 للناس من وزعة » ، جمع وازع ، أي من رؤساء وأمراء . والتهمة ، بفتح الهاء ؛ هي اللمة
 الفصيحة ؛ وأصل التاء فيه واو .

والحجيج ، كالحصيم : ذو الحاجاج والخصومة . يقول عليه السلام : أما كان في علم
 بني أمية بحالي ما بينهاها من قرني بدم عثمان ! وحاله التي أشار إليها ؛ ودكر أن علمهم
 بها يقتضي ألا يعرفوه بذلك ؛ هي منزلة في الدين التي لا عزلة أهلها ، وما نطق به
 الكتاب الصادق من طهارته وطهارة نبيه وزوجته ؛ في قوله : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ
 عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَ كُفْرًا تَطْهِيراً ﴾ . وقول النبي صلى الله عليه وآله :
 « أَنْتَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى » ، وذلك يقتضي عصمته عن الدم الحرام ؛

كما أن هارون معصوم عن مثل ذلك ، وترادف الأقوال والأفعال من رسول الله صلى الله عليه وآله في أمره التي يضطر معها الحاصرون لها وللشاهدون إتيانها إلى أن مثله لا يجوز أن يسي في إراقة دم أمير مسلم ، لم يحدث حدثاً يستوجب به إحلال دمه .

وهذا الكلام صحيح مقول ؛ وذلك أنا نرى من يظهر ناموس الدين ، وهو اطلب على نوافل العبادات ، وشاهد من ورعه وتقواه ما يضرر معه في قوسنا استشارة الدين ، واحتقاده إياه ، فيصرفنا ذلك من قرأه بالعبوب الفاحشة ، ونستبعد مع ذلك طعن من يظن فيه ، وننكره ونأباه ونكذبه ؛ فكيف ساغ لأعداء أمير المؤمنين عليه السلام ؛ مع علمهم بمنزلة العالية في الدين ، التي لم يصل إليها أحد من المسلمين ، أن يطلقوا السخائم فيه ، وينسبوه إلى قتل عثمان أول الملائة عليه ؛ لاسيما وقد اتصل بهم ، وثبتت عندهم ؛ أنه كان من أنصاره لأمير المؤمنين عليه ، وأنه كان أحسن الجماعة فيه قولاً وفعلًا .

ثم قال : « ألم تزيع الجبال وتردهم ساجدين عن تهتي » وهذا الكلام تأكيد للقول الأول .

ثم قال : إن الذي وعظهم الله تعالى به في القرآن من تحريم العيبة والقذف وتشبيه ذلك بأكل لحم الميت أبلغ من وعظي لهم ، لأنه لاعظة أبلغ من عظة القرآن .

ثم قال : « أنا حبيب المارقين ، وخميم المرتابين » ، يعني يوم القيامة ؛ روى عنه عليه السلام أنه قال : « أنا أول من يجثو للحكومة بين يدي الله تعالى » ، وقد روى عن النبي صلى الله عليه وآله مثل ذلك مرفوعاً في قوله تعالى : (هَذَانِ خَصِمَانِ اُحْتَصِمُوا فِي رَبِّهِمْ)^(١) وأنه صلى الله عليه وآله سئل عنها ، فقال : « علي وحزرة وعبيدة ، وعتبة وشيبة والوليد » ، وكانت حادثتهم أول حادثة وقعت فيها مبارزة أهل الإيمان لأهل الشرك ، وكان للقتول الأول بالمبارزة الوليد بن عتبة ، قله علي عليه السلام ، ضربه على رأسه فبدرت عيناه على وجهه ،

فقال النبي صلى الله عليه وآله وفي أصحابه ما قال ، وكان على عليه السلام بكثرة من قوله :
« أنا حبيب المارقين » ، ويشير إلى هذا المعنى .

ثم أشار إلى ذلك بقوله : « على كتاب الله نمرض الأمثال » ، يريد قوله تعالى :
﴿ هَٰذَا نِ خُصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَسْمٍ ﴾ .

ثم قال : « وبما في الصدور تجارى العباد » إن كنت قتلت عثمان أو مالت عليه ؛
فلئن الله تعالى سيجازي بذلك ، وإلا فسوف يجازى بالقوبة والعذاب من أتهمى به ،
ونسبه إلى .

وهذا الكلام يدل على ما يقوله أصحابنا من تبرؤ أمير المؤمنين عليه السلام من دم
عثمان ، وفيه رد وإبطال لما يزعمه الإمامية ، من كونه رضى به وأباحه ؛ وليس يقول أصحابنا
إنه عليه السلام لم يكن ساحطاً أفعال عثمان ، ولكنهم يقولون : إنه وإن سخطها وكرهاها
وأنكرها لم يكن مبهعاً قدمه ، ولا يملكها على فعله ، ولا يلزم من إنكار أعمال الإنسان
إحلال دمه ، فقد لا يبلغ الفعل في القبح إلى أن يستعمل به الدم ؛ كافي كثير من الناهى .

(٧٥)

الأصل

ومن خطبة له عليه السلام :

رَحِمَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ حُكْمًا مَوْعَى ، وَدُعَى إِلَى رَشَادٍ قَدَمًا ، وَأَخَذَ بِمُحْجَزَةِ هَادٍ
فَنَجَا . رَاقِبَ رَبِّهِ ، وَخَافَ ذَنْبَهُ ، قَدَّمَ خَالِصًا ، وَفَعَلَ صَالِحًا . اكْتَسَبَ مَذْخُورًا ،
وَأَجْتَنَبَ مَحْذُورًا . رَمَى غَرَضًا ، وَأَحْرَزَ عَوَاصًا . كَايَرَ هَوَاهُ ، وَكَذَّبَ مُنَاهُ .
جَمَلَ الصَّبْرَ مَطِيَّةَ نَجَاتِهِ ، وَالتَّقْوَى عُدَّةَ وَقَاتِهِ . رَكِبَ الطَّرِيقَةَ الْفَرَاءَ . لَزِمَ
الْمَسْجِدَ الْبَيْضَاءَ . اعْتَمَّ الْمَهْلَ ، وَبَادَرَ الْأَحْلَ ، وَتَرَوَّدَ مِنَ الْعَمَلِ .



الشرح

الحكم هاهنا: الحكمة ، قال سبحانه : ﴿وَاتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيحًا﴾^(١) ، ومعنى : حفظ ،
وعيت الحديث أعياه وعياه ، وأذن راعية ، أى حافظة . ودما : قرُب . والخبرة : معقد
الإرار ؛ وأخذ فلان : محجزة فلان إذا اعتصم به ولحق إليه
ثم حذف عليه السلام الواو في اللفظ الأخر لم يقل : « وراقب ربه » ، ولا « وقدم
خالصا » ، وكذلك إلى آخر اللفظات ؛ وهذا موع من الفصاحة كثير في استعمالهم .
واكتسب ، بمعنى كسب ، يقال : كسبت الشيء واكتسبته بمعنى .
والغرض : ما يرمى بالسهم ، يقول ارحم الله امرا رمى غرضاً ، أى قصد الحق كمن
يرمى غرضاً يقصده ، لا من يرمى في عماية لا يقصد شيئاً بعينه .

والموض المحرزها هنا : هو الثواب .

وقوله : « كابر هواء » أى غلبه . وروى « كآر » بالثاء المنقولة بالثلاث ؛ أى غالب

هواء بكثرة عقله ، يقال : كآثر نام فكثرت نام ، أى غلبت نام بالكثرة .

وقوله : « وكذب مناه » أى أمنيته . والطريقة الفراء : البيضاء . والكحل :

النظر والتؤدة .

(٧٦)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام :

إِنَّ بَنِي أُمَيَّةَ لَيَفُوقُونِي تَرَاثَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ تَفْوِيحًا ، وَأَقَرَّ لَيْثًا
بَقِيَتْ لَهُمْ لَا تَنْفُسُهُمْ تَنْفُسَ الْقَحَامِ الْوِذَامِ التَّرْبَةِ .

■ ■ ■

قال الرضى رحمه الله : وَيُرْوَى « التَّرَابِ الْوِذْمَةُ » ، وهو على القلب .

وقوله عليه السلام : « لَيَفُوقُونِي » أى يُعْطُونِي من المال قليلا كَفُوقِ الناقة ،

وهو الحلية الواحدة من لبنها .

وَالْوِذَامُ التَّرْبَةُ : جَمْعُ وَذْمَةٍ وَهِيَ الْحُرَّةُ مِنَ الْكُرْشِ أَوِ الْكَيْدِ تَقَعُ فِي التَّرَابِ

فَتَنْقُضُ .

● ● ●

الْبَيْزُج :

اعلم أن أصل هذا الخبر قد رواه أبو الفرج على بن الحسين الأصفهاني في كتاب

« الأغاني » ،^(١) بإسناد رفعه إلى الحارث بن حبيش ، قال : بعثني سعيد بن العاص — وهو

يومئذ أمير الكوفة من قبل عثمان — بهدايا إلى المدينة ، وبعث معي هدية إلى علي عليه السلام

وكتب إليه : إني لم أبعث إلى أحدٍ أكثر مما بعثت به إليك ، إلا إلى أمير المؤمنين^(٢) .

فلما أتيت عليها عليه السلام وقرأ كتابه^(٣) ، قال : « لشد ما يحظر علي بنو أمية تراث محمد

صلى الله عليه وسلم ! أما والله لئن وليتها لأعضتها فنفس القصاب التراب الوذمة » .

(١) الأغاني ١٧ : ١٤٤ (طعة دار الكتب) .

(٢) الأغاني : « إلا عيضا في خرائج أمير المؤمنين » .

(٣) الأغاني : « فأخبرته » .

قال أبو الفرج : وهذا خطأ ؛ إنما هو « الويذام التريبة » .

قال : وقد حدثني ^(١) بذلك أحمد بن عبد العزيز الجوهرى عن أبي زيد عمرو بن شبعة ، بإسناد ذكره في الكتاب ، أن سعيد بن العاص حيث كان أمير الكوفة ، بعث مع ابن أبي عائشة مولا إلى علي بن أبي طالب عليه السلام بصفة ، فقال علي عليه السلام : والله لا يزال غلام من غلمان بني أمية يبعث إلينا مما آفاه الله على رسوله بمثل قوت الأرملة ؛ والله لن نقيم لأنفُسها كنفس القصاب الويذام التريبة .



(١) الخبر في الأغاني : « من أبي زيد من عبد الله بن محمد بن حكيم النخعي عن السدي عن أبيه » .

(٧٧)

الأصل

ومن كملت كان عليه السلام يدعو بها :

اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا أَنْتَ أَهْلٌ بِهِ مِنِّي ؛ فَإِنْ عُدْتُ فَعُدْ قَلْبِي بِالْمَغْفِرَةِ . اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي
مَا وَابَتْ مِنْ نَفْسِي ، وَلَمْ تَحْدِلْهُ وَفَاءَ حَنْدِي .
اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا تَقَرَّبْتُ بِهِ إِلَيْكَ بِلِسَانِي ، ثُمَّ خَالَتهُ قَلْبِي . اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي
رَمَزَاتِ الْأَلْحَظِ ، وَسَقَطَاتِ الْأَلْفَاظِ وَسَهَوَاتِ الْجَنَانِ ، وَهَفَوَاتِ اللِّسَانِ .



التبنيح

وَابَتْ ، أى وعدت ، والوَأَى الوعد . ورمزات الألفاظ : الإشارة بها . والألفاظ : جمع
لَحْظَ ، بفتح اللام ، وهو مؤخر العين . وسَقَطَاتِ الْأَلْفَاظِ : لغوها ، وسهوات الجنان :
خفلاته ، والجنان : القلب . وهَفَوَاتِ اللِّسَانِ : زلاته .

وفى هذا اللوح يقال : ما فائدة الدعاء عندكم - والتقديم تعالى إنما يفير الصفات ؛ لأنها
تقع مكثرة ، فلا حاجة إلى الدعاء بغيرها ، ولا يؤثر الدعاء أيضا في أفعال الباري سبحانه
لأنه إنما يفعل بحسب المصالح ويرزق المال والولد وغير ذلك ، ويصرف الرضى والجذب
وغيرها بحسب ما يملئه من المصلحة ؛ فلا تأثير للدعاء فى شيء من ذلك ؟

والجواب ؛ أنه لا يمتنع أن يحسن الدعاء بما يعلم أن القديم يفعله لاجتهاد ، ويكون وجه
حُسنه ، صدوره عن المكلف على سبيل الاقطاع إلى الخالق سبحانه .

ويعجز أيضاً أن يكون في الدعاء نفسه مصلحة ولطف للكلف ؛ لقد حسن منا الاستغفار للمؤمنين ، والصلاة على الأنبياء والملائكة .

وأيضا فليس كل أفعال الباري سبحانه واجبة عليه ، بل معظمها ما يصدر على وجه الإحسان والتفضل ، فيجوز أن يفعله ، ويعجز ألا يفعله .

فإن قلت : قيل يستوي فعل الواجب الذي لا بد لتقديمه - تعالى - من فعله إجابة لدعاء للكلف ؟

قلت : لا ؛ وإنما يستوي إجابة إذا فعل سبحانه ما يجوز أن يفعله ، ويعجز ألا يفعله كالفضل . وأيضا فإن اللطف والمصلحة قد يكون لعلنا ومصلحة كل حال ، وقد يكون لعلنا عند الدعاء ، ولولا الدعاء لم يكن لعلنا ؛ وليس بممتنع في القسم الثاني أن يستوي إجابة للدعاء ؛ لأن الدعاء على كل حال تأثيراً في فعله .

فإن قيل : أيحوز أن يدعو النبي صلى الله عليه وآله بدعاء فلا يستجاب له ؟

قيل : إن من شرط حسن الدعاء أن يعلم الداعي حسن ما يطلبه بالدعاء ؛ وإنما يعلم حسنه ؛ ألا يكون فيه وجه قبح ظاهر ، وما قاب عنه من وجوه القبح ؛ نحو كونه مفسدة يجب أن يشترطه في دعائه ، ويطلب ما يطلبه بشرط ألا يكون مفسدة . وإن لم يظهر هذا للشرط في دعائه وجب أن يضره في نفسه ، فتى سأل النبي صلى الله عليه وآله فم يفعله لم يحز أن يقال : إنه ما أجيب دعوته ؛ لأنه يكون قد سأل بشرط ألا يكون مفسدة ؛ فإذا لم يقع ما يطلبه ، فلا ن للطلب قد علم الله فيه من المفسدة ما لم يعلمه النبي صلى الله عليه وآله ؛ فلا يقال : إنه ما أجيب دعائه ؛ لأن دعائه كان مشروطاً ؛ وإنما يصدق قولنا ما أجيب دعائه على من طلب أمراً طلباً مطلقاً غير مشروط فم يقع ، والنبي صلى الله عليه وآله لا يتحقق ذلك في حقه .

[من أدعية رسول الله المأثورة]

ومن تذكر في هذا الموضع جملة من الأدعية المأثورة طلباً لبركتها ، ولينضم قارى الكتاب بها :

كان من دعاء رسول الله صلى الله عليه وآله إذا أصبح أن يقول :

« أَصْبَحْنَا وَأَصْبَحَ الْمَلِكُ وَالْكَبِيرُ ، وَالْمُظَنِّ وَالْجَلِيلُ وَالْخَلْقُ وَالْأَمْرُ وَاللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَمَا يَسْكُنُ فِيهِمَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ . اللَّهُمَّ اجْعَلْ أَوَّلَ يَوْمِي هَذَا صَلاَحًا ، وَأَوْسَطَهُ فَلَاحًا ، وَآخِرَهُ نَجَاحًا . اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ حَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ . اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا يَحْمِلُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ ، وَمِنْ طَاعَتِنَا مَا تُلْفِنَا بِهِ رَحْمَتَكَ ؛ وَمِنْ الْيَقِينِ مَا تَهْوَنُ بِهِ عَلَيْنَا مَصِيبَاتِ الدُّنْيَا ، اللَّهُمَّ مَتِّعْنَا بِأَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا ، وَاجْعَلْهُمَا الْوَارِثَ مِنَّا ، وَاصْرَعْهُمَا مَنْ ظَلَمْنَا ، وَلَا تَحْمِلْ مَعِيبَتِنَا دِينَنَا ، وَلَا تَجْعَلِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمًّا ، وَلَا مَتَلَعًا عَلَيْنَا ، وَلَا نَسْلُطْ عَلَيْنَا مَنْ لَا يَرْحَمُنَا » .

[من أدعية الصحيفة]

ومن دعاء أمير المؤمنين عليه السلام ، وكان يدعو به زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام ؛ وهو من أدعية الصحيفة :

يَا مَنْ يَرْحَمُ مَنْ لَا يَرْحَمُهُ الْعِبَادُ ، وَيَا مَنْ يَقْبَلُ مَنْ لَا تَقْبَلُهُ الْبِلَادُ ، وَيَا مَنْ لَا يَحْضِرُ أَهْلَ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ ؛ يَا مَنْ لَا يَجِبُ بِالرَّدِّ أَهْلَ الْإِلْحَاحِ إِلَيْهِ . يَا مَنْ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ صَنُوفُ مَا يُتَعَفَّ بِهِ ، وَلَا يَضْمَعُ بِسِرٍّ مَا يَعْمَلُ لَهُ . يَا مَنْ بِشُكْرِ عَلَى الْقَلِيلِ ، وَيَحْزَى بِالْجَلِيلِ . يَا مَنْ يَدْنُو إِلَى مَنْ دَنَا مِنْهُ . يَا مَنْ يَدْعُو إِلَى نَفْسِهِ مَنْ أَدْبَرَ عَنْهُ . يَا مَنْ لَا يَنْفِرُ الْقَسَّةُ ، وَلَا يَبَادِرُ بِالنَّقْمَةِ . يَا مَنْ يَشْرِي الْحَسَنَةَ حَقَّ بَيْئَتِهَا ، وَتَجَاوِزُ مِنَ السَّيِّئَةِ حَقَّ مَقْبَلَتِهَا ؛ انصرفت

دون مدى كريمك الحاجات ، وامتلأت ببعض جودك أوعية الطيبات ، وتفست دون
 بلوغ نبتك الصفات . فلك العلو الأعلى فوق كل عال ، والجلال الأجد فوق كل جلال ؛
 كل جليل عندك حقير ، وكل شريف في جنب شرفك صغير ، خاب الوافدون على غيرك ،
 وخسر المتمرضون إلامك ، وضاع المشئون إلا بك ، وأجذب للتجسون إلا من اتبع
 فضلك ، لأملك ذو غاية قريبة من الراغبين ، وذو عجز مباح للساكنين ؛ لا يخيب لك
 الآملون ، ولا يخفي من عطائك المتمرضون ، ولا يشقى بنفتك المستغفرون ؛ رزقك مبسوط
 لمن عصاك ، وحملك معرض لمن نلوك ، وعادتك الإحسان إلى السيئين ، وسنتك الإبقاء
 على المعتدين ، حتى لقد غرتهم أمانك عن النزوع ، وصدتهم إسهالك عن الرجوع ، وإنما
 تأتيت بهم ليفيشوا إلى أمرك ، وأمهلتهم ثقة بدوام ملكك ، فمن كان من أهل السعادة
 خست لها ، ومن كان من أهل الشقاوة خذله لها

كلمهم صائر إلى رحمتك ، وأمورهم آية إلى أمرك ؛ لم يكن على طول مدتهم سلطانك ،
 ولم تدحض لترك معاجلتهم حججك^(١) ؛ حجبت قائمة ، وسلطانك ثابت ، فالويل للماتم
 لمن جنت عنك ، والخيبة الخادبة لمن خاب أمره منك ، والشقاء الأشق لمن اغتر بك .
 ما أكثر قلبه في عذابك ، وما أعظم تردده في عقابك ، وما أبعد غايته من الترج ،
 وما أبطه من سهولة المخرج ؛ عدلاً من فضائك لا تجور فيه ، وإنصافاً من ححك
 لا تحيف عليه ؛ قد ظاهرت الحجاج ، وأزلت الأعداء ، وتقدمت بالوعيد ، وتلطفت في
 الترغيب ؛ وضربت الأمثال ، وأطلت الإمهال ، وأخرت وأنت تستطيع للماجة ،
 وتأتيت وأنت على المباذرة .

لم تلك أمانتك تجزأ ، ولا حيلتك وهنا ، ولا إمسائك لمة ، ولا انتظارك للداراة ،
 بل لتسكون حججك الأبلغ ، وكرمك الأكمل ، وإحسانك الأوفى ، ونعمتك الأتم .

(١) ج : « برهانك » .

كل ذلك كان ولم يزل ، وهو كائن لا يزول . نستك أجلاً من أن توصف بكلها ،
ومجدك أرفع من أن يحد بكلمه ، وإحسانك أكبر من أن يشكر على أفعاله ، فقد أنصرت
ساكننا من تحميدك ، وتتهيت ممسكا من تمجيدك ، لا رغبة يا إلهي عنك بل عجزاً ،
ولا زهداً فيما عندك بل تفصيلاً ، وما أنذا يا إلهي أؤمل بالوفادة ، وأسألك حسن
الرفادة ، فاسمع طائى ، واستجب دعائى ؛ ولا تختم عملى بحبيتى ، ولا تحببنى بالردى
مسألتى ، وأكرم من عندك منصرفى ؛ إلك غير ضائق عما تريد ، ولا عاجز عما نشاء ؛
وأنت على كل شيء قدير .

• • •

ومن أدعيته عليه السلام ؛ وهو من أدعية الصحيفة أيضا :

اللهم يامن برحمته يستفيث المذنبون ، ويامن إلى إحسانه يفرح المصطرون ، ويامن
خليفته ينتعش الخاطئون ؛ يا أنس كل مستوحش غريب ، يا فرج كل مكروب حريب .
يا عون كل محذول فريد ، يا عاضد كل محتاج طريد ؛ أنت الذى وسعت كل شيء رحمة
وعلا ، وأنت الذى جلست لكل محوق فى نعمتك سهماً ، وأنت الذى عفوه أعلى من
عقابه ، وأنت الذى رحته أمام غضبه ؛ وأنت الذى إظهاره أكبر من منعه ، وأنت
الذى وسع الخلاق كلهم بعفوه ، وأنت الذى لا يرغب فى غنى من إعطاء . وأنت
الذى لا يفرط فى عقاب من عصاه .

وأنا ياسيدى عبدك الذى أمرته بالدهاء فقال : لبّيك وسعدّيك ؛ وأنا ياسيدى عبدك
الذى أوقرت الخطايا ظهري ، وأما الذى أفلت^(١) الذنوب عمره ، وأنا الذى يجهل
عصاك ؛ ولم يكن أهلاً منه لذلك ؛ فهل أنت يا مولاي راحم من دعاك فاجتهد فى الدعاء ،
أم أنت غافر لمن بكى لك ، فأسرع فى البكاء ، أم أنت متجاوز عن مفرّك وجهه ،
متذلل ، أم أنت مغنى من شكا إليك قمره متوكلاً ؟

(١) ج : هـ . وأنت الذنوب عمره .

اللهم فلا تخيب من لا يجد معطياً غيرك ، ولا تأخذ من لا يستغنى عنك بأحدٍ دونك .
اللهم لا تعرض عني وقد أقبلت عليك ، ولا تحرمني وقد رغبت إليك ، ولا تجبهني بآفة
وقد انقصت بين يديك . أنت الذي وصفت نفسك بالرحمة ، وأنت الذي سميت نفسك
بالغفر ، فارحمي واعف عني ؛ فقد ترى يا سيدي فيض دموعي من خوفك ، ووجيب
قلبي من حببتك ، واستغاض جوارحي من هيبتك ، كل ذلك حياء منك بسوء عملي ،
وخجلاً منك لكثرة ذنوبي ؛ قد كُتِل لساني عن مناجاتك ، وتحدصوتي عن الالماء إليك !

يا إلهي ، فكتم من عيب سترته علي فلم تصحني ، وكتم من ذنب غطيت عليه
فلم تشهر بي ؛ وكتم من عاتبة المستحيا فلم نهيتك عني سترها ، ولم تقلدي مكروه شئارها ،
ولم تبد علي محرّمات سواها . فمن يلتمس معافي من جبرتي وحسدك نعمتك هتدي ، ثم
لم ينهي ذلك حتى صرت إلى أسوأ ما عهدت مني . المن أجهل مني يا سيدي برشدك أو من
أغفل مني عن حفظه منك ؛ ومن أبدى مني من إصلاح نفسه حين أفقت ما أجريت علي
من رزقك فيما نهيتني عنه من معصيتك ؛ ومن أبدى عوراً في الباطل ، وأشد إقداماً علي
السوء مني حين أقف بين دعوتك ودعوة الشيطان ، فاتبعت دعوته علي غير رقي عن المعرفة به ،
ولا نسيان من حفظي له ؛ وأنا حينئذ موقن أن منتهى دعوتك الجنة ، ومنتهى
دعوته النار !

سُبْحَانَكَ يَا أَعْجَبَ مَا شَهِدَ بِهِ عَلَى نَفْسِي ، وَأَعَدَّهُ مِنْ مَكْنُونِ أَمْرِي ؛ وَأَعْجَبُ مِنْ
ذَلِكَ أَنَّكَ عَنِّي ، وَإِبْطَاؤُكَ عَنْ مَعَايِلَتِي ؛ وَلَيْسَ ذَلِكَ مِنْ كَرَمِي عَلَيْكَ ، بَلْ تَأْتِيكَ مِنْكَ
بِي وَتَفْضُلًا مِنْكَ عَلَيَّ ؛ لِأَنِّي ارْتَدَعْتُ عَنْ خَطِيئِي ، وَلِأَنِّي عَفَوْتُ أَحَبُّ إِلَيْكَ مِنْ عَفْوِي .
بَلْ أَنَا يَا إلهي أَكْثَرُ ذَنْبِيًا ، وَأَقْبَحُ آثَارًا ، وَأَشْنَعُ أَعْمَالًا ، وَأَشَدَّ فِي الْبَاطِلِ تَهَوُّرًا ، وَأَضْفَرُ
عِنْدَ طَاعَتِكَ تَبَقُّظًا ، وَأَعْفَلُ لَوْعِيدِكَ انْتِهَابًا ؛ مِنْ أَنَّ أَحْيَا لَكَ صَبْرِي ، وَأَقْدَرُ عَلَى تَسْلِيهِ

ذنوبي ؛ وإنما أوتيت بهذا نفس طمأنينة راحة التي بها إصلاح أمر المذنبين ، ورجاء
لمصمتك التي بها فكك رقاب الخطائين . اللهم وهذه رقبتي قد أرققتها الذنوب فأعنيها
بغفرك ؛ وقد أثقلتها الخطايا تخفف عنها عنك . اللهم إني لوبكيت حتى تسقط أشفاري عني ؛
وانتميت حتى يقطع صوتي ، وقت لك حتى تنتشر قدمي ، وركعت لك حتى ينزع
صلي ، وسجدت لك حتى تنفقا حدقتاي ، وأكلت التراب طول عمري ، وشربت ماء
الرماد آخر دهرى ؛ وذكرك في حلال ذلك حتى يكل لسانى ؛ ثم لم أرفع طرفي إلى آفاق
السماء استحياء منك ؛ لما استوجبت بذلك نحو سيئة واحدة من سيئاتي ؛ فإن كنت تغفر لي
حين أستوحب مغفرتك ، وتغفروا عن حين أستحق عفوك ؛ فإن ذلك غير واجب لي
بالاستعفاء ، ولا أأهل له على الاستيعاب ؛ إذ كان جرائي منك من ^(١) أول ما عصيتك
النار ؛ فإن تعدني فإني غير ظالم .

إلى فإن تمدتني سترك فلم تصيحي ، وأمهلتني بكرمك فلم تناجلني ، وحملتني
بفضلك فلم تميز بسك علي ، ولم تكدر مفروقتك عندي ، فارحم طول نضري ، وشدة
مسكنتي ، وسوء موقعي .

اللهم صل على محمد وآل محمد ، وأغذي من العاصي ، واستملي بالطاعة ، وارزقني
حسن الإمامة ، وطهرني بالثوبة ، وأبدني بالمصمة ، واستصليحني بالعافية ، وارزقني حلاوة
للفرة ، واحملني طليق عفوك ، واكتب لي أمناً من سخطك ، وشرني بذلك في العاجل
دون الآجل ^(٢) ؛ بشرى أعرفها ، وعرفني له علامة أنتينها ؛ إن ذلك لا يصيق عليك في
وُجْدك ، ولا يشككك في قدرتك ، وأنت على كل شيء قدير .



ومن أدعيته عليه السلام ؛ وهو من أدعية الصبيحة :

(٢) ب : « والناجل » .

(١) ب : « لي » .

اللهم إذا لك للتأبّد بالخلود والسلطان ، المتّسع بغير جنود ، والمزّ الباقى على مرّ
الدهور ! عزّ سلطانك عزّاً لا حدّ له ولا منتهى لآخره ، واسمعي ملكك علواً سقطت
الأشياء دون بلوغ أمده ، ولا يبلغ أدنى ما استأثرت به من ذلك نعوت أقصى نعت الناعتين
صلّيت فيك الصفات ، وتفضّعت دونك النعوت ، وحارت في كبريائك لطائف الأوهام .
كذلك أنت الله في أوليتك ، وعلى ذلك أنت دائم لا تزول ، وكذلك أنت الله في
آخريتك ؛ وكذلك أنت ثابت لا تحول .

وأنا العبد الضعيف مهلاً ، الجسم أملاً ، خرجت من يدى أسباب الوصلات إلى
رحمتك ، وتقطّعت عني عصم الآمال إلا ما أبا متصم به من عفوك . قلّ عندي ما اعتدّ به
من مطاعك ، وكثّر عندي ما أبوء به من معصيتك ؛ ولن يفوتك ^(١) عفوّ من عبدك وإن
أساء ؛ فاعف عني .

اللهم قد أشرف على كل خطايا الأعمال عظمتك ، واسكشف كل مستور عند خبرك ؛
فلا يتلوّى عنك دقائق الأمور ، ولا يمزّب عنك خفايا السرائر ^(٢) ؛ وقد هربت إليك من
صغائر ذنوب موبقة ، وكبائر أعمال مردية ، فلا شفيع يشفع لي إليك ، ولا خفيّر يؤمّنني
منك ، ولا حصن يحجبني عنك ، ولا ملاذ ألبأ إليه غيرك .

هذا مقام المائذ بك ، ومحلّ للمترف لك ، فلا يضيّقني عني فضلك ، ولا يقصّرني
دون عفوك ، ولا أكون أخيب عبادك الثائبين ، ولا أفتنّ وفودك الآملين ؛ واغفر لي
إنك خير الغافرين .

اللهم إنك أمرتني فعففت ، وسببتني فرّكت ، وهذا مقام من استعيا لنفسه منك ،
وسخط عليها ورضي عنك ؛ وتلقاك بنفس خاشعة ، وعين خاضعة ، وظهير مثقل من الخطايا ،
واقفا بين الرغبة إليك والرغبة منك ؛ وأنت أولى من رجاء ، وأحقّ من خشية واتقاء ؛

(١) ج : « يفوتك » .

(٢) ج : « خطايا لأعمال » .

فَاعْطِنِي يَا رَبُّ مَارْجُوثُ ، وَأَمْنِي مَا حَذَرْتُ ، وَعِذِّي عَلَى بَفْضِكَ وَرَحْمَتِكَ ؛ إِنَّكَ أَكْرَمُ الْمُسْتَوَلِينَ .

اللَّهُمَّ وَإِذْ سَتَرْتَنِي بِمَنُوكَ ، وَتَعَمَّدْتَنِي بِفَضْلِكَ فِي دَارِ الْفَنَاءِ ، فَأَجِرْنِي مِنْ قَضِيَعَاتِ دَارِ الْبَقَاءِ عِنْدَ مَوَاقِفِ الْأَشْهَادِ ؛ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الْقَرِيبِينَ ، وَالرُّسُلِ الْمَكْرُمِينَ ، وَالشُّهَدَاءِ الصَّالِحِينَ ؛ مِنْ جَارِ كُنْتُ أَوْ كَانَهُ مَيْثَاقِي ، وَمَنْ ذِي رَحِمٍ كُنْتُ أَحْتَشِمُ مِنْهُ لِسِرِّيَانِي ؛ لَمْ أَتَقِ بِهِمْ فِي الْحَيَاةِ^(١) عَلَى ، وَوَقَفْتُ بِكَ فِي الْمَعْرَةِ لِي ، وَأَنْتَ أَوَّلِي مَنْ وَثِقَ بِهِ ، وَأَعْطَى مَنْ رُغِبَ إِلَيْهِ ، وَأَرَأْفَ مِنْ اسْتَرْجِمَ ؛ فَارْحَمِي .

اللَّهُمَّ إِنْ أَعُوذُ بِكَ مِنْ نَارٍ تَفْلُظُتْ سَهَا عَلَى مَنْ عَصَاكَ ، وَأَوْعَدَتْ بِهَا مَنْ ضَارَكَ وَنَاوَاكَ ، وَصَدَفَ عَنْ رِضَاكَ . وَمِنْ نَارٍ نَوْرَهَا ظُلْمَةٌ ، وَهَيْئَتُهَا صَمْبٌ ، وَقَرِيبُهَا بَعِيدٌ ، وَمِنْ نَارٍ يَأْكُلُ بِمَضْطَبِهَا ، وَبِصَوْلِهَا مَعْضَا عَلَى بَعْضٍ ؛ وَمِنْ نَارٍ تَذَرُ الْعِظَامَ رَمِيًّا ، وَتَسْقِي أَهْلَهَا حِمَاً ، وَمِنْ نَارٍ لَا تَسْقِي عَلَى مَنْ تَصْرَعُ ، وَلَا تَرْحَمُ مَنْ اسْتَعْطَفَهَا ، وَلَا تَقْدِرُ عَلَى التَّنْخِيفِ عَنْ حَشَمِهَا ، وَاسْتَبْتَلِ إِلَيْهَا ، تَلْقَى سَكَاةً بِأَحْرَ مَالِهَا مِنْ أَلِيمِ الْفَسْكَالِ ، وَشَدِيدِ الرُّوَالِ .

اللَّهُمَّ بِكَ أَعُوذُ مِنْ حَقَارَتِهَا الْفَاقِرَةِ أَفْوَاهُهَا ، وَحِمَاةِهَا النَّاهِثَةِ بِأَيَّامِهَا ، وَشَرَابِهَا الَّذِي يَقْطَعُ الْأَمْعَاءَ ، وَيَذِيبُ الْأَحْشَاءَ ؛ وَأَسْتَعِذُّ بِكَ لِمَا بَاعَدَ عَنْهَا ، وَأَقْدَمَ عَلَيْهَا ، فَأَجِرْنِي بِفَضْلِ رَحْمَتِكَ ؛ وَأَقْلِنِي عَثْرَتِي بِحَسَنِ إِقَالَتِكَ ، وَلَا تَحْذُلْنِي بِأَخِيرِ الْخَيْرِينَ .

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ إِذَا ذُكِرَ الْأَبْرَارُ ، وَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ مَا اخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ ، صَلَاةً لَا يَنْقُطِعُ مَدَدُهَا ، وَلَا يَحْصِي عَدْدُهَا ، صَلَاةً تَشْعِنُ الْمَوَاهِدَ ، وَتَمْلَأُ الْأَرْضَ وَالسَّمَاءَ .

صَلِّ اللَّهُمَّ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ حَتَّى تَرْضَى ، وَصَلِّ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ بِمَدِّ الرِّضَا صَلَاةً لَا حُدُودَ لَهَا ، وَلَا مَتْنِي ؛ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ !

• • •

(١) ب : « السر » و : « أنه » من ج .

ومن دعائه عليه السلام ، وهو من أدعية الصحيفة :

اللهم إلى أعوذ بك من هيجان الحرص وسورة الغضب ، وغلبة الحسد وضعف الصبر ،
وقلة القناعة ، وشكاسة الخلق ، وإلحاح الشهوة ، وملكة الحية ، ومتابعة الهوى ، ومخالفة الهدى
وسنة الغفلة ، وتماطي الكلفة ، وإيثار الباطل على الحق ، والإصرار على المأثم ، والاستكثار
من المعصية ، والإفلال من الطاعة ، ومباهات المكترين ، والإضرار على القلین ، وسوء
الولاية على من تحت أيدينا ، وترك الشكر لمن اصطنع العارفة عندنا ، وأن نعمد ظالماً ، أو نخذل
مظلوماً ، أو نروم ما ليس لنا بحق ، أو نقول بغير علم ، ونموذ بك أن نتطوى على غش لأحد ،
وأن ننجب بأموالنا وأعمالنا ، وأن نمد في آئتنا . ونعوذ بك من سوء السيرة ، واحتقار
الصغيرة ، وأن يستحوذ علينا الشيطان ، أو يشتد لنا الزمان ؛ أو يهضمنا السلطان ، ونموذ
بك من حب الإسراف ، وفقدان الكفاف ، ومن شتمانة الأعداء ، والفقر إلى الأصدقاء ،
ومن عيشة في شدة ، أو موت على غير عدة .

ونعوذ اللهم بك من الحسرة المظنة ، والمصيبة الكبرى ، ومن سوء المآب ، وحرمان
الثواب ، وحلول العقاب .

اللهم أعذنا من كل ذلك برحمتك وسنك وحمودك ، إلك على كل شيء قدير .

• • •

ومن دعائه عليه السلام ونحمده ، وذكره النبي صلى الله عليه وآله ، وهو من أدعية
الصحيفة أيضاً :

الحمد لله بكل ما حمده أدى ملائكته إليه ، وأكرم خلقه عليه ، وأرضى حامديه
لديه ؛ حمداً بفضل مائت الحمد ، كفضل ربنا - جل جلاله - على جميع خلقه .

ثم له الحمد مكان كل نعمة له علينا ، وعلى جميع عباده للراضين والباقيين ، عدد ما أحاط
به علمه ، ومن جميع الأشياء أضمافاً مضاعفة ، أبداً سرمداً إلى يوم القيامة ، وإلى ما لا نهاية له

من بعد القيامة ؛ حذراً لا غاية لحذره ، ولا حساب لعدده ، ولا انقطاع
لأمامه ؛ حذراً يكون وصلة إلى طاعته ، وسعاً إلى رسوائه ، وذريعة إلى مغفرته ،
وطريقاً إلى جنته ، وخفياً من نعمته وأماً من غضبه ، وظهيراً على طاعته ، وحاجزاً عن
معصيته ؛ وعوناً على تأدية حقه ووظائفه ؛ حذراً يستد به في السعداء من أوليائه ، وتنظم
به في نظام الشهداء سيوف أعدائه .

والحمد لله الذي من علينا بنبيه محمد صلى الله عليه وآله دون الأمم الماضية ، والقرون
السالفة ؛ لقد رتبه التي لا تسحر عن شيء ، وإن عظم ، ولا يموتها شيء ، وإن لطف
الأمم فصل على محمد أمينك على وحيك ، ونعتك من خاتك ، وصميتك من عبادك .
إمام الرحمة وقائد الخير ، ومفتاح البركة ، كما نصب لأمرك نفسه ، وعرض فيك للمكروه
مدته ، وكاشف في الدعاء إليك حاجته ، وحارب في رضاك أسرته ، وقطع في نصرته ديبك
رحمة ، وأقصى الأذنين على عبودهم حبك ، وقرب الأقربين على استعانتهم لك ؛ ووالى
فيك الأبدنين ، وعاند فيك الأقربين ، وأدب^(١) معه في تبليغ رسالتك ، وأتبعها في
الدعاء إلى مملكتك ، وشفلها بالصبح لأهل دعوتك ، وهاجر إلى بلاد العربفة ومحل النأي
عن موطن رحله ، ووضع رجله ، ومنقط رأسه ، ومأس نفسه ؛ إرادة منه لإعزاز
دينك ، واستنصاراً على أهل الكفر بك ؛ حتى استتب له ما حاول في أعدائك ، واستنم
له ما دبر في أوليائك ، فهد إلى المشركين بك ، مستفتحاً بعبوك ، ومحقوقاً على ضمه
بنصرك ، فمزاهم في عقر ديارهم ، وهم عليهم في بحوحة قرارهم ؛ حتى ظهر أمرك ،
وعلت كلمتك ؛ وقد كره للمشركون .

اللهم فارفضه - بما كدح فيك - إلى المراجعة العليا من جنتك ؛ حتى لا يساوى في مرتبة ،
ولا يكافأ في مرتبة ، ولا يوازيه لديك ، لك مقرب ، ولا يبي مرسل ، وعرفه في أمته من

حسن الشفاعة أجل ما وعدته ؛ وإنفذ العدة ، بأوفى القول ، يا مبدل السبئات بأضعافها
من الحسنات ؛ إنك ذو الفضل العظيم .



[من الأدعية المأثورة عن عيسى عليه السلام]

ومن الأدعية المروية عن عيسى بن مريم عليهما السلام :

اللهم أنت إله مَنْ في السماء ، وإله مَنْ في الأرض ، لا إله فيهما غيرك ، وأنت
حكيم مَنْ في السماء ، وحكيم مَنْ في الأرض ؛ لا حكيم فيهما غيرك ؛ وأنت مَلِكٌ مَنْ في
السماء ، ومَلِكٌ مَنْ في الأرض ، لا مَلِكٌ فيهما غيرك ؛ قُدرتْكَ في السماء كقُدرتْكَ في
الأرض ، وسلطانُكَ في السماء كسلطانِكَ في الأرض ؛ أسألك باسمِكَ الكريم ، ووجهِكَ
المبهر ، ومَلِكِكَ القديم أن تفعلَ بي كذا وكذا .



[من الأدعية المأثورة عن بعض الصالحين]

وكان بعض الصالحين يدعو فيقول :

اللهم لا تدخلنا النارَ بعد أن أسكنت قلوبنا توحيدهُكَ ، وإني لأرجو ألا تفعل ؛
وإن فعلت لتجعلنَّ بيننا وبين قوم عادٍ قدامَ فيكَ .

ومن دعاء بعضهم :

اللهم إنك لم تشركْ في خلقنا غيرَكَ ، فلا تشركْ في إلحسان إلينا غيرَكَ ؛ اللهم لا ربَّ
لنا غيرَكَ ؛ فلا تجعل حاجتنا عند غيرِكَ . اللهم إنا لا نمُددُ غيرَكَ ، فلا تسلط علينا غيرَكَ .

قام أعرابي على قبر رسول الله صلى الله عليه وآله فقال :

ياي أنت وأمي يا رسول الله ! قلت فقبينا ، وتلوت فوعينا ، ثم ظلمنا أنفسنا ، وقرأنا
 فيها آيتنا به عن ربنا : ﴿ وَقُولُوا لَهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ وَأَسْتَغْفِرْ
 لَهُمُ الرَّسُولُ لَوْ جَدُّوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ^(١) 〉 . اللهم إنا قد جئنا رسولك ونحن نستغفرك
 ونسأل رسولك أن يستغفر لنا خطايانا ، فاغفر لنا وتب علينا .

فيقال : إن إنساناً حضر ذلك الدعاء ، فرأى تلك الآية رسول الله صلى الله عليه وآله
 في منامه يقول له : أبلغ الأعرابي أن الله قد غفر له .

ومن أدعية بعض الصالحين :

اللهم إني لم آتِكَ بعمل صالح قدمته ، ولا شفاعة مخلوق رجوته ؛ آتيتُكَ مَقْرَأًا بِالظلم
 والإساءة على نفسي ؛ آتيتُكَ بلا حجة ؛ آتيتُكَ بأرحم عظيم عفوك الذي عدتَ به على
 الخاطئين ؛ ثم لم يمنعك عكوفهم على عظيم الجرم أن جُذتَ لهم بالمغفرة ، فيا صاحب العفو
 العظيم اغفر الذنب العظيم ، برحمتك يا أرحم الراحمين .

وروى أن علياً عليه السلام اعتَمَرَ ، فرأى رجلاً متعلّقاً بأستار الكعبة ، وهو يقول :
 يا مَنْ لا يشمله سمع عن سمع ؛ يا مَنْ لا تلقاه ^(٢) المائل ولا يبرمه إلحاح الملحين ؛ أدقني برّد
 عفوك ، وحلاوة مغفرتك ؛ وعذوبة عافيتك ؛ والفور بالجنة ، والشفاعة من البار .

فقال عليّ عليه السلام : والذي نفسي بيده إن قالها وعليه مثل السموات والأرض
 من الذنوب قولاً مخلصاً ليفرن له .

ودعا أعرابيٌ عند الماتم ، فقال :

اللهم إن لك على حقوقاً فتصدق بها عليّ ، وإنّ الناس قبلي تيمّات فتعملها عني ؛
 وقد أوجبت لكلّ ضيفٍ قرى وأنا ضيفُك الليلة ، فاجعل قرأى الجنة .

(١) سورة النساء ٦٤ .

(٢) به : « تلتطه » ، وما أتيت من ج .

ودعا بعض الأعراب أبعاً ، وقد خرج حاجاً ، فقال : اللهم إليك خرّجتُ ؟ وما عندك طلبت ، فلا تحرمني خيراً ما عندك ، لشرٍّ ما عندي ؛ اللهم إن كنت لم ترسمْ تصويري ونعسي ؛ فإنها مصيبة أميتُ بها ، فلا تحرمني أجرَ الصاب على المصيبة .

ودعا بعضهم فقال : اللهم إليك سترت علينا في الدنيا ذنوبنا كثيرة ؛ ونحن إلى سترها في الآخرة أحوَج ؛ فاعقر لنا .

ومن دعاء بعضهم : اللهم اجعل الموت خيراً غائب تنتظره ، واجعل القبر خيراً بيت نصيره ؛ واجعل ما بعده خيراً لنا منه . اللهم إليك مجت الأصوات بصوت الفات تسألُ الحاجات ، وحاجتي إليك أن تذكرني عند طول البلى ، إذا نسيت أهل الدنيا .

وقال بعضهم : كنت أدمو الله بعد وفاة مالك بن دينار أن أراه في منامي ، فرأيت بعد سنة ، فقلت : يا أبا يحيى ، عطني كيف أدمو ؟ فقال : قل : اللهم يتر الجواز ، وسهل الحجاز .

وقال الشعبي : حدثني عبد الملك بن مروان عن دعاء كان يدعو به على المنبر يقول : اللهم إن ذنوبي كثيرة جلّت أن توصف ، وهي صغيرة في جنب عفوِكَ ، فاعفُ عني .

ومن دعاء بعض الزهاد : اللهم إني أعوذ بك من أهل يُلْهيني ، ومن هوَى يُرْدِي ، ومن عمل يُخْزِي ، ومن صاحب يُعْوِي ، ومن جارٍ يُؤْذِي ، ومن غني يُطْغِي ، ومن فقرٍ يَنْسِي . اللهم اجعلنا نستعينك وتتقينا ، ونخافك ونخشاك ، ونرجوك ونطيعك في السر والعلانية . اللهم استرنا بالمعافاة والعفو ؛ استعين الله على أموري ، واستغفر الله لذنوبي ، وأعوذ بك من شر نفسي .

ويروى أن رجلاً أسمى جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ، فشكا إليه ذهاب بصره ، فقال صلى الله عليه وآله له : قل : يا ستجوح يا قدوس ، يا نور الأنوار ، يا نور السموات والأرض ، يا أول الأولين ، ويا آخر الآخرين ، ويا أرحم الراحمين ، أسألك

أَنْ تُفَرَّ لِي الذُّنُوبَ الَّتِي تُغَيِّرُ النِّعَمَ ، وَالذُّنُوبَ الَّتِي تُنْزِلُ النِّقَمَ ، وَالذُّنُوبَ الَّتِي تَهْتِكُ الْعِصَمَ ،
وَالذُّنُوبَ الَّتِي تُوْجِبُ الْبَلَاءَ ، وَالذُّنُوبَ الَّتِي تَقْطَعُ الرَّجَاءَ ، وَالذُّنُوبَ الَّتِي تَحْسِبُ الدُّعَاءَ ،
وَالذُّنُوبَ الَّتِي تَكْشِفُ الْغِطَاءَ ، وَالذُّنُوبَ الَّتِي تَعْجَلُ الْفِتَاءَ ، وَالذُّنُوبَ الَّتِي تَغْلِيْمُ الْهُوَاءَ ،
وَأَسْأَلُكَ بِاسْمِكَ الْعَظِيمِ ، وَوَجْهِكَ الْكَرِيمِ ، أَنْ تَرُدَّ عَلَيَّ بِصَرِي .
فَدَمَا بِذَلِكَ فَرَدَّ عَلَيْهِ بِصَرِهِ .

وَمِنَ الْأَثَارِ لِلنَّبِيِّ ، أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى غَضِبَ عَلَى أُمَّةٍ فَأَنْزَلَ عَلَيْهِمُ الْعَذَابَ ، وَكَانَ فِيهِمْ
ثَلَاثَةٌ صَالِحُونَ ، فُرجوا وَاِبْتَهِلُوا إِلَى اللَّهِ سَبْعَانَهُ ، فَخَامَ أَحَدُهُمْ فَقَالَ : اللَّهُمَّ إِنَّكَ أَمَرْتَنَا أَنْ نَعْتَقَ
أَرْقَاءَنَا وَنَحْنُ أَرْقَاؤُكَ ؛ فَأَعْتَقْنَا ، ثُمَّ جَلَسَ . وَقَامَ الثَّانِي فَقَالَ : اللَّهُمَّ إِنَّكَ أَمَرْتَنَا أَنْ نَعْمُوَ
عَمَّنْ ظَلَمْنَا ، وَقَدْ ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا فَاعْفُ عَنَّا ، ثُمَّ جَلَسَ . وَقَامَ الثَّالِثُ فَقَالَ : اللَّهُمَّ إِنَّا عَلَى ثِقَةٍ
أَنْتَ لَمْ تَخْلُقْ خَلْقًا أَوْسَعَ مِنْ مَغْفِرَتِكَ ، فَاجْعَلْ لَنَا فِي سَمْعِنَا نَصِيحًا ؛ فَرَفَعَ عَنْهُمْ الْعَذَابَ .
قَبِلَ اسْتِغْنَاءُ بْنُ حُيَيْنَةَ : مَا حَدِيثُ رُوَيْتَهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : « أَفْضَلُ دُعَاءٍ
أَعْطَيْتَهُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ قَبِلَ : أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ، يُحْيِي
وَيُمِيتُ ، وَهُوَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ ، بِيَدِهِ الْخَيْرُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » ، كَانَهُمْ لَمْ يَرَوْهُ دُعَاءًا
فَقَالَ : مَا تَنْكُرُونَ مِنْ هَذَا ! ثُمَّ رَوَى لَمْ يَقُولِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : « مَنْ تَشَاغَلَ
بِالْتَّائِءِ عَلَى اللَّهِ ، أَعْطَاهُ اللَّهُ فَوْقَ رَغْبَةِ السَّائِلِينَ » . ثُمَّ قَالَ : هَذَا أُمِّيَّةٌ بِنَ أَيْ الصَّلَاتِ يَقُولُ
لَا بِنَ جُدْعَانِ :

أَدَّكُرُ حَاجِقُ أَمْ قَدْ كَفَانِي حَيَاتُوكَ ؟ إِنْ شِيمَتَكَ الْحَيَاةُ (١)
إِذَا أَتَى عَلَيْكَ لِلرَّءِ يَوْمًا كَفَاءُ مِنْ تَعَرُّضِهِ الدُّنْيَا

وَقَالَ : هَذَا مَخْلُوقٌ يَقُولُ لِمَخْلُوقٍ ، فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ !

ومن دعائه صلى الله عليه وآله : « اللهم إني أعوذ بك من الفقر إلا إليك ، ومن القل إلا لك » .

ومن دعائه عليه السلام : « اللهم أرزقني عيدين هطالتين تسقيان القلوب مذكروا الدموع ، قبل أن يكون الدمع دماً ، وقرع الصر من ندماً » .

ومن دعائه عليه السلام : « اللهم طهر لساني من الكذب ، وقلبي من النفاق ، وعمل من الرياء ، وبصري من الحيلة ، فإنك تعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور » .
ومما رواه أنس بن مالك : « لا تمعروا عن الدعاء فإنه لن يهلك مع الدعاء أحد » .
ومن رواية جابر بن عبد الله : « لقد بارك الله لرحل في الحاجة بكثرة الدعاء فيها ، أظليها أو منعتها » .

أوهري يرفعه : « اللهم أصليح لي في ديني الذي هو عصمة أمري ، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي ، وأصلح لي آخري التي إليها ممادي ، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير ، والموت راحة لي من كل شر » .

قيل لأعرابي : ألمحين أن تدعور ربك ؟ فقال : نعم ، ثم دعا فقال : اللهم إني كنت منك علينا بالإسلام من غير أن سألك ، فلا نحرمتنا الجنة ونحن نسألك .

سُيِّمَتْ أعرابية تقول في دعائها : يا عربص الجنة ، يا أبا المسكارم ، يا أبيض الوجه ؛ فرجها رحل ، فقالت : دعوى أصف ربي عما يستحقه .

وكان موسى بن جعفر عليه السلام يقول في سجوده آخر الليل : إلهي عظم الذنب من عبدك ، فليحسن الغفور من عندك .

ذكر عند بعض الصالحين رجل قد أصابه بلاء عظيم ؛ وهو يدعو فتبطلت عنه الإجابة ، فقال : بئسنى أن الله تعالى يقول : كيف أرحم المبتلى من شيء أرحم به !

قال طاوس : إني لقي الحِجْرَ ليلةً إذ دخل عليّ بن الحسين عليه السلام ، فقلت : رجل صالح من أهل بيت صالح ؛ لأصمّن دعاءه ا فسمّته يقول في أثناء دعائه : عَبْدُكَ بِفَنائك ، صَانُكَ بِفَنائك ، مسكينك بِفَنائك . فما دعوت بهنّ في كَرْبٍ إلّا وفرّج عني .

عمر بن ذَرٍّ : اللهم إِنْ كُنَّا عَصِيانَكَ فَقَدْ تَكُنَّا مِنْ مَعَاصِيكَ أَبْفَضْهَا إِلَيْكَ ؛ وهو الإِشْرَاق ، وَإِنْ كُنَّا قَصَرْنَا عَنْ بَعْضِ طَاعَتِكَ ، فَقَدْ تَمَسَّكْنَا مِنْهَا بِأَحْسَنِهَا إِلَيْكَ ، وهو شهادة أن لا إله إلّا أنت ، وأنّ رسلك جاءت بالحقّ من عندك .

أمرأى : اللهم إنا نبت نصيبك ، فلا تجعلنا حصائدَ قُصَّتِكَ .

بعضهم : اللهم إِنْ كُنْتَ قَدْ بَلَمْتَ أَحَدًا مِنْ عِبَادِكَ الصّالِحِينَ دَرَجَةً يَبْلَا ، فَبَلِّغْنِيهَا بِالْعَافِيَةِ .

حجّ أمرأى ، فكان لا يستغفر إذا ملّى كما يستغفر الناس ، فقل له ، فقال : كما أن تركي الاستغفار مع ما أعلم من عَفْوِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ خُف ، فكذلك استغفاري مع ما أعلم من إصراري لولم .

لما صاف قتيبة بن مسلم التّرك وهاله أمرهم ، سأل عن محمد بن واسع ، فقل : هو في أقصى اليمين جانحا على سِيَةِ^(١) قومه ، مبصباً بإصبعه نحو السماء ، فقال قتيبة : لتلك الأصبع القارورة ، أحبّ إليّ من مائة ألف سيف شهير ، ورمح طرير^(٢) .

سمع مطرّف بن الشّخير صبيحة الناس بالدعاء ، فقال : قد هممتُ أن أحلف أن الله غفر لهم ، ثم ذكرت أنّي فيهم فكففت .

كان للأموت إذا رفعت المائدة من بين يديه بقول : الحمد لله الذي جعل أرزاقنا أكثر من أقواتنا .

الحسن البصري : مَنْ دَخَلَ الْقَبْرَةَ فَقَالَ : اللَّهُمَّ رَبَّ الْأَرْوَاحِ الْعَالِيَةِ ، وَالْأَجْسَادِ الْبَالِيَةِ ،

(١) سية القوس : ما صلب من طرفها . (٢) رمح طرير : عود .

والعظام النخرة التي خرجت من الدنيا وهي مؤمنة بك ؛ أدخل عليهم روحاً منك وسلاماً
معي ؛ كتب الله له بعدد من ولد - منذ زمن آدم إلى أن تقوم الساعة - حسنات .
عليّ عليه السلام : قد جاء سلاح المؤمن ، وحماد الدين ، ونور السموات والأرض .
قيل : إن فيا أنزله الله تعالى من الكتب القديمة : إن الله يتلى العهد وهو يحبه ؛
ليسمع دعاءه وتضرعته .

أبو هريرة : اطلبوا الخير دهركم كله ، ونمروا لنفحات من رحمة الله تعالى ،
فإن الله تعالى نفحات من رحمة ، يصيب بها من يشاء من عباده ، واسألوا الله أن يستر
هوارثكم ، ويؤمن روعاتكم .

صلى رجل إلى جنب عبد الله بن المبارك ، فلما سلم الإمام سلم وقام سجداً ، فجذب
عبد الله بثوبه ، وقال : أمالك إلى ربك حاجة ؟
قيل لسمر بن عبد العزيز : جزاك الله عن الإسلام حياء فقال : لا ، بل جرى الله
الإسلام على خيرا .

عليّ عليه السلام : الداعي بمير حملي كترامي بنبر وتر .

كان الزهري إذا فرغ من الحديث تلاه ، فدعا : اللهم إلى أسألك خيراً ما أحاط به
علمك في الدنيا والآخرة ، وأعوذ بك من شر ما أحاط به علمك في الدنيا والآخرة .
كان زبيد النامي يستنبح الصبيان إلى المسجد ، وفي كفة الجوز ، ويقول : من يبعني
منكم فأعطيه خمس جوزات ؟ فإذا دخل المسجد ، قال ارفعوا أيديكم وقولوا : اللهم اغفر
لزيد ، فإذا دعوا قال : اللهم استجب لهم ، فإنهم لم يذنبوا .

عليّ عليه السلام : جعل في بديك منافع خزائنه بما أذن لك فيه من مسألته ، فتي
شئت استغفرت بالدعاء أبواب نعمته ، واستمطرت شأيب رحمة ، فلا يقطعك إبطاء

إجابه ، فإن العطيّة على قدر النية ، وربما أنشئت عنك الإجابة ، ليكون ذلك أعظم لأجر السائل ، وأجر ل إعطاء الأمل ؛ وربما سألت الشيء فلا تؤتاه ، وأوتيت خيراً منه ، أو صرفت عنك بما هو لك خير . واعلم أنه ربّ أمر قد طلبت ؛ فيه هلاك دينك لو أوتيت .

ومن الدعاء للرفوع : اللهم من أراد بنا سوءاً فأحيط به ذلك سوء كما حاطة القلائد بترائب الولايد ، وأرسفه على هامته كرسوخ السّجيل^(١) على قم أصحاب الفيل .

سمع عمر رجلا يقول في دعائه : اللهم اجعلني من الأقلين ا فقال : ما أردت بهذا ؟ قال : قول الله عز وجل : ﴿ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾^(٢) ، وقوله تعالى : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ هَٰؤُلَاءِ الشَّاكِرُونَ ﴾^(٣) ، فقال : عيبكم من الدعاء بما عُرِف .

قال سعيد بن المسيّب : مرّ بي حلمة بن أشيم ؛ فقلت له : ادع لي ، فقال : ربّك الله فيما يبقى ، وزهدك فيما يفنى ، ووهب لك اليقين الذي لا تسكن النعوس إلا إليه ، ولا تعول إلا عليه .

كان عليّ بن عيسى بن ماهان صاحب خراسان ، وفي أيامه عصام بن يوسف الزاهد فلقية في الطريق ، وسلم عليه عليّ ، فأعرض عنه ولم يردّ عليه ، فوقف عليّ ، ورفع يديه وأسبل عينيه ، وقال : اللهم إن هذا الرجل يقرب إليك بيمضى ، وأما أتقرب إليك بحبه ، فإن كنت غفرت له بيمضى ، فأغفر لي بحبه ، يا كريم اثم سار .

قال الأصمعيّ : سمعت أعرابياً يدعو ويقول : اللهم إن كان رزق في السماء فأنزله ، وإن كان في الأرض فأخرجه ، وإن كان بعيداً فقربه ، وإن كان قريباً فيسرّه ، وإن كان قليلاً فكثره ، وإن كان كثيراً فبارك لي فيه .

(١) السّجيل : حجارة من منفر .

(٢) سورة هود ١٠

(٣) سورة ساء ١٣

من دعاء هرو بن عبید^(١) : اللهم أغنني بالافتقار إليك ، ولا تُفقرني بالاستغناء عنك ؛ اللهم أعتني على الدنيا بالقناعة ؛ وعلى الدين بالمعصية .

شكا رجل إلى الحسن رحمه الله تعالى رجلاً يظلمه ، فقال له : إذا صليت الركعتين بعد المغرب ، فاسجد وقل : يا شديد القوى ، يا شديد الحال ، يا عزيز ، أذلت لك جميع مَنْ خلقت ، فصل على محمد وآل محمد ، واكفني مؤنة فلان بما شئت . فداها فلم يرعه إلا الواعية^(٢) بالليل . فسأل ، فقيل : مات فلان فجأة .

قال موسى عليه السلام : يارب إنك لتعطيني أكثر من أمني ، قال : لأنك تكثر من قول : ماشاء الله ؛ لا قوة إلا بالله .

كان بعض الصالحين يقول قبل الصلاة : يا محسن ، قد جاءك المسوء ، وقد أمرت الحسن أن يتجاوز عن المسوء ، فتجاوز عن قبيح ما عندك بحميل ما عندك . اللهم ادرقني عمل الخائفين وحواف العاملين ؛ حتى أيم برك^(٣) التنتم طمعا فيها وعدت ، وخوفا مما أوعدت .

ومن الأدعية الجامعة : اللهم أغنني بالعلم ، وزيتني بالحلم ، وجعلني بالعافية ، وكرمني بالتقوى .

أحمد بن يوسف كاتب الأمان ؛ إذا دخل عليه حياء بتعزية أرويز الملك : عشت الله ، ونلت النفي ، وجئت طاعة النساء .

ومن الدعاء المروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله : اللهم اغفر لي ذنوبي وخطاياي كلها . اللهم أيسئني وأجزني والصبرني واهدني لصالح الأعمال والأخلاق ؛

(١) في الأصول : « عبدة » تحريف .

(٢) الواعية : الصراخ .

(٣) في الأصول : « مؤنة » ، تحريف .

إنه لا يهدي لصالحها ، ولا يصرف عن سيئها إلا أنت . اللهم إني أسألك الثبات في الأمر ،
والهزيمة على الرشد ، وأسألك شكر نعمتك وحسن عبادتك ، وأسألك قلبا سليما ولسانا
صدقا ، وأسألك من خير ما تعلم ؛ وأعوذ بك من شر ما تعلم ، وأستغفرك لما تعلم ، إنك أنت
علام الغيوب .

[آداب الدعاء]

قالوا : ومن آداب الدعاء أن ترصد له الأوقات للشرقة ، كما بين الأذان والإقامة ،
وكوقت السجود ووقت الشعر ؛ ويستحب أن يدعو مستقبل القبلة رافعا يديه ؛ لما روى
سلمان عن النبي صلى الله عليه وآله : **(إِنْ رَبَّكُمْ كَرِيمٌ يَسْتَعِي مِنْ عُنْدِهِ إِذَا رَفَعَ إِلَيْهِ يَدَيْهِ**
أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا ، وَيَسْتَعْبَأَنْ يَمْسَحَ بِهِمَا وَجْهَ صِدِّ الدَّعَاءِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ قَدْ رَوَى عَنْ
رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ .

ويكره أن يرفع بصره إلى السماء ، لقوله عليه السلام : **« لَيْتَنِي مَيَّ أَقْوَامٌ مِنْ رَفَعُوا أَبْصَارَهُمْ**
إِلَى السَّمَاءِ عِنْدَ الدَّعَاءِ ، أَوْ لَتُخَطَفَنَّ أَبْصَارُهُمْ » ، وقد رخص في ذلك للصدّيقين والأئمة العادلين
ويستحب أن يخفض صوته ، لقوله تعالى : **(ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً)** ^(١) . وقد
روى أن عمر سمع رجلا يهجر بالدعاء ، فقال : لكن زكرا نادى ربه نداء خفيا .

ويكره أن يتكلم ^(٢) الكلام للسحوم ، ويستحب الإتيان بالمطبوع منه ، لقوله صلى
الله عليه وآله : **« إِنَّا كَمْ وَالسَّجْعُ فِي الدَّعَاءِ ، بِحَسْبِ أَحَدِكُمْ أَنْ يَقُولَ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ**
وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ » .

(١) سورة الأعراف . . .

(٢) في باب : « يتكلم » ، وما أنبت عن ج .

وقيل في الوصية الصالحة : ادعُ ربك بلسان القلة والاختصار ، لا بلسان الفصاحة والتشدد .

وقال صفيان بن عيينة : لا يمنع أحدكم من الدعاء ما يملكه من نفسه ، فإن الله تعالى أجاب دعاء شراً خلقه إبليس حيث قال : ﴿ أَطْرَيْتَنِي ﴾^(١).

النبي صلى الله عليه وآله : « إذا سأل أحدكم ربه مسألة [فصرّف الإجابة]^(٢) ، فلا يقل : الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات . ومن أبطأ عنه شيء من ذلك فليقل : الحمد لله على كل حال . ومن الآداب أن يفتتح بالدُّكْر والابتداء بالمسألة ، كان رسول الله صلى الله عليه وآله قبل أن يدعو يقول : « سبحان ربّي العليّ الوهاب » .

أبو سليمان الداراني : من أراد أن يسأل الله تعالى حاجته فليبدأ بالصلاة على رسول الله صلى الله عليه وآله ، ثم يسأل حاجته ، ثم يحم بالصلاة على رسول الله صلى الله عليه وآله ، فإن الله تعالى يقبل الصلاتين : وهو أكرم من أن يدع ما بينهما .

ومن دعاء على عليه السلام : « اللهم من وحي باليسار ، ولا تبذل جاهي بالإفطار ، فاسترزق طالي رزقك ، واستعطِف شرار حلقك ، وأبلى بمحمد من أعطاني ، وأختن بذي من منعي ، وأست من وراء ذلك كله ولي الإعطاء والمنع ، إني على كل شيء قدير » .

ومن دعاء الحسن رحمه الله تعالى : « اللهم إني أعوذ بك من قلب يعرف ، ولسان يصِف ، وأعمال تخالف » .

ومن دعاء أهل البيت عليهم السلام ، وفيه راحة من كلام أمير المؤمنين عليه السلام الذي نحن في شرحه : اللهم إني أستغفرك لما تبث منه إليك ثم عدت فيه ، وأستغفرك

(١) سورة الأعراب ١٤ .

(٢) من ج .

لما وعدتك من نفسي ثم أخلفتك ، واستغفرك لنعم التي أنعمت بها عليّ ، فقويتُ على
معصيتك ، واستغفرك من كل ذنب تمكنتُ منه بعافيتك ، وناثته بدى بفضل نعمتك ، وانبطتُ
إليه بسعة رزقك ، واحتجبتُ فيه عن الناس بسرك ، واتكلتُ فيه على أكرم عفوك . اللهم إني
أعوذ بك أن أقول حقاً ليس فيه رضاك ، ألتمس به أحداً سواك ، وأعوذ بك أن أتزين للناس
بشيء يشينني عندك ، وأعوذ بك أن أكون عثرة لأحد من خلقك ، وأن يكون أحدٌ
من خلقك أسداً بما علمتني مني ، وأعوذ بك أن أستمين بمعصية لك على ضرر يصيبني .
كان أبو مسلم الحولاني إذا أتمه أمر قال : يا مالك يوم الدين ، إياك نعبد
وإياك نستعين .

ومن دعاء عليّ عليه السلام : اللهم إن شئتُ عن مسألتي وأعيتُ عن طلبتي ، فدلني
على مصالحى ، وخذ بقلبي إلى مرشدى (اللهم اجعلني على عفوك ، ولا تحملني على عدلك

(٧٨)

الأفضل :

ومن كلام له عليه السلام قاله لبعض أصحابه لما عزم على السير إلى الخوارج ، وقد قال له : إن سرت يا أمير المؤمنين في هذا الوقت ، خشيت ألا تظفر بمراك من طريق علم النجوم ، فقال عليه السلام :

أَتَزْعُمُ أَنَّكَ تَهْدِي إِلَى السَّاعَةِ الَّتِي مِنْ سَارَ فِيهَا مُرِفَ هَنَةِ الشَّوْءِ، وَتُخَوِّفُ مِنَ السَّاعَةِ الَّتِي مِنْ سَارَ فِيهَا حَاقَ بِهِ الْعَصْرُ ؟ لَنْ يَهْدِيَكَ يَهْدَا فَقَدْ كَذَّبَ الْقُرْآنُ ، وَأَسْتَعْنِي مِنَ الْإِسْتِعَانَةِ يَا قُلُوبِي فِي تَبْلِ الْعُصُوبِ وَدَفْعِ الْمَكْرُوهِ . وَتَبَيَّنَتْ فِي قَوْلِكَ لِلْعَامِلِ بِأَمْرِكَ أَنَّ بُولِيكَ أَلْحَدَ دُونَ رَهْ ! لِأَنَّكَ - بِرَعْمِكَ - أَنتَ هَدَيْتَهُ إِلَى السَّاعَةِ الَّتِي نَالَ فِيهَا النُّفْعَ ، وَأَمِنَ الْعَصْرَ .

ثم أقبل عليه السلام على الناس فقال :

أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّا كُنَّا وَتَعَلَّمْنَا الْجُورِ إِلَّا مَا يَهْدِي بِهِ فِي بَرٍّ أَوْ بَحْرٍ ، فَإِنِهَا تَدْعُو إِلَى الْكِبَايَةِ ؛ التَّجْمُ كَالسَّكَايِنِ ، وَالسَّكَايِنُ كَالسَّاجِرِ ، وَالسَّاجِرُ كَالْكَافِرِ ، وَالْكَافِرُ فِي النَّارِ ؛ سِيرُوا عَلَى أَسْمِ أَفْ .

• • •

البنزخ :

حاق به العصر، أى أحاط به؛ قال تعالى : ﴿وَلَا يَحِيقُ الْكَرُّ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ (١).

وبوليك الحمد ، مضارع « أولاك »؛ وأولاك ممدى بالهمزة من « ولى »، يقال : ولى

الشيء ولايةً وأوليته ذلك؛ أي جعلته وإليه ومنتسلاً عليه. والكاهن : واحد الكهّان
وهم الذين كانوا يخبرون عن الشياطين كثير من المعائب .

[القول في أحكام النجوم]

واعلم أن الناس قد اختلفوا في أحكام النجوم ، فأسكرها جمهور المسلمين والمحققون
من الحكماء ؛ ومن تكلم هاهنا في ذلك وبحث فيه بحثين : بحثاً كلامياً ، وبحثاً حكيمياً .
أما البحث الكلامي ؛ هو أن يقال : إما أن يذهب المنجمون إلى أن النجوم
مؤثرة ، أو أمارات .

والوجه الأول ينقسم قسمين : أحدهما أن يقال : إنها تفعل بالاختيار ، والثاني أن
تفعل بالإيجاب .

والقول بأنها تفعل بالاختيار باطل ؛ لأن المختار لابد أن يكون قادراً حياً ، والإجماع
من المسلمين حاصل على أن الكواكب ليست حية ولا قادرة ، والإجماع حجة ، وقد بين
التكلمون أيضاً أن من شرط الحياة الرطوبة ، وأن تكون الحرارة على قدر مخصوص ؛
مق أفرط امتنع حلول الحياة في ذلك الجسم ؛ فإن النار على صرافتها يستحيل أن تكون
حية ؛ وأن تحملها الحياة لعدم الرطوبة وإدراك الحرارة فيها واليبس ، والشمس أشد حرارة
من النار ؛ لأنها على بُعدها تؤثر ما تؤثره النار على قرصها ؛ وذلك دليل على أن حرارتها
أضفاف حرارة النار ؛ وبينوا أيضاً أنها لو كانت حية قادرة لم يجوز أن تفعل في غيرها
ابتداء ؛ لأن القادر بقدرته لا يصح منه الاحتراع ؛ وإنما يفعل في غيره على سبيل التوليد ؛
ولابد من وصلة بين الفاعل والمفعول فيه ، والكواكب غير مماسة لنا ، فلا وصلة بينها وبيننا ؛
فيستحيل أن تكون فاعلة فيها .

فإن ادعى مدَّعٍ أن الوصلة هي الهواء ، فمن ذلك أجوبة :
أحدها : أن الهواء لا يجوز أن يكون وصلة وآلة في الحركات الشديدة وحمل الأثقال ،
لأسيما إذا لم يتموج .

والثاني : أنه كان يجب أن نحس بذلك ، ونعلم أن الهواء يحرِّكنا ويصرفنا ؛ كما نعلم
في الجسم إذا حرَّكنا وصرفنا بآلة موضع تحريكه لنا بتلك الآلة .
والثالث : أن في الأفعال الحادثة فينا مالا يجوز أن يفعل بآلة ، ولا يتولد عن سبب ؛
كالإرادات والاعتقادات ونحوها .

وقد دلت أبحاثنا أيضا على إبطال كون الكواكب فاعلة للأفعال فينا ، بأن ذلك
يقتضي سقوط الأمر والنهي ، والمدح والذم ، ويلزم ما يلزم الحيرة ، وهذا الوجه يبطل
كون الكواكب فاعلة فينا بالإيجاب ، كما يبطل كونها فاعلة بالاحتيار .
وأما القول بأنها أمارات على ما يحدث ويتجدد ؛ فيمكن أن يُبصر بأن يقال :
لم لا يجوز أن يكون الله تعالى أجرى المادة ، بأن يفعل أفعالا مخصوصة عند طلوع كوكب
أو غروبه أو اتصاله بكوكب آخر .

والكلام على ذلك بأن يقال : هذا غير ممنوع لو ثبت سمع مقطوع به يقتضي ذلك ؛
فإن هذا مما لا يعلم بالعقل .

فإن قالوا : نعلم بالتجربة .

قيل لهم : التجربة إما تكون حجة إذا استمرت واطردت ؛ وأنتم خطوكم فيما
تحكمون به أكثر من صوابكم ، فملا نسبتم الصواب الذي يقع منكم إلى الاتفاق والتخمين ؛
فقد رأينا من أصعاب الزرق^(١) والتخمين من يصيب أكثر مما يصيب للنجم ، وهو من غير
أصل صحيح ولا قاعدة معتمدة ومتى قلتم : إنما أخطأ للنجم لعلطه في تسير الكواكب ؛

(١) الزرق : النفرس .

قيل لكم: ولم لا يكون سبب الإصابة انتفاذاً وإعماً يصح لكم هذا التأويل والتخريج لو كان على صحة أحكام النجوم دليل قاطع ، هو غير إصابة النجم .

فأما إذا كان دليل صحة الأحكام الإصابة ، فهنا كان دأبل فسادها الخطأ ، فما أحدهما إلا في مقابلة صاحبه !

وبما قيل على أصحاب الأحكام ، إن قيل لهم في شيء معينه : حذوا الطلوع واحكموا ، أيؤخذ أم يترك ؟ فإن حكموا بأحدهما خولفوا ، وفعل خلاف ما أحبروا به ؛ وهذه المسألة قد أعضل عليهم جوابها .

وقال بعض المتكلمين لبعض النجّدين : أحبرني ، لو فرضنا حادثة مسلوكة ، وطريقاً يمشى فيها الناس سهاراً وليلاً ؛ وفي تلك اللحظة آبار متقاربة ، وبين بعضها وبعض طريق يحتاج ماله إلى تأمل وتوقف ؛ حتى يتخلص من القوط في بعض تلك الآبار ؛ هل يجوز أن تكون سلامة من يمشى بهذا الطريق من المميان كسلامة من يمشى فيه من البصرياء ، والفروض أن الطريق لا يحلو طرفة عين من مشاة فيها مميان ومبصرون ؟ وهل يجوز أن يكون عطب البصرياء مقاربا لعطب المميان ؟

فقال للنجم : هذا بما لا يجوز ، بل الواجب أن تكون سلامة البصرياء أكثر من سلامة المميان .

فقال المتكلم : قد بطل قولكم ؛ لأن سألنا نظير هذه الصورة ، فإن مثال البصرياء هم الذين يعرفون أحكام النجوم ، ويميزون مساعدتها من مناحمها ، ويتوقنون بهذه المعرفة مضار الوقت والحركات ويتخطونها ويستبدون مناقمها ويقصدونها ؛ ومثال المميان كل من لا يحسن علم النجوم ؛ ولا يقولون به من أهل العلم والعلامة ، وهم أضعاف أضعاف عدد النجّمين .

ومثال الطريق الذي فيه الآبار ، الزمان الذي مضى ومرّ على الخلق أجمعين ، ومثال آباره مصائبه ويحّنه .

وقد كان يجب - لو صبح علم أحكام النجوم - أن سلامة للنجسين أكثر ، ومصائبهم أقل ؛ لأنهم يتوقّون الحن ويتغطّونها لهم بها قبل كونها ، وأن تكون يحنّ للعرضين عن علم أحكام النجوم على كثرتهم أوفر وأظهر ؛ حتى تكون سلامة كل واحد منهم هي الطريقة القريبة ؛ والمعلوم خلاف ذلك ، فإن السلامة والحن في الجميع متقاربة متناسبة غير متفاوتة .



وأما البحث الحكيم في هذا الموضع ؛ فهو أن الحادث في عالم العناصر عند حلول الكوكب المخصوص في البرج المخصوص ؛ إما أن يكون يقتضي له مجرد ذلك الكوكب أو مجرد ذلك البرج ، أو حلول ذلك الكوكب في ذلك البرج - فالأولان باطلان ؛ وإلا لوجب أن يحدث ذلك الأمر قبل أن يحدث ، والثالث باطل أيضاً ؛ لأنه إما أن يكون ذلك البرج مساوياً لغيره من البروج في اللامية ، أو مخالفاً . والأول يقتضي حدوث ذلك الحادث حال ما كان ذلك الكوكب حالاً في غيره من البروج ؛ لأن حكم الشيء حكم مثله ، والثاني يقتضي كون كوكب البروج متخالفة الأجزاء في أنفسها ؛ وبإلزام في ذلك كونها مركبة ، وقد قامت الدلالة على أنه لا شيء من الأفلاك بمركب .

وقد اعترض على هذا الدليل بوجهين :

أحدهما : أنه لم لا يجوز أن تختلف أعمال الكواكب للتحيرة عند حلولها في البروج ، لا لاختلاف البروج في نفسها ، بل لاختلاف ما في تلك البروج من الكواكب الثابتة المختلفة الطوائع .

الوجه الثاني : لم لا يجوز أن يقال : الفلك التاسع مكوكب بكواكب صغار لا تراها

لغاية بعدها عنا ، فإذا تحركت في كرات تدويرها سامت مواضع مخصوصة من كرة الكواكب الثابتة ؛ وهي تلك البروج ، فاحتفت آثار الكواكب للتحيرة عند حلولها في البروج ، باعتبار اختلاف تلك الكواكب الصغيرة ؛ ولم لا يجوز إثبات كرة بين الكرة الثامنة ، وبين الفلك الأطلس المدبر لجميع الأفلاك من المشرق إلى المغرب ، وتكون تلك الكرة المتوسطة بينهما بطيئة الحركة بحيث لا تفي أعمارنا بالوقوف على حركتها ؛ وهي مكوبة بتلك الكواكب الصغار المختلطة الطبائع ؟

وأجيب عن الأول ، بأنه لو كان الأمر كما ذكر ، لوجب أن تختلف بيوت الكواكب وإشرافها وحدودها عند حركة التوابت بحركة فلكها ، حتى إنها تتقدم على مواضعها كل مائة سنة على رأى المتقدمين ، أو على كل ست وستين سنة على رأى التأخرين درجة واحدة ؛ لكن ليس الأمر كذلك ، فإن شرف القمر ، كما أنه في زماننا في درجة الثالثة من الثور ، فكذلك كان عند الذين كانوا قبلنا بألف سنة وبألفي سنة .

وأما الوجه الثانى فلا جواب عنه .



واعلم أن الفلاسفة قد عوّلت في إبطال القول بأحكام النجوم على وجه واحد ، وهو أن مبنى هذا العلم على التجربة ، ولم توجد التجربة فيما يدّعيه أرباب علم النجوم ، فإن هاهنا أمور لا تتكرر إلا في الأعمار المتطاوة مثل الأدوار والألوف التى زعم أبو معشر أنها هي الأصل في هذا العلم ، ومثل عمامة جُرم زحل للكرة المكوبة ، ومثل الطليق معدّل النهار على دائرة فلك البروج ، فإنهم يزعمون أن ذلك يقتضى حدوث طوفان الماء وإحاطته بالأرض من جميع الجوانب ، مع أن هذه الأمور لا توجد إلا في ألوف الألوف من السنين ؛ فكيف تصح أمثال هذه الأمور بالتجربة ؟

وأيضاً ، فإننا إذا رأينا حادثاً عند حلول كوكب مخصوص في برج مخصوص

فكيف نعلم استناد حدوثه إلى ذلك الحول ؟ فإن في الفلك كواكب لا تحصى ، فما الذي خصص حدوث ذلك الحدوث بحول ذلك الكوكب في ذلك البرج لا غيره ؟ وبقتدير أن يكون حلوله تأثير في ذلك ، فلا يمكن الجزم قبل حوله بأنه إذا حل في البرج المذكور لابد أن يحدث ذلك الحادث ، لجواز أن يوجد ما يبطل تأثيره ؛ نحو أن يحل كوكب آخر في برج آخر ، فيدفع تأثيره ، ويبطل عمله ؛ أو لعل المادة الأرضية لا تكون مستعدة لقبول تلك الصورة ، وحدوث الحادث ، كما يتوقف على حصول الفاعل يتوقف على حصول القابل ، وإذا وقع الشك في هذه الأمور بطل القول بالجزم بسلم أحكام النجوم ؛ وهذه الحجة جيدة إن كان المنجمون يطلبون القطع في علمهم .

فأما إن كانوا يطلبون الظن فإن هذه الحجة لا تنفذ قولهم .



فأما أبو البركات بن ملسكا البغدادي صاحب كتاب "المعتبر" فإنه أبطل أحكام النجوم من وجه وأثبتته من وجه .

قال : أما من يريد تطبيق علم أحكام النجوم على قاعدة العلم الطبيعي فإنه لا سبيل له إلى ذلك ؛ فإننا لا نتعلق من أقوالهم إلا بأحكام يحكمون بها من غير دليل ؛ نحو القول بحركة الكواكب وبرزدها أو رطوبتها ، وبهوستها واعتدالها ، كقولهم : إن زحل بارد باس ، والمشتري معتدل ؛ والاعتدال حير والإفراط شر ، ويتحكون من ذلك أن الخير يوجب سعادة ، والشر يوجب منجاسة ، وما جالس ذلك مما لم يقل به علماء الطبيعيين ولم تنتفعه مقدماتهم في أنظارهم ؛ وإنما الذي أنتهت هو أن الأجرام السماوية قعالة فيها نحوية وتشتمل عليه وتتحرك حوله فملا على الإطلاق غير محدود بوقت ؛ ولا مقدر بقتدير ، والقائلون بالأحكام ادعوا حصول علمهم بذلك ؛ من توقيف وتجربة لا يطابق نظر الطبيعي .

وإذا قلت بقول الطبيعي بحسب أنظاره أن المشتري سعد ، والمريخ نحس ، أو أن زحل

بارد يابس ، والريخ حار يابس ؛ والحار والبارد من اللدوسات ؛ وما دل على هذا المس
وما استدل عليه بلس كتأثيره فيها بلسه ؛ فإن ذلك لم يظهر للعس في غير الشمس ،
حيث تسخن الأرض بشعاعها ؛ ولو كان في السمايات شيء من طبائع الأضداد ؛ لكان
الأولى أن تكون كلها حارة ؛ لأن كواكبها كلها منيرة .

ومتى يقول الطبيب بتطبيع الفلك وتقسيمه إلى أجزاء ، كما قسمه النعمون قسمة وهمية
إلى بروج ودرج ودقائق ؛ وذلك جائز لمتوهم ، كهوازغيره ، وليس بواجب في الوجود ولا
حاصل ، فنقلوا ذلك التوهم الجائز إلى الوجود الواجب في أحكامهم ، وكان الأصل فيه على
زعمهم حركة الشمس والأيام والشهور ، فحصلوا منها قسمة وهمية ، وجعلوها كالحاصلة
الوجودية المشفرة بمحدود وخطوط ، كأن الشمس بحركتها من وقت إلى مثله خطت في السماء
خطوطا ، وأقامت فيها جذرا أو حدودا ، أو غيرت في أجزائها طباعا تسيرا يبق ، فيتق به
القسم إلى تلك الدرج والدقائق ، مع حوار الشمس عنها ، وليس في جوهر الملك اختلاف
يتميز به موضع عن موضع سوى الكواكب ، والكواكب تتحرك عن أماكنها ،
فبقيت الأمكنة على التشابه ، فهاذا تمييز بروج ودرجه ، ويبقى اختلافها بعد حركة التحرك
في سمتها ؛ وكيف بقيس الطبيعي على هذه الأصول ، وينتج منها نتائج وبحكم بحسبها أحكاما ؟
وكيف له أن يقول بالحدود ويعمل خمس درجات من برج الكوكب وقتا آخر ،
وأربعا آخر ، ويختلف فيها الهابلون والمصريون ، وجعلوا أرباب البيوت كأنها ملاك ،
والبيوت كأنها أملاك تثبت لأربابها بصكوك وأحكام الأسد الشمس والسرطان للقمر ؛
وإذا نظر الناظر وجد الأسد أسدا من جهة كواكب شكلوها بشكل الأسد ، ثم
انقلبت عن مواضعها وبقي الموضع أسداً وجمعوا الأسد للشمس . وقد ذهبت منه الكواكب
التي كأن بها أسدا كأن ذلك الملك بيت للشمس ، مع انتقال الساكن وكذلك
السرطان للقمر .

ومن الدقائق في العلم النجومى الممرجات المدارة والفريضة والمظلمة والنسبة والزائدة في السعادة ودرجات الآثار ؛ من جهة أسها أجزاء الفلك ؛ إن قطعوها وما انقطعت ؛ ومع انتقال ما ينتقل من الكواكب إليها وعنها ، ثم أنتحوا من ذلك نتائج أنظارهم ؛ من أعداد الدرج وأقسام الفلك ، فقالوا : إن الكوكب ينظر إلى الكواكب من ستين درجة نظر نسيدي لأنه سُدس من الفلك ، ولا ينظر إليه من خمسين ولا من سبعين ، وقد كان قبل الستين مئزر درج ، وهو أقرب من ستين ، وسعدها مئزر درج ، وهو أبعد من ستين لا ينظر . فليت شعري ما هذا العطر ! أرى الكواكب تظهر للكوكب ثم تختبئ عنه ، ثم شعاعه يحتلط بشعاعه عند حد لا يختلط به قبله ولا بعده !

وكذلك التربع ، من الرُبع الذى هو تسعون درجة ، والتثليث ، من الثلث الذى هو مائة وعشرون درجة ، فلم لا يكون التبعيض والنسب والتعشير على هذا القياس ! ثم يقولون : الحمل حار يابس ماري ، والنور بارد يابس أرحم ، والجوزاء حار رطب هوائي ، والسرطان بارد رطب مائي ! ما قال الطبيعي هذا قط ، ولا يقول به .

وإذا احتجوا وقاسوا كانت مبادئ قياساتهم الحمل بُرج ينقلب ؛ لأن الشمس إذا نزلت فيه ينقلب الزمان من الشتاء إلى الربيع ، والنور برج ثابت ؛ لأن الشمس إذا نزلت فيه ثبت الربيع على ربيعته .

والحق أنه لا ينقلب الحمل ولا يثبت النور ؛ بل هما على حالهما في كل وقت . ثم كيف يبقى دهره منقلبا مع خروج الشمس منه وحلولها فيه ! أتراها تحب في أثرا أو تحيل منه طباعا ؛ وتبقى تلك الاستعالة إلى أن تمود فتحددها ! ولم لا يقول قائل : إن السرطان حار يابس ، لأن الشمس إذا نزلت فيه يشتد حر الزمان ؛ وما يحاس هذا مما لا يلزم ؛ لاهو ولا ضده ؛ فليس في الفلك اختلاف يعرفه الطبيعي ، إلا بما فيه من الكواكب ، وهو في نفسه

واحد متشابه الجوهر والطبع ؛ ولكنها أقوال قال بها قاتل قتيلا قاتل ، وقاتلها قاتل ، فصن فيها ظن السامع ، واغتر بها من لا خبرة له ولا قدرة له على النظر .

ثم حَكَم بها الحاكِمون بحمد وردى ، وسلب وإيجاب ، وبت وتجاوز ، فصادف بمضه موافقة الوجود فصدق ، فيعتبر به المعتبرون ، ولم يلتفتوا إلى ما كذب منه فيكذبوه ؛ بل عذروا وقالوا : إنما هو منجم ؛ وليس بهى حتى يصدق فى كل ما يقول ؛ واعتذروا له بأن العلم أوسع من أن يحيط به أحد ، ولو أحاط به أحد لصدق فى كل شيء ؛ ولم يراقه أنه لو أحاط به علما صادقا لصدق ، والشأن فى أن يحيط به على الحقيقة ، لأن يفرض فرضا ، ويحكم وحما ، فينقله إلى الوجود وينسب إليه ، ويقيس عليه .

قال : والذي يصح من هذا العلم وينتفيت إليه العقلاء ؛ هي أشياء غير هذه الترجمات التى لأصل لها ؛ فاحصل توقيف أو تجربة حقيقة كالتقرانات واللقابة ، فإنها أيضا من جملة الاتصالات ؛ كالمقارنة من جهة أن تلك غاية القرب ؛ وهذه غاية البعد ؛ ونحو عمر كوكب من المتعيرة ، تحت كوكب من الناضجة ، ونحو ما يمرض للمتغيرة من رجوع واستقامة وارتفاع فى شمال ، وانخفاض فى جنوب ، وأمثال ذلك .

فهذا كلام ابن ملكا كما تراه بطل هذا الفن من وجه ، ويقول به من وجه .



وقد وقت لأبى جعفر محمد بن الحسين الصنعائى المعروف بالخازن ، صاحب كتاب "زيج الصفايح" على كلام فى هذا الباب مختصر له سماه "كتاب العالمين" ، أنا ذاكره فى هذا الموضع على وجهه . لأنه كلام لا بأس به ، قال : إن بعض المصدقين بأحكام النجوم وكل الكذابين بها ، قد زاعوا عن طرق الحق والصواب فيها . فإن الكثير من المصدقين بها قد أدخلوا فيها ما ليس بها ، وأدغموا ما لم يكن إدراكه بها ، حتى كثف فيها خلطهم ، وظهر كذبهم ، وحصار ذلك سبب لتكذيب أكثر الناس بهذا العلم .

فأما المكذبون به فقد بلغوا من إنكار صحيحه ورد ظاهره إلى أن قالوا : إنه لا يصح منه شيء أصلاً ، ونسبوا أهله إلى الرزق والاحتيايل والخداع والتمويه ، فلذلك رأينا أن نتبدى بتبيين صحة هذه الصناعة ، ليظهر فساد قول المكذبين لها بأسرها ، ثم نبين ما يمكن إدراكه بها ليعطل دعوى المدعين فيها ما يمنع وحوذه بها .

أما الوجوه التي بها تصح صناعة الأحكام فهي كثيرة ، منها ما يظهر لجميع الناس من قبل الشمس ، فإن حدوث الصيف والشتاء وما يعرض فيهما من الحر والبرد والأمطار والرياح ونبات الأرض ، وخروج وقت الأشجار وحملها الثمار ، وحركة الحيوان إلى النسل والتوالد وغير ذلك ، مما يشاكله من الأحوال ، إنما يكون أكثر ذلك بحسب دنو الشمس من سمت الرءوس في ناحية الشمال ، وتباعدها منه إلى ناحية الجنوب ، ويفضل قوة الشمس على قوة القمر ، وقوى سائر الكواكب ظهر ما قلناه لجميع الناس .

وقد ظهر لهم أيضاً من قتل الشمس في تسير الهواء كل يوم ؛ عند طلوعها ، وعند توسطها السماء ، وعند غروبها مالا يخاف به من الآثار .

ومن هذه الوجوه ما يظهر للفلاحين ولللاحين بأدنى تفقد للأشياء التي تحدث . فإنهم يعلمون أشياء كثيرة من الآثار التي يؤثرها القمر وأنوار الكواكب الثابتة ، كالمد والجزر ، وحركات الرياح والأمطار وأوقاتها عند الحدوث ، وما يوافق من أوقات الزراعات ومالا يوافق ، وأوقات اللقاح والنتاج .

وقد يظهر من آثار القمر في الحيوان الذي يتوالد في الماء والرطوبات ما هو مشهور لا ينكر .

ومما جهات أخرى يعرفها المجتهدون فقط على حسب فصل علمهم ، ودقة نظرهم في هذا

العلم . وإذا قد وصفنا على سبيل الإجمال ما يوجب حقيقة هذا العلم ، فإننا نصِف ما يمكن إدراكه به أو لا يمكن ، فنقول : لما كانت تغيرات الهواء ، إنما تحدث بحسب أحوال الشمس والقمر والكواكب المتغيرة والثابتة ، صارت معرفة هذه التغيرات قد تدرك من النجوم مع سائر ما يتبعها من الريح والسحاب والأمطار والثلج والبرد والرعد والبرق ؛ لأن الأشياء التي تَلِي الأرض وتصل إليها هذه الآثار من الهواء المحيط بها ، كانت الأعراض العامة التي تعرض في هذه الأشياء تابعة لتلك الآثار ؛ مثل كثرة مياه الأنهار وقلتها ، وكثرة الثمار وقلتها وكثرة خضب الحيوان وقلته ، والحدوة والقحط ، والوباء والأمراض التي تحدث في الأجاس والأصواع ، أو في جس دون جنس ، أو في نوع دون نوع ، وسائر ما يشاكل ذلك من الأحداث .

ولما كانت أخلاق النفس تابعة لمزاج البدن كما كانت الأحداث التي ذكرناها متبعة لمزاج البدن ، صارت أيضاً متبعة للأخلاق ، ولأن المزاج الأول الأصلي هو القالب على الإنسان في الأمر الأكثر ، وكان المزاج الأصلي هو الذي طبع عليه الإنسان في وقت كونه في الرحم ، وفي وقت مولده وخروجه إلى جوف العالم . صار وقت السكون ووقت المولد أدل الأشياء على مزاج الإنسان ، وعلى أحواله التابعة للمزاج ، مثل خلقة البدن ، وخلق النفس والمرض والصحة ، وسائر ما يتبع ذلك ، فهذه الأشياء وما يشبهها من الأمور التي لا تشارك شيئاً من الأفعال الإرادية فيه مما يمكن معرفته بالنجوم ، وأما الأشياء التي تشارك الأمور الإرادية بعض المشاركة ، فقد يمكن أن يصدق فيها هذا العلم على الأمر الأكثر ، وإذا لم يستعمل فيه الإرادة جرى على ما تعود إليه الطبيعة .

على أنه قد يمرض الخطأ والغلط لأصحاب هذه الصناعة من أسباب كثيرة ، بعضها يختص بهذه الصناعة دون غيرها ، وبعضها يعمها وغيرها من الصنائع .

فأما ما يعمّ فهو من قصور طبيعة الناس في معرفة الصنائع أيّا كانت عن بلوغ النجاة فيها ، حتى لا يبقى وراءها غاية أخرى ، فكثرة الخطأ وقتله على سبب تقصير واحد من الناس .

وأما ما يخصّ هذه الصناعة فهو كثير ما يحتاج صاحبها إلى معرفته ، ممّا لا يمكنه أن يعلم كثيراً منه إلا بالحدس والتحمين ، فضلاً عن لطف الاستنباط وحسن القياس ، ومما يحتاج إلى معرفة علم أحوال الدّلك ، ومما يحدث في كل واحد من تلك الأحوال ، فإن كل واحد منها له فعل خاص ، ثم يؤلف تلك الأحوال بعضها مع بعض على كثرة فنونها واختلافاتها ، ليحصل من جميع ذلك قوّة واحدة ، وفعل واحد ، يعكّون عنه الحادث في هذا العالم ، وذلك أمر عسير ، فحق أغفل من ذلك شيء كان الخطأ الواقع بحسب الشيء الذي سببها عنه وترك استعماله .



ثم من بعد تحصيل ما وصفناه ينبغي أن يعلم الحال التي عليها يؤاقي في تلك القوّة الواحدة الأشياء التي نعرّض فيها تلك الأحداث ، كأنه مثلاً إذا دل ماني الدّلك على حدوث حرّ ، وكانت الأشياء التي يعرض فيها ما يعرض قد مرّ بها قبل ذلك حرّ ، فتميت وسفخت أثر ذلك فيها أثراً قوياً ، فإن كان قد مرّ بها برّد قبل ذلك ، أثر ذلك فيها أثراً ضعيفاً ، وهذا شيء يحتاج إليه في جميع الأحداث التي تسأل في غيرها بما يناسب هذه المعرفة .

وأما الأحداث التي تخصّ ناحية ناحية ، أو قوماً قوماً ، أو جنساً جنساً ، أو مؤلفاً واحداً من الناس ؛ فيحتاج مع معرفتها إلى أن يعلم أيضاً أحوال البلاد والمعادات ، والأغذية والأوباء وسائر ما يشبه ذلك ، ممّا له فيه أثر وشركة ، مثل ما يفعل الطبيب في المعالجة ، وفي تقديم المعرفة ، ثم من بعد تحصيل هذه الأشياء كلّها ينبغي أن ينظر في الأمر الذي قد استدلّ على حدوثه ، هل هو ممّا يمكن أن يرد أو يخلاني بما يطله أو ينيره من جهة

الطب والهيل أم لا؟ كأنه مثلاً استدل على أنه يصيب هذا الإنسان حرارة يحم منها ،
فوينبئ أن يحكم بأنه يحم إن لم يتلاف تلك الحرارة بالتبريد ، فإنه إذا فعل ذلك أنزل الأمور
منازلها ، وأجراها مجاريها .

ثم إن كان الحادث قوياً لا يمكن دفعه ببعض ما ذكرنا ، فليس يلزم الحاجة إلى ما قلنا ،
فإن الأمر يحدث لا محالة ، وما قوى وشمل الناس فإنه لا يمكن دفعه ولا فسحه ، وإن أمكن
فإنما يمكن في بعض الناس دون بعض .

وأما أكثرهم فإنه يجري أمره على ما قد شمل وحم ، فقد يحم الناس حر الصيف ، وإن
كان بعضهم يحتمل في صرغه بالأشياء التي تبرد وتنفي الحر .

فهذه جملة ما ينسئ أن يعلم ويعدل عليه أمور هذه الصناعة .



قلت : هذا اعتراف بأن جميع الأحداث المتعلقة باختيار الإنسان وغيره من الحيوان
لا مدخل لهم أحكام النجوم فيه ، فلي هذا لا يصح قول من يقول منهم لزيد مثلاً :
إليك تزوج أو نشترى فرساً ، أو تقتل عدواً أو تسافر إلى بلد ونحو ذلك ، وهو أكثر
ما يقولونه ويحكمون به .

وأما الأمور السككية الحادثة لا ياردة الحيوان واختياره ، فقد يكون لسلامهم فيه
وجه من الطريق التي ذكرها ، وهي تمتق كثير من الأحداث بحركة الشمس والقمر ،
إلا أن العلوم ضرورية من دين رسول الله صلى الله عليه وآله إبطال حكم النجوم وتحريم
الاعتقاد بها والنهي والزجر عن تصديق المنجمين ، وهذا معنى قول أمير المؤمنين في هذا
الفصل : « فن صدقك بهذا فقد كذب القرآن ، واستغنى عن الاستعانة بالله » . ثم أردف

ذلك وأكده بقوله : كان يجب أن يحمّد المنجم دون الباري تعالى ؛ لأن المنجم هو
الذي هدى الإنسان إلى الساعة التي ينفع فيها، وصدّه عن الساعة التي يحقق ويكثّر فيها
فهو المحسن إليه إذا ، والمحسن يستحقّ الحمد والشكر ، وليس للبارئ سبحانه إلى الإنسان في
هذا الإحسان الخصوص ؛ فوجب ألا يستحقّ الحمد على خلق الإنسان بطلبه ؛ لكن
القول بذلك والنزاهة كفر محض .

(٧٩)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام بعد فراغه من حرب الجمل في ذم النساء :

مما شير الناس ؛ إن النساء تواقص الإيمان ، تواقص الحفظ ، تواقص العقول .
فأما نقصان إيمانهم فعمودهن عن الصلاة والصيام في أيام حيضهن ، وأما نقصان
عقولهن فشهادة أمراتهن منهن كغشادة الرجل الواحد ، وأما نقصان حفظهن
فموازيتهن على الأنصاف من موازيته الرجال .
فاتقوا شير النساء ، وكونوا من خيارهن على حذر ، ولا تطيعوهن في المعروف
حتى لا يظعنن في السكر .

الشرح :

جمل عليه السلام نقصان الصلاة نقصاناً في الإيمان ، وهذا هو قول أصحابنا : إن
الأعمال من الإيمان ، وإن المقر بالتوحيد والنبوة ، وهو تارك للعمل ليس مؤمن .
وقوله عليه السلام « ولا تطيعوهن في المعروف » ، ليس ينهى عن فعل المعروف ؛
ولما هو ينهى عن طاعتهم ، أي لا تفعلوه لأجل أمرهن لكم به ، بل افعلوه لأنه معروف ،
والكلام ينحو نحو المثل المشهور : « لا نمط العبد كراماً فيأخذ ذراعاً » .
وهذا الفصل كله رمز إلى عائشة ولا يختلف أصحابنا في أنها أخطأت فيما فعلت ثم تاب
وماتت تائبة ، وأنها من أهل الجنة .

قال كل من صنف في السير والأخبار : إن عائشة كانت من أشد الناس على عثمان ؛ حتى إنها أخرجت ثوباً من ثياب رسول الله صلى الله عليه وآله ، فنصبته في منزلها ، وكانت تقول للداحلين إليها : هذا ثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يبل ، وعثمان قد أبلى سنته .

قالوا : أول من سمي عثمان نعتاً عائشة ؛ والقتل : الكثير شر الأهلية والجسد ، وكانت تقول : اقتلوا مثلاً ، قتل الله مثلاً !

وروى المدائني في كتاب " الجمل " ، قال : لما قتل عثمان ، كانت عائشة بمكة ، وبلغ قتله إليها وهي شراف ، فلم تشك في أن طلعة هو صاحب الأمر ، وقالت : بعداً لنمثل وسحقاً إياه ذا الإصبع إياه أبا شبل إياه بان عم ؛ لكأنني أنظر إلى إصبعه وهو يبايع له : حنوا الإبل ودعدعوها^(١) .

قال : وقد كان طلعة حين قتل عثمان أحد معانيع بيت المال ، وأخذ بحائب كانت لثمان في داره ، ثم فسد أمره ، فدفعها إلى علي بن أبي طالب عليه السلام

[أخبار عائشة في خروجها من مكة إلى البصرة بعد مقتل عثمان]

وقال أبو مخنف لوط بن يحيى الأردني في كتابه : إن عائشة لما تعلمت مقتل عثمان وهي بمكة ، أقبلت مسرعة ، وهي تقول : إياه ذا الإصبع الله أبوك ! أما إنهم وجدوا طلعة لها كفوا . فلما انتهت إلى شراف استقبلها عبيد بن أبي سلمة اللبني ، فقالت له : ما عندك ؟ قال : قتل عثمان ، قالت : ثم ماذا ؟ قال : ثم حارت بهم الأمور إلى خير محار ؛ بايعوا علياً ، فقالت : لوددت أن السماء انطبقت على الأرض إن ثم هذا ، ونحك ! انظر ما تقول ! قال : هو ما قلت لك يأم المؤمنين ، فولدت ، فقال لها : ما شأنك يأم المؤمنين !

(١) الدعدة : الزجر .

والله ما أعرف بين لابتئها أحدا أولى به منه ولا أحق ؛ ولا أرى له نظيرا في جميع حالاته ، فلماذا تكبرهين ولا يته ؟ قال : فما ردت عليه جوابا .

قال : وقد روى من طرق مختلفة أن عائشة لما تلما قتل عثمان وهي بمكة ، قالت : أبعد الله ! ذلك بما قدمت يداي ، وما الله بظلام للعبيد .

قال : وقد روى قيس بن أبي حازم أنه حج في العام الذي قتل فيه عثمان وكان مع عائشة لما باضا قتلها ، فتحتل إلى المدينة ، قال : فسمعها تقول في بعض الطريق : إيه ذا الإصبع ! وإذا ذكرت عثمان قلت : أبعد الله ! حتى أتاهما حبر بيعة علي ، فقالت : لوددت أن هذه وقعت علي هذه ، ثم أمرت برد ركايتها إلى مكة فردت معها ، ورأيتها في سيرها إلى مكة تخاطب نفسها ، كأنها تخاطب أحدا : قتلوا ابن عفان مظلوما ، فقلت لها : يا أم المؤمنين ، ألم اسمعك آتيا تقولين : أبعد الله ، وقد رأيتك قل أشد الناس عليه وأقبحهم فيه قولا ! فقالت : لقد كان ذلك ، ولكني نظرت في أمره ، فرايتهم استنابوه حتى إذا تركوه كالهيئة للبيضاء أنوّه صائغا محرما في شهر حرام فقتلوه .

قال : وروى من طرق أخرى أنها قالت لما بلما قتل أبعد الله ! قتل ذنبه ، وأقاده الله ! الله ! يا معشر قريش لا يسومنكم قتل عثمان ، كما سام أحمر غنود قومه ، إن أحق الناس بهذا الأمر ذو الإصبع ، فما جاءت الأحبار بيعة علي عليه السلام ، قالت : تعيسوا تعيسوا ! لا يردون الأمر في تيم أبدا .

كتب طلحة والزبير إلى عائشة وهي بمكة كتابا : أن حذلي الناس عن بيعة علي ، وأظهرى الطلب بدم عثمان ، وحلوا الكتب مع ابن أختها عبد الله بن الزبير ، فلما قرأت الكتاب كاشفت وأظهرت الطلب بدم عثمان ؛ وكانت أم سلمة رضي الله عنها بمكة في ذلك العام ؛ فلما رأت صنع عائشة ، قابلتها بقميص ذلك ، وأظهرت موالاته علي عليه السلام ونصرتة على مقتضى المداراة للركورة في طباع الصرطين .

قال أبو مخنف : جاءت عائشة إلى أم سمة تخادعها على الخروج للطلب بدم عثمان ، فقالت لها : يا بنت أبي أمية ، أنت أول مهاجرة من أرواح رسول الله صلى الله عليه وآله وأنت كبيرة أمهات المؤمنين ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله يقسم لنا من بيتك ، وكان جبريل أكثر ما يكون في منزلك ، فقالت أم سمة : لأمر ما قلت هذه المقالة ، فقالت عائشة : إن عبد الله أحزنني أن القوم استنابوا عثمان ، فلما تاب قتلوه صائما في شهر حرام ، وقد هزمت على الخروج إلى البصرة ومضى الزبير وطلحة ، فاخرجني معي ، لعل الله أن يصلح هذا الأمر على أبدنا ، يا ، فقالت أم سمة : إنك كنت بالأمس تحرضين على عثمان ، وتقولين فيه أحبت القول ، وما كان اسمه عندك إلا تمثلا ، وإياك لتعرفين منزلة علي بن أبي طالب عند رسول الله صلى الله عليه وآله ، أفأذكرك ؟ قالت : نعم ، قالت : أتذكرين يوم أقبل عليه السلام ونحن معه ؟ حتى إذا هبط من قديد ذات الشمال ، خلا بعلى ينجيه فأطال ، فأردت أن تهوى عليهما ، فهبطت فمضيت عليهما ، فما لهيت أن رجعت باكية ، فقلت : ما شأنك ؟ فقالت : إني هجمت عليهما وهما يتناجيان فقلت لعلى : ليس لي من رسول الله إلا يوم من تسعة أيام ، أفما تدعني يا بن أبي طالب ويومى ؟ فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم علي ، وهو عصيان محمدا الوجه ، فقال : ارجعي وراءك ، والله لا يبنصه أحد من أهل بيتي ولا من غيرهم من الناس إلا وهو خارج من الإيمان ، فرجعت مادمة ساقطة ! قالت عائشة : نعم أذكر ذلك .

قالت : وأذكرك أيضا ، كنت أنا وأنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنت نفسلين رأسه ، وأنا أحبس له حيا ، وكان الحيس^(١) يمجبه ، فرفع رأسه ، وقال : « يا ليت شعري ، أين تكن صاحبة الجمل الأذن ، تتبعها كلاب الحوجب ، فتكون ماكبة

(١) الحيس : تمر يملأ بسس وألف يجمع ويملك حتى تقترج ثم يدر نواه .

عن الصراط ا « فرقت بدي من الحبس ، قلت : أعودُ بالله وبرسوله من ذلك ، ثم ضربَ على ظهرك ، وقال : « إياك أن تكونيها » ثم قال : يا بنت أُميَّة ؛ إياك أن تكونيها يا حبيراء ، أما أنا فقد أُنذرتك » ، قالت عائشة : نعم أذكر هذا .

قالت : وأذكرُك أيضاً كنتُ أنا وأنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر له ، وكان عليّ يتعاهد نَسْلِي رسول الله صلى الله عليه وسلم فيحصبها ^(١) ، ويتعاهد أثوابه فيفسلها ، فنَقِبت ^(٢) له نملٌ ، فأحدها يومئذ يحصبها ، وقعد في ظلِّ شجرة ، وجاء أبوك ومعه عمر ، فاستأدنا عليه ، فقمتا إلى الحجاب ، ودخلا بمحادثاته فيها أراد ، ثم قالَا : يا رسول الله إنا لا ندرى قدر ما نصحبنا ، فوأعلتنا مَنْ يستحلف علينا ، ليسكون لنا بعدك مفرعاً ؟ فقال لهما : أما إني قد أرى مكانه ، ولو فعلت لتفرقتم عنه . كما تفرقت بنو إسرائيل عن هارون بن عمران ^(فكنا ثم خرج) ، فلما خرجنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قلت له ، وكنت أجراً عليه ميت : مَنْ كنت يا رسول الله ، مستحلها عليهم ؟ فقال : خائف النمل ، فطردنا فلم نر أحداً إلا علياً ، قلت : يا رسول الله ، ما أرى إلا علياً ، فقال : هو ذاك ، قلت عائشة : نعم أذكر ذلك ، فقالت : فأبى خروج تخرجين بعد هذا ؟ فقالت : إنما أخرج للإصلاح بين الناس وأرجو فيه الأجر إن شاء الله ، فقالت : أنت ورأيك ، فأنصرفت عائشة عنها ، وكنت أم سمة بما قالت وقيل لها إلى علي عليه السلام .

فإن قلت : فهذا نصٌّ صريح في إمامة علي عليه السلام ، فما تصنع أنت وأصحابك للمتزلة به ؟

قلت : كلاً إنا ليس بدين كما ظننت ، لأنه صلى الله عليه وآله لم يقل : قد استخففته ، وإنما قال : « لو قد استخففت أحداً لاستحلته » ، وذلك لا يقتضي حصول الاستحلاف ؛

(١) حصب النمل : حرره

(٢) نقبت النمل : ثقت .

ويجوز أن تكون مصلحة المكلفين متعلقة بالنص عليه لو كان النبي صلى الله عليه وآله مأموراً بأن ينص على إمام بعينه من بعده ، وأن يكون من مصلحتهم أن يختاروا لأنفسهم من شاءوا إذا تركهم النبي صلى الله عليه وآله وآراءهم ولم يعين أحداً .

• • •

وروى هشام بن محمد الكلبي في كتاب " الجمل " أن أم سلمة كتبت إلى علي عليه السلام من مكة : أما بعد ، فإن طلحة والزبير وأشياعهم أشياع الضلالة ، يريدون أن يخرجوا بعائشة إلى البصرة ومهم عبد الله بن عامر بن كرز ؛ وبذكرون أن عثمان قُتل مظلوماً ، وأنهم يطلبون بدمه ؛ والله كافيهم بحوله وقوته ؛ ولولا ما نهاها الله عنه من الخروج ، وأمرنا به من لزوم البيت لم أفع الخروج إليك ، والنصرة لك ؛ ولكي باعته بحوك ابني ، عدل^(١) نفي عمر بن أبي سلمة ، واستوصي به بأمر المؤمنين خيراً .

قال : فلما قدم عمر على علي عليه السلام كرمه ، ولم يزل مقبلاً معه حتى شهد مشاهدته كلها ، ووجهه أميراً على البحرين . وقال لأن عمر : بلعني أن عمر يقول الشعر ، فأبست إلى من شعره ، فبست إليه بأبيات له أولها :

جزتلك أمير المؤمنين قرابةً رفعت بها ذكرى عزاء موقراً
فمحب علي عليه السلام من شعره واستحسنه .

• • •

ومن الكلام المشهور الذي قيل : إن أم سلمة رَحِمَها اللهُ ، كتبت به إلى عائشة : إني بك جنة بين رسول الله صلى الله عليه وآله وبين أمته ، وإن الحجاب دونك لغروب على حرمة ، وقد جمع القرآن ذيلك فلا تندحيه ، وسكن عقيرك فلا تُصعريها ، لو أدكرتك قولة من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تعرفيها لتهت بها نهش الرقشاء للطريقة . ما كنت

(١) عدل نفسي : مثلاً .

قائلة لرسول الله صلى الله عليه وآله لو لقيك ناصّة قلوص قعودك من منهل إلى منهل قد تركت عهداء ، وهتكت ستره ، إن عمود الدين لا يقوم بالنساء ، وصدعه لا يرأب بهن ، محاديات النساء خفض الأصوات وحفر الأعراض ، اجعلي قاعدة البيت قبرك حتى تلقينه ، وأنت على ذلك .

فقلت عائشة : ما عرفني منصعك ، وأقبلني لو عطك ! وليس الأمر حيث تذهبين ؛ ما أنا بمسمة من رأيك ، فإن أقيم في غير حرج ، وإن أخرج في إصلاح بين فئتين من المسلمين .

وقد ذكر هذا الحديث أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة في كتابه المصنف في " غريب الحديث " في باب أم سلمة ، على ما أورده عليك ، قال :

لما أرادت عائشة الخروج إلى البصرة ، انتهام سلمة ، فقالت لها : يا لك سدة بين محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين أمته ، وحجابك مضروب على حرمته ، قد جمع القرآن ديك فلا تشدّ حيه ، وسكن عقيرك فلا تُصعريها ، الله من وراء هذه الأمة ، لو أراد رسول الله صلى الله عليه وآله أن يسد إليك عنداً علّت علّت ؛ بل قد نهاك عن القرطة في البلاد ؛ إن عمود الإسلام لا يُثأب بالنساء إن مال ، ولا يرأب بهن إن صدع ، محاديات النساء غص الأظراف وحفر الأعراض وقصر الوهازة ؛ ما كنت قائلة لو أن رسول الله صلى الله عليه وآله عارضك بشد الفلوات ، ناصّة قلوصاً من منهل إلى آخر ، إن بين الله مهواك ، وعلى رسوله تردين ؛ وقد وجهت سدافته - ويروى سجافته - وتركت عهداء . لو سرت مسيرك هذا ثم قبل لي ؛ ادخلي الفردوس لا ستحييت أن أنق محمد صلى الله عليه وسلم هاتكة حجاباً ، وقد ضرب به على ، اجعلي حصنك بيتك ، ووقاعة السرق قبرك ؛ حتى تلقينه ، وأنت على تلك أطوع ما تكونين لله

بالرقبة ، وأنصر ما تكون للدين ما حلت منه . لو ذكرتك قولاً تعرفينه لنهشت به تهش
الرقشاء المطرقة .

فقلت عائشة : ما أقبلني لو عظمتك أو ليس الأمر كما تظنين ، ولنعم المسير مسير فزعت فيه
إلى فئتان متناجرتان - أو قالت متناحرتان - إن أقعدتني غير حرج ، وإن أخرج فلان
مالاً بدت لي من الأزد ياد منه .

تفسير ضرب هذا الخبر

السُّدَّة : الباب ؛ ومنه حديث رسول الله صلى الله عليه وآله أنه ذكر أول مَنْ
يرُدُّ عليه الخوض ، فقال : الشُّمْتُ رءوساً ، الدُّسُّ ثياباً ، الذين لا تفتح لهم السُّدَّة ،
ولا ينكحون المتبهمات ؛ وأرادت أم سلمة أنك باب بين النبي صلى الله عليه وآله
وبين الناس ، فتى أصيب ذلك الباب شيء ، فقد دخل على رسول الله صلى الله عليه
وآله في حرمة وحوزته ، واستبج ما جاء ، تقول : فلا يكون استحيب ذلك بالخروج
الذي لا يحب عليك ، فعوجى الناس إلى أن يفعلوا ذلك . وهذا مثل قول نهمان بن مقرن
للسلمين في غزاة نهاوند : ألا وإناكم باب بين المسلمين ولشركين ، إن كسر ذلك الباب
دخل عليهم منه .

وقولها : « قد جمع القرآن ذيلك فلا تندحيه » ، أى لا تفتحيه ولا تؤسّميه بالحركة
والخروج ؛ يقال : مدحتُ الشيء إذا وسّمته ، ومنه يقال : فلان فى مندوحة عن كذا ، أى
فى سعة ؛ تريد قول الله تعالى : « وَتَقَرَّنْ فِي بُيُوتِكُنَّ » ^(١) . ومن روى « تندحيه » بالباء
فإنه من البَدَاح وهو المنسج من الأرض ؛ وهو معنى الأول .

وسكن عَقِيرَاكَ ، من عَقَر الدار وهو أصلها ؛ أهل الحجاز يضنون العين ؛ وأهل نجد
يفصحونها . وعَقِيرُ اسم مبي من ذلك على صيغة التضمير ؛ ومثله عما جاء مصفراً « الثريّا »
و« الحمياء » وهو سورة الشراب قال ابن قتيبة : ولم اسمع « يعقيرا » إلا فى هذا الحديث .

قولها : « فلا تُصعربها » ، أى لا تُبْرِزها وتُجملها بالصعراء ، يقال : أصعَرَ ، كما يقال : أنجد وأسهل وأحزن .

وقولها : « الله من وراء هذه الأمة » ، أى محيط بهم وحافظ لهم وعالم بأحوالهم ، كقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ﴾ ^(١) .

قولها : « لو أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم » الجواب مخوف ، أى لفعل ولتهد ؛ وهذا كقوله تعالى : ﴿ وَتَوَّأْنُ أَنْ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ ﴾ ^(٢) ، أى لكان هذا القرآن .

قولها : « عُلْتُ عُلْتُ » ؛ أى جرت في هذا الخروج ، وعدلت عن الجواب ، والعول : الميل والجور ، قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ أَتَى الْأَلَمُولُ ﴾ ^(٣) . ومن الناس من يرويه « عِلْتُ عِلْتُ » بكسر العين ، أى ذهبت في البلاد وأبعدت قلبي ، يقال : عال فلان في البلاد ، أى ذهب وأبعد ؛ ومنه قيل للذئب : عيال .

قولها : « عن الفَرَطَةِ في البلاد » ، أى عن السفر والشخوص ، من الفَرَط وهو السبق والقدم ، ورجل قارط : أتى للقاء ، أى سابق .

قولها : « لا بُشَابَ بالنساء » ، أى لا يرذهن إن مال إلى استوائه ؛ من قولك : ثاب فلان إلى كذا ، أى عاد إليه .

قولها : « ولا يرأب بين إن صدع » ، أى لا يسد بين ، ولا يجمع ، والصدع : الشق ، ويروى : « إن صدع » بفتح الصاد والهمزة ، أى لا يجرؤه مجرى قولهم : جبرت العظم فجبر .

قولها : « حاديات النساء » يقال : حاداك أن تفعل كذا مثل « قصارك أن تفعل كذا » أى جهدك وغايتك .

(١) سورة العروج ٨٥ .

(٢) سورة الرعد ٣١ .

(٣) سورة النساء ٣ .

وغض الأطراف؛ جمعها، وخفر الأعراض، الخفر: الحياء، والأعراض، جمع عرض وهو الجسد، يقال: فلان طيب العرض، أى طيب ربح البدن؛ ومن رواه «الإعراض» بكسر الهمزة جملته مصدرا؛ من أعرض عن كذا.

قولها: «وَقَصْرُ الْوِهَازَةِ»، قال ابن قتيبة: سألت عن هذا فقال لي مَنْ سَأَلَهُ: سألتُ عنه أعرابيا فصيحاً فقال: الوهَازة: الخطوة، يقال للرجل: إنه لمتوهز ومتوهر، إذا وطمى ومطناً ثقيلًا.

قولها: «مَاصَّةٌ قُلُوصًا»، أى رافعة لها فى السير، والنص: الرفع، ومنه يقال: حديث منصوص، أى مرفوع، والقُلُوص من النوق: الشابة وهى بمنزلة الفتاة من النساء. والمهل: الماء ترده الإبل.

قولها: «إِنْ يَمِينُ اللَّهِ مَهْوَاكَ»، أى إِنْ اللَّهُ يَرَى سِرَّكَ وَحَرَكَتَكَ، والهوى: الابداع فى السير من التحد إلى المَوْر.

قولها: «وَعَلَى رَسُولِهِ نَرْدِينِ»، أى تَقْدِمِينَ فى الْقِيَامَةِ.

قولها: «وَقَدْ وَجَّهْتُ سِدَّاقَهُ»، السدانة: المحلب والستر، هى من أسدَف الليل إذا ستر بظلمته، كأنه أرخى ستورا من العلام، ويروى بفتح السين، وكذلك القول فسجاقته؛ إنه يروى بكسر السين وفتحها، والسدافة والسجافة بمعنى.

ووجهت، أى نظمتها بالخرز، والوجيبة: خرزة معروفة، وعادة العرب أن تنظم على الحمل خرزات إذا كان للنساء.

قولها: «وَتَرَكْتُ عُيَيْدَاهُ»، لفظة مصعرة مأخوذة من العَيْد، مشابهة لما سلف من قولها: «عُقَيْرَاكَ» و «حَادِيَاتِ النِّسَاءِ».

قولها: «وَوِيقَاعَةُ السَّرِّ» أى موقفه على الأرض إذا أرسلته، وهى اللقمة أيضا، وموقفه الطائر.

قولها : « حق تلقينه وأنت على تلك » ، أى على تلك الحال ، فعذف .

قولها : « أطوع مانكونين لله إذا لزمته » ، أطوع : مجتهداً ، وإذا لزمته : خير المبتدأ ، والضمير فى لزمته راجع إلى المهد والأمر الذى أمرت به .

قولها : « لنهشت به نهش الرقشاء للطريقة » ، أى لمضك ونهشك ما أذكركه لك وأذكرك به كما تنهشك أفعى رقشاء ، والرقش فى ظهرها ، هو النفط ، والجرادة أيضاً رقشاء ، قال النابغة :

فبت كاني ساور نبي ضيلة من الرقش فى أياها شمش نافع^(١)

والأفعى بوصف بالإطراق ؛ وكذلك الأسد والنمر والرحل الشجاع ؛ وكان معاوية يقول فى علي عليه السلام : الشجاع بطريق ، وقال الشاعر وذكر أفعى :

أسم أمى ما يحيب الرق من طول إطراق وإشبات^(٢)

قولها : « فستان متناجرتان » ، أى تسرع كل واحدة منهما إلى نفوس الأخرى ، ومن رواه « متناجرتان » أراد الحرب وطعن النصارى بالأسنة ، ورشقها بالسهم . وفزعت إلى فلان فى كذا ، أى لدت به والتعأت إليه .

وقولها : « إن أقصد فى غير حرج » أى فى غير إهم ، وقولها : « فإن أخرج فى مال لا بدلى من الازدياد منه » ، كلام من يعتقد المصيبة فى الخروج ، أو يعرف موقع الخطأ ويصر عليه .

■ ■ ■

لما عزمتم عائشة على الخروج إلى البصرة طلبوا لها ميراً أيداً يحمل هوذجها ، فجاءهم يعلى بن أمية بعبيره الذى عسكراً ، وكان عظيم الخلق شديداً ، فلما رآته أعجبها ، وأنشأ الجملال يحدثها بقوته وشدته ، ويقول فى أثناء كلامه : « مكر » ، فلما سمعت هذه اللفظة ، استرجعت ، وقالت : ردوه لاحتاجة لى فيه ، وذكرت حيث مثلت أن رسول الله

(١) ديوانه : ١٠٠

(٢) اللسان ٢ : ٣٤٣ ، من غير نسخة .

صلى الله عليه وآله ذكر لها هذا الاسم ، ونهاها عن ركوبه ، وأمرت أن يطلب لها غيره فلم يوجد لها ما يشبهه ، فغير لها بجلال غير حلاه ، وقيل لها : قد أصبنا لك أعظم منه خلقا ، وأشد قوة ، وأتيت به فرضيت .

قال أبو مخنف : وأرسلت إلى حنيفة نسألها الخروج والمسير معها^(١) ، فبلغ ذلك عهدا لله ابن عمر ، فإني أخته فحزم عليها ، فأقامت وحطت الرجال بعد ما حمت .

كتب الأشتر من المدينة إلى عائشة وهي بمكة ، أما بعد : فإنك ظمينة رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقد أمرك أن تقرى في بيتك ، فإن فعلت فهو خير لك ، فإن آيتي إلا أن تأخذى من أسائك ، وتلقى جلبابك ، وتبدى للناس شميراتك ، فانتك حتى أردك إلى بيتك ، والوضع الذي يرضاه لك ربك .

فكتبت إليه في الجواب : أما بعد : فإنك أولم الحرب شب الفتنة ، ودعا إلى الفرقة وخالف الأئمة ، وسى في قتل الخليفة ، وقد علمت أنك لن تعمر الله حتى يصيبك منه بقة ينصر بها منك للخليفة المظلوم ، وقد جاءني كتابك ، وفهمت ما فيه ؛ وسيكفينيك الله ؛ وكل من أصبح ممثلا لك في ضلالتك وعيبك ، إن شاء الله .

وقال أبو مخنف لما انتهت عائشة في سيرها إلى الحوآب ، وهو ماء أبي عامر بن حصصة ، فبعثها الكلاب ؛ حتى نفرت صيآب إبلها ، فقتل قاتل من أصحابها ؛ ألا ترون ، ما أكثر كلاب الحوآب ، وما أشد نباحها ؛ فأمسكت زمام بعيرها ، وقالت : وإني الكلاب الحوآب ؛ ردوني ردوني ؛ فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول ... وذكرت الخبر ، فقال لها قاتل : مهلا يرحمك الله ؛ لقد جرتنا ماء الحوآب ؛ فقالت : فهل من شاهد ؟ فلفقوا لها خمسين أعرابيا ، جعلوا لهم جفلا ، علفوا لها^(٢) : إن هذا ليس بماء الحوآب ، فسارت لوجهها . لما انتهت عائشة وطلعة والزير إلى حفر^(٣) أنى موسى قريبا من البصرة ، أرسل

(١) ساقطه من ب .

(٢) ضطه صاحب مرآة الاطلاع بالفتح ثم الكون ، وقال : على حدة البصرة إلى مكة (١٥ - ١٦ هـ)

عُثْمَانُ بْنُ حَنْفِيَّةٍ - وَهُوَ بِوَيْثَانَ عَامِلٌ عَلَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى الْبَصْرَةِ - إِلَى الْقَوْمِ أَبَا الْأَسْوَدِ الدَّوْلِيِّ يَعْلَمُ^(١) لَهُمْ، فَجَاءَ حَتَّى دَخَلَ عَلَى عَائِشَةَ، فَسَأَلَهَا عَنْ مَسِيرِهَا، فَقَالَتْ: أَطْلَبُ بِدَمِ عُمَانَ، قَالَ: إِنَّهُ لَيْسَ بِالْبَصْرَةِ مِنْ قَتْلَةِ عُمَانَ أَحَدٌ، قَالَتْ: صَدَقْتَ؛ وَلَكِنَّهُمْ مَعَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ بِالْمَدِينَةِ، وَجِئْتُ أَسْتَنْصِحُ أَهْلَ الْبَصْرَةِ لِقَتْلِهِ. أَنْصَبَ لَكُمْ مِنْ سَوْطِ عُمَانَ وَلَا نَفْضَ لِعُمَانَ مِنْ سَيْوفِكُمْ! فَقَالَ لَهَا: مَا أَنْتِ مِنَ السَّوْطِ وَالْيَفِ! إِنَّمَا أَنْتِ حَبِيسٌ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، أَمَرَكَ أَنْ تَقْرُئِي فِي بَيْتِكَ، وَتَقْلِي كِتَابَ رَبِّكَ، وَلَيْسَ عَلَى النِّسَاءِ قِتَالٌ، وَلَا لَهْنَ الطَّلَبِ بِالْأَمَاءِ؛ وَإِنْ عَلِيًّا لِأَوَّلَى عُمَانَ مِنْكَ، وَأَمْسِي رَحَا؛ فَإِنَّهَا ابْنَةُ عَبْدِ مَنَافٍ، فَقَالَتْ: لَسْتُ بِمَنْصُوفَةٍ حَتَّى أَمِضِيَ لِمَا قَدِمْتُ لَهُ، أَفَظَنُّ بِأَبَا الْأَسْوَدِ أَنْ أَحَدًا يَقْدُمُ عَلَى قِتَالِي! قَالَ: أَمَا وَاللَّهِ كُفَّارَتُنْ قِتَالًا أَهْوَنَ الشَّدِيدِ.

ثُمَّ قَامَ فَأَتَى الزُّبَيْرَ، فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، هَلُمَّ النَّاسَ بِكَ، وَأَنْتَ يَوْمَ بَوَيْعِ أَبِي بَكْرٍ أَحَدٌ بِقَائِمٍ سَيْفِكَ، تَقُولُ: لَا أَحَدًا لَوْلَى هَذَا الْأَمْرِ مِنْ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ؛ وَأَيْنَ هَذَا الْقَامِ مِنْ ذَلِكَ! فَذَكَرَ لَهُ دَمَ عُمَانَ، قَالَ: أَنْتِ وَسَاحِبُكِ وَلِيْتِمَاءُ فِيمَا بَلَعْنَا! قَالَ: فَاسْطَلِقِي إِلَى طَلْعَةِ فَاسْمَعِي مَا يَقُولُ، فَذَهَبَ إِلَى طَلْعَةِ، فَوَجَدَهُ سَادِرًا فِي غَيْبِهِ، مَصِيرًا عَلَى الْحَرْبِ وَالْفِتْنَةِ، فَرَجَعَ إِلَى عُمَانَ بْنِ حَنْفِيَّةٍ، فَقَالَ: إِنَّهَا الْحَرْبُ، فَتَاهَبْ لَهَا!

لَمَّا نَزَلَ عَلَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْبَصْرَةِ، كَتَبَتْ^(٢) عَائِشَةُ إِلَى زَيْدِ بْنِ صُوحَانَ الْعَبْدِيِّ: مِنْ عَائِشَةَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَوِّجِ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى ابْنِهَا الْخَالِصِ زَيْدِ ابْنِ صُوحَانَ؛ أَمَا بَعْدُ فَأَقِمِي فِي بَيْتِكَ، وَخَذْلِي النَّاسَ عَنْ عَلِيٍّ، وَلِيَبْلُغْنِي عَنْكَ مَا أَحَبُّ؛ فَإِنَّكَ أَوْثَقُ أَهْلِي عِنْدِي، وَالسَّلَامُ.

فَكَتَبَتْ إِلَيْهَا: مِنْ زَيْدِ بْنِ صُوحَانَ إِلَى عَائِشَةَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ؛ أَمَا بَعْدُ فَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَكَ بِأَمْرِ وَأَمَرَنَا بِأَمْرٍ؛ أَمَرَكَ أَنْ تَقْرُئِي فِي بَيْتِكَ، وَأَمَرَنَا أَنْ مَجَاهِدَ، وَقَدْ أَتَانِي كِتَابُكَ،

(١) كَذَا فِي أ، وَب: هَمْزٌ.

(٢) كَذَا فِي أ، وَب: هَمْزٌ.

فأمرني أن أصنع خلاف ما أمرني الله، فأكون قد صنعت ما أمرك الله به، وصنعت ما أمرني الله به، فأمرك عندي غير مطاع، وكتابك غير مجاب، والسلام.

روى هذين السكتين شيخنا أبو عثمان عمرو بن بحر، عن شيخنا أبي سعيد الحسن البصري.

وركت عائشة يوم الحرب الجمل للشيء مكرافي هودج، قد ألبس الرغرف، ثم ألبس جلود الثير، ثم ألبس فوق ذلك دروع الحديد.

الشمي، عن مسلم بن أبي بكر، عن أبيه أبي بكر، قال: لما قدم طلحة والزبير البصرة، تفلوت سبي، وأنا أريد نصرهما، فدخلت على عائشة، وإذا هي تأمر وتنهى، وإذا الأمر أمرها، فذكرت حديثاً كنت سمعته عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «لن يخلع قوم تدبر أمرهم امرأة»، فانصرفت واعتزلهم.

وقد روي هذا الخبر على صورة أخرى: «إن قوماً يخرجون سدى في فتة، رأسها امرأة، لا يخلعون أبداً».

كان الجمل لواء مكر البصرة لم يكن لواء غيره.

خطبت عائشة والناس قد أخذوا مصافهم للحرب، فقالت:

أما بعد فإننا كنا نقمنا على عثمان صرب السوط، وإمرة الفتيان، ومرتع السعابة الحمية؛ ألا وإنكم استعبتموه فأعجبكم، فلما مضتوه^(١) كما يخاص الثوب الرجيس^(٢)، قد وثم عليه، فارتكبتم منه دماً حراماً، وإيم الله إن كان لأحصنكم قرجاً، وأتقاكم لله.

(١) اللوس: الفصل؛ كذا في نسخة صاحب البيان، واستشهد بكلام عائشة.

(٢) الرجيس: المصول؛ وانظر النهاية لابن الأثير ١: ٧٢.

خطب على عاينه السلام لما تواتب الجمعان ، فقال :

لا تقاتلوا القوم حتى يبدؤكم ، فإياكم بحمد الله على حجة ؛ وكفكم عنهم حتى يبدؤكم حجة أخرى ، وإذا قاتلتموهم فلا تمهزوا على جريح ، وإذا هزمتهم فلا تتبعوا مذبحاً ، ولا تسكشفوا عورة ، ولا تفتنوا فتيل ، وإذا وصتم إلى رجال القوم فلا تهتكوا سترأ ، ولا تدخلوا داراً ، ولا تأخذوا من أموالهم شيئاً ، ولا تهيجوا امرأة بأذى ، وإن شتمن أعراضكم وسبن أمراءكم وصلحاءكم ؛ فإنهن صدف القوي^(١) ، والأنس والعقول ؛ لقد كنا نؤمر بالكف عنهم وإسبن لمشركا ، وإن كان الرجل ليتناول المرأة بالهراوة والجريدة ، فيعير بها وعقبه من بعده .

قُتِلَ بنو صفة حول الجبل فلم يبقَ فيهم إلا من لا نفع عنده ، وأحدث الأرد بحطامه ، فقالت عائشة : مَنْ أنتم ؟ قالوا : الأرد ، فقالت : صبياً ، فإنما يصبر الأحرار ؛ ما زلت أرى النصر مع بني صفة ؛ فلما فقدتهم أسكرته . فخرّضت الأزد بذلك ؛ فقاتلوا قتالا شديداً ، ورُمي الجبل بالنبل حتى صارت القبة عليه كهينة القنفذ .

قال علي عليه السلام : لما فني الناس على نظام الجبل ، وقطعت الأيدي ، وسالت النفوس : ادعوا إلى الأشر وتعمّارا ، فجاء ، فقال : اذهباً فاعقروا هذا الجبل ؛ فإن الحرب لا يبوخ^(٢) ضرامها مادام حياً ؛ إياهم قد أتمنوه قبلة ، فذهبوا ومعهم فتيان من مراد ، يعرف أحدهما بصهر بن عبد الله ، فزالا يضربان الناس حتى خلتا إليه ، فضر به الرأدي على عرقوبيه ، فألقى وله رغاء ، ثم وقع لجنبه ، وفرّ الناس من حوله ، فنادى علي عليه السلام : اقطعوا

(١) في ب : القوم ، وما أنبته من أ .

(٢) لا يبوخ : لا يحمّد .

أنساع الهودج ، ثم قال لعبد بن أبي بكر : اكفني اختك ، فحملها محمد حتى أنزلها دار عبد الله بن خلف الخزازي .

بعث علي بن عبد الله بن عباس إلى عائشة يأمرها بالرحيل إلى المدينة ، قال : فأتيتها^(١) ، فدخلت عليها ، فلم يوضع لي شيء أجلس عليه ، فتناولت وسادة كانت في رحلها ، فقمعت عليها ، فقالت : يا بن عباس ، أحطت السنة ، قمعت علي وسادتنا في بيتنا بغير إذننا اقلعت : ليس هذا بيتك الذي أمرك الله أن تقرئ فيه ، ولو كان بيتك ما قمعت علي وسادتك إلا بإذنك ، ثم قلت : إن أمير المؤمنين أرسلني إليك يأمرك بالرحيل إلى المدينة ، فقالت : وأين أمير المؤمنين ! ذاك عمر ، قلت : عمر وعلي ، قالت : أبيت اقلت : أما والله ما كان أبوك إلا قصير المدة ، عظيم الشقة ، قليل المفعة ، طاهر الشوم بين التكسد ، وما عسى أن يكون أبوك ! والله ما كان أمرك إلا كحلب شاه حتى صرت لنامرين ولا تمهين ، ولاناخذين ولا سطين ، وما كنت إلا كما قال أخو بني أسد :

ما زال إهداء الصغار ينسا نث الحديث وكثرة الألقاب^(٢)

حق زلت كان صوتك بينهم في كل فائبة طنين ذباب

قال : فبكت حتى سُمع نحيبها من وراء الحجاب ، ثم قالت : إني سمعلة الرحيل إلى بلادى إن شاء الله تعالى ، والله ما من بلد أبعث إلى من بلد أتم فيه ، قلت : ولم ذاك ! هو الله لقد جعلناك للؤمنين أمًا ، وجعلك أباك صديقا ، قالت : يا بن عباس ، أئمن علي رسول الله ؟ قلت : مالي لا أمن عليك بمن لو كان منك لمننت به علي !

ثم أتيت عليا عليه السلام فأخبرته بقولها وقولي ، فسرّ بقلبي ، وقال لي : ﴿ ذُرِيَّةُ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾^(٣) ، وفي رواية : أما كنت أعلم بك حيث بعثتك .

(١) ب • ملقيها • ، وما أتيتها من ا .

(٢) البيان في تمار القلوب ٥٠٣ ، وسجها إلى حضرة بن عامر ، ومما أيسأ في الحيوان ٣ : ٣١٥

(٣) سورة آل عمران ٣٤ .

(٨٠)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام :

أَيُّهَا النَّاسُ ! الزُّهَادَةُ قِصَرُ الْأَمَلِ ، وَالشُّكْرُ عِنْدَ النِّعَمِ ، وَالْوَرَعُ عِنْدَ
الْمَحَارِمِ ، فَإِنْ عَزَبَ ذَلِكَ عَنْكُمْ فَلَا يَنْبِيِ الْحَرَامُ صَبْرَكُمْ ، وَلَا تَنْسَوْنَ عِنْدَ النِّعَمِ
شُكْرَكُمْ ؛ فَقَدْ أَعَذَّرَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ مَجْبِجَ مُسْفِرَةٍ ظَاهِرَةٍ ؛ وَكُتِبَ بَارِزَةُ الْعُذْرِ
وَاضِحَةً .



الشرح :

فَسَرَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَفْظَ الزُّهَادَةِ ، وَهِيَ الزُّهْدُ ، بِثَلَاثَةِ أُمُورٍ وَهِيَ : قِصَرُ الْأَمَلِ ،
وَشُكْرُ النِّعْمَةِ ، وَالْوَرَعُ عَنِ الْمَحَارِمِ ، فَقَالَ : لَا يَسْتَعِى الزُّهَادُ زَاهِدًا حَتَّى يَسْتَكْمِلَ هَذِهِ
الْأُمُورَ الثَّلَاثَةَ ، ثُمَّ قَالَ : « فَإِنْ عَزَبَ ذَلِكَ عَنْكُمْ » ، أَيْ بَعْدَ ، فَأَمْرَانِ مِنَ الثَّلَاثَةِ لَا بَدَ
مِنْهُمَا ؛ وَهِيَ الْوَرَعُ وَشُكْرُ النِّعَمِ ، جَبَلَهُمَا آكِدَ وَأَمَمَ مِنْ قِصَرِ الْأَمَلِ .

وَاعْلَمْ أَنَّ الزُّهْدَ فِي الرُّفُوفِ الْمَشْهُورِ هُوَ الْإِعْرَاضُ عَنْ مَتَاعِ الدُّنْيَا وَطِيْبَاتِهَا ، لَكِنَّهُ
لَمَّا كَانَتِ الْأُمُورُ الثَّلَاثَةُ طَرِيقًا مُوَطَّنَةً إِلَى ذَلِكَ أُطْلِقَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَفْظَ الزُّهْدِ عَلَيْهَا عَلَى
وَجْهِ الْمَجَازِ .

وَقَوْلُهُ : « فَقَدْ أَعَذَّرَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ » أَيْ بَالِغٌ ؛ يُقَالُ : أَعَذَّرَ فُلَانٌ فِي الْأَمْرِ أَيْ بَالِغٌ فِيهِ ،
وَيُقَالُ : ضَرِبَ فُلَانٌ فَاعْذَرَ ، أَيْ أَشْرَفَ عَلَى الْهَلَاكِ ؛ وَأَصْلُ الْفِطْلَةِ مِنَ الْعَذْرِ ؛ يَرِيدُ أَنَّهُ

قد أوضح لكم بالحجج النيرة الشريعة ما يجب اجتنابه، وما يجب فعله ؛ فإن خالفتم استوجبتم العقوبة ؛ فكان له في تمذيتكم المنور .

[الآثار والأخبار الواردة في الزهد]

والآثار الواردة في الزهد كثيرة :

قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « أفلح الزاهد في الدنيا ، حطى بمنزلة الماجة وبثواب الآخرة » .

وقال صلى الله عليه وآله : « من أصحبت الدنيا همة وسدّمة ، زرع الله العى من قلبه وصير الفقر بين عينيه ، ولم يأنه من الدنيا إلا ما كتبه له ، ومن أصحبت الآخرة همة وسدّمة ، زرع الله الفقر عن قلبه ، وصير العى بين عينيه ، وأنته الدنيا وهى راحة » .

وقال عليه السلام للضحك بن سفيان : ما طمأنك ؟ قال : اللهم والى ، قال : ثم يصير إلى ماذا ؟ قال : إلى ما علمت ، قال : فإن الله ضرب ما يخرج من ابن آدم مثلاً للدنيا .

وكان الفضيل بن عياض يقول لأصحابه إذا فرغ من حديثه : انطلقوا حتى أرىكم الدنيا ، فيجىء بهم إلى المزبلة ، فيقول : انظروا إلى هبهم وشمهم ودجاجهم وبطهم ! صار إلى ما ترون .

ومن الكلام المنسوب إلى المسيح عليه السلام : الدنيا قنطرة فاهروها ولا تمر وها . مثل رسول الله صلى الله عليه وآله عن قوله سبحانه : ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ

يُشْرِحُ صَدْرُهُ لِلْإِسْلَامِ^(١) قَالَ : إِذَا دَخَلَ النُّورُ الْقَلْبَ انْفَسَحَ ، فَذَلِكَ شَرْحُ الصَّدْرِ ، قَبِيلٌ : أَفَلَا ذَلِكَ عَلَامَةٌ يَعْرِفُ بِهَا ؟ قَالَ : نَعَمْ ، الْإِلَهِيَّةُ إِلَى دَارِ الْخُلُودِ ، وَالتَّعَالَى عَنْ دَارِ الْفُرُودِ ، وَالْإِسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ نَزْوِهِ .

قَالُوا : أَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى نَبِيِّهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ : اتَّخِذِ الدُّنْيَا ظَاهِرًا ، وَاتَّخِذِ الْآخِرَةَ أَمَّا .
الشَّمْعِي : مَا أَعْلَمُ لَنَا وَلِلدُّنْيَا مَثَلًا إِلَّا قَوْلُ كَثِيرٍ :

أَسِيئِي بَنًا أَوْ أَحْسِنِي لَا مَلُومَةَ تَدِينُنَا وَلَا مَقْتَبَسَةَ إِنْ تَقَنَّتِ^(٢)

بَعْضُ الصَّالِحِينَ : السُّتَمْنَى مِنْ الدُّنْيَا بِالدُّنْيَا ، كَالْعَاطِفِ السَّارِّ بِالْبَيْنِ .

وَفِي بَعْضِ الْكُتُبِ الْقَدِيمَةِ الْإِلَهِيَّةِ : قَالَ اللَّهُ لِلدُّنْيَا : مَنْ خَدَمَنِي فَاحْدِثِيهِ ، وَمَنْ خَدَمَكَ فَاحْدِثِيهِ .

دَخَلَ مُحَمَّدُ بْنُ وَاسِعٍ عَلَى قُتَيْبَةَ بْنِ لَحْمٍ ، وَعَلَيْهَا مَدْرَعَةٌ مِنْ صُوفٍ ، فَقَالَ : مَا هَذِهِ ؟ فَكَتَبَتْ ، فَأَمَدَتْ عَلَيْهِ السَّوَال ، فَقَالَ : أَاكْرَهُ أَنْ أَقُولَ زُهْدًا فَازْكَيْ نَفْسِي ، أَوْ قُرْأَةً فَاشْكُورِي .

قَبِيلٌ فِي صِفَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ : هَا كُفِّرْتَيْنِ إِنْ أَرْضَيْتَ إِحْدَاهُمَا اسْتَغْطَتِ الْآخَرَى .
قَبِيلٌ لِحَمْدِ بْنِ وَاسِعٍ : إِنَّكَ تَرْضَى بِالْأَدْوَانِ ، قَالَ : إِنَّمَا رَضِيَ بِالْأَدْوَانِ مَنْ رَضِيَ بِالْدُّنْيَا .
خَطَبَ أَمْرَأَتِي كَانَ حَامِلًا لِحَمْدِ بْنِ سُلَيْمَانَ عَلَى ضَرْبَةِ يَوْمِ حُمْعَةٍ خُطْبَةً لَمْ يَسْمَعْ أَوْجَزَ مِنْهَا وَلَا أَفْصَحَ ، قَالَ : إِنَّ الدُّنْيَا دَارُ بِلَاغٍ ، وَإِنَّ الْآخِرَةَ دَارُ قَرَارٍ ؛ فَتَخَذُوا مِنْ مَهْرِكِ الْمُسْتَفْرَكِ ، وَلَا تَهْتِكُوا أَسْتَارَكُمْ عِنْدَ مَنْ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ أَسْرَارُكُمْ ، وَأَخْرِجُوا مِنَ الدُّنْيَا قُلُوبَكُمْ قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنْهَا أَبْدَانُكُمْ ؛ فَيُهَا جَنَّتُمْ ، وَلَغِيْرَهَا خَلَقْتُمْ ؛ إِنْ لِلرَّءِ إِذَا هَلَكَ قَالَ النَّاسُ : مَا تَرَكْتُمْ ؟ أَوْ قَالَتْ لِلْمَلَائِكَةِ : مَا تَدْعُونَ ؟ فَلَيْلَهُ آثَارُكُمْ أَقْدَمُوا بِمَضَايِكُنْ لَكُمْ ،

(١) سُورَةُ الْأَنْعَامِ ١٢٥ .

(٢) مِنْ قَصِيدَتِهِ الثَّانِيَةِ لِلْمَشْهُورَةِ : وَ أَمَّا لِي لِنَالِي ٢ : ١٠٧ - ١١٠

ولا تؤخروا كلاً فيكون عليكم ؛ أقول قولي هذا ؛ وأستغفر الله ، والمدة في الخليفة ،
ثم الأمر جعفر . ونزل .

أبو حازم الأعرج : الدنيا كلها غموم ، فما كان فيها سروراً فهو ربح .

محمد بن الحنفية : مَنْ عزّت عليه نفسه هانت عليه الدنيا .

قيل لعلّ بن الحسين عليه السلام : مَنْ أعظمُ الناس خطراً ؟ قال : مَنْ لم ير الدنيا
لنفسه خطراً .

قال السبيح عليه السلام لأصحابه : حب الدنيا رأس كل خطيئة ، واقتناء المال فيها
داء عظيم ، قالوا له : كيف ذلك ؟ قال : لا يسلم صاحبه من الهمى والكبر ؛ قيل : فإن سلم
منهما ؛ قال : يشغله بإصلاحه من ذكر الله .

أشرف أبو الدرداء على أهل دمشق فقال : يا أهل دمشق ، تندون عالاتكنون ، وتجمعون
مالاً تأكلون ، وتأملون مالاً تدركون . أين من كان قبلكم ؟ بنوا شديداً ، وأملوا بعيداً ،
وجمعوا كثيراً ، فأصبحت ما كنهم قهوراً ، وجمعهم بوراً ، وأملهم غروراً .

قال المأمون : لو سئلت الدنيا عن نفسها لم تسطيع أن تصف نفسها بأحسن من
قول الشاعر :

إذا امتعن الدنيا ليبت تكشفت له عن عدو في ثياب صديق^(١)

وقال رجل : يا رسول الله ، كيف لي أن أعمر أمري ؟ قال : « إذا أردت شيئاً من أمور
الدنيا فسر عليك ؛ فاعلم أنك بحير ، وإذا أردت شيئاً من أمر الدنيا فيسر لك ؛ فاعلم أنه
شر لك » .

قال رجل ليونس بن عبيد : إن فلانا يسل بسل الحسن البصري ، فقال : والله
ما أعرف أحداً يقول بقوله ، فكيف بسل بسله ؟ قيل : فصفه لنا ، قال : كان إذا أقبل

فكأنه أقبل من دفين حبيب ، وإذا جالس فكأنه أسير أجاس لضرب عنقه ، وإذا ذكرت النار فكأنها لم تخلق إلا له .

وقال بعض الصالحين لرجل : يا فلان ، هل أنت على حالٍ أنت فيها مستعدٌّ للموت ؟ قال : لا ، قال : فهل أنت عالمٌ بأنك تنتقل إلى حال ترضى به ؟ قال : لا ، قال : أفنعم بعد الموت داراً فيها مستعيب^(١) ؟ قال : لا ، قال : أفأمن الموت أن يأتيك مصابحاً أو مساءً ؟ قال : لا ، قال : أفيرضى بهذه الحال عاقل ؟

وقال أبو الذرداء : أضعفك ثلث ، وأبكتك ثلث : أضعفك مؤمل الدنيا والموت يطلبه ، وغافلٌ وليس بمفول عنه ، وصاحكٌ ملء فيه لا يدري أراضٍ عنه الله أم ساخط ! وأبكاني فراقُ محمد وحرره ، وأبكاني هولُ الموت ، وأبكاني هولُ الموقف ، يومَ تبدؤُ السرائر حين لا أدرى أبوخذ بن أبي جثة أم إلى نار !

وكان عبد الله بن صمير يقول : أنصحتُ ولعلَّ كمالك قد خرجت من عبد القصار ! وكان يقال : مَنْ أتى القمصَ ضاحكاً دخل النار عاكياً .

وكان مالك بن دينار يقول : وددت أن رزقي في حصاة أمتها حتى أمول ، فلقد احتلفت إلى الخلاء حتى استعيت من ربي .

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « لا يباغ العبدُ أن يكونَ من التَّقين حتى يدعَ ما ليس به بأسٌ حذراً عما به البأس » .

وقال المسيح عليه السلام : بحقٍ أقول لكم ! إنَّ مَنْ طلبَ الفِرْدَوْسَ ، فحزَّ الشَّمبرَ ، والنَّومَ على المزابل مع الكلاب ، له كثير .

وأوصى ابن محرز رجلاً فقال : إن استطعت أن تدري ولا تعرف ، وتسال ولا تسأل ، وتمشي ولا يمشي إليك ، فافعل .

(١) مستعيب : رما .

وقال علي عليه السلام : طوبى لمن عَرَفَ الناس ولم يعرفوه ، تسجلت له مديته ، وقل ترائه ، وقد باكيته .

وكان يقال : في الجوع ثلاث خصال : حياة للقلب ، ومذلة للنفس ، وبورث العقل الذهن [من المعاني] ^(١) .

وقال رجل لإبراهيم بن آدم : أريد أن تقبل مني دراهم ، قال : إن كنت غنياً قبلتها منك ، وإن كنت فقيراً لم أقبلها ، قال : فإني غني ، قال : كم تلك ؟ قال أثنى درهم ، قال : أفسرك أن تكون أربعة آلاف ؟ قال : نعم ، قال : لت بنى ودراهمك لا أقبلها . وكان أبو حازم الأعرج إذا نظر إلى الفاكهة في السوق ، قال : موعدك الجنة إن شاء الله تعالى .

ومر أبو حازم بالقصايين ، فقال له رجل منهم : يا أبا حازم ؛ هذا سمين فاشتر منه ، قال : ليس عندي دراهم ، قال : أنا أيطرك ، قال : فافكر ساعة ، ثم قال : أنا أنظر نفسي . نزل الحاجاج في يوم حار على نضر ليلاء ، ودعا بالمداء وقال للحاجبه : انظر من يتعدى معي ، واجهذاً ألا يكون من أهل الدنيا ، فرأى الحاجب أعرابياً ثامناً ، عليه شمة من شعر ، فضره برجله ، وقال : أجب الأمير ، فثناه ، فدعا الحاجاج إلى الأكل ، فقال : دعاني من هوحير من الأمير فأجبتني ؛ قال : من هو ؟ قال : الله ، دعاني إلى الصوم فصمت ؛ قال : أفى هذا اليوم الحار ؟ قال : ما جهنم أشد حرّاً ، قال : أفطر ونصوم غداً ، قال : إن ضمنت لي البقاء إلى غد ، قال : ليس ذلك إليّ ، قال : فكيف أدع عاجلاً لأجل لا تقدر عليه ؟ قال : إنه طعام طيب ، قال : إنك لم تطيبه ولا الخبز ، ولكن العافية طيبته لك .

وقال شبيب : كنّا سنة في طريق مكة ، جاء أعرابي في يوم صائف شديد الحرّ ،

(١) بالأمول غموس ، ولعل الصواب ما أتيته أو قريب منه .

ومعه جارية سوداء ، وصحيفة ؛ فقال : أفیکم كاتب ؟ قلنا : نعم ، وحضر غداؤنا ، فقلنا له : لو دخلت فأصبت من طعامنا ! قال : إني صائم ، قلنا : الحرة وشدته ، وجفاء البادية ، فقال : إن الدنيا كانت ولم أكن فيها ، وستكون ولا أكون فيها ، وما أحب أن أغيب أمانی ، ثم نبذ إلینا الصحيفة ، فقال للكاتب : اكتب ولا تزِدْ على ما أُمليہ عليك : هذا ما أعتق عبد الله بن عقيل الكلبي ، أعتق جارية له سوداء اسمها لؤاؤة ، انتقاء وجه الله وجواز العقبة ، وإياه لا سبيل له عليها إلا سبيل الولاء ، والمثلة لله علينا وعليها واحدة .

قال الأصمعي : فحدث بذلك الرشيد ، فأمر أن يمتق عنه ألف نسمة ، ويكتب لم هذا الكتاب .

وقال خالد بن صفوان : مت ليقي هذه أمتي ، فكبت البحر الأحمر بالذهب الأحمر ، فإذا الذي ملقاني من ذلك رقيقان وكوران وطيران^(١) .
ورأى رجل رجلا من ولد معاوية يعمل على كبر له ، فقال : هذا بعد ما كنتم فيه من الدنيا ! قال : رحلك الله يا بن أخي ، ما قلنا إلا القُضول .

وقال الحسن : يا بن آدم ، إنما أنت أيام مجموعة ، كلما ذهب يوم ذهب بمصك .

قال يونس الكاتب : لو قيل بيت دريد في راهب كان به جديرا :
قليلُ التشكى للمصيبات ذاكرُ من اليوم أعقاب الأحاديث في عد^(٢)
وقال الحسن : ما أطال عهد الأمل إلا أساء العمل .

وقال رجل للمصلي بن عياض : ما أعجب الأشياء ؟ قال : قلب عرف الله ثم عصاه .
قال وكيع : ما أحسنَ قط إلى أحد ، ولا أسأت إليه ، قيل : كيف ؟ قال : لأن الله تعالى قال : ﴿ إِنِ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾^(٣) .

(١) العنبر : الثوب الخلق

(٢) من كلمة له في ديوان الخاسة ٢ : ٣٠٨ يرثي أمله عبد الله .

(٣) سورة الإسراء : ٧ .

وقال الحسن لرجل : إن استطعت ألا تنس إلى أحدٍ من تحبه فافعل ، قال الرجل :
يا أبا سعيد ^(١) ، أو ينس المرء إلى من يحبه ؟ قال : نعم ، نفسك أحب النفوس إليك ،
فإذا عصيت الله فقد أسأت إليها .

وكان مالك بن دينار إذا منع غصته شيئاً من الشهوات ، قال : اصبري ، فوالله ما منعك ^(٢)
إلا لكرامتك علي .

قام رسول الله صلى الله عليه وآله الليل ، حتى توزمت قدماءه ، فقيل له : يا رسول الله ،
أتفعل هذا ، وقد غفر الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : « أفلا أكون عبداً شكوراً » .
وقال عبد الله بن مسعود : لا يكونن أحدكم جيفة ليلة ، قطرب ^(٣) نهاره .
وكان يقال : من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار .

وكان مالك بن دينار يقول في قصصه : ما أشتم قطام الكبرياء وينشد :
أتروض عرشك بعد ما هربت ^(٤) من العناء
وقال آخر :

إن كنت تؤمن بالقيامة واجترأت على الخطيئة
فلقد هلكت وإن جحدت فذاك أعظم قبليئة

(١) كنية الحسن البصري . (٢) ج : « ما منعك » .

(٣) القطرب : حوية لا تفرح نهارها سبياً .

(٨١)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام في صفة الدنيا :

مَا أَصِيفُ مِنْ دَارٍ ، أَوَّلُهَا عَنَاءٌ ، وَآخِرُهَا فَنَاءٌ ! فِي حَلَالِهَا حَرَابٌ ، وَفِي حَرَامِهَا عِقَابٌ .

مَنْ اسْتَفْزَى فِيهَا فِتْنٌ ، وَمَنْ اِفْتَقَرَ فِيهَا حَزَنٌ وَمَنْ سَاعَاَهَا فَاثَنَةٌ ، وَمَنْ قَعَدَ عَنْهَا وَاثَنَةٌ ، وَمَنْ أَبْصَرَ بِهَا بَصَرَتَهُ ، وَمَنْ أَبْصَرَ إِلَيْهَا أَعْمَتَهُ .



قال الرضى رحمه الله :

أقول : وإدناؤنا للفتائل قوله عليه السلام : « وَمَنْ أَبْصَرَ بِهَا بَصَرَتَهُ » ، وَجَدَتْهُ مِنَ اللَّغْوِ الْمَجِيبِ ، وَالْعَرَضِ الْبَعِيدِ ، مَا لَا يَبْلُغُ غَايَتَهُ وَلَا يَدْرِكُ قَوْرَهُ ، لَا سِيَّيَا إِذَا قَرْنَ إِلَيْهِ قَوْلُهُ : « وَمَنْ أَبْصَرَ إِلَيْهَا أَعْمَتَهُ » ، قَبْلَهُ بِحَدِّ الْعَرَقِ بَيْنَ « أَبْصَرَ بِهَا » وَ« أَبْصَرَ إِلَيْهَا » وَاصْبَحَا بَيْرًا ، وَجَبَّهَا مَاهِرًا .

البيان :

العناء : التعب . وساعاها : حارها سعيًا . وواثنه : طاعته .

ونظر الرضى إلى قوله . « أَوَّلُهَا عَنَاءٌ وَآخِرُهَا فَنَاءٌ » ، فقال .

وَأَوَّلُهَا الْعَنَاءُ إِذَا طَلَفْنَا إِلَى الدُّنْيَا وَآخِرُهَا الْذَهَابُ ^(١)

ونظر إلى قوله عليه السلام « في حلالها حساب ، وفي حرامها عقاب » بعض
الشعراء ، فقال :

الدمر يومان فيومٌ مَصَى	عنك بما فيه ويومٌ جَدِيدٌ
حلالٌ يوميك حسابٌ وفي	حرامٌ يوميك عذابٌ شَدِيدٌ
تجمعُ ما بأحلكهُ وارثٌ	وأنت في القبر وحيدٌ فَرِيدٌ
إني لنبري واعظٌ تاركٌ	نفسى وقولى من فمالى بعيدٌ
حلاوة الدنيا ولذاتها	تكلف العاقل ما لا يريدُ

ومن المعنى أيضا قول بعضهم :

حَلَالُهَا حَسْرَةٌ تُمِضُ إِلَى نَدَمٍ وَفِي الْحَارِمِ مِنْهَا النِّعَمُ مَزُورُ
ونظر الحسن البصري إلى قوله عليه السلام : « من استمنى فيها فتن ، ومن افتقر
فيها حزن » ، فقال ، وقد جاءه إنسان يبشّره بمولوده ذكر : ليهنك القارس وأبها سعيد ،
فقال : بل الراجل ! ثم قال : لا مرحباً بمن إن كان عبياً فتنى ، وإن كان فقيراً أحرقتى ،
وإن ماش كدنى ، وإن مات هدى ، ثم لا أرضى بسمى له سعيا ، ولا بكدي له
كدحا ؛ حق أهتم بما يصيبه بعد موتى ، وأما في حال لا ينالني بمساءته حزن ،
ولا بسروره جذل .

ونظر ابن المعتز إلى قوله عليه السلام : « مَنْ سَاعَاها فَاتَتْهُ ، وَمَنْ قَعَدَ عنها وَاتَتْهُ »
فقال : الدنيا كظلك ، كلما طلبته زاد منك بعدا .

ونظرتُ إلى قوله عليه السلام : « وَمَنْ أَبْصَرَ بِها بَصْرَتَهُ ، وَمَنْ أَبْصَرَ إِلَيْها
أَعْمَتَهُ » ، فقلت :

دُنْيَاكَ مِثْلُ الشَّمْسِ تُدْنِي إِلَهُ	لك الضوء ، لكن دعوة الملوك
إن أنت أبصرت إلى نورها	تعمش ، وإن تبصر به تدرك

فإن قلت : للسموع : أبصرت زيدا ، ولم يسمع أبصرت إلى زيد ، قلت : يجوز أن يكون قوله عليه السلام : « ومن أبصر إليها » ، أى ومن أبصر متوجها إليها ، كقوله : « فِي نِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ »^(١) ولم يقل « مرسلًا » ؛ ويجوز أن يكون أقام ذلك مقام قوله « نظر إليها » لما كان مثله ، كما قالوا في « دخلت البيت » ، « ودخلت إلى البيت » أجروا مجرى « ولجت إلى البيت » لما كان نظيره .

(٨٢)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام ؛ وتسمى بالفراء ؛ وهي من الخطب المعجبة :

أَلْتَمَدْتُ فِيهِ الَّذِي عَلَا بِمَوَالِهِ ، وَدَنَا بِطَوَالِهِ ؛ مَا يَصِحُّ كُلُّ غَنِيمَةٍ وَفَضْلٍ ، وَكَاشِفٍ
كُلِّ قَظِيمَةٍ وَأَزَلٍ . أَخَذَهُ عَلَى حَوَاطِفِ كَرَمِهِ ، وَسَوَابِغِ رَمِيهِ ، وَأَوَمِنَ بِهِ أَوَّلًا
بَادِيًا ، وَأُسْتَهْدِيهِ قَرِيبًا هَادِيًا ، وَأُسْتَعِينَهُ قَاهِرًا قَادِرًا ، وَأَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ كَافِيًا نَاصِرًا ؛
وَأُشْهِدُ أَنْ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ؛ أَرْسَلَهُ لِإِحْدَاثِ أَمْرِهِ ، وَإِنْهَادِ عَذْرِهِ ، وَتَقْدِيرِ نُدُورِهِ .



البنوع :

الحول : القوة . والطول : الإفضال ، والماح : المعطى . والأزل ، بفتح الهمزة : الضيق
والحبس . والمواطف : جمع ما طفقوهى ما بطنك على المير ، ويدنيه من معروفك ، والسوابغ :
التوامم الكوامل ؛ سبغ الظل ؛ إذا غم وشمل .

و «أولا» هاهنا منصوب على الظرفية ؛ كما قال : قبل كل شيء . والأول ضمير الآخر
أصله «أوئل» على «أفضل» ميموز الوسط ، قلبت الهمزة واوا وأدغم ، بدل على ذلك قولهم :
«هذا أول منك» والإتيان بحرف الجز دليل على أنه «أفضل» ، كقولهم : هذا أفضل منك ؛
وجمعه على أوائل وأوال أيضا على القلب . وقد قوم : أصله «وؤل» على «فؤعل» فقلبت
الواو الأولى همزة ؛ وإنما لم يجمع على «ووال» لاستثقاله اجتماع الواوين وبينهما ألفا لجمع .

(١) ب : «أوال» تصحيف

وإذا جلت « الأول » صفة لم تصرّفه ، تقول : نقيته عاماً أول ، لاجتماع وزن الفعل ، وتقول :
 مارأيت مذ عام أول ، كلاهما بغير تنوين ؛ فمن راع جعله صفة لعام ؛ كأنه قال : أول من
 عامنا ، ومن نصب جعله كالظرف ، كأنه قال : مذ عام قبل عامنا . فإن قلت : « ابدأ بهذا
 أول » ، ضمت على النافية .

والإنهاء : الإبلاغ ، أنهيت إليه الخبر فأنهى ؛ أى بلغ ؛ والمعنى أن الله تعالى أعذر
 إلى خلقه وأعذرهم ؛ فإعذاره إليهم أن عرفهم بالجمع العقليّة والسامية أنهم إن عصوه
 استحقوا العقاب ؛ فأوضح عذره لهم في عقوبته إيتامهم على عصيائه . وإذاره لهم : تخويفه إيتامهم
 من عقابه . وقد سطر البعثرى إلى معنى قوله عليه السلام : « علا بحوله ، ودما بطوله » ، فقال :

دَنَوْتُ تَوَاصُماً وَعَلَوْتُ قَدْرًا فَشَأْنُكَ انْخِصَافُ وَارْتِفَاعُ^(١)
 كَذَلِكَ الشَّمْسُ تَبْعُدُ أَنْ تَسْمَى وَكَذَلِكَ الثَّوْرُ مِنْهَا وَالشَّمَاعُ



و في هذا الفصل ضروب من البديع ؛ فمنها أن « دنا » في مقابلة « علا » لفظاً ومعنى ؛
 وكذلك « حوله » و « طوله » .

فإن قلت : لأريب في تقابل « دنا » و « علا » من حيث المعنى واللفظ ؛ وأما « حوله »
 و « طوله » فإنهما يتناسبان لفظاً ؛ وليسا متقابلين معنى ، لأنهما ليسا صديين ، كان
 العلو والدنو .

قلت : بل فيهما معنى التضاد ، لأنّ الحول هو القوة ، وهي مشعرة بالسُّطوة والقهر ، ومنه
 منشأ الانتقام ، والطول : الإنفال والتسكّر ، وهو نقيض الانتقام والبطش .
 فإن قلت : أنت وأصحابك لا تقولون إنّ الله تعالى قادرٌ بقدره ، وهو عندكم قادر

(١) ديوانه ١ : ٨٢ ، جده إبراهيم بن المهدي .

قداته ، فكيف تتأولون قوله عليه السلام : « الذي علا بمحوه » ؟ أليس في هذا إثبات قدرته زائدة على ذاته ، وهذا يخالف مذهبكم !

قلت : إن أصحابنا لا يمتنعون من إطلاق قولهم : إن الله قوة وقدرية وحولا ، وحاش الله أن يذهب ذاهب منهم إلى منع ذلك ! ولكنهم يطلقونه ويعنون به حقيقة المرفقية ، وهي كون الله تعالى قويا قادرا ، كما تقول نحن والمخالف : إن الله وجودا وبقاءا وقديما ، ولا نفي بذلك أن وجوده أو بقاءه أو قدمه معان زائدة على نفسه ، لكننا نفي كلنا بإطلاق هذه الألفاظ عليه كونه موجودا أو باقيا أو قديما ، وهذا هو الشرف للتعامل في قول الناس : « لا قوة لي على ذلك » و « لا قدرة لي على فلان » لا يستنون نفي للمنى ، بل يستنون كون الإنسان قادرا قويا على ذلك .

ومنها أن « مانعا » في وزن « كاشف » و « عينة » بإراء « عظيمة » في اللفظ ، وضدها في المعنى ؛ وكذلك « فصل » و « أول » .

ومنها أن « عواطف » بإراء « سواع » و « يعمه » بإراء « كرمه » .

ومنها وهو اللطف ما يستعمله أرباب هذه الصناعة : أنه جعل « قريبا هاديا » مع قوله : « استهديه » ؛ لأن الدليل القريب منك أجدر بأن يهديك من البعيد النازح ، ولم يجعل مع قوله : « وأستعينه » ؛ وجعل مع الاستعانة « قاهرا قادرا » لأن القادر القاهر يليق أن يستعان ويستنجد به ؛ ولم يجعله قادرا قاهرا مع التوكل عليه ، وجعل مع التوكل « كافيا ناصرا » ؛ لأن الكافي الناصر أهل لأن يتوكل عليه .

وهذه اللطائف والدقائق من معجزاته عليه السلام التي فات بها البلغاء ، وأخرس

الفصحاء .

الأصل :

أَوْصِيَكُمْ مِمَّا دَأَىٰ يَتَّقُوا اللَّهَ يَتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَرْتَبَ لَكُمْ الْأَمْثَالَ ، وَوَقَّتَ لَكُمْ الْأَجَالَ ،
وَالْبَسَكُمْ الرِّيشَ ، وَأَرْفَعَ لَكُمْ الْمَعَاشَ ، وَأَحَاطَ بِكُمْ الْإِحْصَاءَ ، وَأَرْصَدَ لَكُمْ
الْجَزَاءَ ، وَآثَرَكُمْ بِالنَّمِ السَّوَابِغِ ، وَالرَّقْدِ الرِّوَاغِ ، وَأَنْذَرَكُمْ بِالْحَجَجِ
التَّوَالِغِ ؛ فَأَحْصَاكُمْ عَدَدًا ، وَوَقَّتَ لَكُمْ مَدَدًا ، فِي قَرَارِ خَيْرَةٍ ، وَدَارِ هَيْرَةٍ ، أَنْتُمْ
مُخْبِرُونَ فِيهَا ، وَمُحَاسِبُونَ عَلَيْهَا .

• • •

الشرح :

وقت وأقت بمعنى ؛ أى جعل الأجل قومكم مقدر .

والريش والريش واحد ؛ وهو اليباس ، قال تعالى : (بَوَارِي سَوْمَاتِكُمْ وَرِيشًا)^(١) .
وقرى « وريشًا » ، ويقال : الريش : الخشب اللين ، ومنه ارتاش فلان ، حسنت حاله ، ويكون
لفظ « البسكم » مجازاً إن فسر بذلك .

وأرفع لكم المعاش ؛ أى جملة رعيها ، أى واسماً محصياً ؛ يقال : رفع بالضم عيشه
رفافة ، اتسع ، فهو رافع ورفيع ، وترفع الرجل ، وهو فى رفاهية من العيش ، محققاً ، مثل
« رفاهية » و « ثمانية » .

وقوله : « وأحاط بكم الإحصاء » ، يمكن أن ينصب الإحصاء على أنه مصدر فيه
اللام ، والعامل فيه غير لفظه ، كقوله : « يستجبه السخون » ، ثم قال : « حباً »^(٢) ، وليس

(١) سورة الأعراف ٢٦ .

(٢) أصله قوله الراجز ، وأورده صاحب المنان فى (سخن) :

يُسْتَجَبُ السَّخِينُ وَالْمَصِيدُ وَالْتَمَرُ حُبًّا مَالَهُ مَزِيدُ

دخول اللام بمائع من ذلك ؛ تقول : ضربته الضربة ، كما تقول : ضربته ضرباً . ويجوز أن ينصب بأنه مفعول به ، ويكون ذلك على وجهين :

أحدهما : أن يكون من « حاط » ثلاثي ، تقول : حاط فلان كرمته ، أى جعل عليه حائطاً ، فكأنه جعل الإحصاء والعدّ كالْحائط المداير عليهم ؛ لأنهم لا يبعدون منه ولا يخرجون عنه .
والثاني : أن يكون من حاط الحار عاتته يحوطها ؛ بالواو أى جمعاً ؛ فأدخل الهمزة ؛ كأنه جعل الإحصاء يحوطهم ويحصرهم ؛ تقول : ضربت زبداء وأضربتة أى جعلته ذا ضرب ،
فلذلك كأنه جعل عليه السلام الإحصاء ذ تحويط عليهم بالاعتبار الأول ، أو جعله ذا جمع لهم بالاعتبار الثاني .

ويمكن فيه وجه آخر ، وهو أن يكون الإحصاء مفعولاً له ويكون في الكلام محذوف تقديره : وأحاط بكم حفظته وملائكم بالإحصاء دخول اللام في المفعول له كثير ، كقوله :
• وَالْهَوَلُ مِنَ سَهْوِ الْهُورِ^(١) •

قوله : « وأرصد » بى أعد ، وفي الحديث : « ألا أن أرصد له دين على » .
وآثركم ، من الإيثارة ، وأصله أن تقدم غيرك على نفسك في منفعة أنت قادر على الاختصاص بها وهو في هذا الموضع مجاز مستحسن .

والرَفْد : جمع رِفْدَة ، مثل كِسرة وكَسر ، وِفْدَرِيَّة وفِدَر . والرَفْدَة والرَفْد واحد ،
وهي العطية والصلة ورَفَدت فلاناً رَفْدًا بالفتح ، والمضارع أَرَفِدُه بكسر الفاء ، ويجوز « أَرَفَدته » بالهمزة .

والروافغ : الواسعة . والحجيج البوالغ : الظاهرة البينة ، قال سيبويه : ﴿ قَلْبُ الْحَبِيبَةِ
الْبَالِغَةُ^(٢) ﴾ .

(١) السجاج وقد ورد البيت عرفاً في الأصول ، وصوابه من الديوان ٤٨
(٢) سورة الأنعام ١٤٩ .

ووظف لكم مدداً ، أى قدر ، ومنه وظيفة الطعام .

وقرار خيرة بكسر الحاء ، أى دار ملاء واحتمار ، تقول : حبرت زيدا أخيرة خيرة ،

بالضم فيهما ، وخيرة بالكسر إذا بلوته واحترته ، ومنه قولهم : صفر الخيزر الحمر .

ودار عيرة أى دار اعتبار وأماظ ، والصمير فى « فيها » و « عليها » ليس واحداً ،

فإنه فى « فيها » يرجع إلى الدار ، وفى « عليها » يرجع إلى النعم والرفق ، ويحوز أن يكون

الصمير فى « عليها » هائداً إلى الدار على حذف المضاف ، أى على سكانها .

•••

الأصل :

فَإِنَّ الدُّنْيَا رَتِقٌ مَشْرُوبٌ ، رَدِغٌ مَشْرُوبٌ ، يُوْنِقُ مَنَظَرُهَا ، وَيُوْنِقُ نَجْوَاهَا .
غُرُورٌ حَائِلٌ ، وَضَوْءٌ آفِلٌ ، وَظِلٌّ سَوَائِلٌ ، وَجَنَادٌ مَائِلٌ ، حَتَّى إِذَا أَيْسَرَ مَا فُرْهَا ،
وَالطَّمَانُ مَا كَرُّهَا ، فَصَتَ بِأَرْحُلَيْهَا وَفَتَحَتَ بِأَحْبِلَيْهَا ، وَأَقْصَدَتْ بِأَسْهَبَيْهَا ، وَأَعْلَقَتْ
الْمَرْءَ أَوْهَاقَ الْمَيْتَةِ ، قَائِدَةً لَهُ إِلَى ضَلَكِ الْمَضْجَعِ ، وَوَحْشَةَ الْمَرْجِعِ ، وَمُعَابَتَةَ
الْمَحَلِّ وَثَوَابِ الْعَمَلِ .

وَكَذَلِكَ ائْتَلَفَ بِقَبِّ السَّلَفِ ؛ لَا تَقْلِعُ الْمَيْتَةُ أَحْتَرَامًا ، وَلَا يَرْغَوِى
الْبَاقُونَ أَحْتَرَامًا ، يَحْتَدُونَ مِثَالًا ، وَبِمَضُوفٍ أُرْسَالًا ، إِلَى غَايَةِ الْإِنْبَاءِ ،
وَصَيُورِ الْفَنَاءِ .

•••

الشرح :

يقال : عيش رقيق ، بكسر النون ، أى كدر ، وماء رقيق بالتسكين ، أى كدر والرقيق

يفتح النون مصدر قولك : « رقيق الماء » بالكسر ودرغته أنا ترنيقا ، أى كدركته والرواية

الشهورة في هذا الفصل « رَنَقَ مشرُها » بالكسر أقامه مقام قولهم : « عيشَ رَنَقَ » ، ومن رواء « رَنَقَ مشرُها » بالسكون - وهو الأفنون - أجرى اللفظ على حقيقته .

ويقال : مشرع رَدِغَ : ذو طين ووحل ، روى « الرَدْغَةُ » بالتحريك ، ويجوز تسكين الدال ؛ والجمع رِدَاغ ورَدِغٌ ^(١) .

ويورنق منظرُها : يعجب الناظر ؛ آمَنِي الشيء أعجبتني . ويُوبِق محبرها : يهلك ، وَيَق الرجلُ يَبِق ويُبوقا ، هلك ؛ والموت يَق « مَفِيل » منه كالموعد « مَمْل » ، من وقد بعد ، ومنه قوله سبحانه : ﴿ وَحَمَلْنَا بَيْنَهُمُ الْوِثَاقَ ﴾ ^(٢) . وقد جاء وَيَق وَيَق ، بالكسر فيهما ، وهو نادر ، كورث يرث ، وجاء أيضا وَيَق ويوبق وحقا .

والغُرور ، بضم الغين : ما يمتد به من متاع الدنيا ، والغُرور ، بالفتح : الشيطان .
والخائل : الزائل ، والآمل : الغائب ، أَقْلُ عَاب نَأْلُ وَيَأْقِلُ أَغْوَلَا .

والستاد : دِعامَةٌ يُسَدُّها للسقف . وما كرها : فاعل ، من نكرت كذا ، أي أسكرته .
وقيصت بأرجلها ، قَصَّ القرسُ وغيره يقيص ويقصُّ قَصًا وقِصًا ، أي استن ؛ وهو أن يرفع يديه ويطرعهما معاً ، وبمعن يرجليه ، وفي المثل المضروب لمن ذلَّ بعد عزة :
« مَا لِمَرٍّ مِنْ قِصَاصٍ » .

وجمع قتال : « بأرجلها » وإما للدابة رجلان ، إنما لأن الشيء قد يطلق عليه صيغة الجمع ؛ كافي قولهم : امرأة ذات أدراك وما كم ؛ وهما دركان ، وإما لأنه أجرى اليدين والرجلين مجرى واحد ، فساها كلها أرجلا . ومن رواء « بالخاء » فهو جمع رَحَل الناقة .
وأقصدت : قتلت مكانها من غير تأخير .

والأوهاق : جمع وَهَقَ بالتحريك ، وهوالجبل ، وقد يسكن مثل نهر ونهر . وأعلقت
المرء الأوهاق : جعلت الأوهاق عالقاً به . وألصك : الضيق .

والمضع : المصدر أو المسكن ، والفعل ضَمَعَ الرجل جنبه بالأرض ، بالفتح ، بضَمِّع
ضجوعاً وضجماً ، فهو ضاجع ؛ ومثله أضجع .

والرجيع : مصدر رَجَعَ ، ومنه ؛ قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَأْسِكُمْ مَرْجِعُكُمْ ﴾ ؛ (١) وهو
شاذ ، لأن المصادر من قَمَلَ يفعل بكسر العين ؛ إما يكون بالفتح .

قوله : « ومما به المحل » ، أى الموضع الذى يحلُّ به للكلف بعد الموت ؛ ولا بد لكل
مكلف أن يعلم عَقِيب الموت مصيره ؛ إما إلى جنة وإما إلى نار .

وقوله : « ثواب العمل » يريد جِراء العمل (٢) مراده الجِراء الأعمُّ الشامل للسعادة
والشقاوة ، لا الجِراء الأخصَّ الذى هو جِراء الطاعة ، وصحى الأعمُّ ثواباً على أصل الحقيقة
العمومية ؛ لأن الثواب فى اللمة الجِراء ؛ يقال : قد أتى فلان الشاعر لقصيدة كذا ، أى حازها

وقوله : « وكذلك الخلف يعقب السلف » الخلف للتأخرون ، والسلف المتقدمون ؛
وعقب هاهنا بالتسكين ؛ وهو ، منى تمُدَّ ، جئت يعقب فلان أى بعده ، وأصله جَرَى الفرس
بعد جَرَّبه ، يقال : لهذا الفرس عقب حسن . وقال ابن السكيت : يقال جئت فى عقب شهر
كذا ، بالضم ، إذا جئت بعد ما يمضى كله ، وجئت فى عقب ، بكسر القاف إذا جئت وقد
بقيت منه بقية . وقد روى : « يعقب السلف » ، أى يتبع .

وقوله : « لا تفلح النية » ، أى لا تنكف ، والاحترام : إذهاب الأنفس واستئصالها .

وارعوى : كفت عن الأمر وأمسك ، وأصل فعله الماضي رَعَى يرعو ، أى كفت عن الأمر ، وفلان حسن الرُّعْوة والرُّعْوة والرُّعْوة والرُّعْوة والرُّعْوة . والاجترام ، افتعال من الجرّم ، وهو الذنب ، ومثله الجرّمة ، يقال : جرّم وأجرّم بمعنى .
قوله : « يمتدّون مثلاً » أى يمتدّون ، وأصله من « حذوت للنمل بالنمل حذوا » ، إذا قدرت كل واحدة على صاحبها .

قوله : « ويمضون أرسالا » ، بفتح الهمزة ، جمع رَسَل ، بفتح السين ، وهو القطيع من الإبل أو الغنم ، يقال : جاءت الخيل أرسالا ، أى قطيعا قطيعا .

وعَيَّور الأمر : آخره وما يؤول إليه :



الأصل :

حتى إذا تصرّمت الأُشُورُ ، وتقصّت الدُّهُورُ ، وأرِفَ الثُّشُورُ ، أخرجهم من ضرائح القبور ، وأذكّر الطُّيُورُ ، وأوجِرَ السَّباعُ ، ومطّارِج المَهَالِكِ ؛ سِراها إلى أمرِهِ ، مُوطِّعينَ إلى مَعَادِهِ رَحِيلًا صُؤُونًا ، قِيَامًا صُفُوفًا ، يَتَفَدُّهُمْ البَصَرُ ، وَيُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي ؛ عَلَيْهِمْ لَبُوسُ الْإِسْكَانَةِ ، وَضُرْعُ الْإِسْئَلَامِ وَالِدَلَّةِ . قَدْ ضَلَّتِ الْخَيْلُ ، وَانْقَطَعَ الْأَمَلُ ، وَهَوَتْ الْأَفئِدَةُ كَاظِمَةً ، وَحَشَمَتِ الْأَصْوَاتُ مُهَيِّمَةً ، وَالْجَمَّ الْمَرَقُ ، وَعَظُمَ الشَّقَقُ ، وَأَرْعَدَتِ الْأَسْمَاعُ ، لَزَبْرَةِ الدَّاعِي إِلَى فَصْلِ الْغُلَابِ وَمُقَابَضَةِ الْجَزَاءِ ، وَتَسْكَالِ الْعِقَابِ ، وَنَوَالِ الثَّوَابِ .

التَّشْرِخُ

تَصَرَّعَتِ الْأُمُورُ: تَقَطَّعَتْ، ومثله «تَفَصَّصَتِ الْمَهْجُورُ» وَأَزَفَ: قَرُبَ وَدَنَا، بِأَرْفَ أَرْفًا؛
ومنه قوله تعالى: ﴿أَزِفَتِ الْأَيَّاتُ﴾ ^(١) أى القيامة، للفاعل «آزف».

وَالضَّرَّاحُ: جمع ضَرِيح وهو الشَّقْ في وَسَطِ الْقَبْرِ. وَاللَّحْدُ: ما كان في جَانِبِ الْقَبْرِ،
وَضَرَحَتْ ضَرَحًا، إِذَا حَفَرْتَ الصَّرِيحَ.

وَالْأَوْكَارُ: جمع وَكْر يَفْتَحُ الْوَاوُ، وهو عَشَّ الطَّائِرِ، وجمع السَّكْرَةُ وَكُورٌ، وَكَرَّ
الطَّائِرُ يَكِرُّ وَكْرًا، أى دَحَلَ وَكْرَهُ، وَالْوَكْنُ بِالْفَتْحِ مِثْلُ الْوَكْرِ، أى الْعُشَّ.

وَأَوْجِرَةُ السَّبَّاحِ: جمع وَجَرٍ مَكْسَرُ الْوَاوِ، وَيَجُورُ فَتَحَبَا، وهو بَيْتُ السُّعُ
وَالضُّبُعُ وَنَحْوُهَا.

مُهْطِعِينَ: مُسْرِعِينَ. وَالرَّعِيلُ: التَّعْلِمَةُ مِنَ الْخَيْلِ.

قوله عليه السلام: «يَفْقَدُ الْمَيِّتَ وَيَسْمَعُ الدَّاعِيَ»، أى مَعَ كَثْرَتِهِمْ لَا يَحْصِي مَسْمُومٌ
أَحَدٌ عَنْ إِدْرَاكِ الْبَارِئِ سَمْعَانَهُ، وَمَعَ هَذِهِ الْكَثْرَةِ أَبْصَالُ بَقِيَّةِ مَنْهُمْ أَحَدٌ إِلَّا إِذَا دَعَا
دَاعِيَ الْمَوْتِ سَمِعَ دَعَاءَهُ وَتَدَاءَهُ.

وَاللَّبُوسُ، يَفْتَحُ اللَّامُ: مَا يَلْبَسُ، قَالَ:

النَّسْ يَكُلُُّ حَالَةَ لَبُوسِهَا إِمَّا نَعِيمًا وَإِمَّا بَوْمًا ^(٢)

ومنه قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ﴾ ^(٣) يعنى الذُّرُوعَ.

وَالْإِسْتِكَامَةُ: الْخُصُوعُ. وَالصَّرْعُ: الْحَشْوَعُ وَالصَّغْفُ، صَرَعَ الرَّجُلُ يَصْرَعُ، وَأَضْرَعَهُ غَيْرُهُ.
وَكَاطَمَتْهُ: سَاكَمَتْهُ، كَطَمَ يَكْطِمُ كَطْمًا أَيْ سَكَتَ، وَقَوْمُ كَطَمٍ، أَيْ سَاكِتُونَ.

(١) سورة النجم ٥٧.

(٢) أنشده ابن الكثير لبهس الفراري، في خبر ذكره صاحب اللسان ٨ : ٨٧.

(٣) سورة الأنبياء ٨١.

ومهيمنة: ذات هيمنة، وهي الصوت الخفي. وألجم العرق: صار لجاما، وفي الحديث: «إن العرق ليَجْزِي مِمْسَمٍ حَتَّى إِنَّ مِمْسَمٍ مِنْ يَبْلَعُ رَكَّتِيهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلَعُ صَدْرَهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلَعُ عُنُقَهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُبْلَعُهُ، وَهُمْ أَعْظَمُهُمْ مَشَقَّةً».

وقال لي قائل: ما أرى لقوله عليه السلام: «الْمُؤَذَّنُونَ أَطْوَلُ النَّاسِ أَهْنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، كثير فائدة، لأن طول العنق جدا ليس بما يرغب في مثله، فذكرت له الخبر الوارد في العرق وقلت: إذا كان الإنسان شديد طول العنق كان عن إجمام العرق أبعد، فظهرت فائدة الخبر. ويروى «وأتمم العرق»، أي كثروا دام.

والشفق والشفقة، بمعنى، وهو الاسم من الإشفاق، وهو الخوف والحذر، قال الشاعر:
تَهْوَى حَيَاتِي وَأَهْوَى مَوْتَهَا شَفَقًا وَلِلْوَيْلِ أَكْرَمُ نَزَالٍ عَلَى الْحَرَمِ^(١)
وأرعدت الأسماك: عرتها الرعدة. ورعدة كداهي: صدته، ولا يقال الصوت رعدة إلا إذا خالط زحرا واتسار، ويرتبه ارتبته، بالضم.

وقوله: «إلى فصل الخطاب»، إلى ما هنا يتنق بالداعي وفصل الخطاب: بت الحكومة التي بين الله وبين عباده في الموقف، رزق الله المسامحة فيها عنه وإنما خص الأسماك بالردة، لأنها تحدث من صوت الملك الذي يدعو للناس إلى محاسنته.

والمقايضة: المعاوضة، قابضت زيدا بالمقايضة، وما قبضان، كما قالوا: بيضان. فإن قلت: كيف يصح ما ذكره للسلوك من حشر الأجساد وكيف يمكن ما أشار إليه عليه السلام من جمع الأحرار البدنية من أوكار الطيور وأوجرة السباع، ومعلوم أنه قد يأكل الإنسان سح، وبأكل ذلك السبع إنسان آخر، وبأكل هذا الإنسان طائر، ثم يأكل الطائر إنسان آخر، ولما كول بصير أجزاء من أجزاء بدن الأكل، فإذا حشرت

(١) لإسحاق بن خلف، من أبيات له وديون الحاسة - بشرح التبريزي ١: ٢٧٥.

الحيوانات كلها على ما تزعم للضرورة ، فذلك الأجزاء للفروضة ، إما أن تحشر أجزاء من بنية الإنسان ، أو بنية السبع ، أو منها معا ، فإن كان الأول وجب ألا يحشر السبع ، وإن كان الثاني وجب ألا يحشر الإنسان ، ولكل محال عقلا ، لأن الجزء الواحد لا يكون في موضعين .

قلت : إن في بدن كل إنسان وكل حيوان أجزاء أصلية وأجزاء زائدة ، فالأجزاء الزائدة يمكن أن تصبح أجزاء بدن حيوان إذا اغتذى بها ، والأجزاء الأصلية لا يمكن ذلك فيها ، بل يحرمها الله تعالى من الاستحالة والتغيير ، وإذا كان كذلك ، أمكن الحشر بأن تعاد الأجزاء الأصلية إلى موضعها الأول ، ولا فساد في استحالة الأجزاء الزائدة ، لأنه لا يجب حشرها ، لأنها ليست لأصل بنية المكلف ، فندفع الإشكال . وأما من يقول بالنفس الناطقة من أهل الملة ، فلا يلزمه الجواب عن السؤال ، لأنه يقول : إن النفس إذا أُرِفَ يوم القيامة ، خلقت لها أمدان غير الأبدان الأولى ، لأن المكلف الطيع والعامى المستحق للثواب والعقاب عندهم ، هو النفس ، وأما البدن فآلة لها لتعمله استعمال الكاتب للقلم ، والتجار للقاس .

• • •

الأصل

هَٰذَا مَخْلُوقٌ أَفْتَدَارُ ، وَتَرَبُّوبٌ أَفْتِسَارُ ، وَمَقْبُوضُونَ أَحْيَارًا ، وَغُصْنُونَ أَجْدَاثًا ؛ وَكَائِنُونَ رُقَاتًا ، وَمَبْعُوثُونَ أَمْرَادًا ، وَمَدِينُونَ حَزَاءَ ، وَنَمِيرُونَ حِسَابًا . قَدْ أَمِيلُوا فِي طَلَبِ الْمَخْرَجِ ، وَهَدُّوا سَبِيلَ الْمَسْجِدِ ، وَنَحَرُوا مَهْلَ الْمُسْتَقْتَبِ ، وَكَشِفَتِ عَنْهُمْ سُدْفُ الرُّيْبِ ، وَخَلُّوا لِمَضَارِ الْجِيَادِ ، وَرَوِيَّةِ الْإِرْتِيَادِ ، وَأَنَاءِ الْمُفْتَبِيسِ لِلرُّتَادِ ، فِي مَدَّةِ الْأَجَلِ ، وَمُضْطَرَبِ اللَّهْلِ .

• • •

الشيخ :

مربوبون : مملوكون . والافسار : العتبة والقهر .

والاحتضار : حضور لللاسكة عند الميت ؛ وهو حينئذ محتضر ، وكانت العرب تقول :
لبن محتضر : أى فاسد ذو آفة ؛ يمتنون أن الجن حصرتة ؛ يقال : اللبن محتضر فمطأ إناءك .
والأجداث : جمع جدث ، وهو القبر ؛ واحتدث الرجل ؛ اتخذ جدثاً ، ويقال :
« جدف » بالفاء .

والرفقات : الخطام ؛ تقول منه رقت الشيء فهو مرفوت .

ومدينون ، أى محزونون . والذئس : الجراء ؛ ومنه ﴿ مَا لِكَ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ ^(١) .
ويعيرون حساباً ، من قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا زُورَ الْيَوْمِ أَهْلُهَا الْمُبْهَرُونَ ﴾ ^(٢) ، ومن قوله
تعالى : ﴿ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴾ ^(٣) ؛ كأن قوله : « ومبعوثون أمراة » مأخوذ من قوله تعالى :
﴿ وَأَقْبَدُ جُنُودًا مُّزَادَى ﴾ ^(٤) وأصل التمييز على الفصل والتبيين .
قوله : « قد أمهلوا فى طلب المخرج » ، أى أنظروا ليغبثوا إلى الطاعة ويخلصوا التوبة ،
لأن إخلاص التوبة هو المخرج الذى من سلكه خرج من ربة المصيبة . ومثله قوله : « وهُدُوا
سبيل للسج » ، والسج : الطريق الواضح .

والستعيب : المسترمى ؛ استعيت زيدا إذا استرضيته عني ؛ فأنا مستعيب له ، وهو
مستعيب . وأعتبني ، أى أراضاني ، وإنا صرب المثل ، أهل المستعيب ، لأن من يطلب رضاه
فى مجرى العادة لا يرقى بالتماس الرضا منه ؛ وإنا يمهل ليرضى بقلبه لا بلسانه .

والشدف : جمع سدفة ؛ هى القطعة من الليل اللطيم ، هذا فى لمة أهل نجد ؛ وأما غيرهم

(١) سورة الفاتحة ٣

(٢) سورة يس ٥٩

(٣) سورة الواقعة ٧

(٤) سورة الأنعام ٩٤

فيجعل السُدُفَةُ الضوء ، وهذا اللفظ من الأضداد، وكذلك السُدُفُ ، يفتح السين والهمزة .
وقد قيل : السُدُفَةُ : اختلاط الضوء والظلمة كوقت ما بين طلوع الفجر إلى الإسقار ، والسُدُفُ :
الصبح وإفبائه ، وأسدف الليل ، أعظم ؛ وأسدف الصبح أضاء ، يقال : أسدف الباب ، أى
افتحه حتى يضيء البيت ؛ وفى لغة هوازن «أسدفوا» ؛ أى أسرجوا ، من السراج والرَّيْبُ :
الشبهة ، جمع رَيْبَةٍ .

والضمار : للوضع الذى نصّر فيه الخليل ، والمضمار أيضا للمدة التى نصّر فيها .
والنصير : أن تلغى الفرس حتى يمس ؛ ثم ترده إلى قوته الأولى ؛ وذلك فى أربعين يوما ،
وقد يطلق النصير على قبض ذلك ؛ وهو التجويع حتى يهرل ويحسّ لحته . ضمّر الفرسُ
بافتتح ، بضمّ بالضم ، ضورا ، وجاء «ضمّر الفرس» بالضم ، وأصمرته أنا ، وضمّرتة فاضطر هو ،
ولوثو مضطر : فى وسطه بعض الأنعام . رجل لطيف الجسم ، ضمير البطن ، وماقة ضامر
وخامرة أيضا . يقول : مكّهم الحكيم سبحانه وحلّام وأعالم ، كما تمكّن الخليل الذى
تسبق فى الضمار ليلى أيها أسبق .

والروية : الفكرة ، والارتياح : الطلب ، ارتاد فلان الكلا يرتاده ارتيادا : طلبه ، ومثله راد
الكلا يروده رَوْدًا وريادًا ؛ وفى الحديث : « إذا بال أحدكم فليرتد لبوله » ، أى فليطلب
مكاملتنا أو منعذرا ، والرائد : الذى يرسله القوم فى طلب الكلا ؛ وفى المثل : « الرائد
لا يكذب أهله » . والأناة : الفؤدة والانتظار ، مثل القناة

وتأتى فى الأمر : ترفق ، واستأنى علان بفلان ، أى انتظر به ، وجاء الأناة ، بالفتح والمد ، على
« فَمَا لَ » قال الخطيب :

وَأَكْرَبْتُ الْعَشَاءَ إِلَى سُهَيْلٍ أَوْ الشَّعْرَى فَعَالَ بِنَى الْأَنَاءِ (١)

والقديس : متعلّم اللحن هاهنا ، ولا بدّ له من أناة ومهّل ليبلغ حاجته ، فضرب مثلا ، وجاء

في بعض الروايات: «مقبوضون احتضارا» بالخاء للمجبة؛ وهو موت الشاب غصاً أخضر، أي مات شاباً، وكان ختيان يقولون للشيخ: أجززت يا أبا فلان، فيقول: أي بني، وتختصرون! أجزت الحشيش: أن أن يجر، ومنه قيل للشيخ: كاد يموت: قد أجزت، والرواية الأولى أحسن، لأنها أعم.

وفي رواية «لصبار الخيار» أي للضمار الذي يستيق فيه الأبرار الانتباه إلى رضوان الله سبحانه.

• • •

الأصل

فِيَالهَا أُمَثَلًا صَائِبَةً ، وَمَوَاطِئَ شَامِيَّةٍ ، لَوْ صَادَفَتْ قُلُوبًا زَاكِيَّةً ، وَأُتْمَاعًا
وَاعِيَةً ، وَآرَاءَ هَارِمَةٍ ، وَالْبَاءَ حَارِمَةً
فَانْقُضُوا اللَّهَ تَقِيَّةً مَنْ سَمِعَ فَحِشَّعَ ، وَافْتَرَفَ فَاغْتَرَفَ ، وَوَجَلَ فَعَمِلَ ، وَحَادَرَ فَبَادَرَ ،
وَأَيَقَنَ فَأَحْسَنَ ، وَعَبَّرَ فَاغْتَبَّرَ ، وَحَذَرَ فَعَذَرَ ، وَرَجَرَ فَاَرْدَجَرَ ، وَأَجَابَ فَأَنَابَ ، وَرَاجَعَ
فَتَنَابَ ، وَافْتَدَى فَاغْتَدَى ، وَأَرَى فَرَأَى ، فَاسْرَعَ طَالِبًا ، وَتَجَا هَارِمًا ؛ فَأَقَادَ ذَخِيرَةً ،
وَأَطَابَ سَرِيرَةً ، وَحَرَّ مَعَادًا ، وَاسْتَظْهَرَ زَادًا ، لِيَوْمِ رَحِيلِهِ ، وَوَحَى سَبِيلِهِ ، وَحَالَ حَاجَتِهِ ،
وَمَوَّلَ فَاغْتَمَلَ ، وَقَدَّمَ أَمَامَهُ لِدَارِ مُقَامِهِ .

فَانْقُضُوا اللَّهَ عِبَادَ اللَّهِ حِيَةً مَاخَذَكُمْ لَهُ ، وَأَحْذَرُوا مِنْهُ كُنْهَ مَاخَذَكُمْ مِنْ
نَفْسِهِ ، وَاسْتَحَقُّوا مِنْهُ مَا أَعَدَّ لَكُمْ بِالتَّجَرُّ لِيَصْدُقَ مِيعَادُهُ ، وَالْحَذَرُ مِنْ هَوْلِ مَعَادِهِ .

• • •

البنج :

صائبة : غير عادة عن الصواب ، صاب السهم بصوب صَوْبَةً ، أي قصد ولم يجر ،

وصاب السهم الفرطاس يصيبه سبباً لفة في «أصابه»، وفي المثل : مع الخواطيء منهم صائب .
وشافية : تبرئ من مرض الجهل والهمى . والقلوب الزاكية : الطاهرة ، والأمجاع الواعية :
الحافظة . والآراء العازمة : ذات المزم . والألباب : العقول ، والحازمة : ذات الحزم ،
والحزم : ضبط الرجل أمره .

وخشع الرجل ، أى خضع واقترب : اكتسب ، ومثله قرأ بقرى بالكسر ، يقال :
هو يقرى لعماله ، أى يكسب .

ووجل الرجل خاف ، وجلاً ، بفتح الجيم ، ومستقبله يؤجل وباجل ويبيح ويبيجل ،
بكسر الياء المضارعة .

وبادر : سارع وعبر : أى أرى العبر مراراً كثيرة ، لأن التشديد هاهنا دليل التكرار .
فاعتبر ، أى فانتظ . والزجر : النهي والمنع ، زجر أى منع ، وازدجر مطاوع ازدحر : اللفظ
فيهما واحد ، تقول : ازدحرت زيدا عن كذا فازدحرج هو ، وهذا قريب ؛ وإنما جاء مطاوع
ازدجر في «زجر» لانهما كالشيء الواحد ؛ وفي بعض الروايات «ازدحرفازدجر» ، فلا يحتاج مع
هذه الرواية إلى تأويل .

وأما الرجل إلى الله ، أى أقبل وتاب . واتحدى يزيد ؛ فعل مثله فمله ،
واحتدى مثله .

قوله عليه السلام : « فأفاد ذخيرة » ، أى فاستعاد ؛ وهو من الأضداد ، أفدت المال زيدا
أعطيته إياه ؛ وأفدت أنا مالا ؛ أى استعدته واكتسبته .

قوله عليه السلام : « فاتقوا الله عباد الله جهة ما خلقكم له » . نصب «جهة» بفعل مقدر ، تقديره :
«واقصدوا جهة ما خلقكم له» بمعنى العبادة ، لأنه تعالى قال : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ ^(١) . فعطف الفعل ، واستغنى عنه بقوله : « فاتقوا الله » لأن التقوى

ملازمة لقصد المكافء العبادة ، فدلّت عليه واستغنى بها عن إظهاره .

والكفّة : للمابة والنهاية ؛ تقول : أعرفه كفته المعرفة ؛ أى نهايتها .

ثم قال عليه السلام : « واستعقوا منه ما أعدّ لكم » ، أى اجعلوا أنفسكم مستحقين لثوابه الذى أعدّه لكم إن أطعتم .

والباء فى « بالتنجيز » متعلق بـ « استعقوا » ويقال : فلان يتنجز الحاجة ، أى

يستنجسها ويطلب تمجّلها ، والناجز : العاجل ؛ يقال : « ناجزاً بناجز » ؛ كفولك :

« بدأ بيد » أى تمحّلاً بتمجيل ؛ والتنجز من المكلفين بصدق ميماد القديم سبحانه ؛

وهو مواظبتهم على فعل الواجب ، ونحو القبيح . و « والحذر » محرور بالمطف على

« التنجز » ؛ لا على « الصدق » ؛ لأنه لا معنى له .



الأصل :

ومنها :

حَمَلَ لَكُمْ أَسْمَاءاً لَتَمِىَ مَاءُهَا ، وَأَنْصَاراً لَتَحُلُوَ عَنْ عَشَاهَا ، وَأَشْلَاءَ جَامِعَةً
لِأَعْمَانِيَّهَا ، مَلَأْتُهُ لَأَحْنَانِيَّهَا ، فِي تَرْكِيْبِ صَوْرِيَّهَا ؛ وَمُدَدِ عُمرِهَا ، بِأَيْدَانِ قَائِمَةٍ
بَارِقَاتِهَا ، وَقُلُوبِ رَائِدَةٍ لِأَرْزَاقِهَا ، فِي مُحَالَلَاتِ يَمِيْنِهِ ، وَمَوْجِبَاتِ مَقِيْدِهِ ،
وَحَوَاجِزِ عَاقِبَتِهِ .

وَقَدَّرَ لَكُمْ أَعْمَارَ اسْتَرَاهَا عَنْكُمْ ، وَخَلَّفَ لَكُمْ عِبَرًا مِنْ آثَارِ الْمَاصِيْنِ قَبْلَكُمْ ،
مِنْ مُسْتَمْتَعِ خَلَاقِيْهِمْ ، وَسُتْفَسِحِ حَنَاقِيْهِمْ . أَرْهَقْتَهُمُ الْمَنَاقِبَ دُونَ الْآمَالِ ، وَشَدَّ بِهِمْ
عَنْهَا تَحْزِيمُ الْآجَالِ ، لَمْ يَمْتَدُّوا فِي سَلَامَةِ الْأَمْدَانِ ، وَلَمْ يَتَغَيَّرُوا فِي أُنْفِ الْأَوَانِ .



البُزْخُ :

قوله : « لَمَّا مَا عَنَّا » ، أى لتحفظ وتفهيم ما أهمها ؛ ومنه الأثر للرفوع : « مِنْ حُسْنِ إِسْلَامٍ لِلرَّءِ تَرَكَ مَا لَا يَنْبَغُ » .
وتجاءلوا ، أى لتكشف .

ومن هاهنا زائدة ؛ ويجوز أن تكون بمعنى « بَعْدَ » كما قال :

• لَقِيتُ حَرْبُ وَاثِلٍ عَنْ حِيَالٍ^(١) •

أى بعد حِيَال ، فيكون قد حذف للفعل ، وحذفه جائز ، لأنه فصلة ؛ ويكون التقدير : لتجاءلوا الأذى بعد عشاها ، والمشاء مقصور : مصدر عَشَى ، بكسر الشين ، يَمْشَى ؛ فهو عَشِيٌّ ، إذا انصر سهارا ولم ييمصر ليلا .
والأشلاء : جمع شَلَو ، وهو المصو

فإن قلت : فأى معنى فى قوله : أَعْصَاءُ تَجْمَعُ أَعْصَاءُ تَجْمَعُ أَعْصَاءُهَا ؟ وكيف يجمع الشيء نفسه ؟ قلت : أراد عليه السلام بالأشلاء هاهنا الأَعْصَاءُ الظاهرة ، وبالأَعْصَاءُ الجوارح الباطنة ؛ ولا ريب أن الأَعْصَاءَ الظاهرة تَجْمَعُ الأَعْصَاءَ الباطنة وتضمها . والملائمة : الموافقة والأحناء : الجواب والجهات . ووجه الموافقة والملائمة أن كون اليد فى الجانب أَوْلى من كونها فى الرأس أو فى أسفل القدم ؛ لأنها إذا كانت فى الجانب كان البطش وتناول ما يراد ودفع ما يؤدى أسهل ؛ وكذلك القول فى جعل العين فى الموضع الذى جعلت به ، لأنها كذبت بآن السفينة البحرية ، ولو جعلت فى أمّ الرأس لم ينفع بها هذا الحد من الارتفاع الآن ؛ وإذا تأملت سائر أدوات الجسد وأعضائه وجدت بها كذلك .

(١) الطاهر بن جاد ؛ وأوله :

• تَرَبَّأَ مَرْيَطَ النِّعَامَةِ مِثْلِي •

ثم قال: «في تركيب صورها»، كأنه قال: مركبة أو مصورة، فأني بلفظة «في» كما تقول: ركب بسلاحه وفي سلاحه، أي منسلحا.

وقوله: «بأزماقها»، أي بمنافها جمع رفق، بكسر الراء، مثل رجل وأحمال، وأرقت فلانا، أي تفتته. والرفق من الأمر: ما ارتفتت به وانفتت، ويروى: «بأزماقها»، والرفق: بقية الروح.

ورائدة: طالبة. ومجملات النعم، نجمل الناس، أي نعمهم؛ من قولهم: «حجاب مجمل» أي يطبق الأرض، وهذا من باب إضافة الصفة إلى الموصوف، كقولك: أنا في سابع ظلك وعميم فضلك، كأنه قال: في سمه المحللة؛ وكذلك القول في موجبات منه، أي في منه التي توجب الشكر.

وفيها هنا متعلقة بمحذوف، والوضع نصب على الحال.

ثم قال: «وحواجز عافيته»، الحواجز: اللوائح، أي في عافية محجز وتمنع عنكم المضار. ويروى «وحواجز بليته»، وقد فسر قوله: «حواجز عافيته»؛ على أن يراد به ما يحجز العافية ويمنعها عن الزوال والعدم.

قوله عليه السلام: «من مستمتع بخلاقهم»، الخلاق: النصيب؛ قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُ فِي آلِ أَخِيهِ مِنْ خَلْقٍ﴾^(١)، وقال تعالى: ﴿فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَائِقِكُمْ كَمَا أَكْتَمْتُمْ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَائِقِهِمْ﴾^(٢)، وتقدير الكلام: حلف لكم عبرا من القرون السالفة، منها تنقمهم بنصيبهم من الدنيا ثم فتاؤهم، ومنها فسحة خناقهم^(٣) وطول إهمالهم، ثم كانت عاقبتهم الهلكة.

وأرغفتهم المنايا: أدركتهم مسرعة.

(٢) سورة التوبة ٦٩

(١) سورة الفرقة ٢٠٠

(٣) الخناق، بالفتح: حبل يمتدق به.

واللهق : القى أدرك ليقفل . وشذبهم عنها : قطعهم وفرقهم ؛ من تشذيب الشجرة ؛ وهو تقشيرها .

ونخرمت زهدا للنية : استأصلته واقطعته .

ثم قال : « لم يمهّدوا في سلامة الأبدان » ، أى لم يمهّدوا لأنفسهم ؛ من يمهّد الأمور وهو تسويتها وإصلاحها .

وانف الأوان : أوله ، يقال : روضة أنف لم ترع قبل ، وكأس أنف : لم يشرب بها قبل .

الأصل :

فَهَلْ يَنْتَظِرُ أَهْلُ بَصَاةِ الشَّيْبِ إِلَّا حَوَائِيَّ الْهَرَمِ ، وَأَهْلُ عِمَارَةِ الْمَحَبَّةِ
إِلَّا نَوَازِلَ السَّعْمِ ، وَأَهْلُ مَدَّةِ الْبَقَاءِ إِلَّا آوِيَةَ الْفَنَاءِ ، مَعَ قُرْبِ الزُّبَالِ ، وَأَزُوفِ
الْإِنْتِقَالِ ، وَهَلَزِ الْفَلَقِ ، وَالْمِ تَمَضُّيِ ، وَغُصَصِ الْجُرُضِ ، وَتَلَقَّتِ الْإِسْتِعَاةُ وَبُصْرَةَ
الْحَفْدَةِ وَالْأَقْرِبَاءِ ، وَالْأَعْرَةَ وَالْفَرَمَاءَ ، فَهَلْ دَقَّتِ الْأَقَارِبُ ، أَوْ نَفَتِ النَّوَاحِبُ ،
وَقَدْ فُوِّدَ فِي تَحَلَّةِ الْأَمْوَاتِ رَهِينًا ، وَفِي صَبَقِ الْمَصْجَعِ وَحِيدًا ، قَدْ هَتَكَتِ الْهَوَامُ
جِلْدَتَهُ ، وَأَبْلَتِ النَّوَاحِلُ حَدَّتَهُ ، وَغَفَّتِ الْمَوَاصِفُ آثَارَهُ ، وَنَحَا الْحَدَثَانُ مَعَالِمَهُ ،
وَصَارَتِ الْأَجْسَادُ شَجَبَةً أَمَدَ نَصَبِهَا ، وَالْعِظَامُ تَحِيرَةً بَعْدَ قُوَّيْهَا ، وَالْأَرْوَاحُ مُرْتَهَنَةً
بِثَقَلِ أَغْبَايِهَا ، مُوقِنَةً بِفَيْبِ أُنْبِيَائِهَا ، لَا تُسْتَرَادُّ مِنْ صَالِحِ عَمَلِهَا ، وَلَا تُسْتَعْتَبُ مِنْ
سَيِّئِ زَلِيلِهَا .

البِنْج :

البَصَاضَة : مصدر ، من بصّصت يارجل ، بصّصت ، بالفتح والكسر بصاضةً وبصووضةً ، ورجل بصّ ، أى ممثّل البدن رقيق الجلد ، وامرأة بصّة .

وحواى الهرم : جمع حاية ؛ وهى الدلة التى تمخّرنى شِعْطَاط^(١) الحسد ، وتميله عن الاستقامة .

والهرم : الكبر . والنصرة : طيب العيش ، ومنه المثل : أباد الله غصراءهم ، أى حيرهم وخيبتهم .

وآونة الفناء جمع أوان ؛ وهو الخن ، كرمان وأزمنة ، وفلان يصنع ذلك الأمر آونة كقولك : تارات ، أى يصنعه مراراً ويبدّعه مراراً .
والزّيال : مصدر رايله مرابلة وربّالاً ، أى عارقه .
والأزوف : مصدر أزف ، أى دنا .

والعزّز : قلق وخيفة وهلع يصيب الإنسان ، وقد عزّز بالكسر ، ومات عزّزاً ، أى وجعا قلقلًا . والمضص : الوجع ، أمصّني الجرح ومصّني ؛ لغتان ، وقد مضّضت يارجل ، بالكسر .

والمضص : جمع غصّة ، وهى الشجاة ، والمضص بالفتح : مصدر قولك غصّصت يارجل تمصّ بالطعام ، فأنت غاصّ وعصّان ، وأعصصته أماً .

والجربض : الرّيق يعض به ؛ جربض يربضه بالفتح ، يجربض بالكسر ، مثل كسر يكبير ؛ وهو أن يبلع ريقه على ممرّ وحزن بالجهد . والجربض : الفصّة ، وفى المثل : « حال

(١) العطاط ، بالفتح والكسر : الطول واعتدال القوام .

الجريض دون القريض « ؛ وفلان يجرّض بنفسه إذا كان يموت ، وأجرضه الله بريقه أغصه .

والحفدة : الأعوان والخدم ، وقيل : ولد الولد ، واحدم حافد ؛ والباء في « بنصرة الحفدة » متعلق بالاستعانة ؛ يقول : إن الميت عند زول الأمر به يتلفّت مستغيثًا بنصرة أهله وولده ، أى يستنصر يستصرخ بهم .

والنواحب : جمع ناحية ، وهى الرافعة صوتها بالبكاء ، ويروى : « النوادب » .
والهوام : جمع هامة ؛ وهى ما يحاف ضرره من الأحناش ؛ كالمقارب والمناكب ومحوها والواهلك : جمع ناهكة وهى ما يهلك البدن ، أى يبليه .

وعقمت : درّست ، ويروى بالتشديد . وشحنة : هالكة ، والشعب : الهلاك ، شعب الرجل بالكسر ، يشعب ، ^{ولما شعب} [الفتح] شعب بالضم ؛ أى هلك ؛ وشعبه الله يشعبه ، يمدّى ولا يمتدّى ،
ومحرّة : بالية . والأعباء : الأثقال ، واحدها عبء .

وقال : « موقنة بغيب أبنائها » ، لأن الميت يعلم بعد موته ما يصير إليه حاله من جنة أو نار .

ثم قال : إنها لا تكلف بعد ذلك زيادة فى العمل الصالح ، ولا يطلب منها التوبة من العمل القبيح ؛ لأن التكليف قد بطل .

• • •

الأصل :

أَوَلَسْتُمْ أَبَاءَ الْقَوْمِ وَالْآبَاءَ ، وَإِخْوَانَهُمْ وَالْأَقْرِبَاءَ ، تَحْتَدُونَ أَمْنَتَهُمْ ، وَتَرَكُّبُونَ قِيَدَهُمْ وَتَطْلُثُونَ جَادَتَهُمْ ؛ فَالْقُوبُ قَاسِيَةٌ عَنْ حَفْلِهَا ، لَا هِيَةَ عَنْ رُشْدِهَا ،

سَالِكَةً فِي غَيْرِ مَعْمَارِهَا ، كَأَنَّ اللَّحْيَ سِوَاهَا ، وَكَأَنَّ الرَّشْدَ فِي إِحْرَازِ دُنْيَاهَا .

الْبَيْزُجُ :

الْقِدَّةُ ، بِالذَّالِ الْمُهْمَلَةِ وَبِكَسْرِ اقْفَافِ : الطَّرِيقَةُ ، وَيُقَالُ لِكُلِّ مِرْقَةٍ مِنَ النَّاسِ إِذَا كَانَتْ ذَاتَ هَوًى عَلَى حِدَةٍ : قِدَّةٌ ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ كُنَّا طَرَائِقَ قِدْدًا ﴾ ^(١) ، وَمِنْ رَوَاهُ : « وَبِرَكْمُونِ قِدَّتِهِمْ » بِالذَّالِ الْمَعْجَمَةِ وَمِنْ اقْفَافِ أَرَادَ الْوَاحِدَةَ مِنْ قُدْذِ السَّهْمِ ؛ وَهِيَ رِبْشُهُ ، يُقَالُ : حَذَوْا الْقِدَّةَ بِالْقِدَّةِ ، وَبِكَوْنِ مَعْنَى : « وَتَرَكَوْنِ قِدَّتِهِمْ » ؛ تَقْتَفُونَ آثَارَهُمْ وَتُشَابِهُونَ بِهِمْ فِي أَفْصَالِهِمْ .

ثُمَّ قَالَ : وَتَطْنُونَ جَادَتِهِمْ ؛ وَهَذِهِ لَفْظَةٌ مُصْبِحُكُمْ حَدًّا

ثُمَّ ذَكَرَ قِسَاوَةَ الْقُلُوبِ وَخِلَافَهَا عَنْ رَشِيدِهَا بِقَوْلِهِ : « كَأَنَّ اللَّحْيَ سِوَاهَا » ؛ هَذَا مِثْلُ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : « كَأَنَّ الْمَوْتَ فِيهَا عَلَى خَيْرِنَا كَيْفَ ، وَكَأَنَّ الْحَقَّ فِيهَا عَلَى خَيْرِنَا وَاجِبٌ » .

الْأَصْلُ :

وَأَعْلَمُوا أَنَّ مَحَازَ كَيْفٍ عَلَى الصِّرَاطِ وَمَرَاتِقِ دَسْخِهِ ، وَأَهْوِيلِ زَلَلِهِ ، وَتَارَاتِ أَهْوَالِهِ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ عِبَادَ اللَّهِ ؛ تَقِيَّةَ ذِي لُبٍّ شَمَلَ التَّفَكُّرُ قَلْبَهُ ، وَأَنْصَبَ الْخُلُوفُ بَدَنَهُ ، وَأَسْهَرَ التَّهَجُّدُ غِرَارَ تَوْبِهِ بِوَأْظَمَاءِ الرَّجَاءِ ، هُوَ أَجْرُ يَوْمِهِ بِوُظْلَفَاتِ الرَّهْدِ شَهْوَاتِهِ ،

وَأَوْجَفَ لِلذِّكْرِ بِلِسَانِهِ ، وَقَدَّمَ أَنْفُوتَ لِأَمَانِهِ ، وَتَنَسَّكَ لِلْحَاجِجِ عَنْ وَضْعِ
السَّبِيلِ ، وَسَلَّكَ أَقْصَدَ لِّلْمَالِكِ إِلَى السَّهْجِ لِمَطُوبِ ! وَلَمْ تَغْزِلْهُ قَاتِلَاتُ الْعُرُورِ ، وَلَمْ
تَمَّ عَلَىهِ مُشْتَبِهَاتُ الْأُمُورِ ؛ غَافِرًا بِرَحْمَةِ الْبَشْرِى ، وَرَاحَةً الشُّعْى ، فِي أَنْعَمِ نَوَاسِطِ
وَأَمِنْ يَوْمِهِ .

قَدْ عَبَّرَ مَعْبَرَ الْمَاجِلَةِ حَمِيدًا ، وَقَدَّمَ رَادَ الْأَحْيَةِ سَعِيدًا ، وَبَادَرَ عَنْ وَحَلٍ ،
وَأَكْثَشَ فِي مَهَلٍ ، وَرَغِبَ فِي طَلَبٍ ، وَدَهَتْ عَنْ هَرَبٍ ، وَرَاقَتْ فِي يَوْمِهِ غَذَّةٌ ، وَرُبَّمَا
نَظَرَ قَدَمًا أَمَامَهُ .

فَكُنْ بِالْجَنَّةِ ثَوَابًا وَنَوَالًا ، وَكُنْ بِسَارِ عِقَابًا وَوَبَالًا ! وَكُنْ بِاللهِ مُنْتَفِعًا
وَنَصِيرًا ! وَكُنْ بِالسِّتَابِ حَاصِبًا وَحَمِيمًا !



البُزْج :

وقال أصحابنا رحمهم الله تعالى : الصراط الموارد ذكره في الكتاب العزيز ؛ هو الطريق
لأهل الجنة إلى الجنة ، ولأهل النار إلى النار بعد المحاسبة ، قالوا : لأن أهل الجنة ممرهم على
باب النار ، فمن كان من أهل النار عُذِلَ به إليها ، وقذف فيها ، ومن كان من أهل الجنة
مَرَّ بالنار مروراً نجاً منها إلى الجنة ، وهو معنى قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ ^(١) ؛
لأن ورودها هو القرب منها ، والدنو إليها ، وقد دلّ القرآن على سور مضروب بين مكان
النار وبين الموضع الذي يختارون منه إلى الجنة في قوله : ﴿ فَصْرِبْ بَيْنَهُمْ بِسُورَةٍ مِنْ بَابِ بَابِهَا ﴾
فِيهِ الرِّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قَبْلِ الْمَذَابِ ^(٢) .

قالوا: ولا يصح ما روى في بعض الأخبار أن الصراط أدق من الشعر وأحذ من السيف، وأن المؤمن يقطعه كمرور البرق الخاطف، والكافر يمشی عليه حثوا، وأنه ينتفض بالذين عليه حتى تترايل مفاسلهم. قالوا: لأن مثل ذلك لا يكون طريقاً للمشي، ولا يتمكن من المشي عليه؛ ولو أمكن لم يصح التكليف في الآخرة، ليؤمر العقلاء بالمرور عليه على وجه التعبد.

ثم سأل أصحابنا أنفسهم، فقالوا: أي فائدة في عمل هذا الشور؟ وأي فائدة في كون الطريق الذي هو الصراط منتهياً إلى باب النار منفجاً منها إلى الجنة؟ ألسم نطلوب أفعال الباري تعالى بالمصالح، والآخرة ليست دار تكليف ليفعل فيها هذه الأفعال للمصالح؟

وأجابوا بأن شعور المكلفين في الدنيا بهذه الأسماء مصالح لهم، والاطاف في الواجبات العقلية، فإذا أعلم المكلفون بها وجب إبقاؤها على حسب ما وعدوا وأحبروا به، لأن الله صادق لا يخلف في أخباره.

وعندي أنه لا يمتنع أن يكون الصراط على ما وردت به الأخبار، ولا مانع من ذلك قولهم: لا يكون طريقاً للمشي، ولا يتمكن من المشي عليه مسلم، ولكن لم لا يجوز أن يكون في جملة على هذا الوجه والإخبار عن كينيته هذه مصلحة للمكلفين في الدنيا وليس عدم تمكن الإنسان من المشي عليه مانع من إبقائه على هذا الوجه، لأن المراد من هذا وأمثاله هو التخويف والزجر.

وأما قولهم: الآخرة ليست دار تكليف، فلنقل أن يقول لهم: لم قلتم: إياه تكليف؟ ولم لا يجوز أن يكون المكلفون مضطرين إلى سلوكه اضطراراً؟ فالؤمن يخلق الله فيه الثبات والكيانة، والحركة السريعة فينجو ويسلم، والكافر يخلق فيه ضد ذلك فيهوى ويسقط ولا مانع من ذلك.

يقال : مكان دَحَض ودَحَض ، بفتح ريك ، أى زلق ، وأدحضته أما أزلقته
قدحَض هو .

والأهويل : الأمور المفزعة . وتارات أهواله ، كقوله : دَفَعَات أهواله ؛ وإنما جعل
أهواله تارات ؛ لأن الأمور الهائلة إذا استمرت لم تكن إلا إرجاج والترويع ، كأن تكون
إذا طرأت تارة ، وسكنت تارة .

وأنصب الخوف بدنه : أنصب ؛ والنصب : التنب . والنهجد هنا : صلاة الليل ، وأصله :
السهر ؛ وقد جاء النهجد بمعنى النوم أيضا ؛ وهو من الأضداد .

الغِرار : قلة النوم ؛ وأصله قلة لبن الدابة ؛ ويقال : غارت الباقة تمار غرارا قل كسها .

فإن قلت : كيف توصف قلة النوم بالسهر ؛ وإنما يوصف بالسهر الإنسان نفسه ؟
قلت : هذا من محارات كلامهم ؛ كقولهم ليل ساهر ، وليل نائم .

والمواجر : جمع هاجرة ؛ وهي نصف النهار عند اشتداد الحر ، يقال : قد هجر النهار ،
وأتبنا أهلنا مهجرين ، أى سائرين في الهجرة .

وظلّف : منع ، وظلّفت نفسُ فلان ، بالكسر من كذا ؛ أى كفت .

وأوجِف : أسرع ، كأنه جعل الذُّكْر لشدّة تحريكه اللسان مُوجفا به ، كما توجِف
الباقة براكبها ، والوجيف : ضرب من السَّير .

ثم قال : « وقدم الخوف لأمانه » ، اللام هاهنا لام التعليل ، أى قدم خوفه ليأمن .
والخناج : الأمور المختلجة ، أى الجاذبة ، حَلَّجَه واختلجَه ، أى جذبَه .

واقصد المسالك : أقومها . وطريق قاصد ، أى مستقيم .

وفدّه عن كذا ، أى رده وصرفه ، وهو قلب « قلت » .

ويروى : « قد عبّر مكيّر العاجلة جيّدا ، وقدم زاد الآجلة سميدا » .

وأكش : أسرع ، ومثله اكش ورجل كيش أى سريع ، وقد كُش بالضم كاشة فهو كيش وكيش ، وكشته تكيشا : أمحلته .

قوله : « ورغب فى طلب ، وذهب عن هرب » ، أى ورغب فيما يطلب مثله ، وقرعها يهرب من مثله ، فأقام المصدر مقام ذى المصدر .

ونظر قُدُما أمامه ، أى ونظر ما بين يديه مقدما لم يَبْتَنِ ولم يَسْرَج ، والادال مضومة ها هنا .

قال الشاعر يذم امرأة :

تمضى إذا زُجِرَتْ عَنْ سِوَايَ قُدُماً كَأَنَّهَا هَدَمَتْ فِي الْجَفْرِ مَنَاقِضُ^(١)
ومن رواه بالتسكين ، جاز أن يعنى به هذا ويكون قد خفف ، كما قالوا : حُلْمٌ وحُلْمٌ .
وجاز أن يحمله مصدرا ، من قَدَمَ الرجل بالفتح ، يقدم قدماء أى تقدم ، قال الله تعالى :
﴿ يَقْدِمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾^(٢) ، أى يقدمهم إلى ورودها ؛ كما قال : « ونظر بين يديه
متقدما لغيره وساقا إياه إلى ذلك » . والباء فى « بالجنة » و « بالنار » و « بالله »
و « بالكتاب » زائدة ، والتقدير : كفى الله ، وكفى الكتاب !



(١) الهدم بالتحريك : ما تهدم من دوحى الترس لسطق حودها والخفر : البئر الواسعة لم تطلو .
والبيت أشده ابن السيرال من ابن عريذ مع أبيات هي :

قد رابني منك يا أسماء إعراضُ فدام منا لكم مقتٌ وإنضاضُ
إن تبغضينى فساأحببتُ عابيةً يروضها من لثام الناسِ رِواضُ
تمضى إذا زُجِرَتْ عَنْ سِوَايَ قُدُماً كأنها هَدَمَتْ فِي الْجَفْرِ مَنَاقِضُ
قلْ للعوانى أما فيكنَّ فأنكةً تعلموا لهنَّ ضربٌ فيه إحصاضُ

واظر اللان ١٥ : ٢٧٠

(٢) سورة هود ٩٨ .

الأفضل:

أَوْصِيَكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ الَّذِي أَعْذَرَ بِمَا أُنْذَرَ ، وَأَحْتَجَّ بِمَا نَهَجَ ، وَحَذَرَ كَمَا عَدُوا
نَفَذَ فِي الصُّدُورِ خَفِيًّا ، وَنَفَثَ فِي الْأَذَانِ نَجِيًّا ؛ فَأَصَلَ وَأَرْدَى ، وَوَعَدَ قَمِيًّا ، وَزَيَّنَ
سَيِّئَاتِ الْجَرَائِمِ ، وَهَوَّنَ مُوَيْقَاتِ الْعِظَائِمِ ، حَتَّى إِذَا اسْتَدْرَجَ قَرِيْنَتَهُ ، وَاسْتَفْلَقَ
رَهِيْنَتَهُ ؛ أَنْكَرَ مَا زَيَّنَ ، وَاسْتَعْظَمَ مَا هَوَّنَ ، وَحَذَرَ مَا أَمَّنَ .

الشرح

« أَعْذَرَ بِمَا أُنْذَرَ » ، ما هاهنا مصدرية ، أى أعذر بإذاره . ويجوز أن تكون

بمعنى « الذى » .

والمدوّ المذكور : الشيطان .

وقوله : « نَفَذَ فِي الصُّدُورِ » و « نَفَثَ فِي الْأَذَانِ » كلام صحيح بدیع . وفى قوله : « نَفَذَ

فِي الصُّدُورِ » ، مناسبة لقوله صلى الله عليه وآله : « الشَّيْطَانُ يَجْرِي مِنْ بَيْنِ آدَمَ يَجْرِي الدَّمُ » ،

والنحي : الذى يساره ، والجمع الأنجية ، قال .

« إِنِّى إِذَا مَا الْقَوْمُ كَانُوا أُنْجِيَةً ^(١) »

وقد يكون النحي جماعة مثل الصديق ، قال الله تعالى : « خَلَّصُوا نَجِيًّا » ^(٢) ،

أى متناجين .

القريبة هاهنا : الإنسان الذى قارنه الشيطان ، ولفظه لفظ التأنيث ؛ وهو مذكّر ، أراد

القرين ، قال تعالى : « قَبِئْسَ الْقَرِينُ » ^(٣) ، ويجوز أن يكون أراد بالقريبة النفس ، ويكون

(١) يسه :

وَاضْطَرَبَ الْقَوْمُ اضْطِرَابَ الْأَرْضِيَّةِ هُنَاكَ أَوْصِيَنِي وَلَا تُؤْمِنِي بِيَّة

والربز لسيم بن وئيل اليربوعى . المان ٢٠ : ١٧٩

(٢) سورة الزخرف ٢٨ .

(٣) سورة يوسف ٨٠

الضير عائداً إلى غير مذكور لفظاً لما دلّ المعنى عليه ؛ لأن قوله : « فاضل وأردى ، ووعد فتى » معناه أضلّ الإنسان وأردى ، ووعدته فتى ، فالفعول محذوف لفظاً ؛ وإليه رجع الضير على هذا الوجه ؛ وبقال : غيّر الرهن إذا لم يفتكه الراهن في الوقت للشروط ، فاستحقه الرهن .

وهذا الكلام مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَتُوبُوا لِي وَأَنْتُمْ كَاذِبُونَ ﴾ (١) .

•••



الأسئل

ومنها في صفة خلق الإنسان .

أَمْ هَذَا الَّذِي أُنْشِأَ فِي ظُلُمَاتٍ الْأَرْحَامِ ، وَشُعَفِ الْأَسْفَارِ ؛ نُطْقَةً دِهَاقًا ، وَهَلَقَةً حِقَاقًا ، وَحَنِينًا وَرَاضِعًا ، وَوَالِدًا وَيَافِيًا ؛ ثُمَّ مَنَحَهُ قَبْلاً حَافِظًا ، وَلِسَانًا لَافِظًا ، وَبَصَرًا لَاحِظًا ، لِيَقْتَنِمَ مُعْتَدِرًا ، وَيُقَصِّرَ مُزْدَجِرًا ؛ حَقٌّ إِذَا قَامَ أَعْيَدَالُهُ ، وَأَسْتَوَى مِثَالُهُ ؛ نَفَرٌ مُسْتَسْكِرًا ، وَخَبَطَ سَادِرًا ؛ مَا تَحَا فِي غَرْبِ هَوَاهُ ، كَادِحًا سَعْيًا لِدُنْيَاهُ ؛ فِي لَذَاتِ طَرَبِهِ ، وَبَدَوَاتِ أَرَبِهِ ؛ ثُمَّ لَا يَحْتَسِبُ رَرِيَّةً ، وَلَا يَخْشَعُ نَفِيَّةً ؛ فَمَاتَ فِي فِتْنَتِهِ غَرِيرًا ، وَعَاشَ فِي هَمُونِهِ يَسِيرًا ، لَمْ يُعِذْ عَوْصًا ، وَلَمْ يَقْضِ مُفْتَرَضًا .

وَهَمَّتْهُ فَجَعَاتُ النَّيَّةِ فِي غَيْرِ حَاجِهِ ، وَسَنَ مِرَاجِهِ ، فَطَلَّ سَادِرًا ، وَبَاتَ سَاهِرًا ، فِي غَمَرَاتِ الْأَلَامِ ، وَطَوَارِقِ الْأَوْجَاعِ وَالْأَسْقَامِ ؛ بَيْنَ أَيْحِ شَفِيقٍ ، وَوَالِدِ شَفِيقٍ ،

وَدَاعِيَةٍ بِالْوَبْلِ سَرَعًا ، وَلَا دِمَّةٍ لِّقُصْدٍ قَنَاقًا ؛ وَالْمَرْءُ فِي سَكْرَةٍ مُّثَلِّثَةٍ ، وَتَهْمُزَةٍ
كَارِثَةٍ ، وَأَنَّهُ مُوَجَّعٌ ، وَجَدْبَةٌ مُّكْرِنَةٌ ، وَسَوْفَةٌ مُّثَبِّعَةٌ .

ثُمَّ أَذْرِجْ فِي أَكْفَادِهِ مُثْلِسًا ، وَحَذِيبٌ مُّنفَادًا سَلِسًا ؛ ثُمَّ الْيَقِي عَلَى الْأَعْوَادِ ،
رَجِيعٌ وَهَبٌ ، وَلَيُضَوِّ سَقَمٌ ، تَحْمِلُهُ حَمْدَةُ الْوِلْدَانِ ، وَحَشْدَةُ الْإِخْوَانِ ؛ إِلَى دَارِ
غُرَبَتِهِ ، وَمُنْقَطَعِ زُورَتِهِ ؛ وَمُفْرَدٍ وَخَشَتِهِ ؛ حَتَّى إِذَا انْصَرَفَ الْمُشِيعُ ، وَرَجَعَ
الْمُنْفَجِعُ ، أَقْبَدَ فِي حُفْرَتِهِ نَحِيًّا لِتَهْمَةِ السُّؤَالِ ، وَعَثْرَةِ الْإِمْتِحَانِ .

وَأَعْظَمُ مَا هُنَاكَ بَلِيَّةٌ نَزَلُ الْخَلِيمِ ، وَتَنْصِلِيَةُ الْخَلِيمِ ، وَقَوَارِثُ السَّعِيرِ ،
وَسَوَارِثُ الرَّفِيرِ ؛ لَا فَفْرَةٌ مُّزِيحَةٌ ، وَلَا دَعَّةٌ مُّزِيحَةٌ ، وَلَا قُوَّةٌ حَاجِرَةٌ ، وَلَا مَوْتَةٌ
فَاجِرَةٌ ، وَلَا سَيْةٌ مُّثْلِيَّةٌ ؛ بَيْنَ أَطْوَارِ اللَّوْنَتِ ، وَعَذَابِ السَّاعَاتِ ؛ إِنَّمَا بِإِلَهِ عَائِذُونَ !

(م م م)

الْبَرْخُ :

أَمْ هَا إِمَّا اسْتِفْهَامِيَّةٌ عَلَى حَقِيقَتِهَا ؛ كَأَنَّهُ قَالَ : أَعْظَمُكُمْ وَأَدَكُرُّكُمْ بِحَالِ الشَّيْطَانِ
وَلِعَوَانِهِ ، أَمْ بِحَالِ الْإِنْسَانِ مِنْدًا ابْتَدَأَ وَجُودَهُ إِلَى حِينِ مَمَاتِهِ ، وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ مُنْقَطِعَةً
بِمَعْنَى « بَل » كَأَنَّهُ قَالَ : عَادِلًا وَتَارِكًا لِمَا وَعَظَّمَهُمْ بِهِ ؛ بَلْ أَتَوْا عَلَيْكُمْ نَبَأَ هَذَا الْإِنْسَانِ
الَّذِي حَالُهُ كَذَا .

الشُّعْفُ بِالْعَيْنِ الْمَعْمُومَةِ : جَمْعُ شَعْفٍ ، بَنَحَ الشَّيْنُ ، وَأَصْلُهُ غِلَافُ الْقَلْبِ ، يُقَالُ :
شَعْفَهُ الْحُبَّ ، أَيْ بَلَغَ شَعْفَهُ ، وَقُرِئَ : « قَدْ شَعَفَهَا حُبًّا » (١) .

وَالدَّهَاقُ : الْمَمْلُوءُ ، وَيُرْوَى « دَقَاقًا » مِنْ دَقَّقَتِ الْمَاءُ أَيْ صَبَبَتْهُ .

قَالَ : « وَعَلَقَةٌ مُحَافَا » ، الْحَافِ : ثَلَاثُ لَيَالٍ مِنْ آخِرِ الشَّهْرِ ، وَصُمِّيتْ مُحَافَا لِأَنَّ
الْقَمَرَ يَمْتَحِقُ فِيهِنَّ ، أَيْ يَحْبِي وَتَبْطُلُ صُورَتُهُ ، وَإِنَّمَا حَمَلُ الْعَلَقَةِ مُحَافَا هَذَا ، لِأَنَّهَا لَمْ
تَحْصُلْ لَهَا الصُّورَةُ الْإِنْسَانِيَّةُ بَعْدَ ؛ فَكَانَتْ مَمْعُومَةً مَمْعُومَةً مُحَافَا .

والنافع : الغلام المرتفع ، آتبع وهو يافع ؛ وهذا من النوادر . وغلام يَفْع وَيَفْعَة
وغلمان أبقاع وَيَفْعَة أيضا .

قوله : « وَخَبَطَ سَادِرًا » ؛ خَبَطَ البعير إذا ضرب يديه إلى الأرض ، ومشى لا يتوق شيئا .
والسادر : المتعير ، والسادر أيضا : الذي لا بهم ولا يبالي ما صنع ، والموضع يحصل كلا
التفسيرين .

والمائع : الذي يستقي الماء من البئر وهو على رأسها . والمائع : الذي نزل البئر إذا قل
ماؤها ، فيسل الدلاء . وسئل بعض أئمة الأمة عن الفرق بين المائع والمائع ، فقال : اعتبر
هطلي الإجماع ، فالأعلى للأعلى ، والأدنى للأدنى .

والغرب : الدار العظيمة . والسكج : شدة السعي والحركة ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا
الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا ۚ ﴾ (١) .

قوله : « وَبَدَوَات » ، أى ما يحطر له من آرائه التي تختلف فيها دواعيه ، فتقدم وتحمج ،
ومات غريرا ، أى شابا ، ويمكن أن يراد به أنه غير محرب للأموال .
والهفوة : الرقة ، هفا يهفو . لم يفد عوضا ، أى لم يكتسب .
وغتر جاحة : بقاياها ، قال أبو كبير لهذلي :

وَمُبْرَأٌ مِنْ كُلِّ غُبْرٍ حَيْصَةٍ وَتَسَادٍ مُرْضِيَةٍ وَدَاهٍ مُعِيلٍ (٢)

والجراح الشرة وارتكاب الهوى . وسن مراحه ، السنن : الطريقة ، والمراح :
شدة الفرح والنشاط .

قوله : « فَظُلَّ سَادِرًا » ، السادر هاهنا غير السادر الأول ، لأنه هاهنا المنفى عليه كأنه

(١) سورة الانشقاق ٦

(٢) ديوان الحماسة - بفتح التبرير ١ : ٨٤ وللعيل ، من العيل ؛ وهو أن تنفى المرأة وهي
تمرض ؛ فذلك الحب القيل .

سكران ؛ وأصله من صدر البعير من شدة الحر وكثرة الطلاء بالقطران ، فيكون كالنائم لا يحس ، ومراده عليه السلام هاهنا أنه بدأ به المرض . ولاديمة للصدر : صاربة له ، والعيذاب النساء : ضربهن الصدور عند النياحة . سكرة ملبئة : تجعل الإنسان لاهثاً لشدة لاهث يلبث لاهثاً ولهاثاً ، ويروى « ملبية » بالياء ، أي تلهي الإنسان وتشغله . والكارثة « فاعلة » من كثره ألم بكرهته بالضم ، أي اشتد عليه وبلغ منه غاية الشقة .

الجذبة : حذب الملك الروح من الجسد أو جذب الإنسان إذا احتضر ليُسحى . والسوفة : من سياق الروح عند الموت . والنيس : الذي يئس من رحمة الله ، ومنه سمى إبليس . والإبلاس أيضا : الانكار والحزن . والنيس : الشهل للقادة . والأعواد خشب الجنائز ، ورَجِيع وَصَب : الرجيع المعنى السكالم ، والوصب : الوحم ، ووصب الرجل يوصب ، فهو واسب ، وأوصبه الله فهو موصب . والموصب بالشديد : الكثير الأوجاع . والنصو : المزبل . وحشدة الإخوان : جمع حشد ؛ وهو الكأف المتعد . ودار غرته : قبره . وكذلك منقطع زورته ، لأن الزيارة تنقطع عنده .

ومفرد وحشته نحو ذلك ، لانفراده بعسله ، واحتياش الناس منه ؛ حتى إذا انصرف المشيع وهو الخارج مع جنازته ، أقيد في حمرته . هذا نصريح بمذاب القبر ، وسنذكر ما يصلح ذكره في هذا الموضع .

والنجى : الناجى . وتزول الحميم وتصلية الحميم ، من الألفاظ الشريفة القرآنية ^(١) . ثم نفى عليه السلام أن يكون في العذاب فتور يجد الإنسان معه راحة ، أو يكون يزج عنه الألم أي يزيله ، أو أن الإنسان يجد في نفسه قوة تحجز بينه وبين الألم ، أي تمنع ويموت موتاً ناجزاً معجلاً ، فيستريح ، أو ينام فيسلو وقت نومه عما أصابه من الألم في اليقظة كما في دار الدنيا .

(١) وهو قوله تعالى في سورة الواقعة : ﴿ قُذِّلْ مِنْ حَمِيمٍ • وَتَصْلِيَةٌ جَمِيمٍ ﴾ .

ثم قال : « بين أطوار الموتات » ، وهذا في ظاهره متناقض ، لأنه في الموت مطلقاً ،
ثم قال : « بين أطوار الموتات » ، والجواب أنه أراد بالموتات الآلام العظيمة ؛ فسيماها
موتات ؛ لأن العرب تسمى المشقة العظيمة موتاً ، كما قال :

• إِنَّمَا الْمَيِّتُ مَيِّتُ الْأَحْيَاءِ (١) •

ويقولون : الفقر الموت الأحمر ، واستعمالهم مثل ذلك كثير جداً .
ثم قال : « إِنَّا بِاللَّهِ عَائِدُونَ » ؛ عُدَّتْ غِلَان واستمذت به ؛ أى التبعات إليه .

• • •

[فصل في ذكر القبر وسؤال منكر ونكير]

واعلم أن لغاضي القصاة في كتاب " طبقات المترة " في باب « القبر وسؤال منكر
ونكير » ؛ كلاماً أما أورد هاهنا بعضه ، قال رحمه الله تعالى :

إنَّ عَذَابَ الْقَبْرِ إِنَّمَا أَنْكَرَهُ صِرَارٌ مِنْ مَحْرُومٍ ، وَلَمَّا كَانَ ضَرَارٌ مِنْ أَصْحَابٍ وَاصِلٍ مِنْ
عَطَاءٍ ، ظَنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ أَنَّ ذَلِكَ عَمَّا أَنْكَرْتَهُ الْمُعْتَرَةُ ؛ وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ ؛ بَلِ الْمُعْتَرَةُ
رَجُلَانِ : أَحَدُهُمَا يَجُوزُ عَذَابُ الْقَبْرِ ، وَلَا يَقْطَعُ بِهِ ؛ وَهُوَ الْآقِلُونَ ، وَالْآخَرُ يَقْطَعُ عَنْ ذَلِكَ ؛ وَهُوَ
أَكْثَرُ أَصْحَابِنَا لظهور الأخبار الواردة فيه ؛ وَإِنَّمَا تَنْكَرُ الْمُعْتَرَةُ قَوْلَ طَائِفَةٍ مِنَ الْجَهْلَةِ إِنَّهُمْ
يُعَذِّبُونَ وَهُمْ مَوْتَى ، لِأَنَّ الْعَقْلَ يَمْنَعُ مِنْ ذَلِكَ ؛ وَإِذَا كَانَ الْإِنْسَانُ مَعَ قُرْبِ الدَّهْرِ بِمَوْتِهِ ؛
وَلَمَّا يَدْفَنُ يَتَفَوَّنُ أَنَّهُ لَا يَسْمَعُ وَلَا يَبْصُرُ وَلَا يَلْمُسُ وَلَا يَلْتَمِزُ ، فَكَيْفَ يَجُوزُ عَلَيْهِ
ذَلِكَ وَهُوَ مَيِّتٌ فِي قَبْرِهِ ؟ وَمَا رَوَى مِنْ أَنَّ الْمَوْتَى يَسْمَعُونَ لَا يَصْخَرُ إِلَّا أَنْ يُرَادَ بِهِ أَنَّ
اللَّهَ تَعَالَى أَحْيَاهُمْ ، وَقَوَّيْ حَاسَةَ سَمْعِهِمْ ، فَسَمِعُوا وَهُمْ أَحْيَاءُ .

(١) صدره :

• لَيْسَ مَنْ مَاتَ فَاسْتَرَاخَ بِمَيِّتٍ •

من أبيات ظلال ابن الرعلاء الضاري في يوم عدا أجمع ، الكامل في التاريخ لابن الأثير ١ : ٣٢٦
(١٨ - نهج ٦)

قال رحمه الله تعالى : وأنكر أيضاً مشايخنا أن يكون عذاب القبر دائماً في كل حال ، لأن الأخبار إنما وردت بذلك في الجملة ، فاللهي يقال به هو قدر ما تقتضيه الأخبار دون ما زاد عليه مما لا دليل عليه ، ولذلك لسنا نوقت في التعذيب وقتاً ، وإن كان الأقرب في الأخبار أنها الأوقات المقارنة للدفن ، وإن كان لا نعيها بأعيانها .

هكذا قال قاضي القضاة ، والذي أعرفه أنا من مذهب كثير من شيوخنا قبل قاضي القضاة أن الأغلب أن يكون عذاب القبر بين المنفختين .

ثم إن قاضي القضاة سأل نفسه ، قل : إذا كانت الآخرة هي وقت المحازاة ، فكيف يعذب في القبر في أيام الدنيا ؟

وأجاب بأن القليل من العقاب المستحق قد يجوز أن يحمّله الله في الدنيا لبعض المصالح ، كأفضل في تمهيل إقامة الحدود على من يستحقها ، فلا يمنع منه تعالى أن يعمل ذلك بالإنسان إذا كان من أهل النار .

ثم سأل نفسه ، فقال : إذا كان بالموت قد زال عنه التكليف ، فكيف يقولون يكون ذلك من مصالحه !

وأجاب بأننا لم نقل : إن ذلك من مصالحه وهو ميت ؛ وإنما نقول إنه مصلحة أن نعلم في الدنيا ذلك من حال اللوتى ؛ لأنه إذا تصور أنه مات هوجل بضرب من العقاب في القبر ، كان أقرب إلى أن ينصرف عن كثير من المعاصي . وقد يجوز أن يكون ذلك لطفاً للملائكة الذين يتولون هذا التعذيب .

• • •

فأما القول في منكر ونكير ، فإنه سأل نفسه رحمه الله تعالى ، وقال : كيف يجوز أن يسمى بأسماء الذم ، وعندكم أن للملائكة أفضل من الأنبياء ؟

وأجاب ، فقال : إن التسمية إذا كانت لهما لم يقع بها ذم ، لأن القدم إنما يقع لفائدة الاسم ، والألقاب كالأشارات لا فائدة تحتها ؛ وقد يلتقب الرجل المسلم بظالم وقلب ونحو ذلك ؛ فيجوز أن يكون هذان الاسمان من باب الألقاب ، ويجوز أن يسميا بذلك من حيث يهتمان على الإنسان عند إكمال الله تعالى خلقه على وجه ينكره ويرتاع منه ، فسميا منكرا ونكيرا .

قال : وقد روى في السامية في القبر أحبار كثيرة وكل ذلك مما لا فبح فيه ، بل يجوز أن يكون من مصالح المكلفين فلا يصح نلع عنه .
وجملة الأمر أن كل ما ثبت من ذلك بالتواتر والإجماع ، وليس بمستحيل في القدرة ، ولا فبيح في الحكمة يجب القول به ، وما عداه مما وردت به آثار وأخبار آحاد يجب أن يجوز ؛ ويقال : إنه مظهر ليس بمعلوم ، إذا لم يمنع منه الدليل .

الأصل :

عِبَادَ اللَّهِ ، أَيُّنَ الَّذِينَ هُمُّرُوا فَتَعِيمُوا ، وَعُمُّوا فَتَهْمُوا ، وَأَنْظِرُوا فَلَهُوا ، وَسَلُّوا
فَنَسُوا أَمْهَلُوا طَوِيلًا ، وَمُنِحُوا جَمِيلًا ، وَحَذَرُوا أَلِيمًا ، وَوَعِدُوا جَسِيمًا .
أَحْذَرُوا الذُّنُوبَ الْمَوْرِطَةَ ، وَالْمَيُوبَ السُّخِطَةَ . أُولَى الْأَنْصَارِ وَالْأَسْمَاعِ ، وَالْعَاقِبَةِ
وَالْقَائِمِ ، هَلْ مِنْ تَنَاصٍ أَوْ خَلَاصٍ ، أَوْ مَعَاذٍ أَوْ مَلَاذٍ ، أَوْ فِرَارٍ أَوْ تَحَارٍ أَوْ غَائٍ
تَوَافِكُونَ ، أَمْ أَيْنَ تُصْرَفُونَ ، أَمْ يَمَادَا تَعْتَرُونَ ؟
وَأَيُّمَا حَظٍّ أَحَدِكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ، دَاتِ الطُّولِ وَالْعَرْضِ ، قِيدُ قَدْوٍ ؛ مَنْعِفًا
عَلَى خَدِّهِ .

الآن عِبَادَ اللَّهِ ، وَأَخْلِقُ مُهْتَلٍ ، وَالرُّوحُ مُرْسَلٌ ، فِي قَيْتَةِ الْإِرْشَادِ ، وَرَاسَةٍ

الْأَجْسَادِ ، وَبَاحَةِ الْإِحْتِشَادِ ، وَمَهْلِ الْبَقِيَّةِ ، وَأَنْفِ الشَّيْئَةِ ، وَإِنْطَارِ التَّوْبَةِ ، وَأَنْفِسَاحِ
الْحَوْبَةِ ، قَبْلَ الضَّنكِ وَالْمُضِيقِ ، وَالرُّوْزِ وَالزُّهْرِ ، وَقَبْلَ قُدُومِ الْمَائِبِ لِلنَّقْطَرِ ،
وَأَخْذَةِ الْمَزِيدِ لِلْمَقْتَدِرِ .

• • •

قال الرضى رحمه الله :

وفي الخبر أنه عليه السلام لما خطب بهذه الخطبة أقشعرت لها الجلود ، وبكت
العيون ، ورَجَفَتِ الْقُلُوبُ ؛ وَفِي النَّاسِ مَنْ يُسَمِّي هَذِهِ الْخُطْبَةَ الْمَرْءَ .

• • •

الْبَيْتُ :

نِمْ الرَّجُلُ يَنْتَمِ صِدْقُكَ : « نِمْ » وَحَامٌ كَلَامٌ نِمْ نِمْ بِالْكَسْرِ . وَأَنْظُرُوا : أَسْهَلُوا .
وَالْقُنُوبُ لِلْوَرِطَةِ : الَّتِي تُتَلَقَّى أَسْمَاءُهَا فِي الْوَرِطَةِ ؛ وَهِيَ الْهَلَاكُ ؛ قَالَ رُوْبَةُ (١) :
• فَأَصْبَحُوا فِي وَرِطَةِ الْأَوْرَاطِ (٢) •

وأصله أرض مطمئنة لا طريق فيها ، وقد أوردت زيدا وورطته توريطا فخورط . ثم
قال عليه السلام : « أُولَى الْأَبْصَارِ وَالْأَسْمَاعِ » ، بِأَدَامِ نَدَاءٍ ثَانِيًا بَعْدَ النَّدَاءِ الَّذِي فِي أَوَّلِ الْفَصْلِ ،
وَهُوَ قَوْلُهُ : « عِبَادَ اللَّهِ » ؛ فَقَالَ : يَا مَنْ أَنْعَمَ اللَّهُ أَنْصَارًا وَأَسْمَاعًا ، وَأَعْطَاهُمْ حَافِيَةً ، وَمَتَّعَهُمْ
مَتَاعًا هَلْ مِنْ مَنَاصٍ ؛ وَهُوَ الْمَلْجَأُ وَالْمَفْزَعُ ؛ يُقَالُ : نَاصَ عَنْ قِرْنِهِ مَنَاصًا ، أَيْ قَرَّ وَرَاوَحَ ،
قَالَ صِبْعَانُهُ : (وَلَا تَحِينَ مَنَاصٍ) (٣) .

(١) قبله :

• نَحْنُ جَمْعُ النَّاسِ بِاللُّطَاطِ •

(٢) اللسان ١٠ : ٣٠٤

(٣) سورة ص ٣

والحار : المرجع ، من حَارَ يحور أى رجع ، قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ ﴾^(١).

ويؤفكون : يقاتلون ، أفكاه بأفكه عن كذا ، قلبه عنه إلى غيره ، ومثله « يضرّ فون » .
وقيد قدّه : مقدار قدّه ، يقال : قرب منه قيد رمح وقاد رُمح ، والمراد هاهنا هو القبر ،
لأنه بمقدار قامة الإنسان .

والمُنْعَفِرُ : القدي قد لأمس المُنْعَر ، وهو التراب .

ثم قال عليه السلام : « الآن والخلق مُهْمَل » ؛ تقديره : اعملوا الآن وأنتم مخلوقون متمكنون
لم يعقد الخيل في أعناقكم ، ولم تقبص أرواحكم .

والروح يُذكر ويؤث . والقينة : الوقت ، ويروى « وقينة الارتماد » ؛ وهو العُطْب .
وأنفُ المشية : أول أوقات الإرادة والاختيار .

قوله : « وانفاح الحوبة » ، أى سعة وقت الحاجة ، والحوبة : الحاجة والأرب ،
قال الفرزدق :

فَهَبْ لِي خُنَيْكَا وَانْحِزْ بِهِ يَمَنَةً لِحُوبَةِ أُمِّ مَا يَسُوعُ شَرَابُهَا^(٢)
والمائب المتظفر ؛ هو الموت .

قال شيخنا أبو عثمان رحمه الله تعالى : حَدَّثَنِي ثُمَامَةُ ، قال : سمعتُ جعفر بن يحيى - وكان
من أبلغ الناس وأفصحهم - يقول : الكتابة^(٣) ضمّ اللفظة إلى أختها ، ألم تسمعوا قول
شاعر لشاعر ؛ وقد تفاخرا : أنا أشعرُ منك لأنى أقول البيت وأخاه ، وأنت تقول البيت
وابنَ مه أتم قال : زناهيك حسنا بقول علي بن أبي طالب عليه السلام : « هل من مناص
أو خلاص ، أو معاذ أو ملاذ ، أو فرار أو محار » .

(١) سورة الانشقاق ١٤

(٢) ديوانه ١ : ٩٤ . الحوبة : الحاجة ، وحبس : متى كان بالحيتى في السند ، بحر - والتجوير : أن
يترك في البيت ولا يرد - وكانت أمه امرأة من الشام ؛ تسمت بالفرزدق في شأنه ، فسكت إلى العامل
أياتنا ، ومنها هذا البيت ؛ والخبر مدكور في القديرات .

(٣) ب : « يضم » ، وما أتجه من أ .

قال أبو عثمان : وكان جعفر يُعصب أيضا بقول علي عليه السلام : أين من جدّ واجتهد ،
 وجمع واحتشد ، وبني فشيد ، وفرش فهد^(١) ، وزخرف فجد ، قال : ألا ترى أن كل
 لفظة منها آخذة بعنق قريبها ، جاذبة إياها إلى نفسها ، دالة عليها بذاتها !
 قال أبو عثمان : فكان جعفر يسميه فصيح قريش .

واعلم أننا لا يتعالمنا الشك في أنه عليه السلام أفصح من كل ناطق بلغة العرب من
 الأولين والآخرين ، إلا من كلام الله سبحانه ، وكلام رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ وذلك
 لأن فضيلة الخطيب والكاتب في خطبته وكتابه نعتيد على أمرين ؛ هما : مفردات
 الألفاظ ومركباتها .

أما المفردات فإن تكون سهلة لطيفة غير وحشية ولا معقدة ، وألفاظه عليه السلام
 كلها كذلك ؛ أما المركبات فعن لحن وسرعة وصوله إلى الألفاظ ، واشتماله على الصفات
 التي باعتبارها أفضل بعض الكلام على بعض ، وتلك الصفات هي الصناعة التي سماها المتأخرون
 البديع ، من المقابلة ، والمطابقة ، وحسن التقسيم ، ورذ آخر الكلام على صدره ، والترصيع ،
 والتسيم ، والتوشيح ، والمائلة ، والاستمارة ، ولطافة استعمال المحاز ، والموازنة ، والتكافؤ ،
 والتنميط والمشاكلة .

ولا شبهة أن هذه الصفات كلها موحودة في خطبه وكتبه ، مبنوتة متفرقة في فرش
 كلامه عليه السلام ، وليس يوجد هذان الأمران في كلام أحد غيره فإن كان قد تعلمها
 وأفكر فيها ، وأعمل رويته في رصفها^(٢) ونثرها ، فلقد آتى بالمعجب المصنوع ، ووجب

(١) ب : « ومهد » .

(٢) ب : « دل » منها .

أن يكون إمام الناس كلهم في ذلك ؛ لأنه ابتكره ولم يعرف من قبله وإن كان اقتضها ابتداء ، وفاضت على لسانه مرتجلة ، وحاش بها طبعه بديهية ، من غير روية ولا اعتمال ، فاعجب واعجب !

وعلى كلا الأمرين فلقد جاء محلياً والفصحاء تنقطع أنفاسهم على أثره . وبحق ما قال معاوية لمحقن الصبي ، لما قال له : جئت من عند أعيان الناس : يا ابن اللعناء ، العلي^(١) تقول هذا ؟ وهل من المصاحبة لقريش غيره !

واعلم أن تكلف الاستدلال على أن الشمس مصيئة يتعمد ، وصاحبه منسوب إلى السَّفة ، وليس بجاحد الأمور المعلومة علماً ضرورياً بأشدّ سمهاً ممن رام الاستدلال بالأدلة النظرية عليها .

(٨٣)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام في ذكر عمرو بن العاص :

عَجَبًا لَأَبْنِ النَّابِغَةِ ! يَزْعُمُ لِأَهْلِ الشَّامِ أَنَّ فِي دُعَابَةٍ ، وَأَنِّي أَمْرُؤُ ثَلَعَابَةٌ ، أَعَافِسُ
وَأُمَارِسُ ! لَقَدْ قَالَ مَا طَلَا ، وَتَطَقَ آتَمًا . أَمَا - وَشَرُّ الْقَوْلِ الْكَذِبُ - إِنَّهُ لَيَقُولُ
فَيَكْذِبُ ، وَيَمِيدُ فَيُخَافُ ، وَيَسْأَلُ فَيَسْتَحْشِرُ ، وَيَسْأَلُ فَيَكْجِفُ ، وَيَحُونُ الْمَهْدَ ،
وَيَقْطَعُ الْإِلَّاءَ ؛ فَإِذَا كَانَ عِنْدَ الْحَرْبِ فَأَيْمًا زَاجِرٍ وَأَمِيرٍ هَوَا ! مَا لَهُ تَأْخُذُ الشُّبُوفُ
مَأْخِذَهَا ؛ فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَانَ أَسْكَمُ مَكِيدَتِهِمْ أَنْ يَمْنَحَ الْقَوْمَ سَبِيئَهُ .
أَمَا وَاقِعُ إِنِّي لَيَمْنَعُنِي مِنَ اللَّعِبِ دِرْكُ الْمَوْتِ ، وَإِنَّهُ لَيَسْمَعُهُ مِنْ قَوْلِ الْحَقِّ
نَسِيَانُ الْآخِرَةِ . وَإِنَّهُ لَمْ يَبَاسِغْ مُعَاوِيَةَ حَتَّى شَرَطَ لَهُ أَنْ يُؤْتِيَهُ أُتِيَّةً ، وَبَرَّضَ
لَهُ عَلَى تَرْكِ الدِّينِ رَضِيحَةً .

الشرح :

الدُّعَابَةُ : اللَّزَاحُ ، دَقَبَ الرَّجُلُ ، بِالْفَتْحِ . وَرَجُلٌ ثَلَعَابَةٌ ، بِكسْرِ التَّاءِ : كَثِيرُ
الْعَبِّ ، وَالتَّلْعَابُ ، بِالْفَتْحِ : مَعْدَرُ « لَعِبَ » .

وَالْعَافِسَةُ : لِلْعَاجِلَةِ وَالْمُصَارَعَةِ ، وَمِنْهُ الْحَدِيثُ : « عَافَسْنَا النِّسَاءَ » ^(١) . وَالْمَارِسَةُ : لِمَحْوِهِ .
يَقُولُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : إِنْ عَمَرَ أَيْدِي قَدَحٍ فِي عِنْدِ أَهْلِ الشَّامِ بِالدُّعَابَةِ وَالْعَبِّ ، وَأَنَّى كَثِيرُ

(١) النهاية لابن الأثير في حديث حفصة الأسدي وروايته : « فَإِنَّا رَجَعْنَا عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ » ، ٣٠ : ١١٠

الممازحة ، حتى أوى ألعاب النساء وأمازهن ، فقل للترف الفارغ القلب ، الذى تنقض^(١) أوقاته بملاذ نفسه .

ويُلحِف : يلح في السؤال ؛ قال تعالى : ﴿ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِخْلَافًا ﴾^(٢) ؛ ومعه المثل : « ليس للملحيف مثل الرد » .

والإِل : العهد ، ولما اختلف اللفظان حَسُنَ التقسيم بهما ، وإن كان المعنى واحداً . ومعنى قوله : « ما لم تأخذ السيوف مآحدها » ؛ أى ما لم تلغ الحرب إلى أن تخالط الرءوس ، أى هو على ما التحريض والإغراء قبل أن تنتهك الحرب ، فإذا انتهكت واشتدت فلا يكت ، وفعل قملته التى فعل .

والسَّبة : الاست ، وسبه سبَّهُ : طعنه في السَّبة .

ويحوز رفع « أكبر » ونصبه ، فإن رُفِعَ فهو الاسم ، وإن نصبت فهو الخبر .
والأمية : العطية ، والإبتاء الإِعطاء ، ورشح له رشحاً : أعطاه عطاء بالكثير ، وهى الرضىخة ؛ لما يطل .

• • •

[نسب عمرو بن العاص وطرف من أخباره]

ونحن نذكر طرفاً من نسب عمرو بن العاص وأخباره إلى حين وفاته إن شاء الله .
هو عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر . يكنى أبا عبد الله ، ويقال : أبو محمد .

(١) ب : « تنقض » .

(٢) سورة البقرة ٢٧٣ .

أبو العاص بن وائل ، أحد المستهزئين برسول الله صلى الله عليه وآله ، وللكاشفين له بالعداوة والأذى ، وفيه وفي أصحابه أزل قوله تعالى : ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ ^(١) .
ويلقب العاص بن وائل في الإسلام بالأبتر ، لأنه قال لقريش : سيموت هذا الأبتر غداً ، فيقطع ذكره ، يعني رسول الله صلى الله عليه وآله ، لأنه لم يكن له صلى الله عليه وآله ولد ذكر يقب منه ، فأزل الله سبحانه : ﴿ إِنْ شِئْنَاكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ ^(٢) .
وكان عمرو أحد من يؤذى رسول الله صلى الله عليه وآله بمكة ، وبشيمه ويصع في طريقه الحجارة ؛ لأنه كان صلى الله عليه وآله يخرج من منزله ليلاً فيطوف بالكعبة ، وكان عمرو يحمل له الحجارة في مسلكه ليعثر بها . وهو أحد القوم الذين خرجوا إلى زينب ابنة رسول الله صلى الله عليه وآله لما خرجت مهاجرة من مكة إلى المدينة ، فروعوها وقرعوا هودجها بكؤوب الرماح ، حتى أجهضت جبيناً مئبها من أي العاص بن الرسع نعلها ، فلما بلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله ، نال منه وشق عليه شدة ولسمهم . روى ذلك الواقدي .

وروى الواقدي أيضاً وغيره من أهل الحديث ؛ أن عمرو بن العاص هجار رسول الله صلى الله عليه وآله هجاء كثيراً ، كان يملأه صبيان مكة ، فينشدونه ويصيحون رسول الله إذا مر بهم ، رافعين أصواتهم بذلك الهجاء ، فقتل رسول الله صلى الله عليه وآله وهو يصل بالحجر : « اللهم إني عمرو بن العاص هجاني ، ولست بشاعر ؛ قالته بمد ما هجاني » .
وروى أهل الحديث أن النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط وعمرو بن العاص ، عهدوا إلى سلى ^(٣) جعل فرقوم بينهم ووضعوه على رأس رسول الله صلى الله عليه وآله وهو ساجد بفناء الكعبة ، فسال عليه ، فصبر ولم يرفع رأسه ، وبكى في سجوده ودعا عليهم ،

(٢) سورة الكوثر ٣ .

(١) سورة الحجر ٩٥ .

(٣) السلى : جلدة فيها الولد من الناس والنواشى .

فجاءت ابنته فاطمة عليها السلام وهي باكية ، فاحتضنت ذلك السلا فرففته منه فألقته
وقامت على رأسه تبكي ، ورفع رأسه صلى الله عليه وآله ؛ وقال : « اللهم عليك بقريش » ،
قالها ثلاثاً ؛ ثم قال رافعاً صوته : « إني مظلوم فاقصر » ؛ قالها ثلاثاً ، ثم قام فدخل منزله ؛
وذلك بعد وفاة عمه أبي طالب شهريين .

ولشدة عداوة عمرو بن العاص لرسول الله صلى الله عليه وآله ، أرسله أهل مكة إلى
النجاشي ليُرْهِدَهُ في الدين ، وليطرد عن بلاده مهاجرة الحبشة ، وليقتل جعفر بن أبي طالب
عنده ، إن أمكنه قتله ، فكان منه في أمر جعفر هناك ما هو مذكور مشهور في السير ،
وسنذكر بعضه .

فأما النافذة فقد ذكر الزمخشري في " كتيب ربيع الأبرار " قال : كانت النافذة
أم عمرو بن العاص أمةً لرجل من عَمْرَةَ ، قُسَيْبِثَ ، فاشتراها عبد الله بن جُدعان التيمي
بمكة ، فكانت تيمياً ، ثم اعتقها ، فوقع عليها أبو لحَبَّ بن عبد المطلب ، وأمّية بن خلف
اللمحي ، وهشام بن الميرة الخزومي ، وأبو سفيان بن حرب ، والعاص بن وائل السهمي ،
في طهرٍ واحد ؛ فوَلِدَتْ عَمْرًا ، فاذنَّاهُ كُلُّهُمْ ، فحَسَبْتُ أَنَّهُ فِيهِ ، فقالت : هو من العاص بن
وائل ، وذلك لأن العاص بن وائل كان يُنْفَقُ عليها كثيراً ، قالوا : وكان أشبه بأبي سفيان ؛
وفي ذلك يقول أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب في عمرو بن العاص :
أبوك أبو سفيانَ لاشكَّ قد بدَّتْ لينا فيك منه يَنَنَاتُ السَّامِلِ



وقال أبو عمرو بن عبد البر صاحب كتيب " الاستيعاب " (١) : كان اسمها سلمى -
وتلقبت بالنافذة - بنت حرملة (٢) من بني جلان بن حنزة بن أسد بن ربيعة بن نزار ،

(١) الاستيعاب ص ٤٢٤ .

(٢) الاستيعاب : ٤ سيرة بني جلان .

أصابها سياء ، فصارت إلى العاص بن وائل بعد جماعة من قريش ، فأولدها عمراً .
قال أبو عمر : يقال إنه جُعل رجل ألف درهم على أن يسأل عمراً وهو على النيرة : من
أمه ؟ فسأله ، فقال : أمي سلى بنت حرمة ؛ تُلَقَّب بالنابغة ، من بني عَنَزَة ثم أحد بني جِلَان
وأصابته أراح^(١) العرب فبيعت بمسكان ، فاشترأها لعاك بن المغيرة ، ثم اشتراها منه عبدالله
ابن جُدعان ، ثم صارت إلى العاص بن وائل ، فولدت فأنجبت ، فإن كان جُعل لك شيء ، فخذ

• • •

وقال اللبّرد في كتاب " الكامل " ،^(٢) : اسمُ أبي . وذكر هذا الخبر وقال : إنها
لم تكن في موضع مَرَضِيٍّ ، قال اللبّرد : وقال المنذر بن الجارود مرة لسرو بن العاص : أي
رجل أنت لولا أن أمك أمك ؟ فقال : إني أحمد الله إليك ، لقد فكّرت البارحة^(٣) فيها
فأقبلت أختها في قبائل العرب^(٤) " فمن أحب أن تهكم " منها ، فاحطرت لي عبد القيس
على بال !

وقال اللبّرد : ودخل عمرو بن العاص مكة ؛ فرأى قوماً من قريش قد جلسوا حلقاً ،
فلما رأوه رمقوه بأبصارهم ، فمدل إليهم فقال : أحسبكم كنتم في شيء من ذكرى اقلوا :
أجل ؛ كذا نتمثل بينك وبين أخيك هشام بن العاص ، أيكأ أفضل ؟ فقال عمرو : إن هشام
على أربعة : أمه بنت هشام بن المغيرة ، وأمي من قد عرقم ؛ وكان أحب إلى أبيه مني ،
وقد علمت معرفة الوالد بولده ، وأسلم قتي ، واستشهد وبقيت .

• • •

وروى أبو عبيدة معمر بن النخعي في كتاب " الأسباب " أن عمراً اختصم فيه يوم

(١) الاستحياء « رماح » .

(٢) الكامل ٤ : ٧٩ .

(٣) الكامل ٤ : في هذا .

(٤) (٤ - ٤) ليس لي نسخة الكامل للطبعة .

ولادته رجلان : أبو سفيان بن حرب ، والعماس بن وائل ؛ قيل : لِمَ نَحْكُمُ أُمَّهُ ؛
فَقَالَتْ أُمُّهُ : إِنَّهُ مِنَ الْعَاصِ بْنِ وَائِلَ ؛ فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ : أَمَا إِنِّي لَا أَشْكُ أُنَى وَضَعْتَهُ فِي
رَحِمِ أُمِّهِ ، فَأَبَتْ إِلَّا الْعَاصَ .

قِيلَ لَهَا : أَبُو سُفْيَانَ أَشْرَفُ نَسَبًا ؛ فَقَالَتْ : إِنْ الْعَاصِ بْنِ وَائِلَ كَثِيرُ النِّفَقَةِ عَلَى
وَأَبُو سُفْيَانَ شَجِيحٌ .

فَفِي ذَلِكَ يَقُولُ حَسَنُ بْنُ ثَابِتٍ لِعَمْرِو بْنِ الْعَاصِ حَيْثُ مَحَاهُ مَكَافَأَتُهُ عَنْ هَاجِءٍ
رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ :

أَبُوكَ أَبُو سُفْيَانَ لَا شَكَّ قَدْ بَدَّتْ	لَا فَيْكَ مِنْهُ يَدْنَاتُ الدَّلَائِلِ
فَفَاخِرٌ بِهِ إِمَامًا فَحَرَّتْ وَلَا تَكُنْ	تَفَاخِرُ بِالْعَاصِ الْمَجِينِ بْنِ وَائِلِ
وَأَنَّ الْقِيَّ فِي ذَلِكَ بِأَمْرٍ حُكِمَتْ	فَقَالَتْ رَجَاءُ عِنْدَ ذَلِكَ لَهَا
مِنَ الْعَاصِ عَمْرُو تَحْمِلُ النَّاسَ كُلَّهُمَا	نَحْمِلُ الْأَقْوَامَ عِنْدَ الْحَاقِلِ

[مَفَاخِرَةُ بَيْنَ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ وَرِجَالَاتٍ مِنْ قُرَيْشٍ]

وَرَوَى الزُّبَيْرُ بْنُ بَكَّارٍ فِي كِتَابِ " الْمَفَاخِرَاتِ " ؛ قَالَ : اجْتَمَعَ عِنْدَ مَعَاوِيَةَ عَمْرُو
ابْنِ الْعَاصِ ، وَالْوَلِيدُ بْنُ عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ ، وَعُتْبَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ ، وَالْمَغِيرَةُ
ابْنُ شُعْبَةَ ، وَقَدْ كَانَ بَيْنَهُمْ عَنِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَوَارِصٌ ، وَبَلَغَهُ عَنْهُمْ مِثْلُ
ذَلِكَ ، فَقَالُوا : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؛ إِنْ الْحَسَنُ قَدْ أَحْيَا أَبَاهُ وَدَكَرَهُ ، وَقَالَ فَصْدَقَ ، وَأَمَرَ
فَأَطَاعَ ، وَحَقَّقَتْ لَهُ النِّعَالَ ، وَإِنَّ ذَلِكَ لَرَافِعُهُ إِلَى مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ ، وَلَا يَرَالُ يُلْفَنُ
عَنْهُ مَا يَسُوهُنَا .

قَالَ مَعَاوِيَةُ : فَمَا تَرِيدُونَ ؟ قَالُوا : أَمِثَ عَلَيْهِ فَلْيَحْضُرْ لِنَسَبِهِ وَنَسَبِ آبَاءِهِ ، وَنَعْيِهِ
وَنُوحْيِهِ ، وَنَحْمِدُهُ أَنْ أُمَّهُ قَتِيلَ عُثْمَانَ وَفَرَّرَهُ بِذَلِكَ ، وَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَغَيِّرَ عَلَيْنَا
شَيْئًا ، مِنْ ذَلِكَ .

قال معاوية : إني لا أرى ذلك ولا أفعله ؛ قالوا : عزمنا عليك يا أمير المؤمنين لتفعلن ؛ فقال : وعييت لي ، قالوا : ابعت إليه على كل حال ؛ قال : إن بعثت إليه لأنصفته منكم .

فقال عمرو بن العاص : آتني بآية باطله على حقنا ، أو يزري قوله على قولنا ؛ قال معاوية : أما إني إن بعثت إليه لأمرته أن يتكلم بلسانه كله ، قالوا : مره بذلك .

قال : أما إذ عصيتهم ، وبعثت إليهم وأبينم إلا ذلك فلا تخرجوا^(١) له في القول ، واعلموا أنهم أهل بيت لا يبيهم العائب ، ولا يلصق بهم العار ؛ ولكن اقفوه بحجره ؛ يقولون له : إن أباك قتل عثمان ، وكره خلافة الخلفاء من قبله . فبعث إليه معاوية ، فعاءه رسوله ، فقال : إن أمير المؤمنين يدعوك .

قال : من عنده ؟ فسأله ؛ فقال الحسن عليه السلام : ما لهم حر عليهم السقف من فوقهم ، وأما هم المذاب من حيث لا يشعرون . ثم قال : يا جارية ، انصبي^(٢) ثيابي ، اللهم إني أعوذ بك من شرورهم ، وأدرك بك في محورهم ، وأستعين بك عليهم ، فأكفبهم كيف شئت وأني شئت ، بحول ملك وقوة ، يا أرحم الراحمين !

ثم قام ، فلما دخل على معاوية ، أعظمه وأكرمه ، وأجلسه إلى جانبه ، وقد ارتاد القوم ، وخطروا خطران العحول ، نذياً في أنفسهم وعُلوا ، ثم قال : يا أبا محمد ؛ إن هؤلاء بعثوا إليك وعصوني .

فقال الحسن عليه السلام : سبحان الله الدار دارك ، والإذن فيها إليك ، والله إن كنت أحبهم إلى ما أرادوا وما في أنفسهم إلى لأستحي لك من الفُحش ، وإن كانوا غلبوك على رأيك إني لأستحي لك من الصنف ؛ فأبيها تقرر ، وأبيها تنكر ؛ أما إني

(١) فلا تخرجوا له ؛ أي لا تخرجوا قولكم مريضاً .

(٢) انصبي ثيابي ، أي أعبي على إحسانها .

لو علمتُ بمكانهم جئتُ معي بمثلهم من بني عبد المطلب ، ومالي أن أكون مستوحشا
ملك ولا منهم إنا ولئى الله ، وهو يتولى العاصين .

فقال معاوية : يا هذا ، إني كرهتُ أن أدعوك ، ولكن هؤلاء حملوني على ذلك مع
كراهتي له ، وإن لك منهم النصف ومنى ، وإنما دعوتك لنقر ذلك أن عثمان قتل
مظلوما ، وأن أباك قتله ، فاستمع منهم ثم أحسنهم ، ولا تمنك وحدتك واجتماعهم أن تكلم
بكل لسانك .

فكلم عمرو بن العاص ، لحيد الله وصلى على رسوله ، ثم ذكر علياً عليه السلام ، فلم
يترك شيئاً يصيبه به إلا قاله ، وقال : إني شتم أبا بكر وكره خلافته ، وامتنع من بيعته ، ثم
بابه مكرهاً ، وشرك في دم عمر ، وقتل عثمان طعماً . وأدعى من الخلافة ما ليس له .

ثم ذكر التتبع بغيره بها ، وأضاف إليهم مساوى مع وقال : إسمكم يا بني عبد المطلب لم يكن
الله ليعطيكم الملك على قتلكم الخلفاء ، واستحل لكم ما حرم الله من السماء ، وحرمكم
على الملك ، وإني اسمكم ما لا يحمل . ثم إلك يا عمن ، تحدثت نفسك أن الخلافة صائرة
إليك ، وليس عندك عقل ذلك ولا به ، كيف ترى الله سبحانه سلبك عقلك ، وتركك
أحق قريش ، يسخر منك ويهزأ بك ، وذلك لسوء عمل أبيك وإيما دعوتك لنفسك
وأباك ، فأما أبوك فقد تفرّد الله به وكفانا أمره ، وأما أنت فإلك في أيدينا مختار فيك
اتصال ، ولو قتلناك ما كان علينا إثم من الله ، ولا عيب من الناس ، فهل تستطيع أن ترد
علينا وتكذبنا ؟ فإن كنت ترى أننا كذبا في شيء فاردده علينا فيما قلنا ، وإلا فاعلم أنك
وأباك ظالمان .

ثم تكلم الوليد بن عتبة بن أبي معيط ، فقال : يا بني هاشم ، إنكم كنتم أخوال عثمان ؛
فإنم الولد كان لكم ؛ فعرف حقكم ، وكنتم أمصاره فعم الصهر كان لكم ، يكرمكم فكنتم

أول من حسده ، فقتله أبوك ظلما ، لا عذر له ولا حجة ، فكيف تروون الله طالب بدمه ،
وأترككم منزهكم ! والله إن بني أمية حبر لبني هاشم من بني هاشم لشي أمية ، وإن معاوية
خير لك من نفسك .

ثم تكلم عتبة بن أبي سفيان ، فقال : يا حسن ، كان أبوك شر قريش لقريش ، أسفكها
قدمائها ، وأقطعها لأرحامها ، طویل السيف واللسان ، يقتل الحمى ويعيب الميت ، وإنك
يمن قتل عثمان ، ونحن قاتلوك به ، وأما رحاؤك الخلافة فلست في رندها قادحا ، ولا في
ميزانها راجعا ، وإنكم يا بني هاشم قتلتم عثمان ، وإن في الحق أن تقتلك وأهلك به ؛ فأما
أبوك فقد كفاها الله أمره وأقاد منه ، وأما أنت ، فوالله ما علينا لو قتلك بثمان إنم
ولا عدوان .

ثم تكلم الميرة بن شعبة ، فشم عليه ، وقال : والله ما أعييه في قضية بخون ، ولا في حكم
بميل ، ولكنه قتل عثمان . ثم سكتوا .

حكلم الحسن بن علي عليه السلام : لحيد الله وأنتي عليه ، وصلى على رسوله صلى الله
عليه وآله ، ثم قال : أما بعد يا معاوية ، ما هؤلاء شتموني ولكلكت شتمتي ، فشتا
ألفقت ؛ وسوء رأي عرفت به ، وخفت سبنا ثبت عليه ، ونميا علينا ؛ عداوة منك للحمد
وأهله ، ولكن اسمع يا معاوية ، واسمعوا فلا قولن فيك وفيهم ما هو دون ما فيكم .

أشدكم الله أيها الرعط ، أنظرون أن الذي شتمنموه منذ اليوم ، صلى القبلتين
كلتيهما وأنت يا معاوية بهما كافر ؛ تراها صلاة ، ونعم اللات والعري غواية !
وأشدكم الله هل تعلمون أنه تابع السبطين كلتيهما : بيعة الفتح وبيعة الرضوان ، وأنت
يا معاوية بإحداهما كافر ، وبالأخرى ناكث !

وأشدكم الله هل تعلمون أنه أول الناس إيمانا ، وأنت يا معاوية وأباك

من المؤلفة قلوبهم تُسِرُّون الكفر ، وتُفَاهِرُونَ لإسلام ، وتُتَمَلِّقُونَ بالأموال !
 وانشدكم الله ، أستم تعلمون أنه كان صاحب راية رسول الله صلى الله عليه وآله يوم بدر ، وأن
 راية المشركين كانت مع معاوية ومع أبيه ، ثم تقيكم يوم أحد ويوم الأحزاب ، ومعه راية رسول
 الله صلى الله عليه وآله ، ومعه ومع أبيك راية الشرك ؛ وفي كل ذلك ينتح الله ويُفاج
 حُجَّتَهُ ، وينصر دعوتَهُ ، ويصدق حديثَهُ ، ورسول الله صلى الله عليه وآله في تلك المواطن
 كلها عنه راضٍ ، وعليك وعلى أبيك ساحط ! وأشدك الله يامعاوية ، أنذكر يوماً جاء
 أبوك على جبل آخر ، وأنت تسوقهُ ، وأحوك عتبة هذا يقوده ، فرآكم رسول الله صلى الله
 عليه وآله ؛ فقال : « اللهم المن الراكب والقائد والسائق ! » .

أتنسى يامعاوية الشر الذي كنته إلى أبيك لما هم أن يُسلم ، تنهات عن ذلك :

يا صعر لا تُسلمن يوماً فتنصحننا ^{يبد الذين يبذر أصحوا فرقا}

حالي وحمي وعم الأم ^{وحنظل الخير قد أهدى لنا الآرقا} اللهم

لا ترزكني إلى أمرٍ تكلفنا ^{والرافعات به في مكة الحرقا}

فالوثأهون من قول العداة ؛ لقد ^{حاد ابن حرب عن الغزى إذا فرقا^(١)}

والله لما أخفيت من أمرك أكبر مما أمدت

وانشدكم الله أيها الرهط ؛ أنتم تعلمون أن علياً حرَّم الشهوات على نفسه بين أصحاب
 رسول الله صلى الله عليه وآله فأمرل فيه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحَرُّوا مَوَاطِئَ مَا أَحَلَّ
 اللَّهُ لَكُمْ ﴾ ^(٢) ، وأن رسول الله صلى الله عليه وآله بعث أكابر أصحابه إلى بني قريظة
 فنزلوا من حصنهم فهزموا ، فبعث علياً بارية ، فاستنزلهم على حكم الله وحكم رسوله ، وفعل
 في خير مثلاً !

(١) فرق ، كمرح : فرح واضطرب . (٢) سورة المائدة ٨٧ .

ثم قال : يا معاوية أغلظك لا تعلم آتى أعلم مادعا به عليك رسول الله صلى الله عليه وآله لما أراد أن يكتب كتابا إلى بني حزيمة ، فبعث إليك [ابن عباس] فوجدك تأكل ، ثم بعثه إليك مرة أخرى فوجدك تأكل ، فدعا عليك الرسول بمجوعك^(١) ونهيك إلى أن تموت . وأنتم أيها الرعط : شدتكم الله ، ألا تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وآله لمن أبا سفيان في سبعة مواطن لا يستطيعون ردها :

أولها : يوم لقي رسول الله صلى الله عليه وآله خارجا من مكة إلى الطائف ، يدعو ثقيفا إلى الدين ، فوقع به وسبه وسفمه وشتمه وكذبه وتوعدده ، وهم أن يبطشوا به ، فلمنه الله ورسوله وصرف عنه .

والثانية يوم اليمر : إذ عرض لها رسول الله صلى الله عليه وآله وهي جاثية من الشام ، فطردها أبو سفيان ، وساحل بها ، لم يظفر المسلمون بها ، ولمنه رسول الله صلى الله عليه وآله ودعا عليه ، فكانت وقعة بدر لأجلها .

والثالثة يوم أحد ، حيث وقف تحت الجبل ، ورسول الله صلى الله عليه وآله في أعلاه ، وهو ينادى : أهل هبل مرارا ، فلمنه رسول الله صلى الله عليه وآله عشر مرات ، ولمنه المسلمون .

والرابعة يوم جاء بالأحزاب وعطمان واليهود ، فلمنه رسول الله صلى الله عليه وآله .

والخامسة يوم جاء أبو سفيان في قريش فصدا رسول الله صلى الله عليه وآله عن المسجد الحرام « والمهدي معكوفاً أن يبلغ محله » ذلك يوم الحديبية ، فلمنه رسول الله صلى الله عليه وآله أبا سفيان ، ولمنه القادة والأنبياء ، وقال : « مملونون كلهم » ، وليس فيهم من يؤمن ، فقيل : يا رسول الله ، أفا يُرْجى الإسلام لأحد منهم فكيف باللعنة ؟ فقال : « لا نصيب اللعنة أحدا من الأنبياء ، وأما القادة فلا يفلح منهم أحد » .

(١) زيادة يقتضيا السياق ، أخذت من قصة جاءت في ترجمة معاوية في أسد الغابة ٤ : ٣٨٦ عليها من صحيح مسلم .

والسادسة يوم الجمل الآخر .

والسابعة يوم وقفوا رسول الله صلى الله عليه وآله في المعقبة ليستغفروا نفاقه ، وكانوا اثني عشر رجلا ، منهم أبو سفيان .

فهداك يا معاوية ؛ وأما أنت يا بن العاص ؛ فبن أمرك مشترك ، وضعتك أمك مجهولا ؛ من غير سيفاح ، فيك أربعة من قريش ، فطلب عليك جزاؤها ، الأئمة حسبا ، وأخبرهم منصبا ؛ ثم قام أبوك فقال : أنا شايء محمد الأبر ، فأزل الله فيه ما أنزل .

وقالت رسول الله صلى الله عليه وآله في جميع للشاهد ، وهومته وأذيته بمكة وكذنه كذالك كله ، وكنت من أشد الناس له تكذيبا وعداوة .

ثم خرجت تريد النعاش مع أصحاب السفينة ، لتأني بحضر وأصحابه إلى أهل مكة ، فلما أخطأك مارحوت ورجمك الله حاثيا ، وأكذبك وإشيا ، جعلت حدك على صاحبك نحارة بن الوائد ، فوشيت به إلى النعاش ، حدًا لما ارتكب مع حليتك ، ففضحك الله وفضح صاحبك .

فأنت عدو بني هاشم في الجاهلية والإسلام . ثم إنك تعلم وكل هؤلاء الرقط يملكون أنك هجوت رسول الله صلى الله عليه وآله بسمين بيتا من الشر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « اللهم إني لأقول الشر ولا ينبغي لي ، اللهم العنه بكل حرف أف لعة » ؛ فليك إذا من الله مالا يحصى من اللعن .

وأما ما ذكرت من أمر عثمان ، فأنت سمرت عليه الدنيا نارا ، ثم لحقت بفلسطين ، فلما أتاك قتله ، قلت : أنا أبو عبد الله إذا سكأت قرعة أدميتها . ثم حبست نفسك إلى معاوية ، وبعثت دينك بدنياء ، فلسنا نلومك على بفض ، ولا نعاتبك على ود ، وبالله

مانصرت ههنا حيا ولا غضبت له مقتولا ، وبحك يا بن العاص ! ألسن القاتل في بني
هاشم لما خرجت من مكة إلى النعاشي :

تقول ابني أين هذا الرحيل وما التير مني بمنكر
قلت : فربني فإني امرؤ أريد النعاشي في جفر
لا كوية عنده كبة أفيم بهما نخوة الأصغر
وشاني أحد من بينهم وأقولهم فيه بالسكر
وأجري إلى صبة جامدا ولو كان كالدَّهَبِ الأحمر
ولا أنشئ عن بني هاشم وما انطعت في الغيب والمخبر
فإن قيل العتب مني له ولا تويت له مشفري
فهذا جوابك ، هل سمعته !

وأما أنت يا وليد ؛ فوالله ما ألومك على نفس علي ، وقد جلدك ثمانين في الحمر ، وقتل
أهلك بين يدي رسول الله صبرا ، وأنت الذي سماه الله الفاسق ، وسمي عليها المؤمن ، حيث
تفاخرتما فقلت له : اسكت يا علي ، فأنا أشجع منك جنانا ، وأطول منك لسانا ، فقال لك
علي : اسكت ، يا وليد فأنا مؤمن وأنت فاسق ؛ فأرسل الله تعالى في موافقة قوله : ﴿ أَفَسَنْ
كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ﴾^(١) ، ثم أنزل فيك علي موافقة قوله أيضا :
﴿ إِنْ جَاءَ كُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا ﴾^(٢) .

وبحك يا وليد ! منهما نسي ، فلا تنس قول الشاعر فيك وفيه :
أنزل الله والكتاب عزيز في علي وفي الوليد قرأنا

(١) سورة البقرة ١٨٠ .

(٢) سورة المجرات ٦ .

فصبوا الوليد إذ ذك فينقا وعلى ميسوا إيماناً
ليس من كان مؤمناً - عمرتك الله - كمن كان قاصفا حوأناً
سوف يدعى الوليد بعد قليل وعلى إلى الحساب عياناً
فعلى يجرى بذاك حياناً ووليد يجرى بذاك هوأناً
رَبِّ جَدِّ لِقْبَةِ بْنِ أَبِي لَابِسٍ فِي بِلَادِنَا تَبَّاناً^(١)

وما أنت وقربش ؟ إنما أنت عنيج من أهل حمورية ، وأقسم بالله لأنت أكبر في
الميلاد ، وأسن ممن تدعى إليه .

وأما أنت يا عتبة ؛ فوالله ماأنت بمصيف فأجيبك ، ولا عاقل فأحاورك وأطابك ،
وما عندك خير يُرجى ، ولا شر يثق ، وما عفاك وعقل أميتك إلا سوء ، وما يضرك علياً
لو سببته على رموس الأشهاد !
وأما وعيدك إيتاي بالقتل ؛ فهلاً قلت للحيان إذ وجدته على فراشك ! أما تصحي
من قول نصر بن حجاج فهك :

يا للرجال وحادث الأزمان ولتسبى ثغرى أبا سفيان
نُبِئتُ عتبةَ خاه في عرسِهِ حسنٌ لثيمُ الأصل من لحيان
وبعدَ هذا ، ماأربأ بنفسى من ذكره لنفثه ؛ فكيف يخاف أحدٌ سيفك ، ولم تقتل
فأضحك ! وكيف ألومك على بعض علي ، وقد قتل خالك الوليد مبارزةً يوم بدر ، وشرك
حرة في قتل جدك عتبة ، وأوحذك من أحبك حنظلة في مقام واحد !
وأما أنت يا مغيرة ؛ فلم تكن بخلقي أن تقع في هذا وشبهه ، وإنما مثلك مثلُ البعوضة
إذ قالت للنحلة : استمكي ؛ فإني طائرة عندك ، فقالت النحلة : وهل علمت بك واقعة
على فأعلم بك طائرة عى !

(١) الثاني : سراويل صغيرة (عرب : ثياب فارسية) يكون للملاحين .

والله ما ندمر بعداوتك إيتابا، ولا اغتمنا إذ علمنا بها، ولا يشق علينا كلامك، وإن
 حدث الله في الزنا ثلاث عليك، ولقد درأ عمرُ عنك حقا؛ الله سائله عنه !
 ولقد سألت رسول الله صلى الله عليه وآله : هل ينظر الرجل إلى المرأة يريد أن
 يتزوجها ؟ فقال : « لا بأس بذلك بامبرة مالم ينو الزنا » ، لعلمه بأنك زان .
 وأما نغركم علينا بالإمارة : فإن الله تعالى يقول : (وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا
 مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا)^(١) .
 ثم قام الحسن ففصّل ثوبه ، والصرف ؛ فعلق عمرو بن العاص بثوبه ، وقال : يا أمير
 المؤمنين ، قد شهدت قوله في وقته أمي هزنا ، وأما مطالب له بحذّ الفذف .
 فقال معاوية : حلّ به لا جراك الله حيرا . فتركه .
 قال معاوية : قد أنبأكم أنه ممن لا نطق عارضكم ، ونهيتكم أن تستوه فمعبتموني ، والله
 ما قام حتى أعظم على البيت ، قوموا عني ، فقد فضحكم اقتوا أجراكم بترككم الحرم ، وعُدولكم
 عن رأي الناصح المتيق ؛ والله تستعس .

[عمرو بن العاص ومعاوية]

وروى^(٢) يحيى ، قال : دخل عمرو بن العاص على معاوية يسأله حاجة ، وقد كان يلح
 معاوية عنه ما أغرقه ، فكره قضاءها وتشاغل ، فقال عمرو : يا معاوية ؛ إن السجاء
 فطنة ، واللؤم تفاضل ، والجمعاء ليس من أحلاق المؤمنين فقال معاوية : يا عمرو ؛ بماذا تستحق
 منا قضاء الحوائج العظام ؟ فنضب عمرو وقال : بأعظم حق وأوجب ، إذ كنت في بحر
 نجاس ، فلولا عمرو لفرقت في أقل مائه وأرقه ، ولسكني دفتك فيه دفنة نصرت في وسطه ،
 ثم دفتك فيه أخرى نصرت في أعلى اللواضع منه ، ففضي حكك ، وخذ أمرك ، وانطلق .

(١) سورة الإسراء ١٦ .

لسانك بعد تلحيره ، وأضاء وجهك بعد ظلمته ، وطمست لك الشمس بالعين النفوس ، وأظلمت لك القمر باليلة المدلحة .

فتناوم معاوية ، وأطبق جفنيه ملياً ، فخرج عمرو ، فاستوى معاوية جالساً وقال لجلسائه : أرايتم ماخرج من فم ذلك الرجل ؟ ما عيبه لو عرض ؟ ففى التعريض ما يكفى ! ولكنه جبهنى ^(١) بكلامه ، ورماني بسوم سهامه .

فقال بعض جلسائه : يا أمير المؤمنين ؛ إن الخواص ليقضى على ثلاث خصال : إيمان أن يكون السائل لقضاء الحاجة مستحقاً فتمضى له بحقه ، وإيمان أن يكون السائل ثيباً فيصون الشريف نفسه عن لسانه فيقضى حاجته ، وإيمان أن يكون للسائل كريماً فيرضيها لكرمه ؛ صغرت أو كبرت .

فقال معاوية : لله أبوك ! ما أحسن ما صنعت لو كنت إلى عمرو فأخبره ، وقضى حاجته ووصله نصلة جليلة ، فلما أحذهاولى فنصره ^(٢) فقال معاوية : (فَإِنْ أُعْطُوا مِتَّهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِتَّهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ) ^(٣) فسمتها عمرو ، فالتفت إليه مضطرباً وقال : والله يا معاوية ، لا أزال آحد منك قهراً ، ولا أطيع لك أمراً ، وأحفر لك بئراً عميقاً ، إذا وقعت فيه لم تدرك إلا رميماً ^(٤) . فصحك معاوية ، فقال : ما أريدك يا أبا عبد الله بالسكينة ، وإنما كانت آية تلوثها من كتاب الله عرضت بقاى ، فاصنع ما شئت .

[عبد الله بن جعفر وعمرو بن العاص فى مجلس معاوية]

وروى المدائنى قال : بينا معاوية يوماً جالساً عنده عمرو بن العاص ، إذ قال الآدن : قد جاء عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، فقال عمرو : والله لأشوء به اليوم ، فقال معاوية : لا تفعل يا أبا عبد الله ، فإنك لا تنصف منه ، ولعلك أن تظهر لنا من منقبته ما هو حقى عنا ، وما لا نحب أن نعلمه منه .

(١) جبهه : لقبه بما يكره من الكلام .

(٢) سورة التوبة ٥٨ .

(٣) الرقيم : النالى من النظام .

وفشهم عبد الله بن جعفر ؛ فذناه معارضة وقرّبه ، فقال عمرو إلى بعض جلساء معاوية ،
فقال من عليّ عليه السلام جواراً غير سائر له ، وتنبه ثباً قبيحاً .
فالتمع لون عبد الله بن جعفر واعتراه أفككل حتى أرعدت خصائله ^(١) ، ثم نزل
عن السرير كالغريق ^(٢) ، فقال عمرو : مه يا أبا جعفر ! فقال له عبد الله : مه لا أم لك !
ثم قال :

أظنّ الحسبَ دلّ على قومي وقد يستجمل الرجلُ الحليم ^(٣)
ثم حَسَرَ عن ذراعَيْه ، وقال : يا معاوية ، حتّامَ تتعرّع غيظك ؟ وإلى كم الصبرُ على
مكروه قولك ، وسبّ أدبك ، وذهيم أحلافك ! هَيْبَتُكَ الْهَوَلُ ^(٤) ! أما يزحرك ذمامُ المحالة
عن اللّقْذُعِ بليلتك إذا لم تكن لك حُرْمَةٌ مِنْ دِهْلِكَ تهاك عما لا يجوز لك ! أما والله
لو قَطَعْتُكَ أوامرُ الأرحام ، أو حَامَيْتَ على بهيمةٍ من الإسلام ، ما أرغمتَ من الإمام
المُتَنَكِّ ^(٥) ، والسيد الصلّة أعراض قومك .
وما يحمل موضع الصّفوة ^(٦) إلا أهل الجفوة ، وإليك لتعرف وشائط ^(٧) قريش وحبوة
غرائزها ، فلا بدّ عنك تصويبُ ما فرط من خطئك في سفك دماء المسلمين ، ومخارطة أمير
المؤمنين ، إلى التّماذي فيما قد وضع لك للصواب في خلافه . فاقصِدْ لمهج الحقّ ، فقد طال
تهمُّك ^(٨) عن سبيل الرُّشد ، وخبطك في بحور ظلمة النّبي .

(١) الأوسك : الرعدة ، والخصائن : كل لغة فيها عصب .

(٢) الغريق : الفحل المسكر المني لا يؤذي لسكراته .

(٣) من أبيات لقيس بن زهير ، وقوله : « يستجمل الرجل الحليم ، أي إذا أخرج الحليم ، فقد يتكلف
مألاً يكون مبهوداً في طعنه .

(٤) الهول : بالفتح : المرأة المشكول .

(٥) المتك : جمع متكأ ؛ وهي الجارية المطراة وهو مما يسب به والرجل الأوسك : المضطرب
الرجلين ، وجمع الأوسك متكأ .

(٦) صفوة القوم : خيارهم .

(٧) يقال : هو وشيطنة في قومه ، وجهه وشائط ، أي حشويهم . (٨) ب : و عماء .

فإن أبيت ألا تتابعنا في قبح اختيارك لنفسك ، فأعفينا من سوء القالة فينا إذا ضمتنا وإياك الندى ، وشأنك وما ترهب إذا حوت ؛ والله حبيبك ، فوالله لولا ما جعل الله لنا في يديك لما أتيناك .

ثم قال : إني إن كلفني ما لم أطق ساءك ما سرك متى من خلق .

فقال معاوية : يا أبا جعفر ، أقمت عليك لتعلن ، لمن الله من أخرج ضب صدرك من وجاره ؛ محول لك ما قلت ، ولك عندنا ما أملت ، فلو لم يكن محمدك ومنصبك لكان خلقك وخلقك شامس لك إينا ، وأنت ابن ذى الجناحين وسيد بنى هاشم .

فقال عبد الله : كلاً ، بل سيد بنى هاشم حسن وحسين ، لا ينازعهما في ذلك أحد . فقال : أما جعفر ، أقمت عليك لما ذكرتكم حاجة لك إلا قضيتها كائناً ما كانت ، ولو ذهبت بجميع ما أملاك ، فقال : أما في هذا المجلس فلا ، ثم انصرف .

فأتبعه معاوية بصراً ، وقال : والله لكأنه رسول الله صلى الله عليه وآله ، مشبه وخلقته وخلقته ، وإنه لمن يشككته ، ولوددت أنه أخى بنفيس ما أملاك .

ثم التفت إلى عمرو ، فقال : أبا عبد الله ، ما تراه منعه من الكلام معك ؟ قال : ما لا خفاء به عنك ، قال : أظنك تقول : إنه هاب جوابك ؛ لا والله ، ولكنه ازدراك واستحقاقك ، ولم يرك لك كلام أهلاً ، أما رأيت إقباله على ذوبك ذاهباً بنفسه عنك !

فقال عمرو : فهل لك أن تسمع ما أعددت له لجوابه ؟ قال معاوية : اذهب إليك أبا عبد الله ، فلات حين جواب سائر اليوم .

ونهب معاوية وتفرق الناس .

[عبد الله بن العباس ورجال قريش في مجلس معاوية]

وروى للدائى أيضاً قال : وقد عبد الله بن عباس على معاوية مرة ، فقال معاوية لابنه يزيد ، ولزيد بن سمية ، وعتبة بن أبى سفيان ، ومروان بن الحكم ، وعمرو بن العاص ، والمغيرة بن شعبة ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن أم الحكم : إنه قد طال العهد لعبد الله بن عباس ، وما كان شجر يساويته وبين ابن عمه ، واقد كان نصبه ليتحكم فدفع منه ، حر كوه على الكلام انبلغ حقيقة صفة ، وقب على كنه معرفته ، وعرف ما صرف عنا من شأ حده ، وزوى عما من دهاء رأيه ، وربما وصف المرء بغير ما هو فيه ، وأعطى من الممت والاسم ما لا يستحقه .

ثم أرسل إلى عبد الله بن عباس ، فمادح واستقر به المجلس ، ابتداء ابن أبى سفيان فقال : يا ابن عباس ، مامنع علياً أن يوجه بك حكماً ؟ فقال : أما والله لو فعل لقرن عمرأ بصمته من الإبل ، بوجه كعبه ^(١) مرأشها ، ولأدهلت عقله ، وأجر صته بريقه ، وقدحت في سوبداء قلبه ، فلم يرم أمراً ، ولم يفض ترأباً ، إلا كنت مه عمراى ومسمع ، فإن أنسكأ أدमित قواء ، وإن أذيم فصمت عراء ، بفرب يقول لا يخل حده ، وأصالة رأى كتاح الأجل لا ودر منه ، أصدع به أديمه ، وأمل به شبا حده ، وأشعد به هراثم اللتين ، وأزيج به شبه الشاكين .

فقال عمرو بن العاص : هذا والله يا أمير المؤمنين مجوم أول الشر ، وأقول آخر الخير ، وفي حسيه قطع مادته ، فبادره باللمة ، وانهمز منه الفرصة ، وادع بالتنكيل به غيره ، وشرد به من خلفه .

فقال ابن عباس : يا بن النابغة ! ضل والله عقلك ، وسفه جملك ، ونطق الشيطان على لسانك ! هلا توليت ذلك بنفسك يوم صفتين حين دُعيت نزال ^(٢) ، وتكافح الأبطال ،

(١) : وكعبه . (٢) نزال ما بين النارة .

وكثر الجراح ، وتقصت الزماح ، وبرزت إلى أمير المؤمنين مصاولا ، فانكفا نحوك
بالسيف حاملا ؛ فلما رأيت الكواشر من اللوت ؛ أعددت حيلة السلامة قبل لقائه ،
والانكفاء عنه بعد إجابته ، ففتحته رجاء النجاة - عورتك ، وكشفت له - خوف بأسه -
سواتك ، حذراً أن يظلمك سطوته ، وبلهيك بمخلة ، ثم أشرت على معاوية
كالناصح له بمبارزته ، وحشنت له التمرض لكألفته ، رجاء أن تكتفى مؤنته ، وتسلم
صورته ، فلم غل صدرك ، وما انحنت عليه من التفاق أضلعتك ، وعرف مقر سبيك
في غرضك .

فاكفف غرب لسانك ، واقمع عوراء لفظك ؛ فإنك لمن أسد خادير^(١) ، وبحر زاخر ،
إن تبرزت للأسد افترسك ؛ وإن همت في البحر قسك^(٢) .

فقال مروان بن الحكم : يا ابن عباس ! إنك لتصرف أنيابك ، وتوردى نارك ، كأنك ترجو
الملبة وتؤمل العافية ، ولولا حلم أمير المؤمنين عنكم لتناولكم بأقصر أمانه ، فأوردكم مهلاً
بعيداً صدره ، ولمصرى لئن سطا يكتم لها حدن بعض حقه منكم ، ولئن عفا عن جرائمكم
فقدماً ما نسب إلى ذلك .

فقال ابن عباس : وإني لتقول ذلك بإذن الله ، وطريد رسول الله ، وللباح دمه ،
والداخل بين عثمان ورعيته ، بما حلهم على قطع أوداجه ، وركوب أثابه ؛ أما والله لو طلب
معاوية ثأره لأخذك به ، ولو نظر في أمر عثمان لوجدك أوله وآخره .

وأما قولك لي : « إني لتصرف أنيابك ، وتوردى نارك » ؛ فقل معاوية وعمرأ يحبرك ليلة
الحرير ، كيف ثباتنا للثلاث ، واستخفافنا بالمضلات ، وصدق جلاونا عند المصاولة ، وصبرنا

(١) أسد خادير : مقيم في خدره .

(٢) قسك : غمسك ، وق : « ا » : « غمسك » .

على اللأواء والمطاولة، ومصاحفتنا بجهاها السيوف المرهفة؛ ومباشرتنا بتعورنا حدّ الأسيّة،
هل خنا^(١) عن كرائم تلك اللواقف، أم لم لبذل مهّنا للمتالف؟ وليس لك إذ ذاك فيها
مقام محمود، ولا يوم مشهود، ولا أثر معدود، وإيهما شهدا ما لو شهدت لأقلّك؛ فأربّع
على ظلمك، ولا تترّض لما ليس لك، فإنك كالنروز في صفد، لا يهبط برجل، ولا
يرتقي يده.

فقال زياد : يا بن عباس، إني لأعلم مامنع حسنا وحسينا من الوفود معك على
أمير المؤمنين إلا ماسوت لهما أنفسهما، وعزهما به من هو عند النساء سقمهما، وإيم الله
لو وليتهما لأذا بأبي الرحلة إلى أمير المؤمنين أنفسهما، وتقلّ مكانهما لبيتهما.

فقال ابن عباس : إذن والله بقصر حوشها بأهلك، وبضيّق بهما ذراعتك، ولو رُمت
ذلك لوجدت من دونها فئة صدقا، صبرا على البلاء، لا يحيسون عن اللقاء، فتمرّكوك
بكلا كلمهم، ووطنوك بمناسمهم، وأوجررك مشق رحاحهم، وشقار سيوفهم ووخز أسنتهم،
حتى تشهد سوء ما أتيت، وتبين ضياع الحزم بما جلبت. فحذار حذار من سوء النية فتكافأ
برد الأمتية، وتكون سببا لفساد هذين الحثين بعد صلاحهما، وسعيّا في اختلافهما بعد
اتّلافهما، حيث لا يضرهما إيساسك، ولا يعنى عنهما إيتاسك.

فقال عبد الرحمن بن أم الحكم : لله درّ ابن ملجم أفقد بلغ الأمل، وأمين الوجمل،
وأحد الشفرة والآل للثرة، وأدرك الثار، ونقى العار، وقاز بالمرّة العليا، وورق
المرجة القصوى.

فقال ابن عباس : أما والله: لقد كرع كاس حنّفه بيده، وعجل الله إلى النار بروحه،

ولوأبدى لأمر المؤمنين صفحته لما أعطه الفحل القطم^(١) والسيف الخديم^(٢)، ولألقه صاحباً، وسقاء
سماً، وألقه بالوليد وعُتية وحفظه، فكلهم كان أشد منه شكية، وأمضى عزيمة،
فقرى بالسيف هامهم، ورملمهم^(٣) بدمائهم؛ وقرى القتاب أشلاءهم، وفرق بينهم وبين
أحبائهم: ﴿أولئك حصبُ جهنم لما دارسون﴾^(٤)، و﴿هل نحس منهم من
أحد أو تسمع لهم ركزا﴾^(٥)، ولا غزو إن خيل، ولا وصمة إن قتل؛ فإننا لكما قال دريد
ابن الصنعة:

لما لُحِمُ السيف غير مكرهٍ ونلحه طوراً وليس بذى شكر^(٦)
بُخار عيسى واطر بن فيشتق بنا إن أصبنا، أو نذر على وثير

فقال لليرة بن شعبة: أما والله لقد أشرت على علي بالصيحة فأثر رأيه، ومضى على
غلوته، فكانت العاقبة عليه لاله، ولأى لأحبيب أن خلقه يقتدون بمنهجه.

فقال ابن عباس: كان والله أمير المؤمنين عليه السلام أعلم بوجوه الرأى، ومعاقد الحزم،
وتصرف الأمور، من أن يقل مشورتك فيما هي الله عنه، وعنف عليه، قال سبحانه:
﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾^(٧)؛
ولقد وقفك على ذكر مبین، وآية متلوة قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ

(١) القطم: الفحل الصول.

(٢) الخديم: الخادم.

(٣) رملهم: لطمهم.

(٤) سورة الأنبياء ٩٨.

(٥) سورة مريم ٩٨.

(٦) من كلمة في الأغاني ١٠: (لمعة القار)، وفي الأغاني:

• غير فكيرة... ونلحه حيناً •

ولحه: أى لطمه القوم.

(٧) سورة المائدة ٥٢.

عَصُداً^(١) ، وهل كان يسوغ له أن يحكم في دماء المسلمين وفي المؤمنين ، من ليس بأمين عنده ، ولا موثوق به في نفسه ! هيهات هيهات ! هو أعلم بفرض الله وسنة رسوله أن يبطن خلاف ما يظهر إلا للتقية ، ولات حين تقيّة ! مع وضوح الحق ، وثبوت الجنان ، وكثرة الأنصار ، يمضى كالسيف للصلت في أمر الله ، مؤثراً لطاعة ربه ، والتقوى على آراء أهل الدنيا .

فقال يزيد بن معاوية : يا ابن عباس ، إنك لتتلقى لسان طلق يذيق من مكنون قلب حرق ، فأطرو ما أت عليه كشحاً ، فقد محاضوه حقنا ظلمة ما ظلمكم .

فقال ابن عباس : مهلاً يزيد ، فوالله ما صفت القلوب لكم منذ تكذرت بالعداوة^(٢) عليكم ، ولا دنت بالحقبة إليكم مذبات باليفضاء عنكم ، لا رضيت اليوم منكم ما سعت بالأس من أفعالكم موافق تدل^(٣) الأهم نستقص ما سدت عنا ، وستر جمع ما ابتزمتنا ، كيلاً بكيل ، ووزناً بوزن ، وإن تكن الأخرى فكفى بالله ولياً لنا ، وو كلاً على المعتدين علينا .

فقال معاوية : إن في نفسي منكم لحزازات يا بني هاشم ، وإنى تخلق أن أدرك فيكم النار ، وأمي النار ، فإن دماء ما قبلكم ، وظلامتنا فيكم .

فقال ابن عباس : والله إن رمت ذلك يا معاوية لتثيرن عليك أسداً مخدرة^(٤) ، وأفاعى مطرقة ، لا يفتئوها كثرة السلاح ، ولا يعضها نكابة الجراح ، يضمون أسياقتهم على عواتقهم ، يصرون قدماً قدماً من ناوهم ، يهون عليهم تباح الكلاب وهواء الذئاب ،

(١) سورة الكهف ٥١ .

(٢) ساقطة من به .

(٣) يقال : مات الأمام ، أي دنت ، وهو من قوله تعالى : ﴿ وَنِلَكَ الْأَبْأَامُ مَذَاوِلَهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ .

(٤) الأسد المخدر والمخدرة : اللقيم في المخدر ؟ وهو الضرب .

لا يُفَاتُونَ بَوْتَهُ ، وَلَا يُسَبِّقُونَ إِلَى كَرِيمٍ ذِكْرَهُ ، قَدْ وَطَّنُوا عَلَى اللُّوثِ أَنْفُسَهُمْ ، وَتَمَتَّتْ بِهِمْ إِلَى الْعُلَيَاءِ هِمَمُهُمْ ؛ كَمَا قَالَتِ الْأَزْدَبَةُ :

قَوْمٌ إِذَا شَهِدُوا الْمَهَيَّاجَ فَلَا ضَرْبَ يُنْهِيهِمْ وَلَا زَجْرُ
وَكَاثِمِهِمْ آسَادَ غَيْمَةٍ قَدْ غَرِثَتْ وَبَلَّ مَتُونَهَا الْقَطَرُ^(١)

فَلْتَكُونَنَّ مِنْهُمْ بِحَيْثُ أَعْدَدْتَ لَيْلَةَ الْهَرِيرِ لِلْهَرَبِ فَرَسَكَ ، وَكَانَ أَكْبَرُ هَمِّكَ سَلَامَةَ
حُشَاشَةِ نَفْسِكَ ، وَلَوْ لَا طَنَامٌ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ وَقَوَّكَ بِأَنْفُسِهِمْ ، وَبَدَلُوا دُونَكَ مَهَبَهُمْ ،
حَتَّى إِذَا ذَاقُوا وَخْرَ الشُّغَارِ ، وَأَيَقَنُوا بِمَحْلُولِ الدَّمَارِ ، رَفَعُوا لِلصَّاحِفِ مُسْتَعِيرِينَ بِهَا ، وَعَاثَذِينَ
بِمِصْتَبِهَا - لَكُنْتَ شِلْوًا^(٢) مَطْرُوحًا بِالْعَرَاءِ ، تَنْتَنِي عَلَيْكَ دِيَابُهَا ، وَيَعْتُورُكَ ذُبَابُهَا .
وَمَا أَقُولُ هَذَا أُرِيدُ مَرْفَقَكَ عَنْ عَزِيَّتِكَ ، وَلَا إِزَالَتَكَ عَنْ مَقْرُودِ نَيْتِكَ ، لَكِنَّ
الرَّحِيمَ الَّذِي نَمَطَفَ عَلَيْكَ ، وَالْأَوَامِرَ الَّتِي تَوْجِبُ مَرْفَقَ النَّصِيحَةِ إِلَيْكَ .

فَقَالَ مُعَاوِيَةُ : قَدْ حَزَنَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ مَا يَكْشِفُ الْأَيَّامَ مِنْكَ إِلَّا عَنْ سَيْفِ صَفِيلٍ ،
وَرَأَى أَصُولَ الْوَالِدِ لَمْ يَلِدْ هَاشِمٌ غَيْرَكَ لَمَّا قَصَصَ عَدَدَهُمْ ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ لَأَهْلَكَ سِرَاكُ الْكَانِ
اللَّهُ قَدْ كَثُرَ .

ثُمَّ نَهَضَ ، فَقَامَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَانْصَرَفَ .



وَرَوَى أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ بْنُ يَحْيَى ثَعْلَبِيٌّ فِي أَمَالِيهِ ، أَنَّ صُرُوقَ الْعَاصِ قَالَ لِقَتْبَةَ
ابْنِ أَبِي سَفْيَانَ يَوْمَ الْحَكَمَيْنِ : أَمَا تَرَى ابْنَ عَبَّاسٍ قَدْ فَتَحَ عَيْنَيْهِ ، وَشَرَّ أَذُنَيْهِ ، وَلَوْ قَدَّرَ
أَنْ يَحْكُمَ بَيْنَهُمَا فَعَلَّ ، وَإِنْ خَفَّتْ أَصْحَابُهُ لِهَجُورَةِ بَغْلَتِهِ ، وَهِيَ سَاعَتُنَا الطُّوْلَى فَافْكُنِيهِ .
قَالَ قَتْبَةُ : يَجْهَدِي .

(١) الْغَيْمَةُ : الْأَشْجَارُ لِلتَّغَةِ فِي الْجِبَالِ وَفِي السَّهْلِ بِلَا مَاءٍ ؛ فَإِذَا كَانَتْ بِمَاءٍ فَهِيَ النِّبْضَةُ . وَالْمِيتَةُ أَيْضًا :
مَوْضِعُ الْيَمِينِ . (٢) الشِّلْوُ : النُّصُومُ مِنْ أَعْضَاءِ الْجَمْعِ .

قال : ففقت ففقدت إلى جابه ، فله أخذ القوم في الكلام أقبلت عليه بالحديث ،
فترج بدى ، وقال : ليست ساعة حديث ؛ قال : فأظهرت غضبا ، وقلت : يا ابن عباس ،
إن ثقك بأحلامنا أسرعت بك إلى أعراضنا، وقد والله تقدم من قبل المذر ، وكثر منا
الصبر ؛ ثم أذعنته فعاش إلى ميرجله وارتفعت أصواتنا، فعاء القوم فأحدوا بأيدينا ففتحوه
عنق ونحونى عنه ، فبحثت فقرت من عمرو بن العاص ، فرماني بموخر عيبه وقال :
ما صنعت ؟ قلت : كفيتك النقالة ، فمخم كما يجمع العرس للشمير ، قال : وفات ابن عباس
أول الكلام ، فكره أن يتكلم في آخره .

وقد ذكرنا نحن هذا الخبر قبل تقدم في أخبار صغين على وجه آخر غير هذا الوجه .

[عمارة بن الوليد وعمرو بن العاص في الحبشة]

فأما خبر عمارة بن الوليد بن لعبرة المخرومي ، أخى خالد بن الوليد مع عمرو بن العاص
قد ذكره ابن إسحق في كتاب " للمعاري " قال :

كان عمارة بن الوليد بن لعبرة وعمرو بن العاص بن وائل ، بعد مبعث رسول الله صلى الله
عليه وآله ، خرجا إلى أرض الحبشة من شير كهما ، وكلاهما كان شاعرا عارفا فانيكا .
وكان عمارة بن الوليد رجلا جميلا وصيا شهوا النساء ، صاحب محادثة لمن ؛ فركبا البحر
ومع عمرو بن العاص امرأته ، حتى إذا صاروا في البحر ليالي ، أصابا من بحر معهما ، فلما
انتهى عمارة قال لامرأة عمرو بن العاص : قبليني ، فقال لها عمرو : قبلي ابن عمك ، فقبلته
فهيئها عمارة ، وحمل يراودها عن نفسها ، فامتنعت منه ثم إن عمرا جلس على منجاف^(١)

السفينة يبول ، فدفعه عمارة في البحر فمات عمرو سبوح ، حتى أحد بمصيف السفينة ، فقال له عمارة : أما والله لو علمت أنك ساحح ما طرحتك ، ولكنني كنت أظن أنك لأمين السباحة ، فضغن عمرو عليه في نفسه ، وعلم أنه كان أراد قتله ؛ ومضيا على وجهيهما ذلك ؛ حتى قدما أرض الحبشة ؛ فلما نزلاها كتب عمرو إلى أبيه العاص بن وائل ؛ أن احلفني وتبرأ من جريرتي إلى بني النخيلة وسائر بني مخزوم ، وخشي على أبيه أن يتبع بجريرته ، فلما قدم الكتاب على العاص بن وائل ، مشوا إلى رجال بني النخيلة وبني مخزوم ، فقال : إن هذين الرجلين قد خرجا حيث علمت ، وكلاهما فانتك صاحب شر ، فير ما مومنين على أنفسهما ، ولا أدري ما يكون منهما ؛ وإني أيرأ إليكم من عمرو وجريرته ، فقد خلمته . فقال عند ذلك بنو النخيلة وبني مخزوم : وأنت تحاف عمراً على عمارة ؛ ونحن قد حطعنا عمارة وتبرأنا إليك من جريرته ، نفل بين الرجلين . قال : قد فعلت ، نعلموها ويرى كل قوم من صاحبهم وما يجري منه .

قال : فلما اطمأننا بأرض الحبشة ؛ لم يلبث عمارة بن الوليد أن دب المرأة النجاشي . وكان جميلاً صبيحاً وسياً . فأدخلته ، فاختلف إليها ، وجعل إذا رجع من مدخله ذلك يخبر عمراً بما كان من أمره ، فيقول عمرو : لأصدقك أنك قدرت على هذا ، إن شأن هذه المرأة أرفع من ذلك ؛ فلما أكثر عليه عمارة بما كان يخبره . وكان عمرو قد علم صدقه ، وعرف أنه دخل عليها ، ورأى من حاله وهيبته وما تصنع المرأة به إذا كان معها ، ويتوتيه عندها ؛ حتى يأتي إليه مع السحر ما عرف به ذلك ، وكانا في منزل واحد ؛ ولكنه كان يريد أن يأتيه بشيء لا يستطيع دفعه ، إن هو رفع شأنه إلى النجاشي . فقال له في بعض

مايتذاكران من أمرها : إن كنت صادقاً قتل لها : فلتدعها بدهن النعاشى الذى لا يدهن به غيره ، فإني أعرفه ، واثبتى بشىء منه حتى أصدقك ، قال : أفعل .

فجاء فى بعض مايدخل إليها ، فسالها ذلك ، فذهنته منه ، وأعطته شيئاً فى قارورة ، فلما شمه عرو عرفه ، فقال : أشهد أنك قد صدقت ! لقد أصبت شيئاً ما أصاب أحد من العرب مثله قط ، [وثلث من]^(١) امرأة الملك [شيئاً]^(٢) ما سمعنا بمثله هذا . وكانوا أهل جاهلية وشبانا ، وذلك فى أنفسهم فصل لمن أصابه وقدر عليه .

ثم سكنت عنه^(٣) حتى اطمان ، ودخل على النعاشى^(٤) ، فقال : أيتها الملك ! إن مى سفيهاً من سفهاء قريش ، وقد خشيت أن يرمى^(٥) عندك أمره ، وأردت أن أعلمك بشأه ، وأتلاً أرفع ذلك إليك حتى أستثبت أنه قد دخل على بعض سائلك فأكثر . وهذا دهنك قد أعطته وادهن به .

فلما شم النعاشى الدهن ، قال : صدقت ، هذا دهن الذى لا يكون إلا عند سائى ، فلما أثبت أمره ، دعا نُمارة ، ودعا نسوة^(٦) (خَرَ) حرّذوه من ثيابه ، ثم أمرهن أن يبتعن فى إحاطه ، ثم خلى سبيله .

فخرج هاربا فى الوحش ، فلم يزل فى أرض الحبشة ، حتى كانت خلافة عمر بن الخطاب ، فخرج إليه رجال من بنى النخيلة ، منهم عبد الله بن أبى ربيعة بن المعيرة . وكان اسم عبد الله قبل أن يسلم يمجرا ، فلما أسلم ، سمّاه رسول الله صلى الله عليه وآله عبد الله . فرصدوه على ماء بأرض الحبشة ، كان يرده مع الوحش ، فزعموا أنه أقبل فى حر من حر الوحش ليرد معها ، فلما وجد ريح الإنس ، هرب منه ، حتى إذا أجهد العطش ، ورد فشرب حتى تملأ ، وخرجوا فى طلبه .

(١) تكله من الأغاني .

(٢-٣) الأغاني : « حتى إذا اطمان دخل على النعاشى » .

(٤) حره : لطفه بالمحب ، وى ا : « بنين » ، وى أخته من الأغاني .

قال عبد الله بن أبي ربيعة : فبقتُ إليه فالتزمته ، فجعل يقول : أرسِلْنِي ، إني
أموت إن أمسكتني . قال عبد الله : فضبطته^(١) فأت في يدي مكانه ، فواروه
ثم انصرفوا .

وكان شعراء - فيما يزعمون - قد غطى كل شيء منه ؛ فقال عمرو بن العاص ،
بذكر ما كان صنع به وما أراد من امراته :

تَسَلَّمْتُ هُمَارًا أَنْ مِنْ شَرِّ سُنَّةٍ عَلَى اللِّوَاءِ أَنْ يُدْعَى ابْنُ عَمٍّ لَهُ أَبْنَاءُ
أَنْ كُنْتُ ذَا بُرْدَيْنِ أَخَوَى مُرْجَلًا فَكُنْتُ بِرَأْسِ لَابِنِ عَمِّكَ عَمْرَمًا
إِذَا لِلرَّءِ لَمْ يَسْرُكْ طَلَامًا يَجِبُهُ وَلَمْ يَسْرُكْ قَلْبًا طَالَمَا حَيْثُ يَتَمَّا
فَضَى وَطَرًا مِنْهُ بَيْرًا وَأَصْبَحْتُ إِذَا ذَكَرْتَ أَمْثَالَهَا تَمَلَّأَ الْفَتَا^(٢)



[أمر عمرو بن العاص مع جعفر بن أبي طالب في الحبشة]

وأما جبر عمرو بن العاص في شغوصه إلى الحبشة ، لمكيد جعفر بن أبي طالب
وللهاجرين من المؤمنين عند النجاشي^(٣) ، فقد رواه كل من صف و السيرة ؛ قال
محمد بن إسحاق في كتاب " المازي " قال :

حدثني محمد بن مسلم بن عبد الله بن شهاب الزهري ، عن أبي بكر بن عبد الرحمن ،
ابن الحارث بن هشام الخزومي ، عن أم سلمة بنت أبي أمية بن النخيلة الخزومية ، زوجة
رسول الله صلى الله عليه وآله ، قالت :

لما نزلنا بأرض الحبشة جاورنا بها خيرَ جارٍ ، النجاشي^(٤) ، أمينا^(٥) على ديننا ، وهبنا
الله لا تؤذى كما كنا تؤذى بمكة ، ولا نسمع شيئاً نكرهه ، فلما بلغ ذلك قريشاً انحصروا

(١) في الأغاني : د ضبطته . (٢) الخبر والشعر في الأغاني ٩ : ٥٧ - ٥٩ (طعة الدار)

(٣) النجاشي ، وبضمها . (٤) في الأصول : أساء ، وما أتجه من السيرة .

فيهم أن يهتوا إلى النجاشي في أمرنا رجلين منهم جلد بن ، وأن يهدوا للنجاشي هدايا مما يُستطرف من متاع مكة ، وكان من أعجب ما يأتيه منه الأدم ؛ فجمعوا أدما كثيرا ، ولم يتركوا من تطارقه بطريقا إلا أهبطوا إليه هدية . ثم بعثوا بذلك مع عبد الله بن أبي ربيعة بن النخيلة الخزومي وعمر بن العاص بن وائل السهمي ، وأمرهما أمرهم ، وقالوا لهما : ادفنا إلى كل طريق هديته ، قبل أن تُكلما النجاشي فيهم .

ثم قديما إلى النجاشي ، ونحن عنده في خير دار عند خير جار ، فلم يبق من بطارقه بطريق إلا دفنا إليه هديته ، قبل أن يكلما النجاشي ، ثم قالوا لبطارقة :

إنه قد فر^(١) إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا في دينكم ، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم ، وقد بعثنا إلى الملك أشراف قومهم لتردهم إليهم ، فإذا كلنا الملك فيهم فاشيروا عليه أن يسلمهم إلينا ولا يسكتهم ، فإن قومهم أعلى بهم عينا ، وأعلم بما طابوا عليهم . فقالوا لهما : نعم .

ثم إنهما قر^(٢)يا^(٣) هدايا الملك إليه فقبيها منهم ، ثم كذاه ، فقالا له :

أيها الملك ، قد فر^(١) إلى بلادك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا في دينك ، جاءوا بدين ابتدعوه ، لا نعرفه نحن ولا أنت ؛ وقد بعثنا فيهم إليك أشراف قومنا من آباءهم وأعمامهم وعشائهم ، لتردهم عليهم ؛ فهم أعلى بهم عينا ، وأعلم بما طابوا عليهم وعابثوه منهم .

قالت أم سلمة : ولم يكن شيء أبغض إلى عبد الله بن أبي ربيعة وعمر بن العاص ، من أن يسمع النجاشي كلامهم .

فكانت بطارقة الملك وخواتمه حوله : صدقا أيها الملك ، قومهم أعلى بهم عينا ، وأعلم

(١) البيرة : ضوى ، أي أوى . (٢) البيرة : قلد .

یما عابوا علیهم فلیسلّمهم الملک إلیها ، لیردّاهم ^(۱) إلی بلادهم وقومهم .

فمضب الملک وقال : لا ها الله ! إدا لا أسلمهم إلیها ، ولا أخیر ^(۲) قوما جاورونی ونزلوا بلادی ، واختارونی علی سواى ، حقی أدموعهم وأسألم عما یقول هذان فی أمرهم ، فإن کانوا کا یقولون أسلمتهم إلیها ورددتهم إلی قومهم ، وإن کانوا هل غیر ذلك منعتمهم منهم ، وأحسنت جوارهم ما جاورونی .

قالت : ثم أرسل إلی أصحاب رسول الله صل الله علیه وسلم فدعاهم ، فلما جاءهم رسولہ اجتمعوا ، ثم قال بعضهم لبعض : ماتقولون للرجل إذا جئتموه ؟ قالوا : نقول والله ما هلمناه ، وما أمرنا به بیئنا صلی الله علیه وآله کائنا [فی ذلك] ^(۳) ما هو کائس ، فلما جاءوه ، وقد دعا النجاشی أساقفته ، فشرخوا مصاحفهم حوله ، سألم فقال لهم : ما هذا الذین الذی فارقم فیہ قومکم ، ولم تدخلوا فی دینی ولا فی ذین أحد من هذه الملل ؟ قالت أم سلمة : وكان الذی کاه جعفر بن أبی طالب فقال له :

أیها الملک إنا کنا قوما فی جاهلیة سبب الأصنام ، ونأکل البیة ، ونأقی الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسب الجوار ، وبأکل القوی منا الضعیف . فسکنا علی ذلك حتی بعث الله عز وجل علینا رسولاً منا ، سرف نسبہ وصدق وأمانتہ وعفافہ ، فدمانا إلی الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ما کنا علیه نحن وآباؤنا من دونه ، من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحدیث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرّحم ، وحسن النجار ، والسکف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن سائر الفواحش ؛ وقول الزور ، وأکل مال الیتیم ، وقذف المحصنة ، وأمرنا أن نعبد الله لا نشرك به شیئاً ، وبالصلاة والزکاة والصیام .

(۱) البیة : « فیردّاهم » .

(۲) فی البیة : « ولا یخیر قوم » .

(۳) من البیة .

قالت^(١) : فعدّد عليه أمور الإسلام كلها ، فصدّقناه وآمنّا به ، واتبعناه على ما جاء به من الله ، فمهدنا الله وحده فلم نشرك به شيئاً ، وحرّمنا ما حرّم علينا ، وأحلّلنا ما أحلّ لنا ، فعدّا علينا قومنا فعدّونا ، وفعلنا ما فعلنا ، ليردّونا إلى عبادة الأصنام والأوثان عن عبادة الله ، وأن نستعمل ما كنا نستعمل من الخبائث ؛ فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا إلى بلدك ، واحترباك على من سواك ، ورعبنا في جوارك ، ورجونا ألا يظلم عندك أيها الملك .

فقال النجاشي : فهل معك مما جاء به صاحبكم عن الله شيء ؟ فقال جعفر : نعم . فقال اقرأ على ، فقرأ عليه صدراً من « كهيعص » ، فبكى حتى حصلت لحبته ، وبكت أساقفته حتى أخذوا لحام^(٢) . ثم قال النجاشي : والله إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة ، والله لا أشككم إليهم .

قالت أم سلمة : فلما خرج القوم من عنده ، قال عمرو بن العاص^(٣) : والله لأعيبهم غداً عنده ما يتأصل به خصرهم^(٤) ؛ فقال له عبدالله بن أبي ربيعة - وكان أثنى الرجلين : لا تفعل ، فإن لم أرحاماً وإن كانوا قد حالفوا ؛ قال : والله لأخبرته غداً أنهم يقولون في عيسى بن مريم إنه عبدٌ ثم غداً عليه من العبد ، فقال : أيها الملك ، إن هؤلاء يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً ؛ فأرسل إليهم فسئهم عما يقولون فيه ؛ فأرسل إليهم . قالت أم سلمة : فما نزل بنا مثلها . واجتمع المسلمون ، وقال بعضهم لبعض : ماتقولون في عيسى إذا سألكم عنه ؟ فقال جعفر بن أبي طالب : نقول فيه والله ما قال عز وجل ، وما جاء به نبينا عليه السلام ، كأننا في ذلك ما هو كائن .

فلما دخلوا عليه قال لهم : ماتقولون في عيسى بن مريم ؟ فقال جعفر : نقول إنه عبدالله

(١) في الأصول : « قل » ، وما أنبته من البيرة .

(٢) البيرة : « أخذوا مصاحفهم » .

(٣ - ٤) البيرة : « والله لأخبرته غداً ما أسأله به خصرهم » ، أي حاضهم .

ورسوله وروحهُ وكلته ألقاها إلى مريم العذراء البتُول .

قالت : ففُضِرَ النجاشي بديه على الأرض ، وأُخذَ منها عوداً ، وقال : ما هذا عيسى ابن مريم ما قال هذا المود .

قالت : فقد كانت بطارفته تناخرت حوله ، حين قال جعفر ما قال ، فقال لهم النجاشي : وإن تناخرتُم !

ثم قال للمسلمين : اذهبوا فأنتم « سيوم » بأرضي ، أي آمنون ، من سبكم غريم ، ثم من سبكم غريم ، ثم من سبكم غريم ، ما أحب أن لي دبراً^(١) ذهباً وأني آذيتُ رجلاً منكم . والذير بلسان الحبشة : الجبل . ردّوا عليها هداياها فلا حاجة لي فيها ؛ فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حق ردّني إلى مُلكي . فأخذ الرشوة فيه ، وما أطاع الناس في أفاطهم فيه !

قالت : فخرج الرحلان من عند ~~مغبر~~ حين مرّادوا عليها ما جاء به ، واقفنا عنده في مغبر^(٢) دار مع خير جار ، فوالله إننا لعلّ ذلك ؛ إذ نزل به رجل من الحبشة يفاذه في ملسكه .

قالت أمّ سلمة : فوالله ما أصابنا خوفٌ وحزن قطّ كان أشدّ من خوفٍ وحزنٍ نزل بنا أن يظهرَ ذلك الرجل على النجاشي ، فيأتي رجل لا يعرف من حقنا ما كان يعرف منه .

قالت : وسار إليه النجاشي وبينهما عرض النبل ، فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله : من رجل يخرج حتى يحضر وقمة القوم ثم يأتينا بالخبر ؟ فقال الزبير بن العوام : أنا . وكان من أحدث المسلمين^(٣) شيئاً . فنفخوا له قرية فجعلناها تحت صدره ، ثم سبّح

(١) في الأصول : « دبا » ، والمواب من السرة .

(٢) السيرة : « مغبر » .

(٣) السيرة : « القوم » .

قال نصر بن مزاحم في كتاب صفين ، قال :

حدثنا محمد بن إسحاق ، عن عبد الله بن أبي عمرو ، وعن عبد الرحمن بن حاطب ، قال^(١) : كان عمرو بن العاص عدواً للحارث بن نصر الخثمي^(٢) ، وكان من أصحاب علي عليه السلام ، وكان علي عليه السلام قد تهيبه فرسان الشام ، وملأ قلوبهم بشجاعته ، وامتنع كل^(٣) منهم من الإقدام عليه . وكان عمرو قما جلس مجلساً إلا ذكر فيه الحارث بن نصر الخثمي وطابه ، فقال الحارث :

ليس عمرو بتارك ذكره الحارث بالسوء أو يلاق علياً^(٤)
واضع السيف فوق منكبه الأبي من لا يحب العوارس شيئاً
ليت عمرا يلقاه في حومة المنقعة وقد أمت السيف حصيداً^(٥)
حيث يدعو للعرب حامية القوم إذا كان بالبراز ملياً^(٦)
فألقه إن أردت مكرمة الله وأمر اللوت كل ذلك علياً

فشاعت هذه الأبيات حتى بلغت عمرا ، فأقسم بالله ليقتل علياً ولو مات ألف مائة . فلما احتلقت الصفوف بقيه حمل عليه برمح ، فقدم علي عليه السلام وهو مخترط سيفاً

(١) صفين ٢٨٩ وما بعدها .

(٢) صفين : « الجشمي » .

(٣) صفين :

ليس عمرو بتارك ذكره الحارث بـمدى الدهر أو يلاق علياً

(٤) صفين : « سارت السيوف » .

(٥) بعده في صفين :

فوق شهب مثل السحوق من النخل بنادي المبارزين إلياً
ثم يا عمر نستريح من الفخر وتلقى به فتى هاشمياً

السحوق من النخل : الطويلة ؛ شبه بها الخيل .

معتقل^١ ربحا ، فلما دفعه همز فرسه ليعلو عليه ، ولقي عمرو نفسه عن فرسه إلى الأرض شاعرا
برجلية ؛ كاشفا عورته ، فانصرف عنه لافتا وجهه مستدير^٢ إليه ، فمد^٣ الناس ذلك من مكارمه
وسؤدده ، وضرب بها المثل .

• • •

قال نصر : وحدثني محمد بن إسحاق ، قال : اجتمع^(١) عند معاوية في بعض ليالي صيفين
عمرو بن العاص ، وعُتْبة بن أبي سفيان ، والوليد بن عُقْبة ، ومروان بن الحكم ، وعبدالله
ابن عامر ، وابن طلحة الطلحات الخراسي ، فقال عتة : إن أمرا وأمر^٢ علي بن أبي طالب
كعجب^٣ أما فينا إلا موقوف^٤ مُجْتَاح^(٢) .

أما أنا فقتل جدي عُتْبة بن ربيعة ، وأخي حنظلة ، وشرك في دم عتي شعبة يوم بدر .
وأما أنت يا وليد ، فقتل أباك صبرا^١ وأما أنت يا ابن عامر ، فصرع أمك وملك عمك .
وأما أنت يا ابن طلحة ، فقتل أباك يوم الحُل ، وأنتم إخوانك وأما أنت يا مروان فمكا
قال الشاعر :

وأفلمنَ غلبا جربصا وتو أذرَكه صِفَر الوطاب^(٣)

فقال : معاوية هذا الإقرار فأين العير^(٤) ؟ قال مروان : وأي عير ترمد ؟ قال : أريد
أن تشجروه بالرماح قال : والله يا معاوية ما أراك إلا هاذبا أو هارئا ، وما أرانا إلا تقاتلنا عليك ،
فقال ابن عُقْبة .

يقول لنا معاوية بن حَرْب أما فيكم لو أترككم طوب^١
يَشْدُ على أبي حسن علي بأشتر لا تهجته الكعوب^٢

(١) صفي ٤٧٥ وما بعدها .

(٢) صفي : د عجاج .

(٣) لامري^١ الفيس ، ديوانه ١٣٨ ، وعلاء^٢ لابن وهامري^٣ الفيس ، والجريس : التقى يؤخذ بربته .

وصفر وطابه ، كناية من القتل .

(٤) العير : جمع غيور ، والغيرة : الهبة .

فبهتك تجمع القبات منه ونفع الحرب مطرد يؤوب
قلت له : أتلعب يا ابن هدير كالك يبتنا رجل غريب
أنقربنا بحبة طين واد إذا نهشت ، فليس لها طيب^(١)
وما ضبع يدب ببطن واد أتمح له به أسد مريب
بأضع حيلة منا إذا ما لقيناه ولقيساء عجيب
سوى عمرو وقتنه خضبه وكان لقلبه منه وجيب
كان القوم لما عابروه خلال التقع ، ليس لهم قلوب
لمرأى معاوية بن حرب وما غلى سلعته الميوب
لقد ناداه في الهيجا على فاسمه ولكن لا يجيب
فغضب عمرو ، وقال : **إب** كان الوليك صادقا فليلق علينا ، أو فليفت حيث
بسمع صوته .
وقال عمرو :

بذكرني الوليد دُعَا على وأطق للرء بملوء الوعيد
مق تذكر مشاهد قريش بطر من حوفه القلب الشديد
فأما في المقساء فأين منه معاوية بن حرب والوليد
وعيرني الوليد لقاء ليث إذا ما شد هابته الأسود^(٢)
لقيت ولست أحمله عيا وقد بئت من العلق الأبود
فأطمنه ويطعنني خلاسا وماذا بعد طمئنته أريد
فرمها منه يا ابن أبي معيط وأت الفارس البطل النجيد
وأقسم لو سمعت ندا على لطار القاب وانفتح الوريد

(٢) صفت : « إذا ما زار » أي زار .

(١) صفت : « أنامرنا » .

ولو لافيتة شقت جيوبك عليك ، ولطمت فيك الحدود

•••

وذكر أبو عمر بن عبد البر في كتاب " الاستيعاب " في باب بُسر بن أرطاة قال ^(١) :

كان بُسر من الأبطال الطماء ، وكان مع معاوية نصيفين ، فأمره أن يلقى علياً عليه السلام في القتال ، وقال له : إني سمعتك تنمى لقاءه ، فلو أخفرك الله به وصرعته حصلت على الدنيا والآخرة ^(٢) ، وأبى بل يشجعه ويخفيه حتى رأى علياً في الحرب ، فقصده ، والتجأ فصرعه على عليه السلام ، ^(٣) وعرض له معه مثل ما عرض له مع عمرو ابن العاص في كشف السواة ^(٤) .

قال أبو عمر : وذكر ابن الكلبي في كتابه في أخبار صفين ، أن بُسر بن أرطاة بارز علياً يوم صفين ، فقلعه على عليه السلام فصرعه ، فأكشف له ، فكف عنه ، كما عرض له مثل ^(٥) ذلك مع عمرو بن العاص .

قال : ولشعراء فيهما أشعار مذكورة في موضعها من ذلك الكتاب ؛ منها فيما ذكر ابن الكلبي واللدائي قول الحارث بن نصر الخنسي ^(٦) - وكان عدواً لعمر بن العاص وبُسر بن أرطاة :

أف كل يوم فارس لك ينتهي وعورته وسط المعجاة بادية
يكف لحسا عنه على سيناه ويضعك منها في الخلاء معاوية

(١) الاستيعاب ١٦٤ وما بعدها .

(٢) الاستيعاب : « الدنيا والآخرة » .

(٣ - ٢) الاستيعاب : « وعرض على كرم الله وجهه مثل ما عرض فيما ذكر مع عمرو بن العاص » .

(٤) الاستيعاب : « فيها ذكر » .

(٥) الاستيعاب : « السهم » .

بَدَتْ أَمْسٍ مِنْ عَمْرٍو فَقَطَعَ رَأْسَهُ وَعَوْدَةٌ بُسْرٌ مِثْلُهَا حَذُو حَازِبَةٍ
قُولَا لِعَمْرٍو نَمُّ سُرٍّ : أَلَا انْظُرَا لِنَفْسِكَا : لَا تَلْقِيَا الْيَثَ ثَانِيَةً
وَلَا تَحْمَدَا إِلَّا الْحَيَا وَحَصَاكَ هَا كَاتِبَا وَاقِفَا لِلنَّفْسِ وَاقِيَةً
وَلَوْلَاهَا لَمْ تَعْبُجُوا مِنْ سِنَانِهِ وَتِلْكَ عَافِيهَا إِلَى الْعَوْدِ نَاحِيَةً
مَتَى تَلْقِيَا الْخَلِيلَ الْمَمِيرَةَ مُبْجَعَةً وَفِيهَا عَلَى فَاتَرٍ كَا الْخَلِيلِ نَاحِيَةً
وَكُونَا مَعِيدًا حَيْثُ لَا يَبْلُغُ الْقَنَا مُحَوَّرًا ، إِنَّ التَّجَارِبَ كَافِيَةً

• • •

وروى الواقدي قال : قال معاوية يوما سدا استقرار الخلافة له لعمر بن العاص : يا أبا عبد الله ، لا أراك إلا ويغلبني الضحك ؛ قال : بماذا ؟ قال : أذكرك يوم حمل عليك أبو تراب في صيفين ، فأزريت نفسك فرقا من شمل سفاهه ، وكشفت سوانتك له ؛ فقال عمرو : أنا منك أشد صحكاً ؛ إني لأذكرُ يومَ قَعْلِكَ إِلَى الْهَرَاثِ فَانْفَجَحَ سَحْرُكَ ، وَدَبَّ أَمَانُكَ فِي فَكِّكَ ، وَغَمِصَتْ بَرَقُكَ ، وَارْتَعَدَتْ فَرَانِصُكَ ، وَمَدَامُنْكَ مَا أَكْرَهَ دِكْرَهُ لَكَ ؛ فقال معاوية : لم يكن هذا كله ، وكيف يكون ودوى علك والأشعريون ! قال : إياك لتعلم أن الذي وصفت دون ما أصابك ، وقد زل ذلك بك ودومك علك والأشعريون ، فكيف كانت حالك لو جمعكما مَأْقِطُ^(١) الحرب ! فقال : يا أبا عبد الله ، خُصِّنْ بِنَا الْهَزْلَ إِلَى الْجِدِّ ، إِنْ الْجَبْنَ وَالْفَرَارَ مِنْ عَلَى لَا عَارَ عَلَى أَحَدٍ فِيهِمَا .

• • •

(١) المَأْقِطُ : موضع القتال .

[خير إسلام عمرو بن العاص]

فأما القول في إسلام عمرو بن العاص ، فقد ذكره محمد بن إسحاق في كتاب
” للمازى “ قال :

حدثني زيد بن أبي حبيب ، عن راشد مولى حبيب بن أبي أوس الثقفي ، عن حبيب
أبي أبي أوس ، قال : حدثني عمرو بن العاص من فيه ، قال :

لما انصرفنا [مع الأحزاب] ^(١) من الخندق ، جئت رجالاً من فريش كانوا يروون رأياً ،
ويسمون متى ، فقلت لهم : والله إنى لأرى أمر محمد يملأ الأمور علواً ، مُكراً ، وإنى قد رأيت رأياً ،
فأترونها فيه ؟ فقالوا : ما رأيت ؟ فقلت : أرى أن يُلحق النجاشي ، فنسكون عنده ، فإن ظهر محمد
على قومه أقمنا عند النجاشي ، فإن [يكون تحت] يديه أحب إلينا من أن نكون تحت
يدي محمد ، فإن ظهر قومنا نحن من قده ، وقوا ، [فلن يأتنا منهم إلا خير] ^(٢) قالوا : إن
هذا الرأي ، فقلت : فاجموا ما يهدى له - وكان أحب ^(٣) ما يأتيه من أرضنا الأدم ^(٤) -
فجمعنا له أدماً كثيراً ، ثم خرجنا حتى قدمنا عليه ، فوالله إنا لعنده ، إذ قدم عمرو بن أمية
الصمري ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله معه إليه في شأن جعفر بن أبي طالب وأصحابه .

قال : فدخل عليه ، ثم خرج من عنده ، فقلت لأصحابي : هذا عمرو بن أمية ، لو قد دخلت
على النجاشي فسألته إياه فأعطانيه ، فضربت عنقه ، فإذا فعلت ذلك رأيت فريش أنى قد
أجزأت ^(٥) عنها حين قتلت رسول محمد ، قال : فدخلت عليه فسجدت له فقال : مرحباً بصديق

(١) من سيرة ابن هشام

(٢) السيرة : ما يهدى إليه .

(٣) الأدم : الجلود ، جمع أديم .

(٤) أجزأت عنها : قت مقامها .

أهديت إلى من بلادك شيئاً؟ قلت : نعم أيها الملك ، قد أهديت لك أدمًا كثيرًا ، ثم قربته إليه ، فأعجبه واشتهاه ، ثم قلت له : أيها الملك ، إني قد رأيت رجلاً خرج من عندك ، وهو رسول رجل عدو لنا فأعطينيه لأقتله ، فإنه قد أصاب من أشرافنا وحيارنا .

فغضب الملك ، ثم مدت يده فضرب بها الله ضربة ظننت أنه قد كسره ، فلوانشقت لي الأرض لدخول فيها فرقاً منه ، ثم قلت : أيها الملك ، والله لو ظننت أنك تكره هذا ما سألتك ، فقال : أنسألي أن أعطيك رسولَ رجل يأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى لتقتله ؟ قلت : أيها الملك ، أ كذلك هو ؟ فقال : إي والله ! أطلقني ويحك واتبعه ، فإنه والله لعلى حق ، وليظهرن على من حانته كما ظهر موسى على فرعون وجنوده ، قلت فبأي معنى له على الإسلام ، فبسط يده ، فبسطته على الإسلام ، وحرحتُ عامداً لرسول الله صلى الله عليه وآله ، فلما قدمت المدينة حدثت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقد أسلم خالد ابن الوليد ، وقد كان صحبني في الطريق إليه ، فقالت : يا رسول الله ، أما بعثك على أن تنفرد لي ما تقدم من ذبي ، ولم أذكر ما تأخر ، فقال : ما بعث بغيري ، فإن الإسلام يحب ما قبله ، وإن الهجرة تحب ما قبلها ، فبأيمته وأسلمت ^(١) .

وذكر أبو عمر في " الاستيعاب " : أن إسلامه كان سنة ثمان ، وأنه قديم وخالد ابن الوليد وعثمان بن طلحة المدينة ، فلما رآهم رسول الله ، قال : رمضكم مكة بأفلاذ كيدها . قال : وقد قيل إنه أسلم بين الحديبية وحبير ، والقول الأول أصح ^(٢) .

[بعث رسول الله عمراً إلى ذات السلاسل]

قال أبو عمر : وبعث رسول الله عمراً إلى ذات السلاسل من بلاد قضاة في ثلثائة ، وكانت أم العاص بن وائل من بلي ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وآله عمراً إلى أرض بلي

(١) سيرة ابن هشام ٣ : ٣١٧ (مطبعة حجازي) . (٢) الاستيعاب ١١٨٥ وما بعدها .

وعُدَّة ، يتألفهم بذلك ويدعُوم إلى الإسلام ، فسارَ حتى إذا كان على ماء أرض جُذَام ، يقال له : السَّلاسل - وقد سُمِّيت تلك المِزاة ذَات السَّلاسل - خاف ، فكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله يستنجدُ ، فأمدته بحبش فيه مائتا فارس ، فيه أهلُ الشرف والسوابق من المهاجرين والأنصار ، فيهم أبو بكر وعمر ، وأمر عليهم أبا عبيدة بن الجراح ، فلما قَدِموا على عمرو ، قال عمرو : أنا أميرُكم وإنما أنتم مددِي ، فقال أبو عبيدة : بل أنا أميرُ مَنْ مَعِي وأنت أميرُ مَنْ مَعَكَ ، فأبى عمرو ذلك ، فقل أبو عبيدة : إن رسول الله صلى الله عليه وآله عهد إلىَّ فقال : إذا قدمت إلى عمرو فتطاوعا ولا تحتلفا ، فإن خالفتني أظمتك ، قال عمرو : فإن أخالفتك ، فسلم إليهِ أبو عبيدة ، وصلى خلفه في الحِيش كله ، وكان أميرا عليهم ، وكانوا خمسمائة .

[ولايات عمرو في عهد الرسول والخلفاء]

قال أبو عمر : ثم ولاء رسول الله صلى الله عليه وآله عثمان ، فلم يزل عليها حتى قبض رسول الله صلى الله عليه وآله ، وعمل لعمر وعثمان معاوية ، وكان عمر بن الخطاب ولاء بعد موت يزيد بن أبي حفيان بنسطين والأردن ، وولى معاوية دمشق وسلبك والبلقاء ، وولى سعيد بن عامر بن حذيم حمص . ثم جمع الشام كلها لمعاوية ، وكتب إلى عمرو ابن العاص أن يسير إلى مصر ، فسار إليها فافتتحها ، فلم يزل عليها واليا حتى مات عمر فأمره عثمان عليها أربع سنين ومحوها ، ثم عرله عنها وولاهها عبد الله بن سعد العامري .

قال أبو عمر : ثم إن عمرو بن العاص ادعى على أهل الإسكندرية أنهم قد نقصوا العهد الذي كان عاهدهم ، فعبد إليها ، فحارب أهلها وافتتحها ، وقتل مقاتلة وسبي القرية ، فنقم ذلك عليه عثمان ، ولم يصح عنه نقصهم العهد ، فأمر برد السبي الذي سبوا من القرى إلى مواضعهم ، وعزل عمرا عن مصر ، وولى عبد الله بن سعد بن أبي سرح العامري .

عمر بذلك ؛ فكان ذلك بدو الشر بين عمرو بن العاص وعثمان بن عفان ، فلما بدا بينهما من الشر ما بدا ، اعتزل عمرو في ناحية فيسطين بـهله ، وكان يأتي للديانة أحياناً ، فلما استقر الأمر لمعاوية بالشام ، بعثه إلى مصر بمد تحكيم الحكمين فافتحها ، فلم يزل بها إلى أن مات أميراً عليها ، في سنة ثلاث وأربعين ، وقيل سنة ثنتين وأربعين ، وقيل سنة ثمان وأربعين ، وقيل سنة إحدى وخمسين .

قال أبو عمر : والصحيح أنه مات في سنة ثلاث وأربعين ، ومات يوم عيد الفطر من هذه السنة وعمره تسعون سنة ، ودفن بالمقطم من ناحية السّفح ، وصلى عليه ابنه عبد الله ، ثم رجع فصلى بالناس صلاة العيد ، فولاه معاربة مكانه ، ثم عرله وولى مكانه أحياناً عتبة ابن أبي سفيان .

قال أبو عمر : وكان عمرو بن العاص من فرسان كبرياء وأطاليم في الجاهلية ، مذكوراً فيهم بذلك ، وكان شاعراً حسن الشعر ، وأحد الدهاة المتقدمين في الرأي والذكاء ، وكان عمر بن الخطاب إذا استصف رحلاً في رأيه وعقله ، قال : أشهد أن خالقك وخالق عمرو واحد ؛ يريد خالق الأضداد^(١) .

[نُبذ من كلام عمرو بن العاص]

ونقلت أبا من كتب متفرقة كلمات حكمية تُنسب إلى عمرو بن العاص ، استعصمتها وأوردتها ، لأني لا - بعد لفاضل فصله ، وإن كان ديبته عندي غير مرضى .
فمن كلامه : ثلاث لا آمنن : حبسني ما فهم عني ، وثوبني ما سترني ، ودابقي ما حلت رجلي .

(١) انظر أخبار عمرو بن العاص في الاستيعاب ص ١١٨٤ وما بعدها .

وقال لعبد الله بن عباس بصيقتين : إن هذا الأمر الذي نحن وأنتم ^(١) فيه ، ليس بأول أمر قاده البلاء ، وقد بلغ الأمر منا ومنكم ما ترى ، وما أوجت لنا هذه الحرب حياة ولا صبرا ، ولستنا نقول : ليت الحرب عادت ؛ ولستنا ^(٢) نقول : ليتها لم تكن كانت ؛ فافصل فيما بقي بغير ماضى ، فإنك رأس هذا الأمر بعد علي ، وإنما هو أمر مطاع ، ومأمور مطيع ، ومبارز مأمون ، وأنت حر .

ولما نصب معاوية قيصَ حِثانَ على النبر ، وبكى أهل الشام حوله ، قال : قد هممتُ أن أدعَه على المنبر ، فقال له عمرو : إنه ليس قبيص يوسف ، إنه إن طال فقرهم إليه ، وبجئوا عن السب وقضوا على ما لا تحب أن يقفوا عليه ، ولكن اذعهم بالنظر إليه في الأوقات . وقال : ما وضعت سرى عند أحد فأفشله فدمتُه ، لأنى أحق بالوم منه إذ كنتُ أصيَقَ به صدرا منه .

وقال : ليس العاقل الذي يعرف الخير من الشر ، لكن العاقل من يعرف خير الشرين . وقال عمر بن الخطاب لجلسائه يوم ما وعمر فيهم : ما أحسن الأشياء ؟ فقال كل منهم ما عنده ؟ فقال : ما تقول أنت يا عمرو ؟ فقال :

• الفمراءُ ثمَّ ينجلينا ^(٣) •

وقال لعائشة : لو ددت أملك تخت يوم الجمل ، قالت : ولم لأهلك ؟ قال : كنت تموتين بأجليك ، وتدخلين الجنة ، ويملكك أكر التشنيع على علي بن أبي طالب عليه السلام . وقال لبنيه ، يا بني ، اطلبوا العلم ، فإن استغنيتُم كان تحالا ، وإن افتقرتم كان مالا . ومن كلامه : أميرٌ عادل خيرٌ من مطرٍ وابل ، وأسدٌ حطوم خير من سلطان ظلوم ، وسُلطان ظلوم خير من فتنة تدوم ، ورلة الرجل عظمٌ يحبر ، وزلة اللسان لائسٌ ولا تذر . واستراح من لا عقل له .

(١-٢) ساقط من ب ، ج ، وأنبته من ا .

(٣) البيت من رجز للأعبل المعلى : جمرة الأشال ١٥٠

وكتب إليه عمر يسأله عن البحر ، فكتب إليه : خلق عظيم بركبه خلق ضعيف .
دود على عود ، بين غرق ونزق .

وقال لعمان وهو يخطب على المنبر : يا عثمان ، إنك قد ركبت بهذه الأمة نهاية من
الأمر ، وزغت فزاهوا ، فاعتدل أو اعزل .

ومن كلامه : استوحش من الكريم الجائع ، ومن اللئيم الشبمان ؛ فإن الكريم
يصول إذا جاع ، واللئيم يصول إذا شبع .

وقال : يجمع المعر إلى التواني فتتج بينهما الندامة ، ويجمع الجبن إلى الكسل فتتج
بينهما الحرمان .

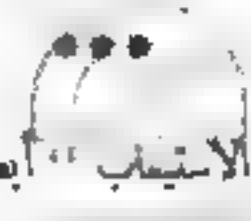


وروى عبد الله بن عباس ، قال : دخلت على عمرو بن العاص وقد احتضر ، فقلت :
يا أبا عبد الله ؛ كنت تقول : أشبهني أني أرى عاقلاً يموت حتى أسأله كيف تجدد ، فإذا تجدد ؟ قال :
أجد السماء كأنها مطيقة على الأرض وأنا بينهما ، وأراي كأنما أنقص من خرق إبرة ، ثم قال :
اللهم حذني حتى ترضى ، ثم رفع يده ، فقال : اللهم أمرت فمصيئنا ، ونهيت فركبتنا ؛ فلا
بري ، فأعذر ، ولا قوى فأنصر ، ولكن لا إله إلا الله ؛ ففعل يرددها حتى فاض .

وقد روى أبو عمر بن عبد البر هذا الخبر في كتاب " الاستيعاب " ، قال : لما حضرت
عمرو بن العاص الوفاة ، قال : اللهم أمرتني فلم أنصر ، وزجرتني فلم أنزجر . ووضع يده في موضع
القل ، ثم قال : اللهم لا قوى فأنصر ؛ ولا بري ، فأعذر ، ولا مستكبر ؛ بل مستغفر ، لا إله
إلا أنت ؛ فلم يرل يرددها حتى مات .

قال أبو عمر : وحدثني حلف بن قاسم ، قال : حدثني الحسن بن رشيق ، قال : حدثنا
الطحاوي ، قال : حدثنا الزبني ، قال : سمعت الثغفي يقول : دخل ابن عباس على عمرو
ابن العاص في مرضه ، فلم عليه ، فقال : كيف أصبحت يا أبا عبد الله ؟ قال : أصبحت وقد
أصلحت من دنياي قليلا ، وأفدت من دمي كثيرا ؛ فلو كان الذي أصلحت هو الذي

أفدت ، والذى أفدت هو الذى أصاحت ، تفرّت . ولو كان ينفعنى أن أطلب طلبت ، ولو كان ينبغي أن أهرب ، هربت فقد صرت كالمختلق بين السماء والأرض ، لا أرق يديّن ، ولا أهبط رجلين ، فمظنى بفضلة أنتفع بها يابن أخى ، فقال ابن عباس : هيهات أبا عبد الله ، صار ابنُ أخيك أخاك ، ولا تشاء أن تبلى إلا بليت^(١) ، كيف يؤمر برحيل من هو مقيم ! فقال عمرو على حينها : من حين ابن بضع ونما بين تقنطنى من رحمة ربي اللهم إن ابن عباس يُقنطنى من رحمتك ، فقدمنى حتى ترضى ! فقال ابن عباس : هيهات أبا عبد الله ! أخذتَ جديدا وتعلمى خلقا ! قال عمرو : مالى ولك يا ابن عباس ! ما أرسل كلمة إلا أرسلتَ هيضها^(٢) .



وروى أبو عمر فى كتابه "الاستيعاب" أبا عن رجال قد ذكروهم وعدّهم أن عمراً لما حضرته الوفاة ، قال له أبوه عبد الله وقد رآه يبكى : لِمَ تبكى ؟ أجزعاً من الموت ! قال : لا والله ، ولكن لما بعده فقال له : لقد كنت على خير ، فجعل يُذكره صحبة رسول الله صلى الله عليه وآله ، وفتوحه بالشام ، فقال له عمرو : تركتَ أفضل من ذلك شهادة أن لا إله إلا الله ، إني كنت على ثلاثة أطباق ، ليس منها طبق إلا عرفتُ نعى فيه ، كنت أولَ أمرى كافراً ، فكنت أشدّ الناس على رسول الله صلى الله عليه ، فلو مت حينئذ وجبتُ لى النار ، فلما بايعت رسول الله صلى الله عليه ، كنت أشدّ الناس حياء منه ، فاملأتُ منه عيني قطّ ، فلو مت يومئذ قال الناس : هنيئاً لعمرو ! أسلم وكان على خير ، ومات على خير أحواله ، فسرحوا له بالحنة ! ثم تلمّستُ بعد ذلك بالسلطان وبأشياء ، فلا أدري

(١) الاستيعاب : « أن تبنى إلا بليت » .

(٢) الاستيعاب ١١٨٩ .

أهل أم لي ! فإذا مت فلا تكفن على باكية ، ولا يتبعني مأخ ، ولا تقربوا من قبري نارا ، وشُدُّوا على إزارى ، فإنى محصم ، وشسوا على التراب شفا ؛ فإن جنبي الأيمن ليس بأحق من جنبي الأيسر ، ولا تجعلوا في قبري حشبة ولا حجرا ، وإذا وارىتموني فاقعدوا عدى قدَّر نحر جرور وتطيعها ؛ أسئاس لكم ^(١)

فإن قلت : فما الذى يقوله أصحابك المنرة في عمرو بن العاص ؟ قلت : إنهم يحكمون على كل من شهد صفين ، بما يحكم به على الباعى الخارج على الإمام العادل ، ومذهبهم في صاحب الكبيرة إذا لم يتب معلوم .

فإن قلت : أليس في هذه الأحبار ما يدل على توبته ؛ بحو قوله : « ولا يستكبر بل يستعقر » وقوله : « اللهم خذنى حتى رضى » ، وقوله : « أمرت فصصيت ، ونهيت فركبت » . وهذا اعتراف ومذم ، وهو معنى التوبة ؟ قلت : إن قوله تعالى : ﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَصَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنْ تَبْتُ الْآنَ ﴾ ^(٢) يمنع من كون هذا توبة ، وشروط التوبة وأركانها معلومة ، وليس هذا الاعتراف والتأسف منها في شيء .

وقال شيخنا أبو عبد الله : أول من قال بالإرجاء الخمر معاوية وعمرو بن العاص ، كانا يزعمان أنه لا يضر مع الإيمان معصية ، وقللت قال معاوية لمن قال له : حاربت من تعلم ، وارتكبت ما تعلم ، فقال : وتحت بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَفْغِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ ^(٣) .

(١) الاستيعاب ١١٩٠

(٢) سورة النساء ١٨ .

(٣) سورة الزمر ٥٣ .

والى هذا المعنى أشار عمرو بقوله لابت : تركت أفضل من ذلك ؛ شهادة أن لا إله إلا الله .

• • •

[فصل فى شرح ما نسب إلى عليّ من الدعاية]

فأما ما كان يقوله عمرو بن العاص فى عليّ عليه السلام لأهل الشام : « إن فيه دعاية » ، يروى أن يعيبه بذلك عندهم ؛ فأصل ذلك كلمة قلها عمر فحققها ، حتى جعلها أعداؤه عيبا له وطمنا عليه

قال أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب فى كتاب " الأمل " :

كان عبدالله بن عباس عند عمر ، فتنفس عمر نفساً عاليا ، قال ابن عباس : حتى ظننت أن أضلعه قد اخرجت ، فقلت له : ما أخرج هذا النفس منك يا أمير المؤمنين إلا هم شديداً . قال : إى والله يا ابن عباس ، إني فكرت فلم أذكر قبس أجعل هذا الأمر سدى . ثم قال : لذلك ترى صاحبك لما أهلا ؟ قلت : وما يملئ من ذلك مع جهاده وسابته وقرابته وعمله ! قال : صدقت ، ولكنه امرؤ فيه دعاية ؛ قلت : فأين أنت من طلعة ؟ قال : هو ذو البأو^(١) بإصبعه المقطوعة . قلت : فمبداً الرحمن ؟ قال : رجل ضعيف لو صار الأمر إليه لوضع خاتمه فى يد امرأته . قلت : فالزير ؟ قال شكس لقيس^(٢) ، يلاطم فى البقيع فى صاع من بر . قلت : فمعد بن أبى وقاص ؟ قال : صاحب مقبس^(٣) وسلاح ؛ قلت : فعمان ، قال : أوه أوه ؛ مرارا . ثم قال : والله لئن وليها ليحملن بنى أبى مغيط على رقاب الناس ، ثم لتنهضن إليه العرب فتقتله . ثم قال : يا ابن عباس ، إنه لا يصلح لهذا الأمر إلا حصيف المقدة ، قليل الغيرة ، لا تأخذه فى الله لومة لائم ؛ يكون شديداً من غير عنف ، ليثا من

(١) البأو : الكبر والعز ؛ وفى اللسان : روى الفقهاء : « فى طلعة بأواء » .

(٢) الشكس : الصعب الخلق ، والقيس السر .

(٣) المقبس : جماعة الجبل .

غير ضعف ، جوادا من غير مَرَف ، مِمِكا من غير وِكَف^(١) . قال ابن عباس : وكانت هذه صفات عمر ، ثم أُقبل على فقال : إن أحرّام أن يحملهم على كتاب ربهم وسنة نبيهم لصاحبك ، والله لئن وليها ليحملهم على المحجة البيضاء والصراط المستقيم .

• • •

واعلم أن الرجل إذا انطلق الخُصوص لا يرى العُضيلة إلا في ذلك الخلق ، ألا ترى أن الرجل يبخل فيمتنع أن الفضيلة في الإمساك والبخل يعيب أهل الشجاع والجود ، وينسبهم إلى التبخير وإضاعة الحرم ، وكذلك الرجل الجواد يعيب البخلاء وينسبهم إلى ضيق النفس وسوء الظن وحُب المال ، والجبان يمتنع أن العُصيلة في الجن وينسب الشعاعة ويمتنع كونها خرقا وتفريرا بالنفس ، كما قال النبي ﷺ

• يرى الجبناء أن الجن حرم •^(٢)

والشجاع يعيب الجبان وينسب إلى الضعف ، ويمتنع أن الجن دل ومهابة وهكذا القول في جميع الأخلاق والصفات المنقسمة بين قوم لإسان . ولما كان عمر شديد الغدلة وعمر الجبان ، حين الملمس دائم العبوس ، كان يمتنع أن ذلك هو العُضيلة وأن خلافه نقص ، ولو كان سهلا طلقا مطبوعا على البشاشة وسماحة الخلق ، لكان يمتنع أن ذاك هو العُضيلة وأن خلافه نقص ، حتى لو قدرنا أن خُفّة حاصل لدى عليه السلام ، وخلق على حاصل له ، فقال في علي : « لولا شراسة فيه » .

فهو غير ملوم عندي فيما قاله ، ولا منسوب إلى أنه أراد الغضب من علي ، والقدح

(١) الوكف : العيب .

(٢) ديوانه ٢٣٩ ونبه :

• وتلك خديعة الطبع اللئيم •

فيه ، ولكنّه أخير عن خلقه ، فلما أن الخلافة لا تصح إلا لشديد الشكيمة ، العظيم الوعورة .
ويعتضى ما كان بظنه من هذا المعنى ، تتم خلافة أى بكر عمّار كنه إياه فى جميع تدابيراته
وسياسته وسائر أحواله ، لرفق ومهولة كانت فى أخلاق أى بكر ، ويعتضى هذا الخلق
المتكّن عنده ، كان بشير على رسول الله صلى الله عليه وآله فى مقامات كثيرة ، وخطوب
متعددة ، يقتل قوم كان يرى قتلهم ، وكانت النبى صلى الله عليه وآله يرى استبقاءهم
واستصلاحهم ، فلم يقتل عليه السلام مشورته على هذا الحق .

وأما إشارته عليه يوم بدر يقتل الأسرى حيث أشار أبو بكر بالفداء ، فكان
الصواب مع عمر ونزل القرآن بموافقة ، فلما كان فى اليوم الثانى وهو يوم الحديبية أشار بالحرب ،
وكره الصلح ، فنزل القرآن بصدّة ذلك ، فليس كلّ وقت يصلح تحريد السيف ، ولا كلّ
وقت يصلح إعماده ، والسياسة لا تجري على مهبّ واحد ولا تلم نظاما واحدا .

وحلة الأمر أنه رضى الله عنه لم يقصد حبس على عليه السلام ، ولا كان عنده مصيّا ،
ولا متقوصّا ؛ ألا ترى أنه قال فى آخر الخبر : « إن أحرّاهم إن وليها أن يحملهم على كتاب الله
وسنة رسوله لصاحبك » ، ثم أكد ذلك بأن قال : « إن وليهم ليعمّنهم على المحنة »^(١) البيضاء
والمراط المستقيم ، فلو كان أطلق تلك اللفظة ، وعنى بها ما حملها عليه الخصوم ، لم يقل فى خاتمة
كلامه ما قاله .

وأنت إذا تأملت حال على عليه السلام فى أيام رسول الله صلى الله عليه وآله ، وجدته
بعيدا عن أن ينسب إلى اللذات والمزاج ، لأنه لم ينقل عنه شىء من ذلك أصلا ؛ لا فى كتب الشيعة
ولا فى كتب المحدثين ، وكذلك إذا تأملت حاله^(٢) فى أيام الخلفيتين أى بكر وعمر ، لم نجد
فى كتب السيرة حديثا واحدا يمكن أن يتعاق به متعاق فى دُعابته ومزاجه ، فكيف يُظن

(١) المحنة : الطريق ؛ والطريق تدكر ونؤث (٢) ج : « حاكه » .

بمعمر أنه نسب إلى أمر لم يتقله عنه ناقل ، ولا ندّد به صديق ولا عدوّ ؛ وإنما أراد سهولة خلقه لا غير ، وظنّ أن ذلك مما يفضى به إلى ضعف إن وليّ أمر الأمة ، لا اعتقاده أن قوام هذا الأمر إنما هو بالوعورة ، شاء على ما قد ألفت نفسه ، وطبعت عليه سجيته ، والحال في أيام عثمان ، وأيام ولايته عليه السلام لأمر كالحال فيما تقدم ، في أنه لم يظهر منه دُعابة ، ولا مُزاح يسمّى الإنسان لأجله ذا دُعابة ولعب . ومن تأمل كتب التّيسير عرف صدق هذا القول ، وعرف أن عمرو بن العاص أخذ كلمة عمر إذ لم يقصد بها العيب فحملها عيباً ، وزاد عليها أنه كثير اللعب ، بما في النساء ويمارسهن ، وأنه صاحب هزل .

ولعمرك الله لقد كان أمدّ الناس من ذلك ، وأتى وقت كان يتبع لعلّ عليه السلام حق يكون فيه على هذه الصفات ؟ فإن أرمائه كلّها في العبادة والصلاة ، والذكر والفتاوى والعلم ، واحتلاف الناس إليه في الأحكام وتفسير القرآن ، ونهاره كلّهُ أو معظمه مشغول بالصوم ، وليله كلّهُ أو معظمه مشغول بالصلاة . هذا في أيام سيّده ، فأما أيام حربه فيالسيف الشهير ، والسفان الطرير^(١) ، وركوب الخيل ، وقود الجيش ، ومداشرة الحروب .

ولقد صدق عليه السلام في قوله : « إني لينسى من الله ذكرُ اللوت » ، ولكن الرجل الشريف النبيل ، الذي لا يستطيع أعداؤه أن يذكروا له عيباً أو يعدّوا عليه وصمة ، لا بدّ أن يحتالوا ويبدلوا جهدهم في تحصيل أمر ما وإن صعب ، يحملونه عذراً لأنفسهم في ذمّه ، ويتوسّلون به إلى أتباعهم في تحصيلهم لم مفارقه ، والاعراف عنه ، وما زال المشركون والمنافقون يصنّمون رسول الله صلى الله عليه وآله الموضوعات ، يسبون إليه ما قد برأه الله عنه من الميوب والمطعن ، في حياته وبعد وفاته إلى زماننا هذا ، وما يزيدُ الله سبحانه إلا رضة وعلواً ، فقيرٌ منكر أن يعيب عليّاً عليه السلام عمرو بن العاص وأمثاله من أعدائه ، بما إذا تأمله للتأمل ، علم أنهم باعتمادهم عليه وتمسّكهم به ، قد اجتهدوا

(١) سفان طرير : أي عدد .

في مدحه والثناء عليه ، لأنهم لو وجدوا غيرها غير ذلك لذكروه ، ولو بالغ أمير المؤمنين وبذل جهده في أن يُبنى أعداؤه وشائثوه عليه من حيث لا يطمون ، لم يستطع إلى أن يبعد إلى ذلك طريقاً لطف من هذه الطريق التي أسلكهم الله تعالى فيها ، وهداهم إلى منهاجها ، فظنوا أنهم يفضون منه ؛ وإنما أعلنوا شأنه ، وبصعقوا من قدره ، وإنما رفعوا منزلته ومكانته .

[أقوال وحكايات في المزاح]

ومن نذكر من بعد ، ما جاء في الأحاديث الصحاح والآثار المستفيضة ، المتفق على نقلها مزاح رسول الله صلى الله عليه وآله ، ومزاح الأشراف والأفاضل والأكابر من أصحابه والتابعين له ، ليُعلم أن المزاح إذا لم يخرج عن القاعدة الشرعية لم يكن قبيحاً . فأول ذلك ما رواه الناس قاطبة أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : « يا أمزح ، ولا أقول إلا حقاً »

وقيل لسفيان الثوري : للمزاح حجة ؟ فقال : بل هو سنة ، لقول رسول الله صلى الله عليه وآله : « يا أمزح ولا أقول إلا الحق »

وجاء في الخبر أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال لامرأة من الأنصار : « الحق زوجك فإن في عينه بياصاً » ، فسعت نحوه مرعوبة ، فقال لها : ماذا ؟ فأخبرته ، فقال : نعم إن في عيني بياصاً لا لسوء ، فخصص عليك . فهذا من مزاح رسول الله صلى الله عليه وآله .

وأنت مجوز من الأنصار إليه عليه السلام ، فسألته أن يدعو الله تعالى لها بالجنة ، فقال : « إن الجنة لا تدخلها العجوز » فصاحت ، فبسم عليه السلام ، فقال : « يا أنثاء ما هن أنثاء ، فعملن ما هن أبكاراً »^(١) .

وفي الخبر أيضا : أن امرأة استعملته ، فقال : « إنا حاملوك إن شاء الله تعالى على ولد الناقة » ، فعلت تقول : يا رسول الله : وما أصنع بولد الناقة ؟ وهل يستطيع أن يحملي ؟ وهو يتسم ويقول : « لأحملك إلا عيه » ، حتى قال لها خيرا : « وهل يلد إلا بل إلا النوق » ! وفي الخبر أنه عليه السلام مرّ ببلال وهو نائم فضربه برجله ، وقال : أمانة أم عمرو ؟ فقام بلال مرعوبا ، ف ضرب يده إلى مذاكيره ، فقال له : ما مالك ؟ قال : ظننت أني تموت امرأة . قيل : فلم يمزح رسول الله بعد هذه .

وفي الخبر أيضا أن نمرًا^(١) كان لصبي من صبيان الأنصار ، فطار من يده ، فبكى العلام ، فكان رسول الله صلى الله عليه وآله يمرّ به فيقول : « يا أبا عمير ، ما فعل النّخبر » ؟ والعلام يبكي .

وكان يمازح ابنه بنته مزايا مشهورا ، وكان يأخذ الحسين عليه السلام ، فيعمله على طعنه ، وهو عليه السلام نائم على ظهره . ويقول له : « خُرْخُرَةٌ خُرْخُرَةٌ ، تَرَقَّ عَيْنُ بَقَّةٍ »^(٢) . وفي الحديث الصحيح المتفق عليه : أنه مرّ على أصحاب الدّرّكة وهم يلعبون ويرقصون ، فقال : « سِدُّوا بَابِي أَرْفَدَةً » ، حتى يعلم اليهود والنصارى أن في ديننا فسحة . قال أهل اللغة : الدّرّكة ، بكسر الهمزة والفتح : لعبة للعبس فيها رقص . وبنو أَرْفَدَةَ : جنس من الحبش يرقصون .

وجاء في الخبر أنه سابق عائشة فسبته ، ثم ساقها فسبها فقال : هذه بنتك . وفي الخبر أيضا أن أصحاب زقافة وهم الرافضون ، كانوا يسمّون^(٣) باب حجرة عائشة ، فتخرج إليهم مستمعة ومبصرة ، فيخرج هو عليه السلام من وراءها مستترا بها . وكان نعيان^(٤) ، وهو من أهل بدر ، أزعج الناس بالمزاح عند رسول الله صلى الله عليه

(١) النمر : صغار الصائير . وانظر اللسان .

(٢) الخُرْخُرَةُ : الضجيج الذي يثار بخلطه من صعب . وعن نسخة كناية عن صراويل . وانظر اللسان ١١ : ٣٣٠ .

(٣) يسمّون : يصرون . (٤) هو نعيان بن عمرو بن ربيعة بن الحارث ؟ كذا فيه وترجم له

وفذكر طائفة من أخاره في الإصابة ٤ : ٥٤٠ .

وكان يكثر الضحك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « يدخل الجنة وهو يضحك » .

وخرج نسيان هو وسويط بن عبد العزيز^(١) وأبو بكر الصديق ، في تجارة قبل وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله بعامين ، وكان سويط على الزاد ، فكان نسيان يستطعمه فيقول : حق يحيى . أبو بكر : فركب من تجران ، فباعه نسيان منهم على أنه عبده بعشر قلائص ، وقال لهم : إنه ذو لسان ولهجة ، وعساه يقول لكم : أما حر ؟ فقالوا : لا عليك . وجاءوا إليه فوضوا حماته في عنقه ، وذهبوا به ، فلما جاء أبو بكر أخبر بذلك ، فردوه وأعاد القلائص إليهم . فضحك رسول الله صلى الله عليه وآله وأصحابه من ذلك سنة^(٢) .

وروى أن أعرابياً باع نسيان هكّة^(٣) عمل ، فاشترها منه ، فجاء بها إلى بيت عائشة في يومها وقال : خذوها ، فظن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه أهداها إليه ، ومضى نسيان ، فنزل الأعرابي على الباب ، فقال طال قمود نادى : يا هؤلاء ، إما أن تعطوا ثمن العسل أو تردوه علينا ، فلم يردوه ، فلم يرد رسول الله صلى الله عليه وآله بالقصة ، وأعطى الأعرابي الثمن ، وقال لنسيان : ما حملك على ما فعلت ؟ قال : رأيته يارسول الله ! يحب العسل ، ورأيت الهكّة مع الأعرابي . فضحك رسول الله صلى الله عليه وآله ولم ينكر عليه .

وسئل النخعي : هل كان أصحاب رسول الله يضحكون ويمزحون ؟ فقال : نعم والإيمان في قلوبهم مثل الجبال الرواسي .

وجاء في الخبر أن يحيى عليه السلام لقي عيسى عليه السلام ، وعيسى متبسّم ، فقال يحيى عليه السلام : مالي أراك لا هيأ كأنك آمن ! فقال عليه السلام : مالي أراك هاباً

(١) في الإصابة ٧ : ٩٦ ، ٩٧ : « سويط بن حرمة ، قال : ذكره موسى بن عتبة وابن إسحاق وعروة فيمن هاجر إلى الحبشة » .
(٢) الخبر في الإصابة ٢ : ٩٧ .

(٣) الهكّة : زق السم أو الصل .

کأنک آیس ؟ قال : لا نبرح حتی یُنزل علینا الوحی ، فأوحی الله إليهما : أحببكما إلى الطلق
البیتام ، أحسنكما خلقاً بی .

وروی عن کبراء الصحابة رضی الله تعالی عنہم أنهم كانوا یجازحون ویبتاشدون
الأشعار ، فإذا خاضوا فی الدین ، انقلبت حالیقهم ، وصاروا فی صور أخرى .

وروی أن عبد الله بن عمر قال لجاریته : خلقنی خالق الخیر ، وخلقک خالق الشر .
فہکت ، فقال : لا علیک ، فإن الله تعالی هو خالق الخیر وهو خالق الشر .
قلت : یعنی بالشر للرض والعلاء ونحوهما .

وكان ابن سیرین ینشد :

بُذِئتُ أن فشاء کنتُ أحطُّها ^(۱)
 ثم بصحك حتی یسبل لعابه .

وجاء عبد الرحمن بن عوف إلى باب عمر بن الخطاب ، فوجدہ مستلقیا علی مِرْقَةٍ له ،
رافعاً إحدى رجلیه علی الأخری ، منشداً بصوت عال :

وكیف ثَوَّائی بالمدينة بعدما قَصَّی وطراً منها جمیلُ بن معمرٍ ا
فلما دخل عبد الرحمن وحاس ، قال : یا أبا عبد ، إنا إذا خلونا قلناً كما یقول الناس .
وكان سعید بن السَّیِّب ینشد :

لقد أصبحتُ عِزُّس الفرزدق جامعاً ولو رصبت رَمَح استه لاستفرت ^(۲)
ویضعک حتی یستفرق .

وكان یقال : لا نأس بقلیل المزاح یخرج منه الرجل عن حدِّ العبوس .

(۱) زهر الآداب ۱۶۵ ، من عبر ۱۵۰ .

(۲) الجریر ، دیوانه ۸۸ .

ومن كلام بعض الأدباء : ونحن نحمد الله إليك، فإن عقدة الإسلام في قلوبنا صحيحة، وأوانيه عندنا ثابتة، وقد اجتهد قوم أن يدخلوا قلوبنا من مرض قلوبهم، وأن يشوبوا يقيننا بشكهم، فقصم الله منهم، وحال توفيقهم دوسهم، ولنا بمد مذهب في الدعاة جميل، لا يشوبه أذى ولا قذى، يخرج بنا إلى الأنس من العُيُوس، وإلى الاسترسال من القُطُوب، ويلحقنا بأحرار الناس الذين ارتفعوا عن ألبة الرياء، وأنفوا من التشوف بالتصنع.

وقال ابن جرير : سألت عطاء عن القراءة على الخان المناء والحداء، فقال لي : لا بأس بذلك؛ حدثني عبيد الله بن عمر البني، أنه كان لداود النبي عليه السلام مِرْقَةٌ، قد يضرب بها إذا قرأ الزبور، فتصنع إليه الطير والوحش، فيمضي ويُسكى مَنْ حوله.

وقال جابر بن عبد الله الجعفي لداود أبي الشعمي يقول غلياط يمازحه : عندنا حُبٌ مكسور وأحب أن نخطه ! فقال غلياط : أحضر لي خيوطاً من ربيع لأحيطه لك.

وسئل الشعبي : هل يجوز أن يؤكل الحنظل لو ظفربه ؟ فقال : ليقنا نخرج منه كغافاً^(١) لا لنا ولا علينا.

وسأل إنسان محمد بن سيرين عن هشام بن حسان، فقال : توفي البارحة، أما شرعت ؟ فخرج يسترجع، فلما رأى ابن سيرين جزعته، قرأ : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾^(٢).

وكان زيد بن ثابت من أفكهِ الناس في بيته وأرقهم، وقد أباح الله تعالى الرِّفَثَ إلى النساء، فقال : ﴿ أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِيَابِسٌ لَكُمْ

(١) الكفاف : التل.

(٢) سورة الزمر ٤٢.

وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ»^(١). وقال أهلُ الامة : الرِّقَّةُ : القول للفاحش تحاطب به المرأة حال الجماع .

ومر بالشعبي حمال على ظهره دَنَ خَلٍ ، فوضع الدَّنَ وقال له : ما كان اسم امرأة إبليس ؟ فقال الشعبي : ذلك نكاح ماشهذناه .

وقال عكرمة : حَتَنُ ابْنِ عباس بنيه فأرسلني ، فدصوت المأين فليهبوا ، فأعطاهم أربعة دراهم .

وتقدم رجلان إلى شريح في خصومة ، فأقر أحدهما بما ادَّعى عليه وهو لا يدري ، فقضى شريح عليه ، فقال : أصلحك الله أنقض على بَيْرِيسَة ؟ قال : بلى ، شهد عندي ثقة . قال : ومن هو ؟ قال : ابنُ أخت خالك .

وجاء في الخبر أن النبي صلى الله عليه وآله مرَّ بصُيُوب وهو أرمد يأكل تمرًا ، فبهاه ، فقال : إنا آكله عن جانب المين للصَّبيحة بأمر رسول الله ، فضعك منه ولم يذكر عليه . وفي الخبر أنه صلى الله عليه وآله مرَّ بحسان بن ثابت ، وقد رش^(٢) أطماره ، وعنده جارية تغنيه :

هل على ويحكما إن نفوت من حرج

فقال صلى الله عليه وآله : « لا حرج إن شاء الله » .

وقيل : إن عبد الله بن جعفر قال لحسان بن ثابت في أيام معاوية : لو غنيتك فلانة جاريتي صوت كذا لم تدرك ركابك ، فقال : يا أبا جعفر ، ﴿ فَكُلُّوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ »^(٣) .

(١) سورة البقرة ١٨٧ .

(٢) رش أطماره : غلبها

(٣) سورة الحج .

وقال أسلم مولى عمر بن الخطاب : مرّ بي عمر وأنا وعاصم نفّث غناء النّصّب^(١) ، فوقف وقال : أعيذا عليّ ، فأعدما عليه ، وقبلا : أيا أحسن صنعة يا أمير المؤمنين ؟ فقال : مثلكما كعجاري العبادي ، قبل له : أيّ حاربك شرّ ؟ فقال : هذا ثمّ هذا . فقلت : يا أمير المؤمنين ، أما الأول من الحارين ؟ فقال : أنت الثاني منها .

ومرّ نعيان وهو بدريّ محرّمة بن نوفل في خلافة عثمان ، وقد كفت نصره ، فقال : ألا يفودني رجل حتّى أبول ؟ فأخذ نعيان بيده حتّى صار به إلى مؤخر المسجد ، وقال : ها هنا قبل ، قال ، فصاح به الناس ، فقل : من قادني ؟ قيل : نعيان ، قال : لله عليّ أن أضرب به مصاي هذه . فبلغ نعيان فأتاه ، فقال : بلمى أمك أنست لتصرين نعيان فهل لك فيه ؟ قال : نعم . قال : قم ، فقام معه حتّى ورائي به عثمان بن عفان وهو يصلي ، فقال : دولك الرجل ، لجمع محرّمة يديه في العصى وصريحها ، فصاح الناس : ويلك ، أمير المؤمنين ! قال : من قادني ؟ قالوا : نعيان . قال : وما لي ونعيان ؟ لا أعرض له أبدا !

وكان طوبس يتعلّى في عرس ، فدخل النعمان بن بشير الأنصاري العرس وطوبس بهيهم :

أجدّ نَمْرَةَ هجرانها وتخطّ أم شائنا شائها^(٢)

فأشاروا إليه بالسكوت ، فقال النعمان : دعوه إنه لم يقل بأسا ، إنما قال :

وعمره من سروات الدماء تنفخ بالملك أزدائها

وعمره هذه أمّ النعمان ؛ وفيها قيل هذا السبب .

وقد روى عن جماعة من الصعابة والندمين العرب بأنّهم والشّطرنج ، ومنهم من روى عنهم شرب النّبيذ وسماع الغناء المطرب .

(١) النّصّب : غناء يشبه المداء ؛ إلا أنّه أرقى .

(٢) البتآن لقيس بن الخطيم ، ديوانه ٧ ، ٨ .

فأما أمير المؤمنين علي عليه السلام ، فإذا نظرت إلى كتب الحديث والسيرة ، لم تجد أحداً من خلق الله عدواً ولا صديقاً ، روى عنه شيئاً من هذا العن ؛ لا قولاً ولا فعلاً ، ولم يكن جِدّاً أعظم من جِدِّه ، ولا وقاراً أتم من وقاره ، وما هرل قط ولا لب ، ولا فارق الحق والناموس الدين سرّاً ولا جهرّاً ؛ وكيف يكون هازلاً ومن كلامه للشهور عنه : « مامزح امرؤ مزحة إلا ومعجّمها من عقله تحة »^(١) ولكنه خلق على سحابة لطيفة ، وأحلاق سهلة ، ووجه طليق ، وقول حسن ، ويشرطاهر ، وذلك من فضائله عليه السلام ، وخصائصه التي منعه الله بشرفها ، واختصه بمزيتها ، وإنما كانت خلقته وقطائفه فعلاً لا قولاً ، وضرباً بالسيف لا جَبّاً بالقول ، وطعناً باللسان لا عَصاً بالسان^(٢) ؛ كما قال الشاعر :

ونفّه أيديها ويحلم رأبنا ونتمّ بالأفعال ، لا بالأكلم



[نبذ وأقوال في حسن الخلق ومداحه]

فأما سوء الخلق فلم يكن من سجاءه ، فقد قال النبي صلى الله عليه وآله : « خصلتان لا يجتمعان في مؤمن : البخل وسوء الخلق » . وقال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وآله : « وَإِنَّكَ لَمَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ »^(٣) ، وقال أيضاً : « وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ »^(٤) .

وقيل لرسول الله صلى الله عليه وآله : ما الشؤم ! فقال : سوء الخلق . وصحب جابر رجلاً في طريق مكة ، فأذاه سوء خلقه ، فقال جابر : إني لأرجمه ، نحن نفارقه ويبقى معه سوء خلقه !

(١) يقال : جيت فلاناً ؛ إذا خاطبته بما يكره . والنضه : الرمي بالكذب والبهتان

(٢) سورة الفلم ٤

(٣) سورة آل عمران ١٥٩

وقيل لعبد الله بن جعفر : كيف تجاورُ بني زُهرة وفي أخلاقهم زَعارة ^(١) ؟ قال : لا يكون لي قبلهم شيء ، إلا تركته ، ولا يطلبون مني شيئاً إلا أعطيتهم .

وفي الحديث للرفوع أنه صلى الله عليه وآله قال : « ألا أنبئكم بشرَ الناس ؟ » قالوا : بلى .
بارسول الله ، قال : « مَنْ نَزَلَ وَحْدَهُ ، وَمَنَعَ رِفْدَهُ ، وَضَرَبَ عَبْدَهُ » ، ثم قال : « ألا أنبئكم بشرَ من ذلك ؟ » قالوا : بلى ، قال : « مَنْ لَمْ يُقِلْ عَثْرَةً ، وَلَا يَقْبَلْ مَعْذِرَةً » .

وقال إبراهيم بن عباس الصولي : لو وزنت كلمة رسول الله صلى الله عليه وآله بمحاسن الخلق كلها لرجعت ، قوله : « إنكم لن تسموا ^(٢) الناس بأموالكم فسموهم بأخلاقكم » .
وفي الخبر للرفوع : « حَسَنَ الْخَلْقِ زَمَامٌ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ فِي أَنْفِ صَاحِبِهِ ، وَالزَّمَامُ بِيَدِ الْمَلِكِ ، وَالْمَلِكُ يَحْمِلُهُ إِلَى الْخَيْرِ ، وَالْخَيْرُ يَحْمِلُهُ إِلَى الْجَنَّةِ ؛ وَسُوءُ الْخَلْقِ زَمَامٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ فِي أَنْفِ صَاحِبِهِ ، وَالزَّمَامُ بِيَدِ الشَّيْطَانِ ، وَالشَّيْطَانُ يَحْمِلُهُ إِلَى الشَّرِّ ، وَالشَّرُّ يَحْمِلُهُ إِلَى النَّارِ » .

وروى الحسن بن علي عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله : « إِنْ الرَّجُلُ يَدْرِكُ بِحَسَنِ خَلْقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ ، وَإِنَّهُ لَيَسْكُنُ جَبَاراً وَلَا يَمْلِكُ إِلَّا أَهْلَهُ » .

وروى أبو موسى الأشعري ، قال : بينا رسول الله صلى الله عليه وآله يمشي وامرأة بين يديه ، فقلت : الطريقَ لرسول الله صلى الله عليه ! فقالت : « الطريقَ معروض ! » إن شاء أحد يمينا وإن شاء أخذ شمالا . فقال صلى الله عليه وآله : « دعوها فإنها جبارة ^(٣) » .
وقال بعض السلف : الحسنُ الخلقُ ذو قرابة عند الأجانب ، والسيئُ الخلقُ أجنبيٌّ عند أهله .

ومن كلام الأحنف : ألا أخبركم بأدواء الداء ! الخلقُ السيِّئُ ، والكفُّ من القبيح . ألا أخبركم بأدواء الداء ! الخلقُ السيِّئُ ، واللسانُ البذيء .

(١) الزعارة ، ولشد الزاء : شراسة الخلق .

(٢) في الأصول : « لن تسموا » تصحيف ! ولعل الحديث في الجامع الصغير ١ : ١٧٥ : « إنكم لا تسمون الناس بأموالكم ، ولكن ليسمهم منكم بسط لوجه وحسن الخلق » .

(٣) جبارة ، أي متكبرة عاتية . وانظر النهاية ١ : ١٤٧ .

وفي الحديث الرفوع : « أول ما يوضع في الميزان المثلق الحسن » .
وجاء مرفوعاً أيضاً : « المؤمن حين تين كالجبل الأنيب^(١) ؛ إن قيد انقاد ، وإن أنيخ
على ضخرة استناخ » .

وجاء مرفوعاً أيضاً : « ألا أخبركم بأحكم إلى وأقربكم مني مجالس يوم القيامة ؟
أحاسنكم أحلاقاً ، للوطينون أكنافاً ، الذين يأتون ويؤلقون . ألا أخبركم بأبغضكم إلى
وأبعدكم مني مجالس يوم القيامة : الثرثارون المتفهبون » .

أبو رجاء الطاردي : من سره أن يكون مؤمناً حقاً ، فليكن أدل من قعود ؛ كل
من مر به ادعاه .

فضيل بن عياض : لأن يصحبني فاجر حسن الخلق ، أحب إلي من أن يصحبني
عابد سيئ الخلق ، لأن الفاسق إذا حسن خلقه خفف على الناس وأحبوه ، والمابد إذا ساء
خلقته ، ثقل على الناس ومقتوه .

دخل فرقد ومحمد بن واسع على رجل يسوداه ، فعرى ذكر العنف والرفق ، فروي
فرقد عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قيل له : هل من حُرمت النار يا رسول الله ؟
قال : « على المئين التين السهل القريب » ؛ فلم يجد محمد بن واسع يباحاً يكتب ذلك فيه ،
فكتبه على ساقه .

عبد الله بن الداراني : ما ضرب عبد بمقوبة أعظم من قسوة القلب .
عائشة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا أراد الله بأهل بيت خيراً أدخل
عليهم باب رفق » .

ومنها ، عن صلى الله عليه وآله : « من أعطى حظه من الرفق أعطى حظه من خير
الدنيا والآخرة » .

(١) يريد سهل القادة ؛ وأصله أن المبر إذا اشتكى من البرة توسع في أنه يقال له : ببر أنت .

جرير بن عبد الله البجلي رفعه « إن الله يعطي على الرفق ما لا يعطي على الخرق ، فإذا أحب الله عبدا أعطاه الرفق » . وكان يقال : « ما دخل الرفق في شيء إلا زانه » . أبو عون الأنصاري : ما تكلم الإنسان بكلمة عفيفة إلا وإلى جانبها كلمة ألين منها تجري مجراها .

سئلت عائشة عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله ، قالت : كان خلقه القرآن : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ^(١) ﴾ . وسئل ابن المبارك عن حسن الخلق ، قال : ينط الوجه ، وكف الأذى ، وبذل الندى .

ابن عباس : إن الخلق الحسن يذيب الخطايا كما تذيب الشمس الجليد ، وإن الخلق السيئ يفسد العمل ، كما يفسد الخل العسل .
عليه السلام : ما من شيء في البراء أثقل من خلق حسن .
وعنه عليه السلام : عنوان صيغة المؤمنين حسن خلقه .
وعنه عليه السلام مرفوعاً : عليكم بحسن الخلق ؛ فإنه في الجنة ، وإياكم وسوء الخلق فإنه في النار .

قال للنصور لأخيه أبي العباس في بني حسن لما أزمعوا الخروج عليه : آتسهم يا أمير المؤمنين بالإحسان ، فإن استوحشوا فالشر يصلح ما يعجز عنه الخير ، ولا تدع محمداً يمرح في أحنه المقوق . قال أبو العباس : يا أبا جعفر ! إنه من شدد نقر ، ومن لان أنف ، والتخافل من سعايا الكرام .

[فصل في ذكر أسباب النظفة والفظاظة]

ونحن نذكر بعد كلاماً كلياً في سبب النظفة والفظاظة ، وهو الخلق المنافق للخلق الذي كان عليه أمير المؤمنين ، فنقول :

إنه قد يكون لأمر عائد إلى الزاج الجسماني ، وقد يكون لأمر راجع إلى النفس :
 فأما الأول ؛ فإنما يكون من غلبة الأخلاط السوداء وترتددها ، وعدم صفاء الدم وكثرة
 كدرة وعكرته ، فإذا غلظ الدم ونخن عظم الروح النفساني ونخن أيضا ، لأنه متولدة
 من الدم ، فيحدث منه نوع مما يحدث لأصحاب المِطْرة ، من الاستيحاش والتبوء عن الناس
 وعدم الاستئناس والبشاشة ، وصار صاحبه ذاجفء وأحلاق عليقة ، ويشبه أن يكون هذا
 سببا ماديا ، فإن الذي يقوى في نفس أن النفوس إن صححت وثبتت مختلفة بالذات .
 وأما الراجع إلى النفس فإن مجتمع عنده أسقاط وأنصباء من قوى مختلفة مذمومة ،
 نحو أن تكون القوة الفضية عندها متوافرة ، ويتضاف إليها تصور الكمال في ذاتها وتوم
 النقصان في غيرها ، فيمتد أن حركات غير واقعة على غير الصواب ، وأن الصواب ماثوم .
 ويتضاف إلى ذلك أدب النفس (عدم الضبط) كما واستحقارها للمير ؛ وبقل التوقير له ،
 ويتضاف إلى ذلك لجأج ، وضيق في النفس ، وحدة واستشاعة وقلة صبر عليه ، فيتولد من
 مجموع هذه الأمور خلق دني ؛ وهو الملاحظة والمظالمة ، والوعورة والبادرة المكروهة ، وعدم
 حبة الناس ، ولقاؤهم بالأذى ، وقلة لمراقبة لهم ، واستعمال القهر في جميع الأمور ، وتناول الأمر
 من السماء ؛ وهو قادر على أن يتناول من الأرض .

وهذا الخلق خارج من الاعتدال ، وداحل في حيز الجور ؛ ولا ينبغي أن يسمى بأسماء
 المدح ، وأعني بذلك أن قوماً يستنون هذا النوع من العنف والخلق الوعر جولية ، وشدة
 وشكينة ، ويذهبون به مذهب قوة النفس وشعاعتها ؛ الذي هو بالحقيقة مدح وشتان بين
 الخلقين ، فإن صاحب هذا الخلق الذي ذمناه تصدر عنه أفعال كثيرة يحور فيها على نفسه ثم
 على إخوانه ؛ على الأقرب فالأقرب من معاملته ، حتى ينتهي إلى عبده وحرمة ؛ فيكون عليهم
 سوط عذاب ، لا يقبلهم هنة ، ولا يرحم لهم عثرة ، وإن كانوا برآء الذنوب ، غير
 مجرمين ولا مكشيين سوء ، بل مجرم عليهم ، وسبب من أدنى سبب يجد به طريقا إليهم ،

حتى يبسط يده ولسانه ، وهم لا يمتنعون منه ، ولا يتعاسرون على رده عن أنفسهم ، بل يُذعنون له ويقرؤون بذنوب لم يقرئوها ؛ استكفاً لماديتهم وتسكيناً لنفسيه ، وهو في ذلك يستمر على طريقته لا يكفّ بداً ولا لساناً .

وأصل هذا الخلق الذي ذكرناه أنه مركب من قوى مختلفة من شدة القوة العصبية ، فهي الحاملة لصاحب هذا الخلق على ما يصدر عنه من البادرة للسكرورة والجنه والقحة ؛ وقد رأينا وشاهدنا من تشدد القوة العصبية فيه ، فيتجاوز العصب على نوع الإنسان إلى الهائم التي لا تقبل ، وإلى الأواى التي لا تحس ، وربما قام إلى الحمار وإلى البرذون فصريرهما ولكمهما ، وربما كسر الآية لشدة عصبه ، وربما عصى القفل إذا تمسرع عليه ، وربما كسر القلم إذا تعلق به شعرة من الدواة واجتهد في إزالتها فلم تزل .

ويمكن عن بعض ملوك اليونان المتقدمين ؛ أنه كان يعصب على البحر إذا هاج واضطرب ، وتأخرت سفينه عن النفوذ فيه ؛ فيقسم بعبوديه ليطمئنه وليطرحن الجبال فيه حتى يصير أرضاً ، ويقف بنفسه على البحر ، ويهدده بذلك ، ويذجره زجراً عنيفاً ، حتى تدر أوداجه وبشتد احمرار وجهه ؛ ومهم من لا يسكن غضبه حتى يصب عليه ماء بارد أو حتى يبول ؛ ولهذا ورد في الشريعة ، الأمر لمن اشتد غضبه أن يتوضأ للصلاة ويصلي .

وكان عمر بن الخطاب إذا غضب على واحد من أهله لا يسكن غضبه ؛ حتى يعض يده عضاً شديداً حتى يدميها .



وذكر الزبير بن بكار في " اللوفيات " أن سرية جاءت لعبد الرحمن أو لعبيد الله

ابن عمر بن الخطاب إليه تشكوه فقالت : يا أمير المؤمنين ، ألا تمذرنى من أبى عيسى ؟ قال : ومن أبى عيسى ؟ قالت : أبى عبيد الله ، قال : ويحك ! وقد شكيت أبى عيسى ! ثم دعاه فقال : إيهما اكتنيت أبى عيسى ! غدر وبيع ، وأخذ يده فمضها ! ثم ضربه ، وقال : ويحك ! وهل لعيسى أب ؟ أندري ما كنتى العرب ! أو سلمة ، أبو حنظلة ، أو عرفطة أبو مرة ...

قال الزبير : وكان عمر إذا غصب على بعض أهله لم يكن غضبه حتى يعض يده عضاً شديداً . وكان عبد الله بن الزبير كذلك ، ولقوة هذا الخلق عنده أصم عبد الله بن عباس في خلافته إبطال القول بالمول^(١) وأظهره عنده ، فقيل له : هلا قلت هذا في أيام عمر ! فقال : هنته ، وكان أميراً مهيئاً .

وقلت قال أيضاً أبو سفيان في الاستيعاف زباد : أحاف من هذا العير الجالس أن يحرق على إهابي ؛ فإذا هابه أبو سفيان ، وهو من سى عند مناب في اللزلة التي تعلم ، وحوله بنو عبد شمس ، وهم جرة قريش ، فما ظنك بمن هو دونه !

وقد علمت حال جيلة بن الأيهم ورتدادهم عن الإسلام تهدده له ووعيده إياه أن يضربه بالدرّة ، وفساد الحال بينه وبين خالد بن الوليد بعد أن كان ولياً مضافاً ، ومنصرفاً عن غيره قالوا ، والشأن الذي كان بينه وبين طلحة حتى هم أن يوقع به ، وحتى هم طلحة أن يباهرهم ، وطلحة هو الذي قال لأبي بكر عند موته : ماذا تقول لربك وقد وثيت فينا فظاً غليظاً ! وهو القائل له : يا خليفة رسول الله ! إما كنّا لانتحل شراسته وأنت حتى تأخذ على يديه ، فكيف يكون حالنا معه وأنت ميت وهو الخليفة !

واعلم أنا لا نريد بهذا القول ذمّ رضى الله عنه ؛ وكيف نذمه وهو أولى الناس بالمدح

(١) العول : ارتفاع الحساب في القرائن . انظر اللسان .

والتعظيم ! لِيُؤْمِنَ شيعته وبركة خلافة ، وكثرة الفتوح في أيامه ، وانتظام أمور الإسلام على يده أولئكنا أردنا أن نشرح حال العنف والرفق ، وحال سعة الخلق وضيقه ، وحال البشاشة والمبوس ، وحال الطلاقة والوعورة ، فنذكر كل واحد منها ذكرًا كليًا ، لا يخص به إنسانا بعينه . فأما عمر فإنه وإن كان وهو أشد بدا حسنا ، فقد رزق من التوفيق والمنايا الإلهية ونُجِّح للمساعي ، وطاعة الرعية ونفوذ الحكم ، وقوة الدين وحسن الية وصحة الرأي ، ما يرى بحاسنه ومحامده على ما في ذلك الخلق من نقص ، وليس الكامل المطلق إلا الله تعالى وحده .
فأما حديث الرصيفة وما جعل معاوية لعمر بن العاص من جمالة على مبايعته ونصرته ، فقد تقدم ذكره في أخبار صعبين المشروحة في هذا الكتاب من قبل .

(٨٤)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، الْأَوَّلُ لَا شَيْءَ قَبْلَهُ ، وَالْآخِرُ لَا غَايَةَ لَهُ ، لَا تَقَعُ الْأَوْهَامُ لَهُ عَلَى صِفَةٍ ، وَلَا تُعْقَدُ الْقُلُوبُ مِنْهُ عَلَى كَيْفِيَةٍ ؛ وَلَا تَنَالُهُ التَّخَرُّتُ وَالْتَبَعِيَّةُ ، وَلَا تُحِيطُ بِهِ الْأَنْصَارُ وَالْقُلُوبُ .

الشرح

في هذا الفصل على قصره ثمان مسائل من مسائل التوحيد :
الأولى : أنه لا ثاني له سبحانه في الإلهية .

والثانية : أنه قديم لا أول له . فإن قلت : ليس بديل كلامه على القدم ، لأنه قال : «الأول لا شيء» قبله « فيوهم كونه غير قديم بأن يكون محدثا وليس قبله شيء » ، لأنه محدث عن عدم والعدم ليس بشيء ! قلت : إذا كان محدثا كان له محدث ؛ فكان ذلك الحدث قبله ، فثبت أنه متى صدق أنه ليس شيء قبله صدق كونه قديما .

والثالثة : أنه أبدى لا انتهاء ولا انقضاء لقائه .

والرابعة : نفي للصفات عنه - أعني للعاني .

والخامسة : نفي كونه مكيفا ؛ لأن كيف إنما يُسأل بها عن ذوى الهيئات والأشكال وهو منزّه عنها .

والسادسة : أنه غير متبعض لأنه ليس بجسم ولا عرض .

والسابعة : أنه لا يرى ولا يترك.

والثامنة : أن ماهيته غير معلومة ، وهو مذهب الحكماء وكثير من المتكلمين من أصعابنا وغيرهم .

وأدلة هذه المسائل مشروحة في كتبنا الكلامية .

واعلم أن التوحيد والعدل والمباحث الشريفة الإلهية ، ما عرفت إلا من كلام هذا الرجل ، وأن كلام غيره من أكابر الصحابة لم يتضمن شيئا من ذلك أصلا ؛ ولا كانوا يتصورونه ، ولو تصوروه لذكروه . وهذه النصيحة عدى أعظم فضائله عليه السلام .

• • •

الأصل :

ومنها :

فَاتَمَّظُوا عِبَادَ اللَّهِ بِالْعَمْرِ النَّوَافِعِ ، وَأَهْتَبُوا بِالْآيِ السَّوَاطِعِ ، وَأَرْدَجُوا بِالنُّذْرِ
الْبَوَالِغِ ، وَأَسْتَفْعُوا بِالذُّكْرِ وَالْمَوَاطِعِ ، فَكَانَ ^(١) قَدْ عَلِقَتْكُمْ مَخَالِبُ التَّيْبَةِ ،
وَانْقَطَعَتْ مِنْكُمْ عِلَاقَةُ الْأُمْنِيَةِ ، وَدَهَمَتْكُمْ مُعْطِئَاتُ الْأُمُورِ ، وَالسَّيَافَةُ إِلَى الْوَرْدِ
الْمُورُودِ ، فَكُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ؛ سَائِقٌ يَسُوقُهَا إِلَى مَحْشَرِهَا ؛ وَشَهِيدٌ يَشْهَدُ
عَلَيْهَا بِمَسْئَلِهَا .

• • •

الشرح

العَمْرُ : جمع عَمْرَة ، وهي ما يعتبر به أى يحفظ . والآي : جمع آية ، ويحوز أن يريد

(١) مغلطة التهج « وكان » .

بها آى القرآن ، ويمحوز أن يريد بها آيات الله فى خلقه ، وفى غرائب الحوادث فى العالم .
والسواطع : المشرقة للنيرة .

والنذر : جمع نذير ؛ وهو المحرّف ، والأحسن أن يكون النذر هاهنا هى
الإنذرات نفسها ، لأنه قد وصف ذلك بالبولغ ، وفواعل لا تكون فى الأكثر إلا
صفة للمؤنث .

ومُفْطِمَاتِ الأمور : شدائدُها الشنيعة ، أفطع الأمرُ فهو مُفْطِع ، ويمحوز فُطِعَ الأمرُ
بالضم فطاعة فهو فطيع ، وأفطع الرجل على ما لم يسم فاعله ، أى نزل به ذلك .

وقوله : « والسيافة إلى الورد للورود » ؛ يعنى اللوت . وقوله : « سائق وشهيد » ؛
وقد فسر عليه السلام ذلك وقال : « سائق يسوقها إلى محشرها ، وشاهد يشهد عليها
بصلها » ؛ وقد قال بعض المفسرين : إن الآية لا تقتضى كونهما اثنين ، بل من الجائز أن
يكون ملكاً واحداً جامعاً بين الأمرين ، كأنه قال : « وجاءت كل نفس معها ملك
يسوقها ويشهد عليها » . وكلام أمير المؤمنين يحتمل ذلك أيضاً ، لأنه لم يقل أحدهما ؛ لكن
الأظهر فى الأخبار والآثار أنهما ملكان .

فإن قلت : إذا كان تعالى عالماً بكل شئ فأتى حاجة إلى اللائكة التى تكتب
الأعمال ، كما قال سبحانه : ﴿ يَلَيَّ وَرُسُلًا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ ^(١) ؛ وإذا كان تعالى
أعدل العادلين فأتى حاجة إلى ملك يشهد على الكلف يوم القيامة ؟ وإذا كان قادراً لذاته ،
فأتى حاجة إلى ملك يسوق الكلف إلى المحشر ؟ قلت : يحوز أن يكون فى تقرير مثل
ذلك فى أنفس الكلفين فى الدنيا أُلُفَاتٌ ومصالح لهم فى أديانهم ، فيخاطبهم الله تعالى به

لوجوب اللطف في حكمته ، وإذا خاطبهم به وجب فعله في الآخرة ؛ لأن خبره سبحانه لا يجوز الخلف عليه .

• • •

الأصل :

ومنها في صفة الجنة :

دَرَجَاتٌ مُتَفَاعِلَاتٌ ، وَمَنَازِلُ مُتَعَاوِنَاتٌ ، لَا يَنْقَطِعُ نَعِيمُهَا ، وَلَا يَنْقُصُ مُقِيمُهَا ، وَلَا يَهْرَمُ حَالِدُهَا ، وَلَا يَبْئَسُ سَاكِنُهَا .

• • •

الشرح :

الدَّرَجَاتُ : جميع درجة ، وهي الطبقات والراتب ، ويقال لها : درجات في الجنة ودَرَكَات في النار ، وإنما تفاعلت وتفاوتت بحسب الأعمال ، ولا يجوز أن يقع ذلك تفصلاً ؛ لأن التفصل بالثواب قبيح .

فإن قلت : فما قولك في الخور والودان والأطفال والمخاين ؟ قلت : يكون الواصل إليهم نعيماً ولذة لا شبهة في ذلك ، ولكن لا ثواب لهم ولا ينالونه ، والثواب أمرٌ أخص من المنافع والنعم ، لأنه منافع يفتن بها التعميم والتبجيل ، وهذا الأمرُ الأخص لا يحسن لإيصاله إلا إلى أرباب العمل .

وقوله : « لَا يَنْقَطِعُ نَعِيمُهَا وَلَا يَنْقُصُ مُقِيمُهَا » قولٌ متفق عليه بين أهل اللغة ، إلا ما يحكى عن أبي الهذيل ؛ أن حركات أهل الجنة تنهى إلى سكون دائم . وقد نزهه قوم من أصحابنا عن هذا القول وأكذبوا روايته ، ومن أثبتهم منه زعم أنه لم يقل بانقطاع النعم ، لكن بانقطاع الحركة مع دوام النعم ، وإنما حمله على ذلك أنه لما استدلل على أن

الحركة للماضية يستحيل ألا يكون لها أول ، مودع بالحركات المستقبلية لأهل الجنة والنار ،
فالتزم أنها متناهية ، وإنما استبعد هذا عنه ؛ لأنه كان أجلاً قلراً من أن يذهب عليه الفرق
بين الصورتين .

ويأس : مضارع يئس ، وجاء فيه « يئس » بالكسر ، وهو شاذ كـ « يئس »
و يئس ، ومعنى « يئس » : يصيبه اليأس وهو الشقاء .

(٨٥)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

قَدْ عَلِمَ السَّرَائِرَ ، وَخَبَرَ الصَّمَائِرَ ، لَهُ الْإِحَاطَةُ بِكُلِّ شَيْءٍ ، وَالْمَلَبَّةُ بِكُلِّ شَيْءٍ ، وَالْقُوَّةُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُ مِنْكُمْ فِي أَيَّامِ مَوَلِهِ ، قَبْلَ إِزْهَاقِ أَجَلِهِ ، وَفِي فَرَاحِهِ قَبْلَ أَوَانِ شُغْلِهِ ، وَفِي مُتَقَبِّهِ قَبْلَ أَنْ يُؤْخَذَ بِكُظْمِهِ ؛ وَلِيَهْتَدِ لِنَفْسِهِ وَقَدَمِهِ ، وَلِيَتَزَوَّدَ مِنْ دَارِ ظَمْنِهِ لِذَاكَ الْفَاقَتِهِ .

فَاللَّهُ اللَّهُ أَيُّهَا النَّاسُ فِيمَا اسْتَحْفَظْتُمْ مِنْ كِتَابِهِ ، وَاسْتَوَدَّعْتُمْ مِنْ حُقُوقِهِ ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَخْلُقْكُمْ عَبَثًا ، وَلَمْ يَبْزُقْكُمْ سُذًى ؛ وَلَمْ يَدْعُكُمْ فِي جَهَالَةٍ وَلَا غَمًى ، قَدْ سَمَى آثَارَكُمْ ، وَعَلِمَ أَعْمَالَكُمْ ، وَكَتَبَ أَجَالَكُمْ ، وَأَنْزَلَ عَلَيْكُمْ الْكِتَابَ نَبِيًّا مَا يَكُلُّ شَيْءٌ ؛ وَعَمَرَ فِيكُمْ نَبِيًّا أَرْمَانًا ؛ حَتَّى أَكْمَلَ لَهُ وَلَكُمْ فِيمَا أَنْزَلَ مِنْ كِتَابِهِ دِينَهُ الَّذِي رَضِيَ لِنَفْسِهِ ؛ وَأَنْهَى إِلَيْكُمْ عَلَى لِسَانِهِ تَحَابُّهُ مِنْ الْأَعْمَالِ وَمَكَارِهِهِ ، وَمَوَاهِبِهِ وَأَوَامِرَهُ ، وَأَلْقَى إِلَيْكُمْ الْمَذْهَبَ ، وَأَتَمَّ عَلَيْكُمْ الْحُجَّةَ ، وَقَدَّمَ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ ، وَأَنْذَرَكُمْ بَيْنَ بَدَى عَذَابٍ شَدِيدٍ .

•••

الشرح :

السرائر : جمع سريرة ، وهو ما بكم من السر .

وخبَرَ الصمائر ، بفتح الباء : امتنعها وابتلاها ، ومن رواه بكسر الباء أراد « علم » ، والاسم

أخبر ، بضم اطاء وهو العلم . والضمائر : جمع ضمير ، وهو ما تضرعه وتسكنه في نفسك .
وفي قوله : « له الإحاطة بكل شيء » ؛ وقد بينها ثلاث مسائل في التوحيد :
إحداهن : أنه تعالى عالم بكل المعلومات .

والثانية : أنه لا شريك له ، وإذا ثبت كونه عالماً بكل شيء كان في ضمن ذلك نفي
الشريك ، لأن الشريك لا يكون معلوماً .

والثالثة : أنه قادر على كل ما يصح تعلق قادرته تعالى به .

وأدلة هذه المسائل مذكورة في الكتب الكلامية .

وقوله : « فليعمل العامل منكم إلى قوله » : « وليترود من دار ظمئه لدار إقامته »
مأخوذ من قول رسول الله صلى الله عليه وآله في خطبته المشهورة وهي : « أيها الناس ؛
إن لكم معالماً فامسوها إلى معالكم وإن لكم قايماً فامسوها إلى غايتم . إن المؤمن بين مخافتين :
بين أجل قد مضى لا يدري ما الله صانع به ، وأجل قد بقى لا يدري ما الله قاض فيه ،
فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ، ومن دياه لأخرته ، ومن الشبهة قبل المهرم ، ومن الحياة
قبل الموت ؛ فوالذي نفس محمد بيده ؛ ما بعد الموت من مستعقب ، وما بعد الدنيا من
دار إلا الجنة أو النار » .

وللمل : المهلة والثؤدة . والإرهاق : مصدر أرهاق ، تقول : أرهاقه قرنه في الحرب
إرهاقاً إذا غشيته ليقته ، وزيد مرهق ؛ قال الشاعر :

تَمْدَى أَكْفَهُمْ وَفِي أَيْتَهُمْ تِقَّةُ الْجَاوِرِ وَالْمَصَافِ الرَّهَقِ^(١)

وفي متنفسه ، أى في سعة وقته ؛ يقال : أنت في نفس من أمرك ، أى في سعة .

(١) الكسيت ؛ المان ٣ : ٤٢١ .

والكَلَمَ بفتحهما : مخرج النفس ، والجمع أكلَام . ويجوز ظعننه وظعننه ، بتعريك العين وتسكينها ، وقرئ بهما : ﴿ يَوْمَ ظَنَنْكُمْ ^(١) ﴾ ﴿ وَظَنَكُمْ ﴾ .

ونصب « الله الله » على الإغراء ، وهو أن تقدّر فعلا ينصب المفعول به ؛ أى اتقوا الله ، وجعل تكرير اللفظ نائبا عن الفعل المقدّر ودليلا عليه .
استحفظكم من كتابه : جعلكم حَفَظَةً له ؛ جمع حافظ .

الشدى : الممهل ، ويجوز شدى بالفتح ، أسدبت الإبل : أهملتها . وقوله : « قد متى آثاركم » بفسر بفسيرين : أحدهما : قد بين لكم أعمالكم خيرها وشرها ؛ كقوله تعالى : ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ^(٢) ﴾ ؛ والثانى : قد أعلّى مآثركم ، أى رفع منازلكم إن أطعتم ، ويكون متى بمعنى أسمى ، كما كان فى الوجه الأول بمعنى أهان وأوضح .

والثبّيان : بكسر التاء : مصدر ، وهو شاق ؛ لأن المصادر إما تسمى على « التفعّل » بفتحها مثل التذكار والتكرار ، ولم يأت بالكسر إلا حرفان وهما : الثبّيان والثلقاء .
وقوله : « حتى أكمل له ولكم دينه » من قوله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ^(٣) ﴾ .

وقوله : « الذى رضى لنفسه » من قوله تعالى : ﴿ وَلَيَسْكَنَنَّ لَهُمْ دِينُهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ ^(٤) ﴾ ؛ لأنه إذا ارتضى لم يقدّر ارتضاه لنفسه ، أى ارتضى أن ينسب إليه ، فيقال : هذا دين الحق . « وأسبى إليكم » : عزفكم وأهلككم .

ومحابة : جمع محبة ، ومكارمه : جمع مكرهه ، وهى ما تنكره ، وفى هذا دلالة أن الله تعالى يحب الطاعة ويكره المعصية ، وهو خلاف قول الجبرية .

-
- (١) سورة النحل ٨٠ .
 - (٢) سورة البقرة ١٠ .
 - (٣) سورة المائدة ٣ .
 - (٤) سورة النور ٥٥ .

والأوامر : جمع أمر ، وأنكره قوم وقالوا : ها هنا جمع « أمر » ، كالأحاديث جمع أحاديث ،
والأحاديث جمع أحاديث . يعنى الكلام : الأمر لهم بالطاعات وهو القرآن .

والنواهي : جمع ناهية ، كالتوازي جمع سارية ، والنواهي جمع عادية ، يعنى الآيات
الناهية لهم عن المعاصي ، ويضمف أن يكون الأوامر والنواهي جمع أمر ونهي ، لأن « فَمَلَأَ »
لا يجمع على أحمل وفواعل ، وإن كان قال ذلك بعض اللوثة من أهل الأدب .
وقوله : « وَأَتَى إِلَيْكُمْ الْمَذْذِرَةُ » كلام فصيح ، وهو من قوله تعالى : « أَتَى إِلَيْكُمْ
السَّلَامُ »^(١) .

وقدم إليكم بالوعيد ، وأنذرهم بين يدي عذاب شديد ، أى أمامه وقبله ، مأخوذ
أيضاً من القرآن . ومعنى قوله : « بين يدي عذاب شديد » ، أى أمامه وقبله ؛ لأن ما بين
يديك متقدم لك .



الأصل ١

فَاسْتَذِرُوا يَوْمَ يَأْتِيكُمُ ، وَأَذِيرُوا لَهَا أَنْفُسَكُمْ ؛ قَلِيلٌ فِي كَثِيرٍ الْأَيَّامِ
الَّتِي تَكُونُ مِنْكُمْ فِيهَا الْعَفْلَةُ ، وَالنَّشَاطُ عَنْ الْوَعِظَةِ ، وَلَا تُرَخَّصُوا لِأَنفُسِكُمْ ؛
فَمَذْهَبَ بِكُمْ الرُّخَصَ مَذَاهِبَ الْعَفْرِ ، وَلَا تُدَاهِنُوا فَيَهْجُمَ بِكُمْ الْإِذْهَانُ
عَلَى الْمَعْصِيَةِ .

مِبَادَ اللَّهِ : إن أنصح الناس لنفسي ، أطوعهم إرباً ، وإن أعصاهم لنفسي ، أعصاهم
إرباً ؛ وَالْعَبُونَ مَنْ غَبَنَ نَفْسَهُ ، وَالْمُطَوِّطُ مَنْ سَلِمَ لَهُ دِينُهُ ، وَالْمُعِيدُ مَنْ وَعِظَ نَفْسَهُ ،
وَالشَّقِيُّ مَنْ أَخَذَ لِهَوَاهُ وَغُرُورِهِ .

(١) سورة السّاء ٩٠ .

وَأَعْلَمُوا أَنَّ بَيْتَ الرِّبَا شِرْكٌ ، وَخَاسَّةٌ أَهْلُ الْهَوَى تَنَاسَتْ لِلْإِيمَانِ ؛
وَتَحْمَرَةُ الشَّيْطَانِ .

جَانِبُوا الْكَذِبَ فَإِنَّهُ مُجَابِبٌ لِلْإِيمَانِ . الْعَادِقُ عَلَى شَفَا مَنَاجِةٍ وَكَرَامَةٍ ،
وَالْكَاذِبُ عَلَى شَرْفٍ مَهْوَاةٍ وَمَهَانَةٍ .

وَلَا تَحَاسَدُوا ؛ فَإِنَّ الْحَسَدَ بِأَسْكَرُ الْإِيمَانِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْخُطْبَ ،
وَلَا تَبَاغُضُوا فَإِنَّهَا الْخَافِقَةُ ؛ وَأَعْلَمُوا أَنَّ الْأَمَلَ يُسْبِي الْعَقْلَ ، وَيُنْفِي الذِّكْرَ .
فَاكْذِبُوا الْأَمَلَ ؛ فَإِنَّهُ غُرُورٌ ، وَصَاحِبُهُ مَغْرُورٌ .

•••

البَيْزُجُ

قوله : « فَاسْتَدْرِكُوا بَقِيَةَ الْأَسْكَرِ » ؛ يقال : « استدركت مافات وتداركت مافات » ،
بمعنى « واصبروا لما أخسكم » ؛ مأخوذ من قوله تعالى : « وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ
يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدَاةِ وَالْعَشِيِّ »^(١) ؛ يقال : « صبر فلان نفسه على كذا » ، أى حبسها
عليه . يتمدى فينصب ؛ قال عنزة :

فصبرت عارفةً لك حرّةً ترسو إذا نفس الجبان تطلّع^(٢)

أى حبست نفسها عارفة . وفي الحديث النبوي في رجل أمسك رجلاً وقتله الآخر ، فقال
عليه السلام : « اقتلوا القاتل واصبروا الصابر » ، أى احبسوا الذى أمسكه حتى يموت .
والضير في « فإنها قليل » عائد إلى الأيام التى أمرم باستدراكها . يقول : إن هذه
الأيام التى قد بقيت من أعماركم قليلة ، بالنسبة والإضافة إلى الأيام التى تفلون فيها
عن الموعظة .

(١) سورة الأنعام ٥٢ .

(٢) يذكر حرباً كان فيها . اللسان ٦ : ١٠٧ .

وقوله : « فلان قليل » فأخبر من اللؤث بصفة للذكر ، إما معناه فلان شيء قليل
بحذف الموصوف ؛ كقوله : « وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا » ^(١) أى قبيلا رفيقا .

ثم قال : « ولا ترخصوا » ؛ انتهى من الأخذ برخص للذهاب ؛ وذلك لأنه لا يجوز
للواحد من العامة أن يقلد كلاً من أئمة الاجتهاد فيما خفّ وسهل من الأحكام الشرعية .
أولا تساهلوا أنفسكم في ترك تشديد النصية ، ولا تساهلوا وترخصوا إليها في ارتكاب
المناظر والمخفّرات من الذنوب ، فهجمكم بهم على الكبائر ، لأن من موّن على أمر تدرج
من صغيره إلى كبيره .

وللداعنة : النفاق والمصانعة ، والإدهان مثله ؛ قال تعالى : « وَذُؤُوا لَوْ تَذَهَبُ
فَتَذَهَبُونَ » ^(٢) .

قوله : « إن أنصح الناس لنفسهم أطروهم لربه » ؛ لأنه قد صانها عن العقاب ، وأوجب
لها الثواب ؛ وذلك غاية ما يمكن من نصحتها ونفها .

قوله : « وإن أغش الناس لنفسهم أعصم لربه » ؛ لأنه ألقاها في الهلاك الدائم ، وذلك أقصى
ما يمكن من غشها والإضرار بها .

ثم قال : « والمنهون من غبن نفسه » ، أى أحق الناس أن يسئ متبونا من غبن
نفسه ، يقال : غبت في البيع غبنا ، بالتسكين ، أى خدعته ، وقد غبن فهو منهون ، وغبن
الرجل وأبه بالكسر غبنا بالتعريك فهو غبين ، أى ضيف الرأي ، وفيه غبانة . ولفظ
الغبن يدل على أنه من باب غبن البيع والشراء ، لأنه قال : « والمنهون » ولم يقل :
« والغبن » .

والمبوط : الذى يُسقى مثل حاله ، ولذى يمتنى زوال حاله وانتقالها هو الحاسد ،

(١) سورة النساء ٦٩ .

(٢) سورة الفم ٩ .

والحسد مذموم ، والنبطية غير منسومة ، يقال : غبطته بما نال ، أغبطه غبطا وغبطة
 فاعبط هو ؛ كقولك منعتك فامتنع ، وحبسته فاحتبس ، قال الشاعر :
 وبينما المرء في الأحياء مفتبط ^(١) إذ صار في الرئوس تعفوه الأعاصير ^(٢)
 هكذا أنشدوه بكسر الهاء ، وقالوا فيه : معبط ، أى مضبوط .
 قوله : « والسعيد من وعظ بغيره » مثل من الأمثال النبوية .
 وقد ذكرنا فيما تقدم ، ما جاء في ذم الرياء وتفسير كونه شرا .
 وقوله عليه السلام : « مناعة للإيمان » ؛ أى دامية إلى بيان الإيمان وإيمانه ، والإيمان
 الاعتقاد والعمل .

ومحضرة الشيطان : موضع حصوله ، كقولك : متبعة ، أى موضع السباع .
 ومناعة ، أى موضع الأفاعى .

ثم نهى عن الكذب وقال : « إنه عاصب للإيمان » وكذا ورد في الخبر المرفوع .
 وشفا منجاة ؛ أى حرّف نجاة وخلّص ؛ وشفا الشيء حرّفه ، قال تعالى : ﴿ وَكُنْتُمْ ^(١)
 عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ ﴾ ^(٢) ؛ وأشنى على الشيء وأشرف عليه بمعنى ؛ وأكثر ما يقال
 ذلك في المكروه ، يقال : أشنى المربص على الموت ، وقد استعمله هاهنا في غير المكروه .
 والشرف : المكان العالي ، بفتح الشين ، وأشرفت عليه ، أى اطلعت من فوق .
 والمنهاة : موضع السقوط . والمهانة : الحقارة .

ثم نهى عن الحسد وقال : « إنه يأكل الإيمان كما تأكل النار الخطب » ، وقد ورد هذا
 الكلام في الأخبار المرفوعة ؛ وقد تقدّم منا كلام في الحسد ، وذكرنا كثيرا مما جاء فيه .

(١) من أبيات في اللسان (دهر) ، وسبها إلى غير من لبد المدي ، واطر ترعة الألبا ص ٢٧

(٢) سورة آل عمران ١٠٣ .

ثم نهى عن الباغضة وقال : « إنها الحائقة » ، أى للساحلة التى تأنى على القوم ، كالخلق للشمر .

ثم نهى عن الأمل وطوله وقال : « إنه يورث العقل سهوا ، وينسى الذكر » . ثم أمر بإكذاب الأمل ، ونهى عن الاعتماد عليه ، والسكون إليه ، فإنه من باب الفرور . وقد ذكرنا فى الأمل وطوله نكتا نافعة فيما تقدم ، ويجب أن نذكر ما جاء فى النهى من الكذب .

• • •

[فصل فى ذم الكذب وحقارة الكذابين]

حاء فى الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وآله : « إذا كذب العبد كذبة تباعد الملاك منه مسيرة ميل ، من ثلث ما جاء به » .

وعنه عليه السلام : « إياكم والكذب ، فإن الكذب يهذى إلى الفجور والتفجور يهذى إلى النار ، وإن الرجل ليكذب ويتحرى الكذب ، فيكتب عند الله كاذبا ؛ وعليكم بالصدق ، فإن الصدق يهذى إلى البر ، وإن البر يهذى إلى الجنة ، وإن الرجل ليصدق ويتحرى الصدق ، فيكتب عند الله صادقا » .

وروى أن رجلا قال للنبي صلى الله عليه وآله : أنا يارسول الله أستسير بخلال أربع : الزنا ، وشرب الخمر ، والسرقة ، والكذب ، فأبتن شئت تركتها لك ؛ قال دعه الكذب ؛ فلما ولّى هم بالزنا ، فقال : يسألنى فإن جعلت تحضت ما جعلت له ، وإن أفررت حذيت ، ثم هم بالسرقة ، ثم يشرب الخمر ، فسكر فى مثل ذلك ، فرجع إليه فقال : قد أخذت من السبيل كله ، فقد تركتهن أجمع .

قال العباس بن عبد المطلب لابنه عبد الله : يا بني أنت أفعه منى ، وأنا أحقل منك ،

وإن هذا الرجل يُذَنِّبُكَ - بمعنى عمر بن الخطاب - فأحفظ عني ثلاثاً : لا تُفَرِّقْ له سرّاً ، ولا تفتابِهْ عنده أحداً ، ولا يطلعن منك على كذبة . قال عبد الله : فكانت هذه الثلاث أحبّ إليّ من ثلاث بدّرات باقوتاً .

قال الواثق لأحمد بن أبي دُوَادٍ رحمه الله تعالى : كان ابنُ الزُّبَيَاتِ عندي ، فذكركَ بكلّ قبيح ، قال : الحمد لله الذي أحوجّه إلى الكذب علىّ ، وتزعمني عن الصدق في أمره .

وكان يقال : أمرأت لابكاد أحدهما ينفك من الكذب : كثرة اللواعيد وشدة الاعتذار .

ومن الحكم القديمة : إنما فصل الناطق على الآخرس بالناطق ، وزين المنطق الصدق ، فالكاذب شرٌّ من الآخرس .

قال الرشيد للفضل بن الربيع في كلام جرى بينهما كذبت ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ وجه الكذوب لا يقابلك ، ولسانه لا يجاورك .
قيل في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ الْوَيْلُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾^(١) ؛ هي في الكذابين ، فالويل لكلّ كاذب إلى يوم القيامة .

ومن كلام بعض الصالحين : لو لم أترك الكذب نائماً لتركته نكراً .
أبو حيان : الكذب شمارٌ خنق ، وموردة رنق^(٢) ، وأدب سقي ، وعادة فاحشة ، وقلّ من استرسل معه إلا أنفه ، وقلّ من ألفه إلا أتلفه ، والصدق ملبس بهي ، ومنهل غدي ، وشُعاع منبث ، وقلّ من اعتاده ومرن عليه إلا صعبته الكينة ، وأبده التوفيق ، وخدمته القلوب بالحبّة ، وحفظه العميون بالهابة .

(١) سورة الأنبياء ، ١٨ .

(٢) الرنق ، يفتح النون وإسكانها وكسرهما : الكسر

ابن السماك : لا أذرى ، أوجر على ترك الكذب أم لا ! لأنى أتركه أنفة .

يحيى بن خالد : رأيت شربب حرير نزع ، ولصاً أفلح ، وصاحب فواحش ارتدع ، ولم أركاذها رجع .

قالوا فى تفسير هذا : إن المولع بالكذب لا يكاد يصبر عنه ، فقد عوتب إنسان عاينه ، فقال لمعاتبه : يا بن أخى ، لو نعر غررت به لما صبرت عنه .

وقيل لكاذب معروف بالكذب : أصدقت قط ؟ قال : لولا أنى أخاف أن أصدق لقلت : لا !

وجاء فى بعض الأخبار الرفوعة : قيل له : يا رسول الله ، أيبكون المؤمن جببانا ؟ قال : نعم ، قيل : أفيكون بخيلا ؟ قال : نعم ، قيل : أيبكون كاذبا ؟ قال : لا .

وقال ابن عباس : الحدث حدثان : حدث من فيك ، وحدث من فرجك .

وقال بعضهم : من أسرع إلى الناس بما يكرهون ، قالوا فيه مالا يعلون ؛ أخذه شاعر فقال :

وَمَنْ دَعَا النَّاسَ إِلَى ذَمِّهِ ذَمُّهُ بِالْحَقِّ وَبِالْهَاطِلِ^(١)

وكان يقال : خذوا عن أهل الشرف ، فإنهم قلما يكذبون .

وقال بعض الصالحين : لو صحبني رجل ، فقال لي : اشترط على خصلة واحدة لا تزيد عليها ، لقلت : لا تكذب .

وكان يقال : خصلتان لا يجتمعان : الكذب والروعة .

كان يقال : من شرف الصدق أن صاحبه يصدق على عدوه ، ومن دناءة الكذب أن صاحبه يكذب وإن كان صادقا .

(١) العقد ٢ : ١١١ من غير نسبة ، وبسند :

مَقَالَةُ الشُّوْءِ إِلَى أَهْلِهَا أَسْرَعُ مِنْ مُنْعَذِرٍ إِلَى سَائِلٍ

ومثل هذا قولهم : مَنْ عُرِفَ بالصدق جاز كِذْبُهُ ، وَمَنْ عُرِفَ بالكذب لم يَجْزُ صدقه .

وجاء في انظر الرفوع : « إن في المعارض لندوحة عن الكذب » .

وقال ابن سيرين : الكلام أوسع من أن يكذب ظريف .

وقالوا في قوله تعالى : (لَا تَوَاسِخْ بَيْنَا نَسِيتُ)^(١) ؛ لم ينسَ ، ولكنه من معارض

الكلام ، وكذلك قالوا في قول إبراهيم : (إِنِّي سَقِيمٌ)^(٢) .

وقال العتيبي : إني لأصدق في صفار ما بصرني ، فكيف لأصدق في كبار ما ينفعني !

وقال بعض الشعراء :

لا يكذبُ المرءُ إلّا من مهائنه أو عادة الشؤ أو من قلة الأدب

لعمري حيلة كذب خير راحة من كذبة المرء في جد وفي لمب

شهد أعرابي عند معاوية بشهادة ، فقال له : كذبت ، فقال : الكاذب والله المثل

في ثيابك ؛ فقال معاوية : هذا جزاء من عجل .

وقال معاوية يوماً للأحنف - وحذّته حديثاً ، أنكذب ؛ فقال له الأحنف : والله

ما كذبت منذ علمت أن الكذب يشين أهله .

ودخل عبد الله بن الزبير يوماً على معاوية فقال له : اسمع أبياتاً قلتها - وكان واجداً

على معاوية - فقال : هات ، فأشده :

إذا أنت لم تُنصِفْ أخاك وجسدته على طرفِ المجران إن كان يمتلئ

وبركب حدة السيف من أن تُضيمه إذا لم يكن عن شفرة السيف يزل

فقال معاوية : لقد شعرت بعدنا يا أبا بكر ؛ ثم لم يلبث معاوية أن دخل عليه متن

(١) سورة الكهف ٧٣ .

(٢) سورة الصافات ٨٩ .

ابن أوس المزني ، فقال : أقلت بعدنا شيئاً ؟ قال نعم ، وأنشد :
 لَعَمْرُكَ لَا أُحْدِثُ وَإِنِّي لَا أُزْجِلُ قَلَى أَبْنَاءَ تَعْدُو النَّبِيَّةُ أَوَّلُ^(١)

حتى صار إلى الأبيات التي أنشدها ابن الزبير ، فقال معاوية : يا أبا بكر ، أما ذكرت
 أننا أن هذا الشعر لك ؟ فقال : أنا أصلمت المعاني وهو ألف [الشعر]^(٢) . وبعد ، فهو
 ظننى^(٣) وما قال من شيء فهو لي .

وكان عبدالله بن الزبير مسترضاً في مَرْبِئَةٍ^(٤) .

وروى أبو العباس المبرّد في " الكامل " أن عمر بن عبد العزيز كتب في إشخاص
 إلياس بن معاوية المزني ، وعدى بن أرطاة للقراري أمير البصرة وقاضياً إليه ، فصار
 عدى إلى إلياس ، وقد رآه يمزّنه^(٥) عند عمر بن عبد العزيز ويثني عليه ، فقال له : يا أبا
 وائله ، إن لنا حقاً ورجحاً ، فقال إلياس : أظن الكذب تريدني ، والله ما يسرنى أن
 كذبت كذبة ؟ يفرها الله لي ، ولا يطلع عليها هذا . وأوماً إلى ابنه - ولي ما طلعت عليه
 الشمس^(٦) !

وروى أبو العباس أيضاً : أن عمرو بن معديكرب الزبيدي كان معروفاً بالكذب .
 وقيل نطف الأحر - وكان مولى لهم وشديد التمسب عليهم : أكان عمرو بن معديكرب
 يكذب ؟ قال : يكذب في المقال ويصدق في الفعل^(٧) .

(١) ديوانه ٥٧ .

(٢) من الكامل .

(٣) الكامل ٥ وهو بعد ظننى .

(٤) الخبر في الكامل ٧ : ٢٩١ ، ٢٩٢ .

(٥) في الأصول : « يفرطه » ، وما أتبعه من الكامل . وفي رياضات أبي الحسن الأحش : التبرين .
 المدح ، ولم أسمع منه القطة إلا من أن العباس ، وهو عصى مشقة من المازن . وهو يمس التل ؛ وهذا سميت
 مازن ؛ كأنه أراد منه أن يكبره . وروى : « بكثرة » . وفي رياضات الكامل أيضاً : قال الشيخ : فوله :
 « أن يمر به عند النبوة ؛ أي كأنه يحمله سيد مربة ؛ لأنه كان مربياً »

(٦) الكامل ٧ : ٢٩٢ .

(٧) الكامل ٧ : ٢٠٨ .

(٨٦)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

عِبَادَ اللَّهِ ! إِنَّ مِنْ أَحَبِّ عِبَادِ اللَّهِ إِلَيْهِ عَبْدًا أَعَانَهُ اللَّهُ عَلَى نَفْسِهِ ، فَاسْتَشْعَرَ الْحُزْنَ ، وَتَجَلَّيَتْ أَلْخُوفُ ؛ فَرَزَّهَرَّ مِصْبَاحُ الْهُدَى فِي قَبْضِهِ ، وَأَعْدَدَ الْقِرَى لِيَوْمِهِ النَّازِلِ بِهِ ، فَقَرَّبَ عَلَى نَفْسِهِ الْبَعِيدَ ، وَهَوَّنَ الشَّدِيدَ .

نَظَرَ فَأَبْصَرَ ، وَذَكَرَ فَاسْتَسْكَنَ ، وَادْتَوَى مِنْ حَذْبِ فُرَاتٍ ، سُمِّمَتْ لَهُ مَوَارِدُهُ ، فَشَرِبَ سَهْلًا ، وَسَلَكَ سَبِيلًا جَدًّا .
قَدْ خَلَعَ سَرَائِيلَ الشُّهُولَاتِ ، وَتَحَمَّلَ مِنْ أَلْهُومٍ ، إِلَّا هُمَا وَاحِدًا انْقَرَدَ بِهِ ، فَخَرَجَ مِنْ صِفَةِ الْعَمَى ، وَمُشَارَكَةِ أَهْلِ الْهَوَى ، وَصَارَ مِنْ مَفَاتِيحِ أَبْوَابِ الْهُدَى ، وَمَفَالِقِ أَبْوَابِ الْارْتَدَى .

قَدْ أَبْصَرَ طَرِيقَهُ ، وَسَلَكَ سَبِيلَهُ ، وَعَرَفَ مَنَارَهُ ، وَقَطَعَ غِمَارَهُ ، وَاسْتَسْكَنَ مِنَ الْعُرَا بِأَوْقَفِيهَا ، وَمِنْ أَلْجَالٍ بِأَمْتِيهَا ، فَهُوَ مِنَ الْيَقِينِ عَلَى مِثْلِ ضَوْءِ الشَّمْسِ ، قَدْ نَصَبَ نَفْسَهُ فِيهِ سُبْحَانَهُ فِي أَرْفَعِ الْأُمُورِ ؛ مِنْ إِصْدَارِ كُلِّ وَارِدٍ عَلَيْهِ ، وَتَضْيِيرِ كُلِّ فَرَجٍ إِلَى أَصْلِهِ .

مِصْبَاحُ ظُلُمَاتٍ ، كُشَّافُ عَشَوَاتٍ ، مِفْتَاحُ مُبْتَلَاتٍ ، دَفَّاعُ مُضِلَّاتٍ ، دَلِيلُ فُلُوتٍ ؛ يَقُولُ قِيْفِهِمْ ، وَيَسْكُتُ قِيْسَهُمْ .
قَدْ أَخْلَصَ فِيهِ فَاسْتَخْلَصَهُ ، فَهُوَ مِنْ مَعَادِنِ دِينِهِ ، وَأَوْتَادِ أَرْضِهِ ، قَدْ أَلْزَمَ

نَفْسُهُ الْعَدْلَ ، فَكَانَ أَوَّلَ عَذْلِهِ نَفْيُ الْهَوَى عَنْ نَفْسِهِ .
يَصِفُ الْحَقَّ وَيَعْمَلُ بِهِ ، لَا يَدْعُ لِتَغْيِيرِ عَابَةِ إِلَّا أَمَّا ، وَلَا مِظَنَّةَ إِلَّا قَصْدَهَا ،
قَدْ أَمَكَّنَ الْكِتَابَ مِنْ زِمَامِهِ ، فَهُوَ قَائِدُهُ وَإِمَامُهُ ، يَحُلُّ حَيْثُ حَلَّ نَقْلُهُ ، وَيَنْزِلُ
حَيْثُ كَانَ مَنَزِلُهُ .

• • •

التَّبَسُّخُ :

استشعر الحزن : جعله كالشمار ، وهو ما يلي الجسد من الثياب . وتجلَّب الخوف :
جعله جلباباً ، أى ثوباً .

زهر مصباح الهدى : أضواء . وأعدّ القُرَى ليومه ، أى أعدّ ما قدمه من الطاعات
قَرَى لضيف الموت النازل به . والعُرَات : العُزْبُ (الغيب)
وقوله : « فشرِبَ نَهْلًا » ؛ يجوز أن يكون أراد بقوله : « نَهْلًا » المصدر ، من نَهَلَ
يَنْهَلُ نَهْلًا ، أى شرب حتى رَوَى ، ويجوز أن يريد بالنَهْلَ الشرب الأول خاصة ،
ويريد أنه اكتفى بما شربه أولاً ، فلم يحتاج إلى العلل .

وطريق جدّد : لا عثار فيه لقوة أرضه . وقطع غماره ؛ يقال : بحر غمر ، أى كثير
الماء ، وبحار غمار . واستمسك من العرا بأوثقها ؛ أى من العقود الوثيقة ، قال تعالى :
(فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى)^(١) .

ونصب نفسه لله ، أى أقامها .

كشاف عَشَوَات : جمع عَشْوَةٍ وعَشْوَةٍ وعَشْوَةٍ ، بالحركات الثلاث ، وهى الأمر
الملقّيس ؛ يقال : أوطأنى عَشْوَةٌ .

والمضيلات : جمع معضة وهي الشدائد والأمر التي لا يهتدى لوجهها .
دليل قنوت ، أي يهتدى به كما يهتدى الركب في القلاة بدليلهم .
أتمها : قصدتها . ومظنة الشيء : حيث يُظن وجوده . والثقل : متاع المسافر وحشمه .

[فصل في العباد والزهاد والعارفين وأحوالهم]

واعلم : أن هذا الكلام منه أخذ أصحاب علم الطريقة والحقيقة منهم ، وهو تصريح بحال العارف ومكانته من الله تعالى .
والعرفان درجة حال رفيعة شريفة جداً ، مناسبة للنبوة ، ويختص الله تعالى بها من يقرّبه إليه من خلقه .

والأولياء على طبقات ثلاث :

الطبقة الأولى : حال العابد ، وهو صاحب الصلاة الكثيرة ، والصوم الدائم ، والحج والصدقة .

والطبقة الثانية : حال الزاهد ، وهو للمريض من ملاذ الدنيا وطبائنها ؛ تقيعه الكسرة ، وتسدّه الخرقه ، لا مال ولا زوجة ولا ولد .

والطبقة الثالثة : حال العارف ، وهو الواصل إلى الله سبحانه بنفسه لا بدنه ، والبارئ سبحانه متمثل في نفسه تمثل المَشُوق في ذات المَاشِق ؛ وهو أرفع الطبقات ، وبعده الزاهد .

وأما العابد فهو أدونها ، وذلك لأن العابد مُعامل كالتاجر ، يبذل لثاب ، ويُتعب نفسه ليرتاح ؛ فهو يعطى من نفسه شيئاً ويطلب ثمنه ويعوّضه ، وقد يكون العابد غنياً موسراً ، كثير المال والولد ، فليست حاله من أحوال السكّال .

وأما الزاهد ، فإنه احتقر الدنيا وعروضها وقيناتها ، فحلصت نفسه من دناءة المطامع

وحار عزيزاً ملكاً ، لا سلطان عليه لنفسه ولا لغيره ، فاستراح من القل والهوآن ، ولم يبق لنفسه شيء تشتاق إليه بعد الموت ، فكان أقرب إلى السلامة والنعاة من العابد الفقي الموصر .

وأما العارف فبأنه بالحال التي وصفناها ، ويستلزم مع وجودها أن يكون زاهداً ، لأنه لا يتصور العرفان مع تعلق النفس بملاذ الدنيا وشهواتها . ثم قد يحصل بعض العرفان لبعض العلماء الفضلاء ، مع تعلقهم بشهوات الدنيا ، ولكنهم لا يكونون كاملين في أحوالهم ، وإنما تحصل الحالة الكاملة لمن رقص الدنيا ونحلى عنها ، ونستلزم الحالة المذكورة أيضاً أن يكون عابداً عبادةً ما ، وليس بشرط في حصول حال العرفان أن يكون على قدم عظيمة من العبادة ، بل إلا كثاراً من العبادة حجاب كافي ؛ ولكن لا بد من القيام بالفرائض وشي يسير من التواضع .



واعلم : أن العارف هو العارف بالله تعالى وصفاته وملائكته ورسله وكتبه ، وبالحكمة المودعة في نظام العالم ، لاسيما الأفعلاك والكواكب ، وتركيب طبقات العناصر ، والأحكام وفي تركيب الأبدان الإنسانية .

فمن حصل له ذلك ، فهو العارف ؛ وإن^(١) لم يحصل له ذلك ، فهو ناقص العرفان ، وإن انضم إلى ذلك استشعاره جلال الله تعالى وعظمته ، ورياضة النفس والمجاهدة ، والصبر والرضا والتوكل ، فقد ارتفع طبقة أخرى ، فإن حصل له بعد ذلك الحب والوجد ، فقد ارتفع طبقة أخرى ، فإن حصل له بعد ذلك الإعراض عن كل شيء سوى الله ، وأن يصير مسلوباً عن الموجودات كلها ، فلا يشعر إلا بنفسه وبالله تعالى ، فقد ارتفع طبقة أخرى ، وهي أرفع الطبقات .

(١) ب : : : : : .

وهناك طبقة أخرى يذكرونها ، وهي أن يسلب عن نفسه أيضا ، فلا يكون له شعور بها أصلا ، وإنما يكون شاعرا بالقيوم الأول سبحانه لا غير ، وهذه درجة الاتحاد ، بأن نصير الذاتان ذاتا واحدة .

وهذا قول قوم من الأوائل ومن المتأخرين أيضا ، وهو مقام صعب ، لا ثبت العقول لتصوره واكتناحه .

واعلم أن هذه الصفات والشروط والنموت التي ذكرها في شرح حال العارف ، إنما يعنى بها نفسه عليه السلام ؛ وهو من الكلام الذي له ظاهر وباطن ؛ فظاهره أن يشرح حال العارف المطلق ، وباطنه أن يشرح حال عارف معين ، وهو نفسه عليه السلام . وسيأتى في آخر الخطبة ما يدل على ذلك .

ونحن نذكر الصفات التي أشار عليه السلام إليها وأحدة واحدة :

فأولها : أن يكون عبداً أعانه الله على نفسه ، ومعنى ذلك أن يخضع بالإنابة ، يختار عندها الحسن ويتجنب القبيح ، فكأنه أقام النفس في مقام العبد ، وأقام الألفاظ مقام للمونة التي يمدّه الله سبحانه بها ، فيكسر عادة العبد للذكر ؛ وبهذا الاعتبار سمى قوم من المتكلمين اللطف عونا .

وثانيها : أن يستثمر الحزن ، أي يحزن على الأيام الماضية ، إن لم يكن اكتسب فيها من موجبات الاختصاص أضاف ما اكتسبه .

وثالثها : أن يتجلبب الخوف ، أي يخاف من الإعراض عنه ، بأن يصدر عنه ما يحجوه من جريدة الخلقين .

ورابعها : أن يمدّ القرى لضيف الدنيا ، وذلك بإقامة وظائف العبادة .

وخامسها : أن يقرب على نفسه البعيد ، وذلك بأن يمثل اللوت بين عينيه صباحاً ومساءً ، وألا يطيل الأمل .

وسادسها : أن يهون عليه الشدائد ؛ وذلك باحتمال كُلف المجاهدة ورياضة النفس على عمل للشاق .

وسابعها : أن يكون قد نظر فأبصر ، وذلك بترتيب المقدمات المطابقة لشمسها ترتيباً صحيحاً ، لتنتج العلم اليقيني .

وثامسها : أن يذكر الله تعالى فيشكّر من ذكره ، لأن ذكره سبحانه والإكثار منه ، يقتضى سكون النفس وطمأنينتها ، كما قال تعالى : ﴿ أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ (١) .



وتاسعها : أن يرتوي من حب الله تعالى ، وهو العذب للقرات ، الذي سهل موارده على من انتخبه الله ، وجمعه أهلاً للوصول إليه ، فشرّب منه وسهل ، وسلك طريقاً لا عثار فيه ولا وعر .

وعاشرها : أن يخلع سراويل الشهوات ، لأن الشهوات تصدى مراة العقل ، فلا تطيع المقولات فيها كما ينبغي ، وكذلك المصعب .

وحادي عشرها : أن يتخلّى من الهموم كلها ، لأنها تزيدنا وقواطع عن المطلوب ، إلا همّاً واحداً وهو مهة بمولاه ، الذي لذت وسروره الاهتمام به ، والتفرد بمناجاته ومطالعة أنوار عزّته ، فعينئذ يخرج عن صفة أهل العمى ، ومن مشاركة أهل الهوى ، لأن قدامتار عنهم بهذه المرتبة والخاصية التي حصلت له فصار مفتاحاً لباب الهدى ، ومغلاقاً لباب الضلال والردى ، قد أبصر طريق الهدى ، وسلك سبيله ، وعرف مناره ، وقطع غماره .

وثاني عشرها : أن ينصب نفسه في أرفع الأمور ، وهو الخلوة به ، ومقابلة أنوار
جلاله بمرآة فكره ، حتى تتكيف نفسه بتلك الكيفية العظيمة الإشراف ، فهذا أرفع
الأمور وأجلها وأعظمها ، وقد رمز في هذا الفصل ، ومرجه بكلام خرج به إلى أمر آخر ،
وهو فقه النفس في الدين ، والأمور الشرعية النافعة للناس في دنيهم وأخرام ؛ أما في دنياهم
فردع المفيد وكف الظالم ، وأما في آخرهم فلفوز بالسعادة باعتبار امتثال الأوامر الإلهية .
قال : « في إصدار كل واحد عليه » ؛ أي في فتنها كل مستفتٍ له ، وهداية كل مسترشده
في الدين ؛ ثم قال : « وتعبير كل فرع إلى أصله » . ويمكن أن يحتج بهذين قول القياس ،
ويمكن أن يقال : إنه لم يرد ذلك ، بل أراد تخرج الفروع العقلية ، وردّها إلى أصولها ؛ كما
يكلف أصحابنا القول في بيان حكمة القديم تعالى ، في الآلام وذبح الحيوانات ، ردّاله إلى
أصل العدل ، وهو كونه تعالى لا يفعل القبيح .

وثالث عشرها : أن يكون مصباحاً لطغات الضلال ، كشفاً لمشوات الشبه ، مفتاحاً
لمبهات الشكوك المتخلقة ، دقاً لمصلات الاحتجاجات العقلية الدقيقة الماسضة ، دليلاً
في فلول الأنظار الصعبة المشبهة ، ولم يكن في أصعب محمد صلى الله عليه وآله أحد بهذه الصفة
الاهو .

ورابع عشرها : أن يقول مخاطباً أميره ويفهمه مخاطبه ، وأن يسكت فيعلم ، وذلك
لأنه ليس كل قائل مُفهم ، ولا كل ساكت سالم .

وخامس عشرها : أن يكون قد أخاص الله فاستخلصه الله ، والإخلاص في مقام عظيم
جداً ، وهو ينزه الأفعال عن الرّياء ، وألا يمازج العبادة أمر لا يكون في سبعمائة ؛ ولهذا
كان بعض الصالحين يصيحب من طول العبادة نصيباً قشفاً ، فيكتحل ويذهن ؛ ليذهب
بذلك أثر العبادة عنه .

وقوله : « فهو من معادن دينه وأوتاد أرضه » ، معادن دينه : الدين يُقبس الدين منهم ،
كمعادن الذهب والفضة ، وهي الأرضون التي يلتقط ذلك منها ، وأوتاد أرضه : هم الدين
لولا لم لادّت الأرض وارتجّت بأهلها ، وهذا من باب الاستعارة الفصيحة ، وأهل هذا العلم
يقولون : أوتاد الأرض جماعة من الصالحين ، ولهم في الأوتاد والأبدال والأقطاب كلامٌ
مشهور في كتبهم .

وسادس عشرها : أن يكون قد أَرَمَ نفسه المدل ، والمدالة : مَلَكَة تُصدّر بها عن
النفس الأفعال العاضلة خلقا لا نمتقا .

وأقسام المدالة ثلاثة ، هي الأصول وما عداها من الفصائل فروع عليها :
الأولى الشجاعة ، ويدخل فيها السعء لأمة شجاعة وتهوين للمال ، كما أن الشجاعة الأصلية
تهوين للنفس ، فالشجاع في الحرب جواد بنفسه ، والكجواد المال شجاع في إبعائه ، ولهذا قال الطائي :
أَبَقْتُ أَنْ مِنَ السَّامِخِ شَجَاعَةٌ تَدِينِي ، وَأَنْ مِنَ الشَّعَاعَةِ حُرْدًا ^(١)
والثانية : الفقه ، ويدخل فيها الصاعة والزهد والمرّة .

والثالثة : الحكمة ، وهي أشرفها .

ولم تحصل المدالة الكاملة لأحد من البشر بعد رسول الله صلى الله عليه وآله
إلا لهذا الرجل ، ومن أنصف عَلمَ صفة ذلك ، فإن شجاعته وجوده ، وعفته وقناعته
وزهده ، يُضرب بها الأمثال .

وأما الحكمة والبحث في الأمور الإلهية ، فلم يكن من من أحد من العرب ، ولا نقل
في جهاد أكابرهم وأصاغرهم شيء من ذلك أصلا ، وهذا فن كانت اليونان وأوائل الحكماء
وأساطين الحكمة ينفردون به ؛ وأول من خاض فيه من العرب علي عليه السلام ، ولهذا

(١) أبو تمام ، ديوانه ١ : ٤٢٣ .

تجدد المباحث الدقيقة في التوحيد والعدل مبنوثة عنه في فرش كلامه وخطبه ، ولا تجد في كلام أحد من الصحابة والتابعين كلمة واحدة من ذلك ، ولا يتصورونه ، ولو فهموه لم يفهموه ، وأنى للعرب ذلك !

ولهذا انتسب المتكلمون الذين تلججوا في بحار المقولات إليه خاصة دون غيره ، وسموه أستاذهم ورئيسهم ، واجتذبتهم كل فرقة من الفرق إلى نفسها ؛ ألا ترى أن أصحابنا ينتمون إلى واصل بن عطاء ، وواصل تلميذ أبي هاشم بن محمد بن الحنفية ، وأبو هاشم تلميذ أبيه محمد ، ومحمد تلميذ أبيه علي عليه السلام !

فأما الشيعة من الإمامية والزيدية والكيسانية ، فالتأؤم إليه ظاهر .

وأما الأشعرية فإنهم بأخيرة ينتمون إليه أيضاً لأن أبا الحسن الأشعري تلميذ شيخنا أبي علي رحمه الله تعالى ، وأبو علي تلميذ أبي يعقوب الشحام ، وأبو يعقوب تلميذ أبي الهذيل ، وأبو الهذيل تلميذ أبي عثمان الطويل ، وأبو عثمان الطويل تلميذ واصل بن عطاء ، فماد الأمر إلى انتهاء الأشعرية إلى علي عليه السلام .

وأما الكرامية فإن ابن الميهم ذكر في كتاب " اللغات " أن أصل مقالهم وعقيدتهم تنتهي إلى علي عليه السلام من طريقين :

أحدهما : بأنهم يسندون اعتقادهم عن شيخ بمد شيخ ، إلى أن ينتهي إلى سفيان الثوري ، ثم قال : وسفيان الثوري من الزيدية ، ثم سأل نفسه فقال : إذا كان شيخكم الأكبر الذي تنتمون إليه كان زيدياً ، فما بالكم لا تكونون زيدية ؟ وأجاب بأن سفيان الثوري رحمه الله تعالى ، وإن اشتهر عنه الزيدية ، إلا أن زيداً إنما كان عبارة عن موالاة أهل البيت ، وإنكار ما كان بنو أمية عليه من الظلم ، وإجلال زيد بن علي وتمظيمه ، وتصويبه في أحكامه وأحواله ، ولم يقتل عن سفيان الثوري أنه طعن في أحد من الصحابة .

الطريق الثاني : أنه حدّ مشايخهم واحداً فواحداً ، حتى انتهى إلى علماء الكوفة من أصحاب عليّ ، كسليمان بن كهيل ، وحبة الثعلبيّ ، وسالم بن الجند ، والفضل بن دكين ، وشعبة ، والأعمش ، وعففة وهيرة بن مريم ، وأبي إسحاق الشنقي ، وغيرهم ، ثم قال : وهؤلاء أخذوا العلم من عليّ بن أبي طالب عليه السلام ، فهو رئيس الجماعة - بمعنى أصحابه - وأقوالهم منقولة عنه وماخوذة منه .

وأما الخوارج فأنماؤهم إليه طاهر أيضاً ، مع طعنهم فيه ، لأنهم كانوا أصحابه ، وعنه متركوا ، بعد أن تعلموا عنه واتبعوا منه ، وهم شيعته وأنصاره بالجلل وصفين ، ولكن الشيطان ران على قلوبهم ، وأعمى بصائرهم .

ثم إنه عليه السلام ذكر حال هذا الطرف المائل فقال : « أول عدله نقي الهوى من نفسه » ، وذلك لأن من يأمر ولا يأتمر ، ويأمر ولا ينفى ، لا تؤثر عظمته ، ولا يدفع إرشاده . ثم شرح ذلك فقال : « يصف الحق ويصل به » . ثم قال : « لا يدع للخير غاية إلا أمها ، ولا مظنة إلا قصدتها » ؛ وذلك لأن الخير قدته وسروره وراحته ، فحق وجد إليه طريقاً سلكها ، ثم قال : « قد أمكن الكتاب - يعني القرآن - من زمانه » ، أي قد أطلع الأوامر الإلهية ، فاقترآن قائمه وإمامه ، يحمل حيث حلّ ، وينزل حيث نزل .

• • •

الأصل :

وآخرُ قد تسمى عالماً وليس به ، فافتبس جهائل من جهال ، وأصايل من ضلال ، ونصب للناس أمراً كما من جهائل غرور وقول زور ، قد حمل الكتاب على آرائه ، وعطف الحق على أهوائه ، يؤمن الناس من العظامير ، ويهوّن كبير الجرائم ، يقول : أقف عند الشبهات - وفيها وقع - ويقول : اهتزل البدع - وبينها أصطحج - قالشورة

صورة إنسان ، والقلب قلب حيوان ، لا يعرف باب الهدى فينبهه ، ولا باب
المتى فيصد عنه ، وذلك ميت الأحياء .

فأين تذهبون أو أنى توافكون ، والأعلام قائمة ، والآيات واضحة ؛ والسمار
منصوبة ؛ فأين يتأه بكم ، وكيف تسمعون وينسكم حذرة نبيكم ؛ وهم أزيمة
الخلق ، وأعلام الدين ، واليسنة الصديق ؛ فأنزلوهم بأحسن مكاريل القرآن ، ورددوهم
ورود اليهم المطاش .

أيها الناس ؛ حذوها عن خاتم النبيين صلى الله عليه ، إنه يموت من مات
مينا وليس يميت ، وبني من بلى مينا وليس يبال ، فلا تقولوا بما لا تعرفون ، فإن
أكثر الخلق فيما تذكرون ، وأغذروا من لا حجة لكم عليه . وهو أنا . ألا أعمل
فيكم بالثقل الأكبر ، وأترك فيكم الثقل الأصغر ، أقد ركزت فيكم
رأية الإيمان ، ووقنتكم على حدود الحلال والحرام ، وألبستكم العافية
من عذلي ، وفرشتكم المعروف من قولي وفعلي ، وأربشتكم كرائم الأخلاق
من نفسي .

فلا تستميلوا الرأي فيما لا يذكر قمره البصر ، ولا تتفعلوا إليه الفكر .

• • •

البنخ :

الجهائل : جمع جهالة ؛ كما قالوا : علاقة وعلائق . والأضاليل : الضلال ، جمع لا واحد
له من لفظه .

وقوله : « وقد حمل الكتاب على آرائه » ، بمعنى قد فسر الكتاب وتأوله على
مقتضى هواه وقد أوضح ذلك بقوله : « وعطف الحق على أهوائه » .

وقوله : « يؤمن الناس من العظام » ، فيه تأكيد لمذهب أصحابنا في الوعيد ، وتضعيف لمذهب المرجئة الذين يؤمنون الناس من عظام الذنوب ، ويؤمنونهم المفو ؛ مع الإصرار وترك التوبة . وجاء في الخبر المرفوع المشهور : « الكيس من دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت ، والأحمق من أتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله » .

وقوله : « يقول أقف عند الشبهات » ؛ يعني أن هذا المدعى للعلم يقول لنفسه والناس : أنا واقف عند أدنى شبهة تخرجني وتورعاً : كما قال صلى الله عليه وآله : « دَعُ ما يَرْيَبُكَ إلى ما لا يَرْيَبُكَ » .

ثم قال : « وفي الشبهات وقف » ، أي يحذر ؛ لأن من لا يعلم الشبهة ما هي ، كيف يقف عندها ، ويتعرج من الورطة فيها ، وهو لا يأمن من كوسها غير شبهة على الحقيقة . وقوله : « اعتزل البدع » ، ويصيح اضطلع ؛ إشارة إلى تضعيف مذاهب العامة والخشوية الذين رخصوا النظر المقل ؛ وقالوا : فنزل البدع .

وقوله : « فالمصورة صورة إنسان ... » وما بعده ، فراه بالحيوان ها هنا الحيوان الآخر كالجمار والثور ، وليس يريد العموم ، لأن الإنسان داخل في الحيوان ، وهذا مثل قوله تعالى : « إِنَّهُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَخْلَسُ سَيْلاً^(١) » .

وقال الشاعر :

وَكَأَنَّ تَرَى مِنْ صَامِتٍ لَكَ مُعْجَبٍ زِيَادَتُهُ أَوْ قَصُّهُ فِي التَّكَلُّمِ^(٢)
لِسَانُ الْفَقِي يَصِفُ وَيَصِفُ فَوَادُهُ فَمَنْ يَبْقَى إِلَّا صُورَةُ اللَّحْمِ وَالْهَمِ

(١) سورة النمل ٤٤ .

(٢) البيتان ينسبان إلى زهير ، ملحق ديوانه من ١٩٢ (من مجموعة الطه الشين) .

قوله : « وذلك مَيِّتُ الأحياء » كلمة فصيحَة ، وقد أحدها شاعر فقال :

لَيْسَ مَنْ مَاتَ فَاسْتَرَّاحَ يَمِيتُ إِمْسًا لَمَيِّتُ مَيِّتُ الأحياء ^(١)

إلا أن أمير المؤمنين عليه السلام أراد لجهله ، والشاعر أراد لهوًسه .

وثوَّفُكُونُ : تَقْلُونَ وتَصْرَفُونَ .

والأعلام : المعجزات هاهنا ؛ جمع عِلْمٌ ، وأصله الخيل أو الرابة والمارة ، تنصَّب في الفلاة ليهتدى بها .

وقوله : « فابنُ يُتَاهِ بِكُمْ » أي ابن يذهب بكم في التيه ؛ ويقال : أرضٌ تَبْهَاهُ يتعيرُ سالِكها . وتَصْمُومٌ : تنحيرون وتَصِلُونَ .

وعِثْرَةُ رسول الله صلى الله عليه وآله : أَمَلُهُمُ الأذَنُونَ ونسله ؛ وليس بصحيح قول مَنْ قال : لَأَنَّهُمْ رَهْطُهُ وَإِنْ بَعْدُوا ؛ وإنما قال أبو بكر يوم السقيفة أو بعده : « نحن عِثْرَةُ رسول الله صلى الله عليه وآله ونِيضَتُهُ التي فَتَنَتْ عَتَهُ » ؛ على طريقِ الخمار ؛ لأنهم بالنسبة إلى الأمصار عِثْرَةٌ له لاقِ الحقيقة ؛ ألا تَرَى أن المدائني جاحر القحطاني ؛ فيقول له : أيا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ ليس يعني أنه ابنُ عمه على الحقيقة ، بل هو بالإضافة إلى القحطاني كأنه ابن عمه ؛ وإنما استعمل ذلك وطلق به محازا . فإن قَدَّرَ مَقْدَرًا له على طريق حذفِ المضافات ؛ أي ابن ابن عم أب الأب ؛ إلى عدد كثير في البين والآباء ، فكذلك أراد أبو بكر أنهم عِثْرَةُ أجداده ، على طريق حذفِ للضاف . وقد يَبَيِّنُ رسول الله صلى الله عليه وآله عِثْرَتَهُ مَنْ هِيَ ، لما قال : « إني تارك فيكم النَّفَقَيْنِ » ، فقال : « عِثْرَتِي أَهْلُ بَيْتِي » ، وَيَبَيِّنُ في مقام آخر مَنْ أَهْلُ بَيْتِهِ حيث طرح عليهم كساء . وقال حين زلت : « إِمْسًا يُرِيدُ اللهُ

(١) لابن الرعناء الضبابي ، السكالي لابن الأثير ٣٢٦ .

يُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ»^(١) : « اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب الرجس عنهم ».

فإن قلت : فمن هي العترة التي عندها أمير المؤمنين عليه السلام بهذا الكلام ؟

قلت : نفسه وولده ؛ والأصل والحقيقة ضمه ، لأن ولده تاعان له ؛ وسدتهما إليه مع وجوده كنفية الكواكب المصينة مع طوع الشمس المشرقة ، وقد نبه النبي صلى الله عليه وآله على ذلك بقوله : « وأبو كالحير منكما » .

وقوله : « وهم أئمة الحق » : جمع زمام ؛ كأنه جعل الحق داراً معهم حيثما داروا ، وذاهبا معهم حيثما ذهبوا ، كما أن الدقة طويع زمامها ، وقد نبه الرسول الله صلى الله عليه وآله على صدق هذه الفصية بقوله : « وأدير الحق معه حيث دار » .

وقوله : « وأئمة الصدق » من الألفاظ للتشريعة القرآنية ، قال الله تعالى : ﴿ وَأَجْمَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴾^(٢) ، لما كان لا يصدر لهم حكم ولا قول إلا وهو موافق للحق ؛ والصواب جعلهم كأئمة السنة مودق لا يصدر عنها قول كاذب أصلاً ؛ بل هي كالملطوعة على الصدق .

وقوله : « فأزلوهم منازل القرآن » نعمة سرية عظيم ؛ وذلك أنه أمر السكتفين بأن يحرموا العترة في إجلالها وإعظامها والاهتداد لها والطاعة لأوامرها تحريم القرآن .

فإن قلت : فهذا القول منه يشعر بأن العترة معصومة ، فما قول أصحابكم في ذلك ؟ قلت : نص أبو محمد بن متوبة رحمه الله تعالى في كتاب « الكفاية » على أن علياً عليه السلام معصوم ، وإن لم يكن واجب العصمة ، ولا العصمة شرط في الإمامة ؛ لكن أدلة النصوص قد دلت على عصمته ؛ والقطع على باطله ومنهيه ، وأن ذلك أمر احتص

(١) سورة الأحزاب ٣٣

(٢) سورة الشعراء ٨٤ .

هو به دون غيره من الصعابة ؛ والفرق ظاهر بين قولنا : « زيد معصوم ، وبين قولنا : « زيد واجب العصمة » ، لأنه إمام ؛ ومن شرط الإمام أن يكون معصوماً ، فالاعتبار الأول مذهبياً ، والاعتبار الثاني مذهب الإمامية .

ثم قال : « وِرِدُّوم وِرْدِ الْهِيمِ الْعُطَشِ » ، أى كونهما ذوى جِرْصٍ وانكماش على أحد العلم والدين مهم ، كجِرْصِ الْهِيمِ الطَّامِ على وُرُودِ الْمَاءِ .

ثم قال : « أَيُّهَا النَّاسُ حَذُّوْهَا عَنْ حَاتِمِ النَّبِيِّينَ » إلى قوله : « وَلَيْسَ بِيَالٍ » هذا الموضع يحتاج إلى تلطف في الشرح ، لأنَّ لَقْدُنْلِي أَنْ يَقُولَ : ظاهر هذا الكلام متناقض ، لأنه قال : « يَمُوتُ مَنْ مَاتَ مِنَّا وَلَيْسَ بِمَيِّتٍ » ، وهذا كما تقول : يشعرك المتعرك وليس بشعرك ، وكذلك قوله : وَيَبْلِي مَنْ بَلَى مِنَّا ، وليس بِيَالٍ ، ألا ترى أنه سلب ويحلب لشيء واحد فإن قلت : أراد بقاء النفس مع موت الجسد ، كما قاله الأوائل وقوم من المتكلمين ، فيسل لكم : فَلَا اخْتِصَاصَ قَبْلِي وَلَا لِمَلِي بِذَلِكَ ؛ بل هذه قضية عامة وجميع البشر ، والكلام حَرَجٌ مَحْرَجُ الْمُنْدَحِ وَالْمَعْرُ .

فَنَقُولُ فِي الْجَوَابِ :

إِنَّ هَذَا يُمْكِنُ أَنْ يَحْتَمِلَ عَلَى وَجْهَيْنِ :

أحدهما : أن يكون النبي صلى الله عليه وآله وعلى ومن يتلوها من أطايب العترة أحياء بأبدانهم التي كانت في الدنيا بأعيانها ؛ قَدْ رَفَعَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى مَلَكُوتِ سَمَآوَاتِهِ ؛ وعلى هذا لو قدرنا أن محمداً احتفرت تلك الأجداث الطاهرة عقب دَفْنِهِمْ لم يجد الأبدان في الأرض ؛ وقدروى في الخبر النبوى صلى الله عليه وآله مثل ذلك ؛ وهو قوله : « إِنَّ الْأَرْضَ لَمْ تُسَلِّطْ عَلَى » ، وأنها لا تأكل لي لحماً ولا تشرب لي دماً ؛ نعم يبقى الإشكال في قوله : « وَيَبْلِي مَنْ بَلَى مِنَّا وَلَيْسَ بِيَالٍ » ؛ فإنه إن صحَّ هذا التفسير في الكلام الأول ؛ وهو قوله : « يَمُوتُ

مَنْ مَاتَ مَتًا وَلَيْسَ بِمَيِّتٍ ؛ فليس يصح في القضية الثانية ، وهي حديث البلاء ، لأنها تقتضي أن الأبدان تبلى وذلك الإنسان لم يبل ، فأحوَج هذا الإشكال إلى تقدير فاعل محذوف ؛ فيكون تقدير الكلام : يموت مَنْ مَاتَ حال موته وليس بميت فيما بعد ذلك من الأحوال والأوقات ، وَيَبْلَى كَمَنْ مَنْ بَلَى مَتًا وليس هو يبال ؛ فحذف المضاف كقوله : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ ﴾ ^(١) ، أى وإلى أهل مدين ؛ ولما كان السكَّن كالجرء من الميت لاشتماله عليه عبر بأحدهما عن الآخر لصعوبة والاشتمال ، كما عثروا عن المطر بالسما ، وعن الخراج المخصوص بالمائط ، وعن الخمر بالسكاس . ويجوز أن يحذف الفاعل كقوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾ ^(٢) ؛ و ﴿ قَوْلًا إِذَا بَلَغَتِ الْحُقُومَ ﴾ ^(٣) . وقول حاتم : « إِذَا حَشَرَ جَت » ^(٤) وحذف الفاعل كثير .

والوجه الثانى أن أكثر المتكلمين ذهبوا إلى أن للإنسان الحقّ العمل أجراً أصلية في هذه البنية الشاهدة ؛ وهى أقل ما يمكن أن تأتلف منه النية التى معها يصح كون الحقّ حياً ، وجعلوا الخطاب متوجّهاً نحوها ، والتكليف وارداً عليها ، وما عداها من الأجزاء ؛ فهى فاضلة ليست داخلية فى حقيقة لإنسان ؛ وإذا صحّ ذلك حار أن ينزع الله تلك الأجزاء الأصلية من أبدان الأشياء والأوصياء ، فيرقمها إليه سداً أن يخلق لها من الأجزاء الفاضلة عنها نظير ما كان لها فى الدار الأولى ؛ كما قاله مَنْ ذهب إلى قيامة الأنفس والأبدان معاً ، فتتم عنده وتلتذ بضروب اللذات الجسمانية ، ويكون هذا مخصوصاً بهذه الشجرة

(١) سورة الأعراف ٨٥

(٢) سورة ص ٣٧ .

(٣) سورة الواقعة ٨٣ .

(٤) من قوله حاتم :

لَعَمْرُكَ مَا بُغِىَ الثَّرَاءُ عَنِ الْعَتَىٰ إِذَا حَشَرَ جَتَ يَوْمًا وَضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ

ديوانه ١١٨ (من مجموعة غنة دواوين) .

للمباركة دين غيرها ؛ ولا يجب فقد ورد في حق الشهداء نحو ذلك في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَا عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ (١) .

وعلى الوجه الأول لو أن محضراً احتضر أجداً منهم لوجد الأبدان فيها ؛ وإن لم يعلم أن أصول تلك النُفُس قد انشعبت منها ونفت إلى الرفيق الأعلى ؛ وهذا الوجه لا يحتاج إلى تقدير ما قدرناه أولاً من الحذف ؛ لأن لجسد ينل في القبر لا قدر ما انتزع منه وينقل إلى محلّ القدس ؛ وكذلك أبصاً بصدق على الحد أنه ميت ؛ وإن كان أصل بنيته لم يمت ؛ وقد ورد في الخبر الصحيح : « أن أرواح الشهداء من المؤمنين في حواصل طيور خضر تدور في أفناء العنان ، وتأكل من ثمارها ، وتأوى إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش » ، فإذا جاء هذا في الشهداء فما ظنك بموالي الشهداء وساداتهم !

فإن قلت : فهل يجوز أن يتأول كلامه ، فيقال : لعله أراد بقاء الذِّكْر والصيت ؟ قلت إنه بعيد ، لأن غيرهم بشر كهم في ذلك ؛ ولأنه أخرج الكلام مخرجاً للتعجب المتعظم له .

فإن قلت : فهل يمكن أن يقال : إن الصَّيْر يعود إلى النبي صلى الله عليه وآله ؛ لأنه قد ذكره في قوله : « خاتم النبيين » فيكون التقدير : أنه يموت مَنْ مات منا والنبي صلى الله عليه وآله ليس بميت ، ويبلى مَنْ بلى منا والنبي ليس يبلى .

قلت : هذا أبعد من الأول ، لأنه لو أراد ذلك لقال : إن رسول الله صلى الله عليه وآله لا يُبلى الأرض ، وإنه الآن حي ؛ ولم يأت بهذا الكلام للوم ؛ ولأنه في سياق تمظيم المِثَرَة وتهجيل أمرها ؛ ونحوه بنفسه وتمدحه بخصائصه ومزاياه ؛ فلا يجوز أن يدخل في فصول ذلك ما ليس منه .

فإن قلت : فهل هذا الكلام منه أم قاله مرفوعاً ؟ قلت : بل ذكره مرفوعاً ، ألا تراه قال : « حذوها عن خاتم النبیین » . ثم نمود إلى التفسير فتقول : إنه لما قال لم ذلك علم أنه قال قولاً مجيباً ؛ وذكر أمراً غريباً ، وعلم أنهم يسكرون ذلك ويعصون منه ، فقال لم : فلا تقولوا مالا تعرفون ؛ أى لا تكذبوا أخبارى ؛ ولا تكذبوا أخبار رسول الله لكم بهذا فتقولون مالا تعلمون صيحته ، ثم قال : فإن أكثر الحق في الأمور العجيبة التي تنكرونها كاحياء الموتى في القيامة ، وكالصراط والميزان والنار والجنة وسائر أحوال الآخرة ؛ هذا إن كان حاطب من لا يعتقد الإسلام ؛ فإن كان الخطاب لمن يعتقد الإسلام فإنه يعني بذلك أن أكثرهم كانوا مرجئة ومشبهة ومُجبرة ؛ ومن يعتقد أفضلية غيره عليه ، ومن يعتقد أنه شرك في دم من ، ومن يعتقد أن معاوية صاحب حجة في حربه ؛ أو شبهة يمكن أن يتعلق بها متعلق ؛ ومن يعتقد أنه أخطأ في التحكيم ؛ إلى غير ذلك من ضروب الخطأ التي كان أكثرهم عليها .

ثم قال : « واعلموا من لائحة لكم عليه وهو أنا » ، يقول : قد عدلت فيكم ، وأحست السيرة وأفنتكم على المحجة البيضاء ، حتى لم يبق لأحد منكم حجة يحتاج بها على ، ثم شرح ذلك ، فقال : « عملت فيكم بالنقل الأكبر » ، يعني الكتاب ، « حلفت فيكم الأصغر » يعني ولديته ؛ لأسماء بقية النقل الأصغر ؛ فجاز أن يطلق عليهما بعد ذهاب من ذهب منه أنهما النقل الأصغر ؛ وإنما سمى النبي صلى الله عليه وآله الكتاب ، والعبرة الثقيلين لأن النقل في اللغة متاع للسافر وحشيه ؛ فكأنه صلى الله عليه وآله لما شارف الانتقال إلى جوار ربه تعالى جعل نفسه كالسافر الذي ينتقل من منزل إلى منزل ؛ وجعل الكتاب والعبرة كمتاعه وحشيه ؛ لأنها أخضر الأشياء به .

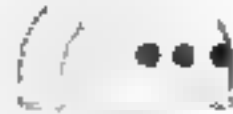
قوله : « وركزت فيكم دابة الإيمان » ، أى غرستها وأثبتها ؛ وهذا من باب

الاستعارة ..

وكذلك قوله : « ووقفتم على حدود الحلال والحرام » من باب الاستعارة أيضاً ، مأخوذ من حدود الدار وهي الجهات العاصية بينها وبين غيرها .

قوله : « وألبستم العافية من عدلي » استعارة فصيحة ، وأفصح منها قوله : « وفرشتكم المروف من قولي وفلي » ، أي جسته لكم فراشا ، وفرش ها هنا : متمدن إلى مفعولين ، يقال : فرشته كذا ، أي أوسعته إياه .

ثم نهاهم أن يستعملوا الرأي فيما ذكره لهم من خصائص العترة وبجانب ما منعها الله تعالى ، فقال : إن أمرنا أمر صعب لا تهتدي إليه العقول ، ولا تدرك الأبصار قمره ، ولا تتعملل الأفكار إليه . والتعملل : الدخول ، من تعملل الماء بين الشجر ، إذا تخللها ودخل بين أصولها .



الأصل :

ومنها :

حَقُّ بَطْنِ الظَّانِّ أَنَّ الدُّنْيَا مَعْقُولَةٌ عَلَى نَبِيٍّ أَمِيَّةٍ ؛ تَمْنَعُهُمْ دَرَّهَا ؛ وَتُورِدُهُمْ صَفْوَهَا ؛ وَلَا يُرْفَعُ عَنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ سَوْطُهَا وَلَا سَبْفُهَا وَكَذَبَ الظَّانُّ لِذَلِكَ ؛ بَلْ هِيَ نَجَّةٌ مِنْ لَذِيذِ الْعَيْشِ يَتَطَلَّعُونَهَا رِيحَةً ، ثُمَّ يَنْقُطُونَهَا بَجَلَّةً .



الشرح :

معقولة : محبوسة بمقال كما تعقل الدفة . وتمنعهم : تمنعهم ، والمنع : المطاء ، منح يمنح بالفتح ، والاسم المنحة بالكسر ، واستمنعت زيدا : طلبت بمنحته . والدَّرُّ في الأصل : اللبث ، جعل الدنيا كدقة معقولة عليهم تمنعهم لبثها ، ثم استعمال

الدَّرَّ في كل خير ونفع ، فقيل : لا دَرَّ دَرَّة ! أى لا كثر حبره ، ويقال فى المدح : **دَرَّة** أى عمله .

و**حَمَّة** من لبد العيش ، مصدر مَجَّ الشراب من فيه ، أى رَمَى به وقَذَّه ، ويقال : **انْحَجَّتْ** نقطة من القلم ، أى **تَرَشَّشَتْ** ، وشيخ **ماج** ، أى كبير **مَجَّ** الريق ، ولا يستطيع حبسه لكبره .

ويُظَمُّونَهَا ؛ أى يذوقونها . و**بُرْهَة** ، أى مدَّة من الزمان فيها طول . وانظرت الشيء من فمى ، **أنظرت** لفظاً : رَمَيْتُهُ ، وذلك الشيء **الأمَّاظَة** وال**الأمَّاظ** ؛ أى بلفظونها كلها لا يبقى منها شيء مهم .



وهذه الخطة طويلة ، وقد حذف الرضى رحمه الله تعالى منها كثيراً ، ومن جعلها : أما والذى فلقى الحبة ، و**رَأَى** النِّسْمَةَ ، **لَا يَرَوْنَ** الذى ينظرون حتى يهلك التمتنون . ويَصْمَحِلُ الحائون ، وينتبت المؤمنون ، وقيل ما يكون ؛ والله والله لا تَرَوْنَ الذى تنظرون حتى لا تَدْعُونَ الله إلا إشارة بأيديكم وإيماساً بحواجيسكم ، وحتى لا تملكون من الأرض إلا مواضع أقدامكم ، وحتى يكون موضع سلاحكم على ظهوركم ؛ فيومئذ لا ينصرنى إلا الله ملائكيه ، ومن كَتَبَ عَلَى قَلْبِهِ الإيمان ، والذى نَفَسُ عَلَى يَدَيْهِ لا تقوم عصابة تطب لي أولئيرى حقاً ، أو تدفع عنا ضيماً إلا صرعتهم البلية ، حتى تقوم عصابة شهدت مع محمد صلى الله عليه وآله بدرأ ، لا يودى قتيلهم ، ولا يداوى جريحهم ، ولا ينشأ صريعهم . قال المنسرون : هم الملائكة .

ومنها :

لقد دعوتكم إلى الحق وتوأميتكم ، وضررتمكم بالدرة فما استفتم ، وستليكم

بِمَدْيِ وَلَاةٍ يَمْدُبُونَكُمْ بِالسَّيَاطِ وَالْحَدِيدِ ، وَسَيَاتِبُكُمْ غُلَامًا ثَقِيْفٍ : أَحْفَشُ وَجُعْبُوبُ ؛
يَغْتَلَانِ وَيُظْلِمَانِ ، وَقَلِيلٌ مَا يُمْكِنَانِ .

قلت : الأخش : الضعيف البصر خِلَقَةٌ ، والجُعْبُوب : القصير القديم ، وهما الحجاج
ويُوصَفُ بن عمر . وفي كتاب عبد الملك إلى الحجاج : قَاتَلَكَ اللَّهُ أَخِيهَ الشَّعْبِيْنَ ،
أَسْكَ الْجَاعِرَيْنِ^(١) ؛

ومن كلام الحسن البصري رحمه الله تعالى يذكر فيه الحجاج : أَنَا مَا أُغَيِّشُ أَخِيَّشَ
يَمْدُ يَدٍ قَصِيرَةٍ الْبَنَانِ ، مَا عَرِقَ فِيهَا عَنَانٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .

وكان المثل يُصْرَبُ بِقِصَرِ يَوْسُفَ بن عمر ، وكان يَعْضِبُ إِذَا قِيلَ لَهُ قَصِيرٌ ، فَصَّلَ
لَهُ الْخِيَّاطُ ثَوْبًا ، فَاتَّبَعَ مِنْهُ فَضْلَةً كَثِيرَةً ، فَقَالَ لَهُ : مَا هَذِهِ ؟ قَالَ : فَصَّلْتُ مِنْ قِيسِ
الْأَمِيرِ ، فَضَرَبَهُ مِائَةَ سَوْطٍ ، فَسَكَانَ الْخِيَّاطُونَ بَعْدَ ذَلِكَ يَنْصُتُونَ لَهُ الْيَسِيرَ مِنَ الثَّوْبِ ،
وَيَأْخُذُونَ الْبَاقِيَ لَأَنْفُسِهِمْ .

(١) الجاعرتان : حرًا الوردتين الشريفين من العبدية . والأسك : الذي تعكركناه وعرقناه من التي

(٨٧)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ لَمْ يَخِمْ جَبَّارِي دَهْرٍ قَطُّ إِلَّا تَعَدَّ تَهْمِيلٍ وَرَخَاءً ؛ وَلَمْ يَجْهَرْ
عَظَمُ أَحَدٍ مِنَ الْأَئِمَّةِ إِلَّا بَعْدَ أَرْزٍ وَبَلَاءٍ ؛ وَفِي دُونِ مَا اسْتَفْتَلْتُمْ مِنْ عَقَبٍ وَمَا اسْتَدْبَرْتُمْ
مِنْ خَطْبٍ مُتَّبَرٍّ . وَمَا كَلُّ ذِي قَسْبٍ بَلِيبٍ ، وَلَا كَلُّ ذِي سَمْعٍ سَمِيعٍ ؛ وَلَا كَلُّ
ذِي نَاطِرٍ بَصِيرٍ .

فَيَا تَجَنَّبَا ! وَمَا لِي لَا أَتَمُّ مِنْ حَقٍّ هَذِهِ الْفِرْقِ عَلَى اخْتِلَافٍ حُجَّجَهَا فِي دِينِهَا ؛
لَا يَفْتَقِرُونَ أَثَرَ رَيٍّْ ، وَلَا يَفْقِدُونَ بَعْلَ وَحْيٍ ، وَلَا يُؤْمِنُونَ بِعَيْبٍ ، وَلَا يَعْقُونَ
عَنْ عَيْبٍ ، يَعْمَلُونَ فِي الشُّهَاتِ ، وَيَسِيرُونَ فِي الْفُتُوحَاتِ ، الْمَعْرُوفُ فِيهِمْ مَا عَرَفُوا ،
وَالْمُنْكَرُ عِنْدَهُمْ مَا أَنْكَرُوا ، مَفْرَعُهُمْ فِي الْمَعْصِيَّاتِ إِلَى أَنْفُسِهِمْ ، وَتَعْوِيْلُهُمْ فِي الْإِهْمَاتِ
عَلَى آرَائِهِمْ ؛ كَانَ كُلُّ أَمْرٍ مِنْهُمْ إِمَامٌ تَقِيهِ ، قَدْ أَخَذَ مِنْهَا فِيمَا بَرَى بِعُرَا ثِقَاتٍ ،
وَأَسْبَابِ حُكْمَاتٍ .

• • •

البيان :

الْقَصْمُ ، بِالْعَافِ وَالصَادِ الْمُهْمَةُ . الْكُسْرُ ، قَصْنُهُ فَانْقَصَمَ ، وَقَصْنُهُ فَتَقَصَّمَ ، وَرَجُلٌ
أَقْصَمُ الثَّنِيَّةِ ؛ أَيْ مَكْسُورُهَا ، بَيْنَ الْقَصْمِ ، بَفَتْحِ الصَادِ .
وَالْتَهْمِيلُ : التَّأْخِيرُ . وَيُرْوَى « رَجَاءً » وَهُوَ التَّأْخِيرُ أَيْضًا ؛ وَالرَّوَايَةُ الْمَشْهُورَةُ
« وَرَخَاءً » ، أَيْ بَعْدَ إِهْطَاتِهِمْ مِنْ سَعَةِ الْعَيْشِ وَخِصْبِ الْحَالِ مَا اقْتَضَتْهُ الْمَصْلَحَةُ .

والأزل ، بفتح الهزلة : الضيق . ويقتضون : يتبعون ، قال سبحانه ونعالى : ﴿ وَقَالَتْ لِاخْتِ قُصْبِي ﴾ ^(١) .

ويقتون ، بكسر العين ؛ عَفْتُ عَنْ كَذَا ، أَعِفْتُ عَفًّا وَعِفَّةً وَعَفَاقَةً ، أى كَفَفْتُ ، طَائِفًا عَفًّا وَعَنِيفًا ، وامرأة عَفَّةٌ وَعَفِيفَةٌ ، وقد أَعَفَّهُ اللَّهُ ، واستعفت عن المسألة ، أى عَفَّ . وتعَفَّفَ الرجل ، أى تَكَلَّفَ الْعِفَّةَ ، ويروى : « وَلَا يَمَقُّونَ عَنْ عَيْبٍ » ، أى لَا يَصْفَحُونَ . ومفزعهم : ملجؤهم . وفيما يرى ، أى فيما بظن ، ويرى بفتح الياء ؛ أى فيما يراه هو . وروى : « بمرآ وثيفات » .

يقول إن عادة الله تعالى ألا يقصم الجسارة إلا بعد الإسهال والاستدراج ؛ بإضافة النعم عليهم ، وألا يجبر أوليائه وينصرم إلا بعد مؤس وبلاء . يتعصب بهم ، ثم قال لأصحابه : إن في دون ما استعظمتم من عتب لمعبر ، أى من مشقة ، ^(٢) عما استقبلوه مالا قوة . في مستقبل زمانهم من الشيب ، وولادة السوء ، وتسكر الوقت ؛ وسمى المشقة عتبا ، لأن العتب مصدر عتب عليه ، أى وجد عليه ، بجمل الزمان كالواجد عليهم ، القائم في إنزال مشاقه بهم مقام الإنسان ذي الوجدة يعتب على صاحبه . وروى « من عتب » ، بفتح التاء جمع عتبه ؛ يقال : قد حمل فلان على عتبه ، أى أمر كربه من البلاء ؛ وفي المثل : « ما في هذا الأمر رتب ولا عتب » ، أى شدة . وروى أيضا « من عنت » وهو الأمر الشاق وما استدبروه من خطب ؛ يبنى به ما نصرم عنهم من الحروب والوقائع التي قصروها ونضوها واستدبروها . وروى : « واستدبرتم من خصب » ؛ وهو رخاء العيش ؛ وهذا يقتضى المعنى الأول ، أى وما حلقتم وراءكم من الشباب والصاعدة وصفو العيشة .

ثم قال : « وما كل ذى قلب بايب ... » الكلام إلى آخره ، وهو مأخوذ من قول الله

(١) سورة القصص ١١ .

(٢) (٢-٢) ج : « يعنى ما استقبلوه ، أى مالا قوة » .

تعالى : ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَنٌ لَا
يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ ^(١) .

ثم تعجب من اختلاف حجج الفرق في الدين وخطئهم وكونهم لا يتبعون أقوال
الأنبياء ، ولا أقوال الأوصياء ، ثم نعى عليهم أحوالهم القبيحة ، فقال : إنهم لا يؤمنون
بالغيب ، أى لا يصدقون بما لم يشاهدوه ، ولا يكفون عن الأمور القبيحة ، لكنهم يعملون
في الشهوات ، أى يعملون أعمالا داخلة في الشهوات متوسطة لها . ويسرون في الشهوات ،
جعل الشهوات كالطريق التي يسير فيها الإنسان

ثم قال : المروف فيهم ما عرفوه ، أى ليس المروف عندهم ما دلّ الدليل على كونه
معروفا وصوابا وحقا ، بل المروف عندهم ما ذهبوا إلى أنه حق ، سواء كان حقا في نفس
الأمر أو لم يكن ، والنكر عندهم ما أنكروا ^{كما} شرحناه في المروف .

ثم قال : إنهم لا يستشعرون بعالم ، ولا يستفتون فيها فاصلا ، بل منزههم في الأمور
المشكلة إلى أنفسهم وآرائهم ، ولقد صدق عليه السلام ، فإن هذه صفات من يدعى العلم
والفصل في زمانه وقبله بدهر طويل ، وذلك أنهم يأفون من التعلم والاسترشاد ، فالبادئ
منهم يعتقد في نفسه أنه أفضل من البارع للنهى . ومتى ظفر الواحد منهم ببادئ علم
وتحله ، شرع في التدريس والتصنيف ، فنهى الترامه بذلك من التردد إلى أبواب العلماء ،
وأنف من سؤالهم عن الأمور المشكلة ، فدام جهله إلى أن يموت .

ثم قال : « كَانَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ إِمَامَ نَفْسِهِ » ، ويرى بحذف « كَانَ » وإسقاطها ،
وهو أحسن .

الأنزل :

ومن خطبة له عليه السلام :

أَرْسَلَهُ عَلَى حِينِ فِتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ، وَطَوَّلَ هَجْرَهُ مِنَ الْأُمَمِ، وَأَعْتَرَايِمُ^(١) مِنَ الْفِتَنِ؛
وَأَنْدِشَارٍ مِنَ الْأُمُورِ، وَتَنْظَرٍ مِنَ الْخُرُوبِ، وَالدُّنْيَا كَأَيْفَةِ الثَّوْرِ، ظَاهِرَةُ الْغُرُورِ؛
عَلَى حِينِ أَصْفَرَارٍ مِنْ وَرَقِهَا، وَإِبَاسٍ مِنْ ثَمَرِهَا، وَإِعْوَارٍ^(٢) مِنْ مَائِهَا. قَدْ دَرَسَتْ
مَنَارُ الْمَدَى، وَظَهَرَتْ أَعْلَامُ الرَّدَى؛ فَهِيَ مُقَحَّحَةٌ لِأَهْلِهَا، عَابِثَةٌ فِي وَجْهِ طَائِلِهَا، تَمْرُهَا
الْمِثْنَةُ، وَطَعَامُهَا الْيَقِينَةُ، وَشِعَارُهَا الْخَوْفُ، وَدِثَارُهَا السَّيْفُ.

فَاعْتَبِرُوا عِبَادَ اللَّهِ، وَادْكُرُوا نَيْكَ الَّتِي آبَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ بِهَا مُرْتَهَنُونَ،
وَعَلَيْهَا مُحَاسِبُونَ. وَلَعَمْرِي مَا تَقَادَمَتْ بِكُمْ وَلَا يَمِيزُ الْفُجُورُ، وَلَا خَلَّتْ فِيمَا
بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمُ الْأَحْقَابُ وَالْقُرُونُ، وَمَا أَنْتُمْ إِلَّا يَوْمَ كُنْتُمْ فِي أَصْلَابِهِمْ
بِجَمِيدٍ.

وَاللَّهُ مَا أَتَمَّكُمْ الرُّسُولُ شَيْئًا إِلَّا وَهَأُتَا دَا الْيَوْمَ مُسْمُكُوهُ، وَمَا أَتَمَّاعُكُمْ
الْيَوْمَ يَدُونِ أَتَمَّاعِكُمْ بِالْأُمْسِ، وَلَا شَقَّتْ لَهُمُ الْأَبْصَارُ، وَلَا جُعِلَتْ لَهُمُ الْأَفْتِدَةُ
فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ؛ إِلَّا وَقَدْ أُعْطِيتُمْ مِثْلَهَا فِي هَذَا الزَّمَانِ، وَاللَّهُ مَا بَصُرْتُمْ بَعْدَهُمْ شَيْئًا
جَهْلُوهُ، وَلَا أَصْفَيْتُمْ بِهِ وَحُرْمُوهُ، وَلَقَدْ بَرَكْتَ بِكُمْ الْبَلِيَّةُ جَانِلًا خَطَايَاهَا، وَخَوًّا
بَطَانُهَا؛ فَلَا يَعْرِفُكُمْ مَا أَصْبَحَ فِيهِ أَهْلُ الْعُرُورِ، فَإِنَّمَا هُوَ ظِلٌّ تَمْدُودٌ إِلَى
أَجَلٍ مَعْدُودٍ.



الْبَيْتُ :

الفترة بين الرسل : انقطاع الرسالة والوحي ؛ وكذلك كان إرسال محمد صلى الله عليه وآله ، لأن بين محمد وبين عهد المسيح عليه السلام عهداً طويلاً ، أكثر الناس على أنه سبائة سنة ، ولم يرسل في تلك المدة رسول ، اللهم إلا ما يقال عن خالد بن سنان العبسي ، ولم يكن نبياً ولا مشهوراً .

والهجمة : التهمة لئلا ، والمجموع مثله ، وكذلك التهمجاع ، بفتح التاء ، فأما الهجمة بكسر الهاء ؛ فهي الهيئة كالجليسة من الجلوس .

قوله : « واعتزام من الفتن » ، كأنه جعل الفتن معتزلة ، أي مريدة مصممة للشغب والمرج . ويروى : « واعتراض » و « ويريى » و « واعتزام » بالراء المهملة من العزام ، وهي الشرة . والنظى : التلعب .

وكاسفة النور : قد ذهب ضوءها ، كما تكسف الشمس . ثم وصفا بالتمير وذيول الخال ، فجعلها كالشجرة التي اصفر ورقها وييس ثمرها . وأحور ماؤها ، والإحوار : ذهاب الماء ، فلاة عوراء : لا ماء بها . ومن رواء : « وإحوار من مائها ، بالغين المعجمة ، جملة من تار الماء ، أي ذهب ، ومنه قوله تعالى : « أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا »^(١) .

ومنعمة لأهلها : كالحلة في حزمهم .

ثم قال : « ثمرها الفتنة » أي نتيجتها وما يتولد عنها . وطعامها الخيفة ، يعني أكل الجاهلية للجنة ، أو يكون على وجه الاستمارة ، أي أكلها خبيث . و « الخيفة » أي الخوف ، ثم جعل الخوف والسيف شعارها ودثارها ، فالشعار ما يلي الجسد ، والدثار فوق

الشمار ، وهذا من بديع الكلام ومن جيد الصناعة ، لأنه لما كان الخوف يُقدّم
السيف والسيف يتلوّه ، جعل الخوف شماراً لأنه الأقرب إلى الجسد ؛ وجعل
الله تبارك وتعالى له .

ثم قال : « واذكروا نيك » كلمة إشارة إلى المؤنة النائية ، فيمكن أن يعنى بها الدنيا
إلحق تقدم ذكرها ، وقد جعل آباءهم وإخوانهم مرتبتين بها ومحاسين عليها ،
والارتبان : الاحتباس ، ويمكن أن يعنى بها الأمانة التي عرضت على الإنسان فحملها ،
والمراد بالأمانة الطاعة والعبادة وفعل الواجب وتجنب التقيح . وقال : « نيك » ولم يحمر
ذكرها ، كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ الْكِتَابُ^(١) ﴾ ولم يحمر ذكره ؛ لأن الإشارة إلى
مثل هذا أعظم وأهمب وأشد روعة في صدر الخطيب من التصریح .

قوله : « ولا حلت فيما بينكم وبينهم الأحقاب » ، أى لم يطل العهد ؛ والأحقاب :
المدد المتطاولة ، والقرون : الأمم من الناس .

وقوله : « من يوم كنتم » ؛ يروى بفتح اليم من « يوم » على أنه مبنى ؛ إذ هو
مضاف إليه الفعل المبني ؛ ويروى بجرها بالإصافة ؛ على اختلاف القولين في علم العربية .
ثم اختلفت الرواية في قوله : « والله ما أسمعكم » فروى بالكاف وروى « أسمعهم » ،
وكذلك اختلفت الرواية في قوله : « وما أسمعكم اليوم بدون أسمعكم بالأمس » ، فروى
هكذا ، وروى « بدون أسمعهم » ، فن رواه بهاء البنية في الموضعين قال كلام منظم ،
لا يحتاج إلى تأويل ، ومن رواه بكاف الخطاب ، قال : إنه خاطب به من صحب النبي
صلی الله عليه وآله وشاهده وسمع خطابه ؛ لأن أصحاب علي عليه السلام كانوا فريقين :
صحابه ونابيين ، وبعض الرواية الأولى سياق الكلام .

وقوله : « ولا شئت لهم الأبصار ... إلا وقد أعطيت مثلها^(٢) » .

(٢) كفاي الأصول .

(١) - سورة البقرة ١٠٢ .

وأصفيتم به : منعتموه ، من الصفي وهو ما يصطفيه الرئيس من المعتم لنفسه قبل
القسمه ، يقال : صفي وصفيّة .

وحلاصة هذا الكلام أن جميع ما كان رسول الله صلى الله عليه وآله قاله لأصحابه
قد قلت مثله لكم ، فأطاع أولئك وعصبتهم أئمتهم ، وحالكم مساوية لحالهم .

قلت : لو أن محببهم بحبه لأمكن أن يقول له : المحاطون وإن كانوا بوعا
واحدا متساويا ؛ إلا أن المحاط مختلف الحال ؛ وذلك لأنك وإن كنت ابن عمه في
النسب وأخاه ولحم ودمه ؛ وفصائلك مشتقة من فصائله ، وأنت قدس من موره وثانيه
على الحقيقة ، ولا ثالث لكما ؛ إلا أنك لم ترزق القول الذي رزقه ؛ ولا انفلت بموس
الناس لك حسب أعماله ؛ وبذلك خاصية النعمة التي امتار بها عنك ؛ فإنه كان لا يسمع
أحد كلامه إلا أخته ومال إليه ؛ ولذلك كانت قريش تسمى المسلمين قبل الهجرة الصبية ،
ويقولون : يخاف أن يَصُور الوليد بن المغيرة إلى دين محمد صلى الله عليه وآله ؛ ولئن صبا
الوليد وهو ربحانة قريش لتصورت قريش بأجمعها . وقالوا فيه : ما كلامه إلا السحر ؛
وإنه ليعمل بالأبواب فوق ما تفعل الحجر . وهوا صبياتهم عن الجلوس إليه لئلا يستميلهم
بكلامه وشماله ؛ وكان إذا صلى في الحِجر وجهر يحملون أصانعهم في آذانهم خوفاً أن
يسعروهم ويستميلهم بقراءته وبوعظه وتذكيره ، هذا هو معنى قوله تعالى : ﴿ جَعَلُوا
أَصَانِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَعْشَوْا نِيَاهَهُمْ ﴾^(١) .

ومعنى قوله : ﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَخُذَهُ وَلَوْ أَقْبَلُ أَذْيَارِهِمْ نُفُوراً ﴾^(٢)
لأنهم كانوا يهربون إذا سمعوه يتلو القرآن ، خوفاً أن يميز عقائدكم في أصنامهم ، ولهذا

(١) سورة نوح .

(٢) سورة الإسراء ٤٦ .

أسلم أكثر الناس بمجرد سماع كلامه ورؤيته ومشاهدة رُؤاته ومنظره، وماذا قوه من حلاوة لفظه وسريّة كلامه في آذانهم ، ومَلَك قلوبهم وعقولهم ، حتى بذلوا السَّج في نصرته ؛ وهذا من أعظم معجزاته عليه السلام ، وهو القبول الذي منحه الله تعالى ، والطاعة التي جعلها في قلوب الناس له ، وذلك على حقيقة سيرة النبوة ، الذي تفرّد به صلوات الله عليه ، فكيف يروم أمير المؤمنين من الناس أن يكونوا معه كما كان آباؤهم وإخوانهم مع النبي صلى الله عليه وآله ؛ مع اختلاف حال الرئيسين ونسأوى الأثرين كما يعتبر في تحقّقه تساوى حال الحالين ، يعتبر في حقيقةه أيضا تساوى حال المتّين .

ثم نعود إلى التفسير ، قال : « ولقد زلت بكم البلية » ، أى المحنة العظيمة ، بمعنى فتنة معاوية وبني أمية .

وقال : « جائلا خطامها » ، لأن الناقة إذا اضطرب زمامها استعصمت على راسكها ، ويسمى الزمام خطاما لكونه في مقدّم الأنف ، والعلم من كل دابة : مقدّم أنفها وفمها^(١) ، وإنما جعلها رخوا بطانها ، لتكون أصعب على راسكها ، لأنه إذا استرخى البطنان كان الراكب في معرض السقوط عنها ، وبطانت القتب هو الحزام الذي يحمل تحت بطن البعير .

ثم نهاهم عن الاغترار بالدنيا ومتاعها ، وقال : إنها ظلٌّ ممدود إلى أجل معدود ، وإنما جعلها كالظلّ لأنه ساكن في رأى العين ، وهو متحرك في الحقيقة ، لا يزال يتقلّص ، كما قال تعالى : ﴿ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾^(٢) وهو أشبه شيء بأحوال الدنيا .
وقال بعض الحكماء : أهل الدنيا كركب سير بهم وهم نيام .

(١) ج : « أفه وفه » .

(٢) سورة الفرقان ٥٦ .

(٨٩)

الأمثل :

ومن خطبة له عليه السلام :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْمَعْرُوفِ مِنْ غَيْرِ رُؤْيَةٍ ، وَالْخَلْقِ مِنْ غَيْرِ رُؤْيَةٍ ، الَّذِي لَمْ يَزَلْ
قَائِمًا دَائِمًا ؛ إِذْ لَا سَمَاءَ دَاتُ أَجْرَاجٍ ، وَلَا حُجُبَ دَاتُ ارْتِجَاجٍ ، وَلَا لَيْلَ دَاجٍ ، وَلَا
بَحْرَ سَاجٍ ، وَلَا جَبَلٍ دُوْفِحَاجٍ ، وَلَا فَجٍّ دُوْغَوْحَاجٍ ، وَلَا أَرْضَ دَاتُ مِهَادٍ ،
وَلَا خَلْقَ دُوْاعْتِيَادٍ ، وَدَلَيْكَ مُتَعَدِّعُ الْخَلْقِ وَوَلِيَّهُ ، وَإِلَهُ الْخَلْقِ وَرَاقَهُ ، وَالشَّمْسُ
وَالْقَمَرُ دَائِيَانِ فِي مَرَصَاتِهِ ، يُبْلِيَانِ كُلَّ حَدِيدٍ ، يُبْغِرَانِ كُلَّ نَعِيدٍ .



البنخ :

الرؤية : الفكرة وأصلها الهمز ، رَوَاتُ في الأمر ، وقد جاء مثلها كلمات يسيرة شاذة ،
نحو البرية ، من برا ، أى خلق ، والقرية من دَرَأَ أى خلق أبصا ، والدرية وهي ما يستتر به
الصائد ، أصله من درأت أى دفعت ، وفلان برى أصله برى ، وصف الله تعالى بأنه يعرف
من غير أن تتعلق الأنصار بذاته ، ويخلق من غير تفكير وتروى فيها بحلقه .

لم يزل قائما ، القائم والقيوم بمعنى ، وهو الثابت الذي لا يزول ، ويسمونه في الاصطلاح
النظري بالواجب الوجود ، وقد بصر القائم على معنى قولهم : فلان قائم بأمر كذا ، أى والى
ومسك له أن يضطرب .

ثم قال : هو موصوف بأنه قائم دائم من قبل أن يخلق العالم ، وهذا يؤكد التفسير

الأول ؛ لأنه إذا لم يكن العالم مخلوقا بعد لم يصدق عليه أنه قائم بأمره إلا بالقوة لا بالفعل ؛ كما يصدق عليه أنه سميع بصير في الأزل ، أى إذا وجدت السموعات والمبصرات سمعها وأبصرها ، ولو سمى قبل خلق الكلام متكلما على هذا التفسير لم أستبعد ؛ وإن كان أصحابنا يابونه .

والأبراج : الأركان في اللغة العربية .

فإن قلت : فهل يطابق هذا التعبير ما يمتقده أصحاب الهيئة وكثير من الحكماء والمتكلمين أن السماء ككرة لازاوية فيها ولا ضلع ؟

قلت : نعم لامتافاة بين القولين ، لأن الفلك وإن كان ككرة لكن فيه من التتمات ما يجرى مجرى أركان الحصن أو السور ، فصح إطلاق لفظة الأبراج عليه ، والتتمات أجسام في حشو الفلك تخف في موضع ؛ والناس كلهم اشتوها .

فإن قلت : فهل يجوز أن يحمل لفظ الأبراج على ما يمتقده للتجّون وأهل الهيئة ، وكثير من الحكماء والمتكلمين من كون الفلك مقسوماً بأثنى عشر قسماً ، كل قسم منها يسمى برجاً ؟

قلت : لا مانع من ذلك ، لأن هذا المسمى كان معلوماً متصوّراً قبل نزول القرآن ، وكان أهل الاصطلاح قد وضعوا هذا اللفظ بإذنه ، فجاز أن ينزل القرآن بموجبه ؛ قال تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴾ ^(١) ، وأحدها على عليه السلام منه ، فقال : « إذ لاسماء ذات أبراج » ، وارتفع « سماء » لأنه مبتدأ وخبره محذوف ؛ وتقديره « في الوجود » . ثم قال : « ولا حُجُب ذات إرتاج » والإرتاج مصدر أرتج أى أغلق ، أى ذات إغلاق ، ومن رواه « ذات إرتاج » على « فِعال » ، فالرتاج الباب المفتق ، ويبيد رواية من رواه

«ذات أرتاج» لأن «فعالا» قل أن يجمع على «أفعال»؛ ويعنى بالحُجب ذات الارتاج حجب
النور المضروبة بين عرشه العظيم وبين ملائكته . ويجوز أن يريد بالحجب السموات
أنفسها ، لأنها حجبت الشياطين عن أن تعلم ما للملائكة فيه .

والليل الهاجي : المظلم ، والبحر الساجي : الساكن . والعجاج : جمع فجج ، وهو الطريق
الواسع بين جبلين . والهاد : الفراش .

قوله : « ولا خلق ذوا اعتماد » ؛ أى ولا مخلوق يسمى برجلين فيعتمد عليهما ، أو يطير
بمخافيه فيعتمد عليهما ؛ ويجوز أن يريد بالاعتماد هنا : البطش والتصرف . مبتدع الخلق : مخرجه
من المدم المحض ، كقوله تعالى : ﴿ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ^(١) . ودائبان : تنبيه دائب ؛
وهو الجاذب المتجدد للتعب ، دأب في عمله أى جد وتعب دأبا ودهوفا فهو دئيب ، ودأته أبا .
وسمى الشمس والقمر دائبين لتعاقبهما على حال واحتمل دأما لا يفتران ولا يسكان ، وروى
«دائبين» بالنصب على الحال ويكون خبر للابتداء «يلبيان» وهذه من الألفاظ القرآنية ^(٢) .

الأنزل :

قَسَمَ أَرْزَاقَهُمْ ، وَأَخْصَى آثَارَهُمْ وَأَعْمَلَهُمْ وَعَدَدَ أَنْفُسِهِمْ وَحَائِنَةَ أَعْيُنِهِمْ ،
وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ مِنَ الصَّيْرِ ، وَاسْتَقَرَّهُمْ وَاسْتَوْدَعَهُمْ مِنَ الْأَرْحَامِ وَالظُّهُورِ ،
إِلَى أَنْ تَتَنَاقَى بِهِمُ الْغَائِيَاتُ .

• • •

الإنزج

آثارهم ، يمكن أن يُعنى به آثار ومثلهم في الأرض أيذاً بأنه تعالى عالم بكل معلوم

(١) سورة الأنعام ١٠١ .

(٢) من قول تعالى في سورة إبراهيم : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ﴾

كَأَذْنِ قَوْلِهِ سَبْعَانَهُ : ﴿ وَمَا تَنْسُقُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا بَعْلُهَا ﴾ ^(١) بذلك . ويمكن أن يعنى به حرركاتهم ونصرفاتهم .

وروى : « وعدد أرقامهم » على الإضافة .

وخاتمة الأعين : ما يرمى به مسارقة وخفية . ومستقرهم ، أى فى الأرحام ومستودعهم ، أى فى الأصلاب ، وقد فسر ذلك فتكون « من » متعلقة بمستودعهم ومستقرهم على إرادة تكررها ، ويمكن أن يقال : أراد مستقرهم وما واهم على ظهر الأرض ومستودعهم فى بطنها بعد الموت ، وتكون « من » هاهنا بمعنى « مذ » أى مذكران كونهم فى الأرحام والظهور إلى أن تنتهى بهم العايات ، أى إلى أن يحشروا فى القيامة . وعلى التأويل الأول يكون تنهاى العايات بهم عبارة عن كونهم أحياء فى الدنيا .



الأصل :

هُوَ الَّذِي اشْتَدَّتْ نِعْمَتُهُ عَلَى أَعْدَائِهِ فِي سَعَةِ رَحْمَتِهِ ، وَأَنْسَمَتْ رَحْمَتُهُ لِأَوْلِيَائِهِ فِي شِدَّةِ نِعْمَتِهِ . قَاهِرٌ مَنْ عَازَاهُ ، وَمُذْمَرٌ مَنْ شَاكَاهُ ؛ وَمُدِيلٌ مَنْ نَاوَاهُ ، وَغَالِبٌ مَنْ حَادَاهُ ، مَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ كَمَاهُ ، وَمَنْ سَأَلَهُ أَعْطَاهُ ، وَمَنْ أَقْرَصَهُ قَضَاهُ ، وَمَنْ شَكَرَهُ جَزَاهُ .

عِبَادَ اللَّهِ ، زِنُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُوزَنُوا ، وَحَاسِبُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تُحَاسَبُوا ، وَتَنْفُسُوا قَبْلَ ضَيْقِ الْخُلُقِ ، وَأَنْفَادُوا قَبْلَ عُنْفِ السَّيِّئِ ، وَأَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ لَمْ يُمْنْ عَلَى نَفْسِهِ حَتَّى يَسْكُونَ لَهُ مِنْهَا وَاعِظَ وَرَاجِرٌ ؛ لَمْ يَسْكُنْ لَهُ مِنْ خَيْرِهَا لَازِجٌ وَلَا وَاعِظٌ .



البَيْزُجُ :

بمحوز تَقِيْمَةٌ وَنَقْمَةٌ ، مثل كَلِمَتِهِ وَكَلِمَةٍ ، وَلَبِيَّةٌ وَلَبِيَّةٌ ، وَمَعْنَى الْكَلَامِ أَنَّهُ مَعَ كَوْنِهِ وَاسِعَ الرَّحْمَةِ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ ، وَأَنَّهُ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ؛ فَإِنَّهُ شَدِيدُ النَّقْمَةِ عَلَى أَعْدَائِهِ ؛ وَمَعَ كَوْنِهِ عَظِيمَ النَّقْمَةِ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ وَكَوْنَهُ شَدِيدَ الْعِقَابِ فَإِنَّهُ وَاسِعُ الرَّحْمَةِ لِأَوْلِيَائِهِ . وَعَازَةً ، أَيْ غَالِبَهُ ، وَعَازَةً أَيْ غَلَبَهُ ، وَمِنْهُ ﴿ وَعَزَّيْنِي فِي الْخُلُطَابِ ﴾ ^(١) ، وَفِي الْمَثَلِ « مَنْ عَزَّ بَزَّ » ، أَيْ مَنْ غَلَبَ سَلَبَ . وَالْمَدْمَرُ : الْمُهْلِكُ ، دَمَرُهُ وَدَمَّرَ عَلَيْهِ بِمَعْنَى ، أَيْ أَهْلَكَهُ . وَشَاقَهُ : عَادَاهُ ، قِيلَ إِنَّ أَصْلَهُ مِنَ الثَّقِيقِ وَهُوَ النُّصْفُ ، لِأَنَّ الْمَعَادِي بِأَخْذٍ فِي شِقِّقٍ وَالْمَعَادِي فِي شِقِّقٍ بِقَابِلِهِ . وَبَنَؤَاهُ ، أَيْ عَادَاهُ ، وَالْقَلْفَةُ مَهْمُوزَةٌ ، وَإِنَّمَا لِيْنَهَا لِأَجْلِ الْقَرِيْنَةِ السُّعْمِيَّةِ ، وَأَصْلُهَا بَنَؤَاتُ الرَّجُلِ مَنَؤَاتٌ وَبَنَؤَاهُ ؛ وَيُقَالُ فِي الْمَثَلِ : « إِذَا بَنَؤَاتُ الرَّجُلِ قَاصِرَةٌ » .

قَوْلُهُ : « زَنُوا أَنْفَكُمْ قَبْلَ أَنْ تَزْنُوا » مِنْ الْكَلَامِ الْمَصْبِيحِ الْمَادِرِ الْإِطْفِيفِ ، قَوْلٌ : اَعْتَبِرُوا أَعْمَالَكُمْ وَأَنْتُمْ عَمَّارُونَ قَادِرُونَ عَلَى اسْتِدْرَاكِ الْعَارِطِ ، قَبْلَ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْإِعْتِبَارُ فَعَلَّ خَيْرَكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَقْتَدِرُونَ عَلَى اسْتِدْرَاكِ الْعَارِطِ ، وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ : « وَحَاسِبُهَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَحَاسِبُوهَا » .

ثُمَّ قَالَ : « وَتَنَفَّسُوا قَبْلَ ضَيْقِ الْخُلُقِ » ، أَيْ اتَهَيَّزُوا لِلْفُرْصَةِ ، وَاعْمَلُوا قَبْلَ أَنْ يَفُوتَكُمْ الْأَمْرُ ، وَيَجْدَّ بِكُمْ الرَّحِيلُ وَيَقَعَ الدَّمُ ، قَالَ الشَّاعِرُ :

اَخِيْمْ وَمُطِيْنُكَ رَطْبٌ إِنْ قَدَرْتَ فَكَمْ قَدْ أَمَكَّنَ الْخَلْمُ أَقْوَامًا فَمَا خَتَمُوا

ثُمَّ قَالَ : « وَاتَّعَادُوا قَبْلَ عُنْفِ السِّيَاقِ » ، هُوَ الْعُنْفُ بِالْفِغْمِ ، وَهُوَ خُذُّ الرِّفْقِ ، يُقَالُ عُنْفٌ عَلَيْهِ وَعُنْفٌ بِهِ أَيْضًا ، وَالْمَتْنِيفُ : الْقَدِي لَا رِفْقَ لَهُ بِرُكُوبِ الْخَيْلِ ، وَاجْمَعُ عُنْفٌ . وَاعْتَنَفْتُ الْأَمْرَ ، أَيْ أَخَذْتُهُ بِعُنْفٍ ، بِقَوْلٍ : اتَّعَادُوا أَنْتُمْ مِنْ أَنْفَكُمْ قَبْلَ أَنْ تَتَّعَادُوا وَتَسَاقُوا

بغير اختياركم سوقاً حنيفاً . ثم قال « مَنْ لَمْ يُعِثْهُ اللهُ عَلَى نَفْسِهِ حَقٌّ يَجْعَلُ لَهُ مِنْهَا وَاعِظاً وَزَاجِراً لَمْ يَنْفَعِهِ الزَّجْرُ وَالْوَعْظُ مِنْ غَيْرِهَا » أَخَذَ هَذَا اللَّغْنَى شَاعِرٌ قَالَ :

وَأَقْصَرْتُ عَمَّا تَمْهِدُ بِنَ وَزَاجِرٌ مِنْ النَّفْسِ خَيْرٌ مِنْ عِتَابِ الْمَوَازِلِ

فَإِنْ قُلْتَ : أَلَيْسَ فِي هَذَا الْكَلَامِ إِشْعَارٌ مَا بِالْجَبْرِ ؟

قُلْتُ : إِنَّهُ لَا خِلَافَ بَيْنَ أَصْحَابِنَا فِي أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَطْفَأَ يَفْعَلُهَا بِمَبَادِهِ ، فَيَقْرَبُهُمْ مِنَ الْوَاجِبِ ، وَيُبْعِدُهُمْ مِنَ الْقَبِيحِ ؛ وَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مِنْ حَالِهِ أَنَّهُ لَا لُطْفَ لَهُ لِأَنَّ كُلَّ مَا يَرْضَى أَطْفَأَ لَهُ فَإِنَّهُ لَا يُوَثِّرُ فِي حَالِهِ وَلَا يَزِدُّهُ بِهِ إِلَّا إِسْرَافاً عَلَى الْقَبِيحِ وَالْبَاطِلِ ؛ فَهُوَ الَّذِي عَنَاهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِقَوْلِهِ : « مَنْ لَمْ يَمُنْ عَلَى نَفْسِهِ » ، لِأَنَّهُ مَاقِبِلُ الْمُؤْنَةِ وَلَا انْقَادَ إِلَى مُقْتَضَاهَا ، وَقَدْ رَوَى : « وَاعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ لَمْ يَمُنْ عَلَى نَفْسِهِ » بِكسر العين أى مَنْ لَمْ يَمُنْ الْوَاعِظِينَ لَهُ وَالْمُذْنِبِينَ عَلَى نَفْسِهِ ، وَلَمْ يَكُنْ مَعَهُمْ إِلَّا عَلَيْهَا وَقَاهِرَاهَا ، لَمْ يَنْتَفِعْ بِالْوَعْظِ وَالزَّحْرِ ، لِأَنَّ هَوَى نَفْسِهِ يَنْتَلِبُ وَعِظَ كُلِّ وَاعِظٍ وَزَجَرَ كُلِّ زَاجِرٍ .

(٩٠)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام تعرف بخطبة الأشباح ، وهي من جلائل خطبه عليه السلام
 روى مسعدة بن صدقة عن الصادق جعفر بن محمد عليهما السلام ، أنه قال :
 خطب أمير المؤمنين بهذه الخطبة على منبر الكوفة ؛ وذلك أن رجلاً أناه ، فقال :
 يا أمير المؤمنين ، صيف لنا ربنا^(١) مثل ما نراه عياناً^(٢) ، نرداد له حباً ، وبه معرفة ؛ فقص
 ونادى : الصلاة جامعة ، فاجتمع إليه الناس حتى عص السعد مأهله ؛ فصعد المنبر وهو
 معصب متعبر اللون ، حميد الله وأثنى عليه ، وصل على النبي صلى الله عليه وآله ، ثم قال :
 اتخذ الله الذي لا يبرء المنع والجحوم ، ولا مكذبه الإغطاء والحدود ؛ إذ كل
 مطر منتفص سيواه ، وكل شايع مذموم ماحل ؛ وهو المنان بموائد النعم ، وعوائد
 الزبد والقسم ، عياله الخلائق ، صين أرزاقهم ، وقدر أوقاتهم ، وسبح سبيل الراعين
 إليه ، والطالين مآلديه ، وليس ينال بأجود منه بما لم يسأل ، الأول الذي لم
 يكن له قبل فيكون شيء ، فله ، ولا حير الذي لم يكن له^(٣) بعد فيكون شيء ، أمده ،
 والرايع أناسي الأبصار عن أن تمانه أو تديره ، ما اختلف عليه دهر فوحتف منه
 الحال ، ولا كان في مكان فيحور عنه الانتقال .

الشرح :

الأشباح : الأشخاص ، والرايد هم هاها الملائكة ، لأن الخطبة تنصت
 ذكر الملائكة .

(٢) مخطوطة التهج : ليس له .

(١ - ١) ساطع من مخطوطة التهج

وقوله : « الصلاة جامعة » منصوب بفعل مقدر ، أى احضروا الصلاة ، وأقيموا الصلاة ، و « جامعة » منصوب على الحال من الصلاة .
وغص السجد ، بفتح الفين ، أى امتلاً ، والمسد غاص* بأهله . ويقال : رجل معضب ، بفتح الضاد ، أى قد أغضب ، أى فعل به ما يوجب غضبه .
ويقره المنع : يزيد فى ماله ، والموثر التام ، وفرت الشيء وفراً وفراً وفى نفسه وفوراً ، يعتمدى ولا يعتمدى . وفى أمثالهم : « يوفر ويحمد » هو من قولك وفرت عرشه ووفرت ماله .

وقوله : « ولا يكديه الإعطاء » ، أى لا يفقره ولا ينفد خزائنه ، يقال : « كدت الأرض » تكيدُ وهي كاذبة ، إذا أظن بآثها ، وقل خيرها ، فهذا لارم ، فإذا عذبتة أثبت بالهمزة فقت : أ كذبت الأرض ، أى حطمتها كاذبة ، وتقول : أ كدى الرجل إذا قل خبره ، وقوله تعالى : ﴿ وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى ﴾ ^(١) ، أى قطع القليل ، يقول : إني سبعمائة قادر على القدورات ، وأيس كالمفوك من البشر الذين إذا أعطوا نقصت خزائهم وإن منعوا زادت ، وقد شرح ذلك وقال : « إدا كل معطٍ منتقص » أى منقوص ، ويحىء « انتقص » لازماً ومتعدياً ، تقول : انتقص الشيء نفسه ، وانتقصت الشيء ، أى نقصته وكذلك « نقص » يحىء لازماً ومتعدياً .

ثم قال : « وكل مانع مذموم غيره » ، وذلك لأنه تعالى إنما يمنع من تقتضى الحكمة والصلحة معه ، وليس كما يمنع البشر . وسأل رجل على بن موسى الرضا عن الجواد ، فقال : إن لكلامك وجهين ، فإن كنت تسأل عن الخلق ، فإن الجواد هو الذى يؤدى ما افترض الله عليه ، والبخيل هو الذى يجعل بما افترض الله عليه ، وإن كنت تعنى الخلق ،

فهو الجواد إن أعطى؛ وهو الجواد إن منع ، لأنه إن أعطى عبداً أعطاه ما ليس له ، وإن منعه منعه ما ليس له .

قوله : « وليس مما سئِلَ بأجود منه بما لم يُسأل » فيه معنى لطيف ، وذلك لأن هذا اللغز مما يختص بالبشر ، لأنهم يتحركون بالسؤال وتهزهم الطلبات ، فيكونون مما سألهم السائل أجود منهم بما لم يسألهم إياه ، وأما الباري سبحانه فإن جوده ليس على هذا المنهاج لأن جوده عام في جميع الأحوال .

ثم ذكر أن وجوده تعالى ليس زمانياً ، فلا يطلق عليه البعدية والقبلية ، كما يطلق على الزمانيات ، وإنما لم يكن وجوده زمانياً لأنه لا يقبل الحركة ، والزمان من لواحق الحركة ، وإنما لم نطلق عليه البعدية والقبلية إذ لم يكن زمانياً ، لأن قولنا في الشيء : إنه بعد الشيء الفلاني ، أي للوجود في زمان حضر بعد تقصّي زمان ذلك الشيء الفلاني ، وقولنا في الشيء : إنه قبل الشيء الفلاني ، أي إنه موجود في زمان حضر ولم يحضر زمان ذلك الشيء الفلاني بعد ، فلا يترتب في الزمان ليس يصدق عليه القبل والبعد الزمانيان ، فيكون تقدير الكلام على هذا : الأول الذي لا يصدق عليه القبلية الزمانية ، ليمكن أن يكون شيء ما قبله ، والآخر الذي لا يصدق عليه البعدية الزمانية ، ليمكن أن يكون شيء ما بعده .

وقد يحمل الكلام على وجه آخر أترتب متتالاً من هذا الوجه ، وهو أن يكون أراد : الذي لم يكن محدثاً ، أي موجوداً قد سبقه عدم ، فيقال إنه مسبوق شيء من الأشياء إما المؤثر فيه أو الزمان المقدم عليه ، وأنه ليس بذات يمكن فناؤها وعدمها فيما لا يزال ، فيقال : إنه يتقصى وينصرم ، ويكون بعده شيء من الأشياء ، إما الزمان أو غيره ، والوجه الأول أدنى وألطف ، ويؤكد كونه مراداً قوله عتيبه : « ما اختلف عليه دهر فيختلف منه الحال » ، وذلك لأن واجب الوجود أعلى من الدهر والزمان ، فنسبة ذاته إلى الدهر والزمان بحملته وتفصيل أجزائه نسبة متعددة .

فإن قلت : إذا لم يكن قبل الأشياء بالزمان ولا بعدها بالزمان ؛ فهو معها بالزمان ،
لأنه لا يبقى بعد نفي القبلية والبعدية إلا للمية !

قلت : إنما يلزم ذلك فيما وجوده زمني ، وأما ما ليس زمانيا لا يلزم من نفي القبلية
والبعدية إثبات المية ، كما أنه مالم يكن وجوده مكانيا لم يلزم من نفي كونه فوق العالم
أو تحت العالم بالمكان ، أن يكون مع العالم بالمكان .

ثم قال : « الراصد أناسي الأبصار من أن تناله أو تدركه » ، الأناسي : جمع إنسان ؛
وهو المثال الذي يرى في السواد ؛ وهذا لفظ نظائره يشرع بمذهب الأشعرية ، وهو قوهم ؛
إن الله تعالى خالق في الأبصار مانعا عن إدراكه ؛ إلا أن الأدلة العقلية من جانبنا اقتضت
تأويل هذا اللفظ ، كما تأول شيوخنا قوله تعالى : ﴿ وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴾ إلى ربها
مَاطِرَةٌ ﴿ ^(١) ؛ فقالوا : إلى جنة ربها ؛ فنقول : تقديره الراصد أناسي الأبصار أن تنال
أنوار جلالة .

فإن قلت : أتثبتون له تعالى أنوارا يمكن أن تدركها الأبصار ، وهل هذا إلا قول
بالنجس !

قلت : كلاً لا نجس في ذلك ؛ فكما أن له عرشاً وكرسيًا وليس بجسم ؛ فكذلك أنوار
عظيمة فوق العرش ، وليس بجسم ، فكيف تنكر الأنوار ، وقد نطق الكتاب العزيز بها في غير
موضع ، كقوله : ﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ ^(٢) ، وكقوله : ﴿ مَثَلُ نُورِهِ كَمِثْقَاةٍ
فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ .



(١) سورة القيامة ٧٥ .

(٢) سورة الزمر ٦٩ .

الأصل :

وَلَوْ وَهَتْ مَا تَنْفَعَتْ عَنْهُ مَعَادِنُ الْجِبَالِ ؛ وَضَحِيكَتْ عَنْهُ أَصْدَافُ
الْبَحَارِ ؛ مِنْ فِلِزُّ اللَّحْيَيْنِ وَالْعِيقَانِ ، وَنُشَارَةُ الدُّرِّ وَحَصِيدِ الرَّجَانِ ، مَا أَثَّرَ ذَلِكَ
فِي جُودِهِ ، وَلَا أَنْفَذَ سَمَةً مَا عِنْدَهُ ، وَلَسَكَانَ عِنْدَهُ مِنْ ذَخَائِرِ الْأَنْعَامِ ، مَا لَا تُنْفِذُهُ
مَطَالِبُ الْأَنْعَامِ ، لِأَنَّهُ الْخَوَادُّ الَّذِي لَا يَنْفِضُهُ ^(١) سُوءُ الْكَائِلِينَ ، وَلَا يُبْخَلُّهُ
إِلْتِحَاحُ اللَّحْيَيْنِ .

• • •

التبريح

هذا الكلام من نعمة الكلام الأول ، وهو قوله : « لَا يَفِرُّهُ النِّعَمُ ، وَلَا يَكْذِبُهُ
الإِعْطَاءُ وَالْجُودُ » . وَتَنَفَعَتْ عَنْهُ الْمَعَادِنُ : اسْتَمَارَتْ كَتَابَهَا لَمَّا أَخْرَجَتْهُ وَوَلَدَتْهُ كَانَتْ كَالْحَيَوَانِ
يَنْفَسُ فَيَخْرُجُ مِنْ صَدْرِهِ وَرِثَتُهُ لِلْهَوَاءِ .

وَضَحِيكَتْ عَنْهُ الْأَصْدَافُ ، أَيْ تَنَفَعَتْ عَنْهُ وَاشْتَقَتْ ، يُقَالُ لَلطَّلَعِ حِينَ يَشْقُ :
الضَّحِكُ ، يَنْفَعُ الصَّادُ ، وَإِنَّمَا سُمِّيَ الضَّاحِكُ ضَاحِكًا ، لِأَنَّهُ يَنْفَعُ فَاءً . وَالْفِلِزُّ : اسْمُ الْأَجْسَامِ
الْقَائِيَةِ كَالذَّهَبِ وَالْفِصَّةِ وَالرَّصَاصِ وَنَحْوِهَا . وَالْعِيقَانِ : اسْمُ النَّصَةِ جَاءَ مُصَفَّرًا ، كَالسُّكْمِيَّتِ
وَالزَّيْأِ . وَالْعِيقَانِ : الذَّهَبُ الْخَالِصُ ، وَيُقَالُ : هُوَ مَا يَنْبِتُ نَبَاتًا وَلَيْسَ عَمَّا يَحْصُلُ مِنَ الْحَبَارَةِ .
وَنُشَارَةُ الدُّرِّ : مَا تَنَاقَرُ مِنْهُ ، كَالسُّقَامَةِ وَالنُّحَالَةِ ، وَتَأْتِي « فُعَالَةٌ » تَارَةً لِلْجَيْدِ الْخِتَارِ ، وَتَارَةً
لِلسَّاقِطِ الْمَتْرُوكِ ، فَالْأَوَّلُ نَحْوُ الْخِلَاصَةِ ، وَالثَّانِي نَحْوُ الْقَلَامَةِ .

وَحَصِيدِ الرَّجَانِ : كَأَنَّهُ أَرَادَ التَّبَذُّدَ مِنْهُ كَمَا يَبْذُرُ الْحَبَّ الْمَحْصُودَ ، وَيَجُوزُ أَنْ يُعْنَى بِهِ
الضَّلْبُ الْحَكَمُ ، مِنْ قَوْلِهِمْ : « شَيْءٌ مُتَحَصِّدٌ » ، أَيْ مُتَحَصِّفٌ مُسْتَحْكَمٌ ، بِعَنْ أَنَّهُ لَيْسَ
يَرُخُّ وَلَا هَشَّ ، وَيُرْوَى : « وَحَصْبَاءُ الرَّجَانِ » ، وَالْحَصْبَاءُ : الْحَمَى . وَأَرْضُ حَصْبَةٍ وَحَصْبَةٍ ،
(١) مخطوطة التهج : « يَنْفِطُهُ »

بالفتح : ذات حصباء . والمرجان : صغار التؤلؤ ؛ وقد قيل إنه هذا الحجر ، واستعمله
بعض المتأخرين فقال :

أَدْمَى لَهَا الْمَرْجَانُ صَفْعَةً خَدَّهُ وَبَكَى عَلَيْهَا التَّوَلُّوْهُ الْكَنُونُ

وتنفذه : تفنيه ، نقد الشيء أى فني ، وأخذته أنا . ومطالب الأنام : جمع مطلب ، وهو
للصدر ، من مطلبت الشيء طلباً ومطلباً .

ويَبْقِضُهُ ، بفتح حرف المضارعة : يبقضه ؛ ويقال : قاض الماء ، فهذا لازم ، وغاض
الله الماء ، فهذا متعد ؛ وجاء : أغاض الله الماء .

والإلحاح : مصدر ألح على الأمر ، أى أقام عليه دائماً ، من ألح السحاب ؛ إذا دام
مطره ، وألح الفير : حرن ، كما تقول : جَلَّتْ الْبَاقَةُ ، وروى « وَلَا يُخِلُّهُ » بالتخفيف ؛
تقول : أبجلت زيدا ، أى صادفته بخيلاً ؛ وأجنته : وجدته جباناً .
وفى هذا الفصل من حسن الاستعارة وبديع الصيغة مالا يخفاء به .

• • •

الأصل :

فَانْظُرْ أَيُّهَا السَّائِلُ فَمَا ذَكَرَ الْقُرْآنُ عَلَيْكَ مِنْ صِفَةٍ فَأَنْتُمْ بِهِ ، وَأَسْتَعِيضُوا بِنُورِ
هِدَايَتِهِ ، وَمَا كَذَّبَكَ الشَّيْطَانُ عَلَيْهِ ، يَمَّا لَيْسَ فِي الْكِتَابِ عَلَيْكَ فَرَضُهُ ، وَلَا فِي
سُنَّةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأُئِمَّةِ الْهَدْيِ أَثَرُهُ ، فَكِلَإِ عَلَيْهِ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ ، فَإِنَّ
ذَلِكَ مُنْتَهَى حَقِّ اللَّهِ عَلَيْكَ .

وَأَعْلَمُ أَنَّ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ هُمُ الَّذِينَ أَغْنَاهُمْ عَنِ اقْتِحَامِ الشَّدِيدِ الْمَضْرُوبَةِ
دُونَ الْغُيُوبِ الْإِقْرَارِ بِحُجَّتِهِ مَا جَهِلُوا تَفْسِيرَهُ مِنَ الْغَيْبِ الْمَحْجُوبِ ، فَمَدَحَ اللَّهُ

أَعْتَرَفْتُمْ بِالْبَعْثِ عَنْ تَنَاوُلِ مَا لَمْ يُحِيطُوا بِهِ عِلْمًا ، وَتَمَيَّنَ تَرْكُهُمُ التَّصَدُّقَ فِيمَا لَمْ
يُكَلِّفُهُمُ الْبَعْثَ عَنْ كُنْهِهِ رُسُوحًا ، فَاقْتَصِرَ عَلَى ذَلِكَ ، وَلَا تَقْدَرُ عَظَمَةُ اللَّهِ
مُجَاعَتُهُ عَلَى قَدْرِ عَنَّا فَتَكُونُ مِنَ الْهَالِكِينَ .

البُزْجُ :

تقول : ائتم فلان بفلان ؛ أى جعله إماما واتحدى به . فكل علمه ؛ من وكله إلى كذا
وكلا وو كولا ؛ وهذا الأمر موكل إلى رأيك . والاتعلم : المجهود والدخول معالبة .
والشد للضرورة : جمع سدة ؛ وهى الرماح .

واعلم أن هذا الفصل يمكن أن يتعلق به الحشوية للناجون من تأويل الآيات الواردة
في الصفات ، القائلين بالجود على الطواغر . ويمكن أيضا أن يتعلق به من نفي النظر وحرمة
أصلا ؛ ونحن قبل أن نحققه ونسلكم فيه نبدأ بتفسير قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَسْمُرُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا
اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾ ^(١) ؛ فنقول :

إن من الناس من وقف على قوله : ﴿ إِلَّا اللَّهُ ﴾ ، ومنهم من لم يقف على ذلك ، وهذا
القول أقوى من الأول ؛ لأنه إذا كان لا يعلم تأويل التشابه إلا الله لم يكن في إنزائه
وغاطية للكافرين به قاتلة ، بل يكون كعطاب العرب بالزنجية ، ومعلوم أن ذلك
عيب قبيح .

فإن قلت : فما الذى يكون موضع ﴿ يَقُولُونَ ﴾ من الإعراب ؟

قلت : يمكن أن يكون نصبا على أنه حال من الراسخين ، ويمكن أن يكون كلاما
مستأظفا ، أى هؤلاء العالمون بالتأويل ، يقولون : آمنا به .

وقد روى عن ابن عباس أنه تأول آية ، فقال قائل من الصعاجة : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ﴾ ، فقال ابن عباس : ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾ ، وأنا من جملة الراسخين .

ثم نعود إلى تفسير كلام المؤمنين عليه السلام فنقول :

إنه غضب وتغير وجهه لقول السائل : صِفْ لَنَا رَبًّا مِثْلَ مَا نَرَاهُ عِبَانَا ، وإذا هذا المعنى ينصرف وصية له بما أوصاه به من اتباع ما جاء في القرآن والسنة ، وذلك لأن العلم الحاصل من رؤية الشيء عيانا ، عِلْمٌ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَتَعَدَّقَ مِثْلَهُ بِاللَّهِ سَعَادَةً ، لأن ذاته تعالى لا يمكن أن تُعْلَمَ من حيث هي هي ، كما نعلم الحسوسات ، ألا ترى أننا إذا علمنا أنه صانع للعالم ، وأنه قادر على كل شيء بصير مريد ، وأنه ليس بحس ولا جوهر ولا عرض ، وعلمنا جميع الأمور السلبية والإيجابية المتعلقة به ، فإنما علمنا سُلُوبًا وإضافات ، ولا شك أن ماهية الموصوف معبرة لماهية الصفات ، والذرات المحسوسة بخلاف ذلك ، لأننا إذا رأينا السواد ، فقد علمنا نفس حقيقة السواد لا صفة من صفات السواد ؛ وأبصارنا لو قدرنا أن العلم بوجوده وصفاته السلبية والإيجابية ، يستلزم العلم بذاته ، من حيث هي هي لم يكن عالما بذاته علمًا جزئيًا ، لأنه يمكن أن يصدق هذا العلم على كثيرين ، على سبيل البذل ، وإذا ثبت أنه يستحيل أن يصدق على كثيرين على سبيل البذل ، ثبت أنه يستحيل أن يصدق على كثيرين على سبيل الجمع ، والعلم بالحسوس يستحيل أن يصدق على كثيرين لا على سبيل الجمع ، ولا على سبيل البذل ، فقد بان أنه يستحيل أن يعلم الله تعالى كما يعلم الشيء للشيء عيانا ، فأمر المؤمنين عليه السلام أمركم هذا السؤال كما أنكره الله تعالى على بني إسرائيل لما طلبوا الرؤية ، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ ﴾ ^(١) .

ثم قال للسائل بعد غضبه واستعالة لونه وظهور أثر الإنكار عليه: ما ذلك القرآن عليه من صفته فخذ به ، فإن لم تجده في الكتاب فاطلبه من السنة ومن مذاهب أئمة الحق ، فإن لم تجد ذلك ، فاعلم أن الشيطان حينئذ قد كلفك علم ما لم يكلفك الله علمه ؛ وهذا حق ؛ لأن الكتاب والسنة قد نطقا بصفات لله من كونه علما قاهرا حيا مريدا سميعا بصيرا ، ونطقا أيضا بتعزيبه عن سمات الحدوث كالجسمية والحلول والجهة ؛ وما استلزم الجهة كالرؤية فلا إنكار على من طلب في مدارك العقول وجوهاته ضد ما جاء به القرآن والسنة ، وتوفق بين بعض الآيات وبعض ؛ وتحمل أحد المفظين على الآخر إذا تناقضا في الظاهر ، صيانة لكلام الحكيم عن التهاوت والتمازض . وأما ما لم يأت الكتاب والسنة فيه بشيء فهو الذي حرّم وحطّر على المكلفين الفكر فيه ؛ كالكلام في الماهية التي يذهب ضرار المتكلم إليها ، وكما ثبتت صفات زائدة على الصفات المعقولة قد ثبت للبارئ سبحانه ، وهي على قسمين : أحدهما : ما لم يرد فيه نص ؛ كإثبات طائفة تعرف بالمتريدية صفة سموها التكوين زائدة على القدرة والإرادة .

والثاني : ما ورد فيه لفظ فأخطأ بعض أهل النظر ، فأثبت لأجل ذلك اللفظة صفة غير معقولة للبارئ سبحانه ، نحو قول الأشعريين : إن الالدين صفة من صفات الله ، والاستواء على العرش صفة من صفات الله ، وإن وجه الله صفة من صفاته أيضا ، ثم قال : إن الراسخين في العلم الذين غنوا بالإقرار بما عرفوه عن الولوج والتفهم فيما لم يعرفوه ، وهؤلاء هم أصحابنا للعزلة لاشبهة في ذلك ، ألا ترى أنهم يعللون أعمال الله تعالى بالحكم والمصالح ، فإذا ضاق عليهم الأمر في تفصيل بعض المصالح في بعض المواضع ، قالوا : نعلم على الجملة أن لهذا وجه حكمة ومصلحة ، وإن كنا لا نعرف تفصيل تلك المصلحة ، كما يقولون في تكليف من يعلم الله تعالى منه أنه يكفر ، وكما يقولون في احتصاص الحال التي حدث فيها العالم بحدوثه دون ما قبلها وما بعدها .

وقد تأول القطب الراوندى كلام أمير المؤمنين في هذا الفصل ، فقال : إنما أنكر
 على من يقول : لم تعبّد الله للكافرين إقامة خمس صلوات ؛ وهلا كانت ستاً أو أربعاً ؟
 ولم جميل الظهر أربع ركعات ، والصبح ركعتين ؟ وهلا عكس الحال ؟ وهذا للتأويل غير
 صحيح ، لأنه عليه السلام إنما أخرج هذا الكلام مخرج النكير على من سأل أن يصف له
 البارئ سبحانه ، ولم يكن السائل قد سأل عن العلة في أعداد الصلاة وكيفية أجزائها للعبادات .
 ثم إنه عليه السلام قد صرح في عصون الكلام بذلك ؛ فقال : فانظر أيها السائل ،
 فإدراك القرآن عليه من صفته قائم به ، وما لم يدرك عليه فليس عليك أن تخوض فيه ، وهذا
 الكلام تصريح بأن البحث إنما هو في الباطن العقلي في فن الكلام ، فلا يجوز أن يحمل
 على ما هو بمنزلة .

واعلم أننا نتأهل في ألقاب المتكلمين ، فنورد لهم عباراتهم ، كقولهم في « المحسوسات »
 والصواب « المحسوسات » ؛ لأنه لفظ المعمول من « أحس » الرباعي ، لكن لما رأينا العدول عن
 ألقابهم إذا خضنا في مباحثهم مسجحاً عبرنا بعبارتهم على علم بما أن العربية لا تسوغها .

• • •

الأصل :

هو القادر الذي إذا أرتمت الأوهام يتذكر منقطع قدرته ، وحاول الفكر
 المبرأ من خطر الوسوس أن يقع عليه في عمق غيوب ملكوته ، وتوالت
 القلوب إليه ، لتجري في كنيته صغته ، وعممت مداويل القول في حيث لا تبلغه
 الصفات لتناول علم ذاته - ردعها وهي تحوب مهاوى مداف الميوب ، متخاضة
 إليه سبحانه ؛ فرجعت إذ جبت معرفة بأنه لا يبال بخور الإغصاف كنه معرفته ،
 ولا تحط ببال أولى الرويات حاطرة من تقدير حلال عزته .

• • •

الْبُشْرُ :

ارتقت الأوهام ، أى ترامت ؛ يقال : ارتمى القوم بالنفل ؛ أى تراموا ، فشبه حَوْلان الأوهام والأفكار وتعارضها بالترامى .

وخطر الوسوس ، بنسكين الطاء ؛ مصدر خطر له حاطر ، أى عرض فى قلبه ، وروى « من خطرات الوسوس » .

وتولت القوب إليه : اشتدت عشقها حتى أصابها الولة وهو الحيرة .

وقوله : « لا تتحرى فى كمية صفاته » ، أى لتصادف محرى ومسلكا فى ذلك ، وعصت مداحلُ المقول ، أى عص دحوها ، ودق فى الأنظار العميقة التى لاتسغ الصفات كلها فدقيقها وغموضها طالبة أن تسال معرفته تعالى .

ولفظ « ذات » لفظ قد طال فيها كلام كثير من أهل العربية ، فأبكر قوم إطلاقها على الله تعالى وإضافتها إليه ، أما إطلاقها فلا لها لفظها نأيت ؛ والبارى سبحانه منزّه عن الأسماء والصفات المؤنثة ؛ وأما إضافتها فلا لها عين الشيء ؛ والشيء لا يضاف إلى نفسه . وأجاز آخرون إطلاقها فى البارى تعالى وإضافتها إليه ، أما استعمالها فوجهين :

أحدهما أنها قد جاءت فى الشعر القديم ، قال خبيب الصحافى عند صلته :

وذلك فى ذاتِ الإله وإن بشأ بُمُارك على أوصالِ شلوي موزيع^(١)

ويروى « ممزّع^(٢) » ، وقال النابغة :

محتشم ذاتُ الإله ودبهم قديمٌ فما يحشون غير المواق^(٣)

والوجه الثانى أنها لفظ اصطلاحية ، فجاز استعمالها لأهل أنها مؤنث « ذو » بل تستعمل

(١) هو خبيب بن عدى الأنصارى ، من قصيدة أوردتها ابن عبد البر فى الاستيعاب ٤١١ .

(٢) هى رواية الاستيعاب . (٣) ديوانه ٨ .

ارتجالاً في مساها الذي عبر عنه بها أرباب النظر الإلهي ، كما استعملوا لفظ الجوهر والمرضى وغيرهما في غير ما كان أهل العربية واللفظ يستعملونها فيه .

وأما منهم إضافتها إليه تعالى ، وأنه لا يقال : « ذاته » ؛ لأن الشيء لا يضاف إلى نفسه فباطل بقولهم : أخذته نفسه وأخذته عينه ؛ فإن الاتفاق جائز ، وفيه إضافة الشيء إلى نفسه .

ثم نعود إلى التفسير :

قوله عليه السلام : « ردعها » ، أي كبتها . وتجب ، أي تقطع . والمهاوى : المهالك ، الواحدة مهواة بالفتح ، وهي ما بين جبلين أو حائطين ومحو ذلك . والشداف : جمع سدفة ، وهي القطعة من الليل المظلم . وجبهت ، أي ردت ، وأصله من جبهته ، أي مككت جبهته . والجوثر : المدول عن الطريق والاعتساف : قطع المسافة على غير جادة معلومة .

وخلاصة هذا الفصل أن العقول إذا حاولت أن تدرك متى يتقطع اقتداره على المقدرات نكست عن ذلك ، لأنه قادر أبداً دائماً على ما لا يتناهى ؛ وإذا حاول الفكر الذي قد صفا وحلا عن الوسوس والموائيق أن يدرك مغيبات عليه تعالى كل وحتر ورجع ناقصاً أبعاً ؛ وإذا اشتد عشق العوس له ، وتولت نحوه لذلك مسلكاً تقف منه على كيفية صفاته مجزت عن ذلك ؛ وإذا تعلمت العقول ، وتحضت مداخلها في دقائق العلوم النظرية الإلهية التي لا توصف لاقبها طالبة أن نعلم حقيقة ذاته تعالى ، انقطعت وأصيت ، وردّها سبحانه وتعالى وهي تجول وتقطع ظلمات الميب لتخلص إليه ، فارتدت حيث جبهتها وردعها ، مقرّة معترفة بأن إدراكه ومعرفة لا تُنالُ باعتساف المسافات التي بينها وبينه ؛ وإن أرباب الأفكار والرويات يتعذر عليهم أن يخطر لهم خاطر يطابق ما في الخارج من تقدير جلال عزته ؛ ولا بد من أخذ هذا القيد في الكلام ؛ لأن أرباب الأنظار

لا بد أن تحيط لهم الخواطر في تقدير جلال عِزِّته ؛ ولكن تلك الخواطر لا تكون مطابقة لها في الخارج ؛ لأنها خواطر مستندة لما هو لا العقل الصريح ؛ وذلك لأن الوهم قد ألب الخيالات والمحسوسات ، فهو بعقل خواطر بحسب ما ألفه من ذلك ؛ وجلال واجب الوجود أعلى وأعظم من أن ينطرق لوهْمُ محوهِ ؛ لأنه يرى من المحسوسات سبحانه ؛ وأما العقل الصريح فلا يدرك خصوصية ذاته لما تقدم .

واعلم أن قوله تعالى : ﴿ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِنْ فُطُورٍ ۚ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾^(١) فيه إشارة إلى هذا المعنى ، وكذلك قوله : ﴿ يَلْمِزُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ ﴾^(٢) .



الأصل :

الَّذِي أَبْتَدَعَ الْخَلْقَ عَلَىٰ غَيْرِ مِثَالٍ أَمْتَلَهُ ، وَلَا يَقْدَرُ أَحْتَدَىٰ عَلَيْهِ مِنْ خَالِقٍ مَعْبُودٍ كَانَ قَبْلَهُ ، وَأَرَانَا مِنْ مَلَكَوَتِ قُدْرَتِهِ ، وَمَعْجَانِبِ مَانَعَاتِهِ بِأَنَارِ حِكْمَتِهِ ، وَأَعْتَرَفِ الْحَاجَةِ مِنْ الْخَلْقِ إِلَىٰ أَنْ يُقَيِّمَهَا بِعَيْنِكَ قُوْمَتِهِ ؛ مَا دَلَّنَا بِاضْطِرَارٍ قِيَامَ الْحُجَّةِ لَهُ عَلَىٰ مَعْرِفَتِهِ ، فَظَهَرَتْ فِي الْبَدَائِعِ الَّتِي أَحَدَّثَهَا آثَارُ صَنَعَتِهِ ، وَأَعْلَامُ حِكْمَتِهِ ، فَصَارَ كُلُّ مَا خَلَقَ حُجَّةً لَهُ ، وَدَلِيلًا عَلَيْهِ ؛ وَإِنْ كَانَ خَلْقًا صَائِتًا ؛ فَحُجَّتُهُ بِالْقُدِيرِ نَاطِقَةً ، وَدَلَالَتُهُ عَلَى الْمُبْدِعِ قَائِمَةً .



(١) سورة الفرقان : ٤٠ .

(٢) سورة البقرة : ٢٥٥ .

الْبَزْجُ :

لِلْبَاكِ ، بِكَسْرِ الْبَاءِ : مَا يَمْلِكُ وَيَصْمَمُ بِهِ .

وقوله : « ابداع الخلق على غير مثال امثله » يحتمل وجبين :

أحدهما : أن يريد به « امثله » مثله ، كما تقول : صنعت واصطنعت بمعنى ، فيكون التقدير أنه لم يمثّل لنفسه مثالا قبل شروعه في خلق العالم ؛ ثم احتذى ذلك المثال ؛ وركب العالم على حسب ترتيبه ، كالصانع الذي يصوغ حلقة من رصاص مثالا ، ثم يصوغ حلقة من ذهب عليها ، وكالبناء يقدر ويفرض رسوماً وتقديرات في الأرض وخطوطاً ، ثم يبنى بحسبها .

والوجه الثاني : أنه يريد بامثله احتذاء وتقليد واتبعه ، والأصل فيه امتثال الأمر في القول ، فنقل إلى احتذاء الترتيب العقلي ، فيكون التقدير أنه لم يمثّل له فاعل آخر قبله مثالا اتبعه واحتذاء وفعل نظيره ، كما يفعل التلميذ في الصباغة والنجارة شيئا قد مثّل له أستاذه صورته وهيئته .

واعلم أن هذا أحد الأسئلة التي يذكرها أصحابنا في باب كونه عالما ، لأنهم لما استدلوا على كونه تعالى عالما بطريق إحكام العلم وإتقانه ، سألوا أنفسهم فقالوا : لم لا يجوز أن يكون القديم سبحانه أحدث العالم محدثا لمثال مثله ، وهيئة اقتضاها ، والمحتذى لا يجب كونه عالما بما يفعله ، ألا ترى أن من لا يحسن الكتابة قد يحتذى خطا مخصوصا ، فيكتب قريبا منه ، وكذلك من يطبع الشئ بالخاتم ثم يطبع فيه مثال الخاتم ، فهو فعل الطابع ، ولا يجب كونه عالما .

وأجاب أصحابنا عن ذلك فقالوا : إن أول فعل محكم وقع منه ، ثم احتذى عليه ، يكفي في ثبوت كونه عالما ، وأيضاً فإن المحتذى ليست العالمية بمطلوبة عنه ، بل موصوف بها ،

الأثرى أنه متصور صورة ما يحتديه ، ثم يوقع الفعل مشابهاً له ، فالخنذي عالم في الجملة ، ولكن عليه يحدث شيئاً فشيئاً .

فأما معنى الفصل فظاهر ، يقول عليه السلام : إنه ابتدع الخلق على غير مثال قدمه لنفسه ولا قدم له غيره ليحتذى عليه ، وأرانا من عجائب صنعته ومن اعتراف الموجودات كلها ، بأنها فقيرة محتاجة إلى أن يمكها بقوته ، مادلتنا على معرفته ضرورة ، وفي هذا إشارة إلى أن كل ممكن مفتر إلى المؤثر ، ولما كانت الموجودات كلها غيره سبحانه بمكنة لم تكن غنيّة عنه سبحانه ، بل كانت فقيرة إليه ، لأنها لولاه ماقيت ، فهو سبحانه غني عن كل شيء ، ولا شيء من الأشياء مطلقاً بنفسه سبحانه ، وهذه من خصوصية الإلهية ، وأجل ما تدركه القول من الأنظار المتعلقة بها .

فإن قلت : في هذا الكلام [إشعار بضعف] شيخكم أي عثمان ، في أن معرفته تعالى ضرورية .

قلت : يكاد أن يكون الكلام مشيراً بذلك ؛ إلا أنه غير دال عليه ، لأنه لم يقل ما دلنا على معرفته باضطرار ، ولكن قال ما دلنا باضطرار قيام الحجة له على معرفته ، فالاضطرار راجع إلى قيام الحجة ، لا إلى المعرفة .

ثم قال عليه السلام : وظهرت آثار صنعته ، ودلائل حكته في مخلوقاته فكانت وهي صامتة في الصورة ناطقة في المعنى بوجوده وربوبيته سبحانه ، وإلى هذا المعنى نظر الشاعر فقال :

فَوَجِّهًا كَيْفَ يُعْصَى الْإِلَهُ أَمْ كَيْفَ يَجْعَدُهُ الْجَاهِدُ (١)
وَفِي كُلِّ شَيْءٍ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ

(١) لأبي الطامة ، ديوانه ٦٩ ، ٧٠

وقال في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَسَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ ^(١) : إنه عبارة عن هذا المعنى .

• • •

الأصل :

فَأَشْهَدُ أَنْ مَنْ شَبَّهَكَ بِتَبَايُنِ أَعْصَاءِ خَشْفِكَ ، وَتَلَاَحُمِ مَفَاصِلِهِمُ الْمُحْتَاجَةِ لِتَدْيِيرِ حِكْمَتِكَ ، لَمْ يَمُقِدْ غَيْبَ ضَمِيرِهِ عَلَى مَعْرِفَتِكَ ، وَلَمْ يُبَاشِرْ قَلْبَهُ التَّيْفِينُ بِأَنَّهُ لَا يَدُّ لَكَ ، وَكَأَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ تَبَرُّؤَ التَّائِبِينَ عَنِ الْمُشْوَعِينَ ؛ إِذْ يَقُولُونَ : ﴿ تَنَالَهُ إِنْ كُنَّا أَنْفِي صَلَالِ مُسِينٍ ؛ إِذْ نُسَوِّبُكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ . كَدَّتِ الْعَادِلُونَ بِكَ ، إِذْ شَبَّهُواكَ بِأَعْدَائِهِمْ ، وَتَحَلَّوْكَ حِلْيَةِ الْخُلُوقِينَ بِأَوْهَامِهِمْ ، وَجَرَّوْكَ تَحْرِثَةَ الْمُحْصَمَاتِ بِخَوَاطِرِهِمْ ، وَقَدَّرُوكَ عَلَى الْإِثْلَاقَةِ الْمُحْصَلَةِ الْعَوَى بِغَرَائِمِ عَقُولِهِمْ .

وَأَشْهَدُ أَنْ مَنْ سَاوَاكَ بِشَيْءٍ مِنْ خَلْقِكَ فَقَدْ عَدَلَ بِكَ ، وَالْعَادِلُ بِكَ كَأَمْرٌ بِمَا تَمَزَّكَتَ بِهِ مُحْكَمَاتُ آيَاتِكَ ، وَطَلَقَتْ عَنْهُ شَوَاهِدُ صَحْجِ بَيِّنَاتِكَ ، وَأَنْتَ اللَّهُ الَّذِي لَمْ تَنْتَهَ فِي الْعُقُولِ ؛ فَتَكُونُ فِي مَهَبٍ فِكْرَهَا مُكَيِّفًا ، وَلَا فِي رَوِّبَاتِ خَوَاطِرِهَا تَحْدُودًا مُصَرِّفًا .

• • •

الشرح :

حَقَاقِ الْمَفَاصِلِ جَمْعُ حَقَّةٍ ؛ وَحَاءٌ فِي جَمْعِهَا حَقَقٌ وَحَقٌّ ؛ وَلَمَّا قَالَ : « بِنَبَايُنِ أَعْصَاءِ خَشْفِكَ ، وَتَلَاَحُمِ مَفَاصِلِهِمْ » ؛ فَأَوْقَعَ التَّلَاَحُمَ فِي مَقَابِلَةِ التَّبَايُنِ صِنَاعَةً وَبَدِيْعًا ، وَرَوَى

« المحتجة » ، فن قال : « المحتجة » ، أراد أنها بما فيها من لطيف الصنعة كالمحتجة للشدّة على التدبير الحكيم من لدنه سبحانه ، ومن قال : « المحتجة » أراد للسترة ، لأن تركيبها الباطن خفي محبوب .

والنِدّ : المثل . والعادلون بك : الذين جعلوا لك عديلاً ونظيراً . ومحلوك : أعطوك ؛ وهي النحلة ، وروى : « لم يُعقد » على ما لم يسم فاعله .
وغيب ضميره ، بالرفع . والقرايح : جمع قريحة ، وهي القوة التي تنشط بها العقولات وأصله من قريحة البئر ، وهو أول ما فيها .

ومعنى هذا الفصل أنه عليه السلام شهيد بأن الجسم كافر ، وأنه لا يعرف الله ، وأن من شبه الله بالخلقين ذوي الأجزاء المتعينة ، والمفاصل المتلاحمة ، لم يعرفه ولم يباشر قلبه اليقين ، فإنه لا تدّ له ولا يثب ، ثم أكد ذلك بآيات من كتاب الله تعالى ، وهي قوله تعالى : ﴿ فَكَبِّرُوا فِيهَا هُمْ وَالْعَارُونَ • وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَتَجْمُونَ • قَالُوا وَمَنْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ • تَأْتِيهِمْ كُنَّا لَقِي سَلَالٍ مُبِينٍ • إِذْ نُسَوِّبُكُمْ يَرْبُ الْعَالَمِينَ ^(١) » . حكى سبحانه حكاية قول الكفار في النار : وهم الناسون للذين أغوهم من الشياطين وهم المتهوون . لقد كنا خالين إذ موبناكم بالله تعالى ، وجعلناكم مثله ، ووجه الحجّة أنه تعالى حكى ذلك حكاية منكر على مَنْ زعم أن شيئاً من الأشياء يحوز تسويقه بالبارئ سبحانه ، فلو كان البارئ سبحانه جسماً مصوراً ، لكان مشابهاً لساير الأجسام المصورة ، فلم يكن لإسكاره على من سواه بالمخوقات معنى .

ثم زاد عليه السلام في تأكيد هذا المعنى ، فقال : كذب العادلون بك ، المشبهون لك نظيراً وشبهاً ، يعنى المشبهة والمخسمة ، إذ قالوا : إنك على صورة آدم ، فشبهوك بالأصنام التي

كانت الجاهلية تعبدها ، وأعطوك حلية المحرقين لما اقتضت أوهامهم ذلك ، من حيث لم يأنفوا أن يكون القادر الفاعل للعالم إلا جسما ، وحملوك مركبا ومتعزنا ، كما تتجزأ الأجسام ، وقدروك على هذه الخلقة ، بمعنى حلقة البشر المختلفة القوى ، لأنها مركبة من عناصر مختلفة الطابع . ثم كرر الشهادة فقال : أشهد أن من ساواك نيرك ، وأثبت أنك جوهر أو جسم فهو عادل بك كافر . وقلت تلك الخارجية للحجاج : « أشهد أنك قاسط عادل » ، فلم يفهم أهل الشام حوله ما قالت ، حتى فسره لهم ، قال عليه السلام فمن يذهب إلى هذا المذهب فهو كافر بالكتاب ، وبما دلت عليه حجج العقول . ثم قال : وإليك أنت الله ، أى وأشهد أنك أنت الله الذى لم تحيط العقول بك ، كإحاطتها بالأشياء المتناهية ، فتكون ذا كيفية .

وقوله : « فى مهب فكرها » استمارة حنف ، ثم قال : « ولا فى رويات خواطرها » ، أى فى أفكارها . محدودا لمذا حد مصرفا ، أى قابلا للحركة والتغير . وقد استدلل بعض المتكلمين على نقي كون البارى جسماء - جسماء هو مأخوذ من هذا الكلام ، فقال : لو جاز أن يكون البارى جسما ، لجاز أن يكون القمر هو إله العالم ، لكن لا يجوز أن يكون القمر إله العالم ، فلا يجوز أن يكون البارى جسما ، بيان للضرورة أنه لو جاز أن يكون البارى سبحانه جسما ، لما كان بين الإلهية وبين الجسمية منافاة عقلية ، وإذا لم يكن بينهما منافاة عقلية أمكن اجتماعهما جارا أن يكون القمر هو إله العالم ، لأنه لا مانع من كونه إله العالم إلا كونه جسما يجوز عليه الحركة ، والأقول ، وقصص ضوئه تارة ، وامتلاؤه أخرى ، فإذا لم يكن ذلك منافيا للإلهية ، حاز أن يكون القمر إله العالم ، وبيان الثام إجماع المسلمين على كبر من أجاد كون القمر إله العالم ، وإذا ثبتت الملازمة وثبتت المقدمة الثانية فقد تمت الدلالة

الأصل :

ومنها :

قَدَّرَ مَا خَلَقَ فَأَحْكَمَ تَقْدِيرَهُ ، وَدَبَّرَهُ فَأَلْطَفَ تَدْبِيرَهُ ، وَوَجَّهَهُ لِرُوحِهِ فَلَمْ
يَقْعُدْ حُدُودَ مَنَزِلَتِهِ ، وَلَمْ يَقْصُرْ دُونَ الْإِنْتِهَاءِ إِلَى غَايَتِهِ ، وَلَمْ يَنْتَضِبْ إِذَا أَمَرَ
بِالْمِغْنَى عَلَى إِرَادَتِهِ ، فَكَيْفَ وَإِنَّمَا صَدَرَتْ الْأُمُورُ عَنْ مَشِيئَتِهِ الْكَفَى أَصْنَافَ
الْأَشْيَاءِ بِلَا رُوبَةَ فِكْرِ آلِ إِبْنِهَا ، وَلَا قَرِيبَةَ عَرِيزَةِ أَمْسَرِ عَالَمِهَا ، وَلَا تَجَرِبَةَ
أَقَادِمِهَا مِنْ حَوَادِثِ الْهَظُورِ ، وَلَا شَرِيبَةَ أَعَانَةِ عَلَى ابْتِدَاعِ عَجَائِبِ الْأُمُورِ ،
قَمَّ خَلْقَهُ بِأَمْرِهِ وَأَذَنَ لِعَطَاعَتِهِ ، وَأَجَابَ إِلَى دَعْوَتِهِ ، لَمْ يَفْتَرِضْ دُونَهُ رَبِّثُ
لُطْفِهِ ، وَلَا أَنَاةَ لِلتَّلَكُّيْ ، فَتَقَامَ مِنَ الْأَشْيَاءِ أَوْدَهَا ، وَنَهَجَ حُدُودَهَا ، وَلَا مَ
يَقْدَرَتُهُ بَيْنَ مُتَصَادِفَاتِهَا ، وَوَصَلَ أَسْبَابَ قَرَائِنِهَا ، وَفَرَّقَهَا أَجْنَاسًا ، مُخْتَلِفَاتٍ فِي
الْحُدُودِ وَالْأَقْدَارِ ، وَالْعَرَائِزِ وَالْهَيْئَاتِ ، بِدَائِمِ خَلْقِ أَحْكَمَ صُنْعِهَا ، وَقَطَرَهَا عَلَى
مَا أَرَادَ وَأَبْتَدَعَ.

...

الشرح :

الوجه ، بالكسر : الجهة التي توجه نحوها ، قال تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ وِجْهٍ هُوَ
مَوْلًى ﴾ (١).

والربث : البطء والتلكؤ : التأخر . والأود : الأعوجاج . ولام بين كذا
وكذا ، أي جمع ، والقرائن هنا : الأنفس ، واحدها قرونة وقربنة ، يقال : سمعت
قربنته وقرونته ؛ أي اطاعته ففعلت ودلت ، وتابعت على الأمر . وبداء : ها هنا : جمع بدية ،

وهي الحالة المعجبية ، أبداً الرجل إذا جاء بالأمر القدي ، أي المعجب ، والبدية
أي أيضاً : الحالة البتداء المتكررة ، ومنه قولهم : فعلة يدي على وزن « فعل » ،
أي أول كل شيء . ويمكن أن يحمل كلامه أيضاً على هذا الوجه .

وأما خلأني ؛ فيجوز أن يكون أضاف « بدايا » إليها ؛ ويجوز ألا يكون أضافه
إليها ، بل جعلها ^(١) بدلاً من « أجناسا » . ويروى « برايا » جمع برية . يقول عليه السلام :
إنه تعالى قدر الأشياء التي خلقها ، فخلقها بحكمة على حسب ما قدر . وألطف تديرها ، أي جعله
لطيفاً ، وأمضى الأمور إلى غاياتها وحدودها المقدرة لها ، فهي الصفرة للاصطيد ، والخليل
لركوب والطراد ، والسيف للقطع ، والقلم للكتابة ، والفلك للدوران ونحو ذلك ، وفي
هذا إشارة إلى قول النبي صلى الله عليه وآله : « كل ما ميسر لما خلق له » ؛ فلم تعد هذه
المخاوف حدود منزلتها التي جعلت عاياتها ، ولا تصدرت دون الانتهاء إليها ، يقول : لم
تقف على العاية ولا تجاوزتها . ثم قال : ولا استصعبت وامتنعت إذا أمرها بالضيء إلى
تلك العاية بمقتضى الإرادة الإلهية ، وهذا كله من باب المجاز ؛ كقوله تعالى : ﴿ فَقَالَ لَهَا
وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا خَائِضِينَ ^(٢) ﴾ .

وخلاصة ذلك ، الإبانة عن نفوذ إرادته ومشيئته .

ثم علل نفي الاستصعاب فقال : وكيف يستصعب ، وإنما صدرت عن مشيئته !
يقول : إذا كانت مشيئته هي انتصبة لوجود هذه المخلوقات ، فكيف يستصعب عليه
بلوغها إلى عاياتها التي جعلت لأجلها ، وأصل وجودها إنما هو مشيئته ، فإذا كان أصل
وجودها بمشيئته ، فكيف يستصعب عليه توجيهها لوجهتها ، وهو فرع من فروع
وجودها وتابع له !

(٢) سورة فصلت ١١ .

(١) ١ : « يجعلها » .

ثم أعاد معنى القول الأول ، فقال : إنه أنشأ الأشياء بنير روية ولا فكرة ولا غريزة أضمر عليها خلق ما خلق عليها . ولا تجربة أقادها ، أى استفادها من حوادث مرت عليه من قبل ، كما تكسب التجارب علوماً لم تكن ، ولا بمساعدة شريك أعانه عليها . ثم خلقه بأمره إشارة إلى قوله : « ولم يستصعب إذ أمر بالمضى » ؛ فلما أثبت هناك كونها أمرت أعاد لفظ الأمر ها هنا ، والكل مجاز ، ومعناه تفوذ إرادته ، وأنه إذا شاء أمراً استحال ألا يقع ، وهذا المجاز هو المجاز للمستعمل في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ ^(١) ؛ تعبيرا بهذا اللفظ عن سرعة موالاته الأمور له ، واحتيادها تحت قدرته .

ثم قال : ليس كالأول منا يسترخى دون مراده ريث وبطء ، وتأخير والتواء . ثم قال : وأقام الموج وأوضح الطريق ، وجمع بين الأمور للتضادة ، ألا ترى أنه جمع في بدن الحيوانات والنبات بين الكيفيات للتباين المتنافرة من الحرارة والبرودة ، والرطوبة واليبوسة ، ووصل أسباب أنفسها بتعديل أمرجتها ، لأن اعتدال المراج أو القرب من الاعتدال سبب بقاء الروح ، وقرقها أجناساً مختلفات الحدود والأقدار ، والخلق والأخلاق والأشكال . أمورٌ مجببة بدنية مبتكرة الصلعة ، غير محذرة بها حدّ وصاع سابق ، بل مخلوقة على غير مثال ، قد أحكم سبحانه صنمها ، وخلقها على موجب ما أراد ، وأخرجها من المدم المحض إلى الوجود ، وهو معنى الإبداع ، فإن الخلق في الاصطلاح النظري على قسمين : أحدهما صورة تخلق في مادة ، والثانى ما لا مادة له ، بل يكون وجوده الثانى من الأول فقط ، من غير توسط المادة ، فالأول يستى التكوين ، والثانى يسمى الإبداع ، ومرتبة الإبداع أعلى من مرتبة التكوين .

الأنزل :

ومنها في صفة السماء :

وَنَظَّمَ بِلَا تَمْلِيْقٍ رَهَوَاتٍ فَرْجِيَا ، وَلَا حَمَّ صُدُوعٍ أَفْرَاجِيَا ، وَوَشَّجَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ
أَزْوَاجِيَا ، وَذَلَّلَ لِلْهَاطِلِينَ بِأَمْرِهِ ، وَالصَّاهِدِينَ بِأَعْمَالِ خَلْقِهِ حُزُونََةَ مِمْرَاجِيَا ، وَنَادَاهَا
بَعْدَ إِذْ هِيَ دُحَانٌ ، فَالْتَحَمَتْ عُرَا أَفْرَاجِيَا ، وَفَتَقَ بَعْدَ الْإِرْتِقَاقِ صَوَائِتَ أَبْوَابِيَا ،
وَأَقَامَ رَحْصًا مِنَ الشُّهُبِ النَّوَائِبِ عَلَى يَقَابِيَا ، وَأَمْسَكَهَا مِنْ أَنْ تَمُورَ فِي خَرْقِ الْهَوَا
بِأَيْدِيهِ ، وَأَمَرَهَا أَنْ تَقِفَ مُسْتَسْلِمَةً لِأَمْرِهِ ، وَجَمَلَ تَحْتَهَا آيَةً مُبْعِرَةً لِنَهَارِيَا ،
وَقَمَرَهَا آيَةً تَمْحُوهُ مِنَ لَيْلِيَا ، وَأَجْرَاهَا فِي مَنَاقِلِ مَحْرَاهَا ، وَقَدَّرَ سَيْرُهَا ^(١) فِي مَدَارِجِ
دَرَجِيهَا ، لِيُمَيِّزَ بَيْنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ جِيَا ، وَلِيَعْلَمَ عَدَدُ السَّنِينَ وَالْحِسَابِ بِمَقَادِيرِهَا ،
ثُمَّ عَلَّقَ فِي جَوْهَا قَلَكَهَا ، وَنَاطَ بِهَا رِبْقَتَهَا ، كَيْفَ خَفِيَّاتِ دَرَارِيهَا ، وَمَصَابِيحِ
كَوَاكِبِيَا ، وَرَمَى مُسْتَرَقِي السَّمْعِ بِنَوَائِبِ شُهُبِيَا ، وَأَخْرَاهَا عَلَى أَذْلالِ تَشْخِيرِهَا ،
مِنْ ثَبَاتِ ثَابِتِيَا ، وَمَسِيرِ سَائِرِيَا ، وَهَبُوطِهَا وَصُورِهَا ، وَنُحُوسِهَا وَسُورِهَا .

• • •

الشَّيْخُ :

الرَّهَوَاتُ : جمع رَهْوَةٍ ، وهي المكان المرتفع والمنخفض أيضا ، يمتدُّ فيه ماء المطر ،
وهو من الأضداد . والفَرْجُ : جمع فَرْجَةٍ ، وهي المكان الحالى . ولاحم : الصق . والصَّدْعُ :
الشَّقُّ . وَوَشَّجَ ، بالتشديد ، أى شبك . وَوَشَّجَتِ المَرْوَقُ والأَغْصَانُ ، بالتخفيف : اشتبكت ،
ويبيننا رحم واثيجة ، أى مشبكة .

وَأَزْوَاجِيَا : أقرانها وأشباهها ، قال تعالى : ﴿ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴾ ^(٢) ، أى أصنافا ثلاثة .

(١) مخطوطة التهج : « سيرها » .

(٢) سورة الواقعة ٧ .

والخزونة : ضد التسهوة . وأشراجها : جمع شرج ؛ وهو عمراً العيبة ؛ وأشرجت العيبة ، أى أفتلت أشراجها ، ونسى بجرة السماء شرجاً ؛ تشبيهاً بشرح العيبة ؛ وأشراج الوادى : ما انفسح منه واتسع .

والارتناق : الارتجاج . والنقاب : جمع نقب ؛ وهو الطريق فى الجبل . وتمور : تتحرك وتذهب وتحمى ؛ قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴾ ^(١) والأيد : القوة . وناط بها : علق . والذرارى : الكواكب المضيئة ، نسبت إلى الذر لبياضها ؛ واحدها ذررى ، ويحوز كسر الـهـال ، مثل بحر لجى وليجى .

والنواقب : المضيئات . وتقول : افعل ما أمرتك على أدلاله ، أى على وجهه ؛ ودعه فى أدلاله ؛ أى على حاله ، وأمور الله جارية على أدلالها ؛ أى على محاريبها وطرقها . يقول عليه السلام : كانت السماء أول ما خلقت غير متظمة الأجزاء ، بل بعضها أرفع وبعضها أخفض ، فنظمها سبحانه ، فجعلها بسيطاً واحداً ، نظماً اقتضته القدرة الإلهية ؛ من غير تعليق ، أى لا كما يعظم الإنسان ثوباً مع ثوب ، أو حقداً مع حقد ، بالتعليق والخطاطة ، والصق تلك الفروج والشقوق ، فجعلها جسماً متصلاً ، وسطحاً أملس لا تتوات فيه ولا فرج ولا صدوع ، بل جعل كل جزء منها ملتصقاً بمنته ، وذلل لللائكة الماطلين بأمره ، والصاعدين بأعمال خلقه . لأنهم المكتبة الحافظون له . حزونة الفروج إليها ، وهو الصمود ثم قال : « ونادأها بعد إذ هي » روى بإضافة « بعد » إلى « إذ » وروى بضم « بعد » ، أى ونادأها بعد ذلك إذ هي دخان ؛ والأول أحسن وأصوب ، لأنها على الضم تكون دخاناً بعد نظامه وهوات عروجها وملاحة صدوعها ؛ والحال تقتضى أن دخانها قبل ذلك لا يبله .

فإن قلت: ما هذا النداء؟ قلت: هو قوله: ﴿تَنْبِيًا مَلُومًا أَوْ كَرَاهًا﴾^(١)، فهو أمر في اللفظ ونداء في المعنى، وهو على الحقيقة كناية عن سرعة الإبداع. ثم قال: وفتح بعد الارتفاق صوامت أبوابها، هذا صريح في أن السماء أبوابا، وكذلك قوله: «على قبابها»، وهو مطابق لقوله سبحانه وتعالى: ﴿لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾^(٢) والقرآن العظيم وكلام هذا الإمام المعظم أولى بالاتباع من كلام الفلاسفة، الذين أحالوا الخلق على الملك. وأما إقامة الرصد من الشهب الثواقب، فهو نص القرآن العزيز: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِثَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾^(٣) وأنا نجد نَقْدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلْسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا^(٤)، والقول بإحراق الشهب للشياطين اتباعا لنص الكتاب أولى من قول الفلاسفة الذين أحالوا الانقراض على الكواكب.

ثم قال: وَاَمْسَكْهَا عَلَى الْحَرَكَةِ قُوَّةً، وأمرها بالوقوف فاستمسكت ووقفت. ثم ذكر الشمس والقمر تذكرة مأخوذ من قول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ لِّمَنْ هَدَىٰ وَجَعَلْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾^(٥).

ثم ذكر الحسك في جريان الشمس والقمر في محراها تذكرة مأخوذ من قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾^(٦)، وقوله: ﴿وَالْقَمَرَ قَدْرَ مَاءٍ مَّنَازِلًا﴾^(٧)، وقوله: ﴿وَلِيَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ﴾^(٨).

-
- (١) سورة فصلت ١١.
 - (٢) سورة الأعراف ٤٠.
 - (٣) سورة الجن ٩، ٨.
 - (٤) سورة الإسراء ١٢.
 - (٥) سورة يس ٢٨، ٢٩.
 - (٦) سورة يونس ٥.

ثم قال : « ثم خلق في جَوْهَا فَلَكَّهَا » ، وهذا يقتضى أن الفلك غير السماء ، وهو خلاف قول الجمهور ، وقد قال به قائلون ، ويمكن أن تفسر ذلك إذا أردنا موافقة قول الجمهور بأنه أراد بالفلك دائرة معدل النهار ، فيها الدائرة العظمى في الفلك الأعظم ، وهي في الاصطلاح النظرية نسي فلَكَّا .

ثم ذكر أنه زين السماء الدنيا بالكواكب، وأنها رجوم مستترق للسمع، وهو مأخوذ من قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِرَبِّهِ الْكَوَاكِبِ • وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ • لَا يَسْمَعُونَ إِلَى اللَّائِلِ الْأَعْلَىٰ وَيُقَذَّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ • دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝﴾ (١).

ثم شرح حال الدنيا فقال : « من ثبات ثابتهاء ، يعني الكواكب التي في كوة البروج
و « مسير حائرهما » ، يعني النجوم والشمس لأنهما مأكورة دائما

ثم قال : « وسموها وهبوطها » ، وذلك أن الكواكب السيارة صعوداً في الأوج ، وهبوطاً في الحضيض ، فالأول هو البعد الأسد عن المركز ، والثاني البعد الأقرب .

فإن قلت : ما باله عليه السلام قال : « وعوسها وسمودها » ، وهو القاتل لمن أشار عليه ألا يحارب في يوم محموص : « المنبجم كالسكاهن ، والكاهن كالساحر ، والساحر كالكافر ، والكافر في النار » ؟

قلت : إنه عليه السلام إنما أسكر في ذلك القول على مَنْ يزعم أن النجوم مؤثرة في الأمور الجزئية ، كالذين يحكون لأرباب اللوايد وعليهم ، وكن يحكم في حرب أو سلم ، أو سفر أو مقام ، بأنه فاسد أو النجس ، وأنه لم ينكر على من قال : إن النجوم تؤثر سموداً ونحوها في الأمور الكلية ، نحو أن تنفضي حرّاً أو برداً ، أو تبدل على مرض عام

أو قحط عام ، أو مطر دائم ، ونحو ذلك من الأمور التي لا نحصى إنسانا بعينه ، وقد قدمنا في ذلك الفصل ما يدل على تصويب هذا الرأي ، وإفساد ما عده .

الأفضل :

ومنها في صفة الملائكة :

ثُمَّ خَلَقَ شُجْعَانَهُ لِإِسْكَانِ تَنْوِينِهِ ، وَعِدَارَةِ الصُّمُوعِ الْأَعْلَى مِنْ مَلَكُوتِهِ ، خَلَقًا بَدِيدًا مِنْ مَلَائِكَتِهِ ، وَمَلَأَ بِهِمْ فُرُوجَ وَجَاحِهَا ، وَحَشَى بِهِمْ دُوقَ أَجْوَانِهَا ، وَبَيْنَ فُجُوتِ تِلْكَ الْمُرُوجِ رَجُلٌ الْمُحَبِّجِينَ بِهِمْ فِي حَطَائِرِ الْقُدُسِ ، وَشَرَاتِ الْخُجُبِ وَسُرَادِقَاتِ الْمَعْدِ ، وَوَرَاءَ ذَلِكَ الرَّجِيجِ الَّذِي تَسَنُّكَ مِنْهُ الْأَلْمَاعُ سُحُوحَاتُ نُورٍ تَرْدَعُ الْأَبْصَارَ عَنْ بُلُوعِهَا فَتَقِفُ خَائِفَةً عَلَى حُدُودِهَا .

وَأَنشَأَهُمْ عَلَى صُورٍ مُخْتَلِفَاتٍ ، وَأَقْدَارٍ مُتَعَدِّدَاتٍ ، أُولَى أَجْنِحَةٍ تُسَبِّحُ جَلَالَ عِزَّتِهِ ، لَا يَذْنُبُونَ مَا ظَهَرَ فِي الْخَلْقِ مِنْ ضَعْفٍ ، وَلَا يَدَّخُونَ أَسْهَمَ يَحْدُقُونَ شَيْئًا مَعَهُ يَمَّا أُفْرِدَ بِهِ ؛ (بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ) لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يُسْمَعُونَ (١) جَمَاعَتُهُمْ أَكْثَرُ فِيمَا هُنَالِكَ أَهْلُ الْأَمَانَةِ عَلَى وَجْهِهِ ، وَحَمَلَتُهُمْ إِلَى الْمُرْسَلِينَ وَدَائِعِ أَمْرِهِ وَهَيْبَتِهِ ، وَهَصَّتُهُمْ مِنْ رَبِّبِ الشُّبُهَاتِ ، فَمَا مِنْهُمْ رَائِعٌ عَنْ سَبِيلِ مَرْصَانِهِ .

وَأَمَدَّهُمْ بِفَوَائِدِ الْمَوْتِ ، وَأَشْمَرَ قُلُوبَهُمْ تَوَاضَعِ إِحْبَابِ السَّكِينَةِ ، وَفَتَحَ لَهُمْ أَبْوَابًا ذُلًّا إِلَى تَمَاجِيدِهِ ، وَتَعَبَّ لَهُمْ مَنَارٌ وَاصِحَةٌ عَلَى أَغْلَامِ تَوْحِيدِهِ ، لَمْ تُنْقِمْهُمْ مُوَاصِرَاتُ الْأَنَامِ ، وَلَمْ تَرْتَحِمْهُمْ عُقُبُ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامِ ، وَلَمْ تَرْمِ الشُّكُوكُ بِسَوَازِيحِهَا هَزِيمَةَ إِيْمَانِهِمْ ، وَلَمْ تَمْتَرِكِ الطُّنُوقُ عَلَى مَعَارِدِ بَغْيِهِمْ ، وَلَا قَدَحَتْ قَادِحَةُ الْإِخْوَانِ فِيمَا بَيْنَهُمْ ، وَلَا سَلَبَتْهُمْ الْخَيْرَةُ مَا لَاقَتْ مِنْ مَعْرِفَتِهِ بِضَمَائِرِهِمْ ، وَمَا سَكَنَ مِنْ عَظَمَتِهِ

وَهَيَّجَ جَلَالِهِ فِي أَثْنَاءِ صُدُورِهِمْ ، وَلَمْ تَطْمَحْ فِيهِمُ الْوَسَاوِسُ فَتَفْتَرِعَ بِرَبِّهَا عَلَى فِكْرِهِمْ .

وَمِنْهُمْ مَنْ هُوَ فِي خَلْقِ الْعَلَمِ الدُّنْيَى ، وَفِي عِظَمِ الْجِبَالِ الشُّعْخِ ، وَفِي قُوَّةِ الظُّلَامِ الْأُتَمِّ . وَمِنْهُمْ مَنْ قَدْ خَرَقَتْ أَفْئادُهُمْ نُحُومَ الْأَرْضِ الشُّغْلَى ؛ قَبْلِ كَرَامَاتِ بَيْضِ قَدْ نَفَذَتْ فِي تَخَارِيقِ الْهَوَاءِ ، وَتَحْتَهَا رِيحُ هَمَاقَةٍ تَحْمِسُهَا عَلَى حَيْثُ انْتَهَتْ مِنْ الْخُدُودِ الْمُتَنَاهِيَةِ ؛ قَدْ اسْتَعْرَضَتْهُمْ أَشْعَالُ عِبَادَتِهِ ، وَوَصَلَتْ حَقَائِقُ الْإِيمَانِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَعْرِفَتِهِ ، وَقَطَعَتْهُمُ الْإِبْقَانُ بِهِ إِلَى الْوَلَةِ إِلَيْهِ ، وَلَمْ تُحَاوِزْ رَغْبَتُهُمْ مَا عِنْدَهُ إِلَى مَا عِنْدَ غَيْرِهِ .

قَدْ ذَاقُوا حَلَاوَةَ مَعْرِفَتِهِ ، وَشَرِبُوا بِأَلْسِنِهِ الرُّوبِيَّةِ مِنْ نَحْوَتِهِ ، وَتَمَسَّكَتْ مِنْ سُرُودَاتِ قُلُوبِهِمْ وَشَيْبَةِ خَيْفَتِهِ ، فَحَنُّوا بِطُولِ الطَّاعَةِ أَعْدَالَ ظُهُورِهِمْ ، وَلَمْ يُنْفِذْ طَوْلُ الرُّغَةِ إِلَيْهِ مَادَّةَ تَفَرُّعِهِمْ ، وَلَا أَطْلَقَ عَنْهُمْ عَظِيمُ الرُّغَةِ رِبْقَ خُشُوعِهِمْ ، وَلَمْ يَتَوَلَّهِمُ الْإِعْجَابُ فَيَنْفَكُّوا مَا سَلَتْ مِنْهُمْ ، وَلَا تَرَكَتْ لَهُمْ أَشْيَاكَاتُ الْإِجْلَالِ نَصِيبًا فِي تَعْظِيمِ حَسَنَاتِهِمْ . وَلَمْ تَحْمِرِ الْمَعْرَاتُ فِيهِمْ عَلَى طَوْلِ دُهُورِهِمْ ، وَلَمْ تَنْفِضْ رَغْبَتُهُمْ فَيُخَالِفُوا عَنْ رَجَاءِ رَبِّهِمْ ، وَلَمْ تَحِفَّ بِطَوْلِ الْمَسَاجِدِ أَسْلَاتُ أَلْسِنَتِهِمْ ، وَلَا مَلَكَتْهُمْ الْأَشْفَالُ فَتَسْقُطَ بِهَيْسِ الْبُؤَارِ إِلَيْهِ أَسْوَاتُهُمْ ، وَلَمْ تَحْفَافِ فِي مَقَاوِمِ الطَّاعَةِ مَنَاسِكُهُمْ ، وَلَمْ يَذْنُوا إِلَى رَاحَةِ التَّخْصِيرِ فِي أَمْرِهِ رِقَائَهُمْ .

وَلَا تَعْدُو عَلَى عَزِيمَةِ جِدِّهِمْ بِلَادَةُ الْعَمَلَاتِ ، وَلَا تَلْتَضِلُ فِي هَمِيمِهِ خَدَائِلُ الشُّهُوَاتِ .

قَدْ اتَّخَذُوا ذَا الْعَرْشِ ذَخِيرَةً لِيَوْمِ فَتْيِهِمْ ، وَيَمُوتُوا عِنْدَ أَخْطَاعِ الْخُلُقِ إِلَى الْخُلُوقِ بِرَغْبَتِهِمْ ، لَا يَقْطَعُونَ أَمَدَ غَايَةِ عِبَادَتِهِ ، وَلَا يَرْجِعُ يَوْمَ الْإِسْتِعَارِ

يَلْزُومَ طَاعَتِهِ ، إِلَّا إِلَى مَوَادِّ مِنْ قُلُوبِهِمْ غَيْرُ مُنْقَطِعَةٍ مِنْ رَجَائِهِ وَخَفَاتِهِ ، لَمْ تَنْقَطِعْ
 أَسْبَابُ الشَّقَقَةِ مِنْهُمْ فَيَتَوَا فِي جِدِّهِمْ ، وَلَمْ تَأْيِسْهُمْ الْأَطْمَاعُ فَيُؤَاثِرُوا وَشِيكَ السَّيِّئِ
 عَلَى أَجْتِهَادِهِمْ ^(١) . لَمْ يَسْتَغْظَمُوا مَاتَمَى مِنْ أَعْمَالِهِمْ ، وَلَوْ اسْتَغْظَمُوا ذَلِكَ لَدَسَخَ
 أَرْجَاهُ مِنْهُمْ شَقَقَاتٍ وَجَلِيلِهِمْ ، وَلَمْ يَحْتَفِزُوا فِي رَتَبِهِمْ بِاسْتِعْوَاذِ الشَّيْطَانِ عَلَيْهِمْ .
 وَلَمْ يُفَرِّقْهُمْ سُوءُ التَّقَاتُحِ ، وَلَا تَوَلَّاهُمْ غِلُّ التَّقَاصِدِ ، وَلَا تَشَعَّبَتْهُمْ مَصَارِفُ
 الرَّيْبِ ، وَلَا أَقْنَسَتْهُمْ أَخْيَافُ الْهَيْمِ ، فَهُمْ أَسْرَاهُ إِيْمَانٍ لَمْ يَفْسَكْهُمْ مِنْ رِبْقَتِهِ
 زَبْغٌ وَلَا عُدُولٌ ، وَلَا وَتَى وَلَا فَتُورٌ ، وَلَيْسَ فِي أَطْبَاقِ السَّمَاءِ مَوْضِعٌ لِإِهَابِ الْإِلَهِ عَلَيْهِ
 مَلَكٌ سَاجِدٌ ، أَوْ سَاجِدٌ حَافِئٌ ، يَزْدَادُونَ عَلَى طُولِ الطَّاعَةِ بِرَبِّهِمْ عِلْمًا ، وَتَزْدَادُ هِزَّةُ
 رَبِّهِمْ فِي قُلُوبِهِمْ عِظَمًا .



الْمُبْنِي :

هذا موضع المثل : « إِذَا جَاءَ نَهْرُ اللَّهِ بَطَلَ نَهْرُ مَعْقِلٍ » ^(٢) . إِذَا جَاءَ هَذَا الْكَلَامُ
 الرَّبَّانِي ، وَاللَّفْظُ الْقَدِيمُ ، بَطَلَتْ فَصَاحَةُ الْعَرَبِ ، وَكَانَتْ نِسْبَةُ الْفَصِيحِ مِنْ كَلَامِهَا إِلَيْهِ ،
 نِسْبَةُ التَّرَابِ إِلَى الذُّصَارِ الْخَالِصِ ؛ وَلَوْ فَرَحْتَ أَنَّ الْعَرَبَ تَقْدِرُ عَلَى الْأَلْفَاظِ الْفَصِيحَةِ الْمُنَاسِبَةِ ،
 أَوْ الْمُقَارِبَةِ لِهَذِهِ الْأَلْفَاظِ ، مِنْ أَيْنَ لَمْ لِلْمَادَّةِ الَّتِي عَبَّرَتْ هَذِهِ الْأَلْفَاظُ عَنْهَا ؟ وَمِنْ أَيْنَ نَعْرِفُ
 الْجَاهِلِيَّةَ بِلِ الصَّعَابَةِ الْمَعَاوِرُونَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ هَذِهِ الْمَعْنَى الْعَامِضَةُ السَّيَّائِيَّةُ ؛
 لِيَتَبَيَّنَ لَهَا التَّعْبِيرُ عَنْهَا . أَمَّا الْجَاهِلِيَّةُ فَإِنَّهُمْ إِنَّمَا كَانَتْ تَنْظُرُ فَصَاحَتَهُمْ فِي صِفَةِ بَعِيرٍ أَوْ فَرَسٍ
 أَوْ حَارٍ وَحَشٍ ، أَوْ ثَوْرٍ فَلَاحَةٍ ، أَوْ صِفَةِ جِبَالٍ أَوْ فُلُوتٍ ؛ وَنَحْوَ ذَلِكَ . وَأَمَّا الصَّعَابَةُ

(١) ج : « فِي اجْتِهَادِهِمْ » .

(٢) نهر معقل : مصاف إلى معقل بن يسار بن عبد الله القرني ؟ ذكر ياقوت عن الواقدى أن عمر أمر
 أبا موسى الأشعري أن يحفر نهراً بالصخرة وأن يجريه على يد معقل بن يسار ، فنسب إليه .

فالذكورون منهم بفصاحة إما كان منتهى فصاحة أحدهم كلمات لا تتجاوز السطرين أو الثلاثة ، إما في موعظة تتضمن ذكر للوث أو ذم الدنيا ، أو ما يتعلق بحرب و قتال ؛ من ترغيب أو ترهيب ؛ فأما الكلام في اللائكة وصعاتها ، وصورها وعباداتها ، وتسيبها ومعرفتها بخالقها وحقها له ، وولعها إليه ، وما جرى مجرى ذلك مما تضمنه هذا الفصل على طوله ، فإنه لم يكن معروفاً عندهم على هذا التفصيل ؛ نعم رعا علومه جملة غير مقسمة هذا التقسيم ، ولا مرتبة هذا الترتيب ؛ عما سمعوه من ذكر لللائكة في القرآن العظيم ؛ وأما من عنده علم من هذه المادة ، كعبد الله بن سلام وأمية بن أبي الصلت وغيرهم ؛ فلم تكن لهم هذه العسارة ، ولا قدروا على هذه الفصاحة ، فنت أن هذه الأمور الدقيقة في مثل هذه العبارة الفصيحة ، لم تحصل إلا لمل واحد ؛ وأقسم أن هذا الكلام إذا تأمله اللبيب اقشعر جلده ، ورخف قلبه ، واستشعر عظمة الله العظيم في رؤيته وحلده ، وهام نحوه وغلب الوجد عليه ؛ وكاد أن يخرج من عبيته شوقاً ؛ وأن يفارق هيكله صبايةً ووحداً .

ثم نعود إلى التفسير فنقول :

الصميح الأهل : سطح القلأ الأعظم ؛ وقال لوجه كل شيء عريض : صفيح وصفحة .

والفروج : الأماكن الخالية والمحتاج : جمع فج ، والهج : الطريق الواسع بين حبلين أو حائطين وأحوائها : جمع جؤ ، وهو ما أتسع من الأودية ، ويقال لما بين السماء والأرض جؤ ، ويروى : « أجواها » ، جمع جؤة ، وهي العرجة في السحاب وغيره ويروى : « أجوازاها » جمع جؤز ، وهو وسط الشيء . والفحوات : جمع فحوة ، وهي العرجة بين الشبنتين ؛ تقول منه : تفاجى الشيء ، إذا صار له فحوة ، ومنه الفحاء ؛ وهو تباعد ما بين عرقوتي البئر .

والزجل : الصوت . وحظائر القدس : لقطة وردت في كلام رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأصل « الحظيرة » ما يعمل شبه البيت للإبل من الشعر ليقبها البرد ؛ فسمي عليه

السلام تلك المواطن الشريفة المقدسة العلية التي فوق الملك حَفَاطِرُ القدس ، والقدسُ
بتسكين الدال وضمتها : العظم ، والتقدّيس : التطهير ، وتقدس : تطهر . والأرض المقدسة
المطهرة ، وبيت المقدس أيضا ، والنسبة إليه قدسي ومقدسي . والسترات : جمع سترة .
والرجيج : الزلزلة والاضطراب ؛ ومنه ارتجج البحر . وتستك الأسباع : تنسد ، قال النابغة :
وَسُتَّتْ خَيْرَ النَّاسِ أَمَّا لُتَيَّ وَرَتَكَ الَّتِي نَسْتَكُ مِنْهَا لِلْسَامِعِ ^(١)

سُبُحات النور ، بضم السين والباء : عبارة عن جلالة الله تعالى وعظمته . وتردع
الأيصار تكفها . وحاشة ، أى سادرة ، ومنه : ﴿ يَنْقَلِبُ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ
حَسِيرٌ ﴾ ^(٢) ، وحاشا بصره ، حاشا وخسوما ، أى سدير ^(٣) .

وقوله : « على حدودها » أى تقف حيث تنتهى قوتها ، لأن قوتها متناهية ؛ فإذا
بلغت حدّها وقفت . وقوله : « أُولَى الْجَنَّةِ » من الألفاظ القرآنية ^(٤) .
وقوله : « لا ينتحلون ما ظهر في الخلق من صمته » ، أى لا يدعون الإلهية لأنفسهم ،
وإن كان قوم من الشريذمون لها لم . وقوله : « لا يدعون أنهم يخلقون شيئا معه بما انفرد به » ،
فيه إشارة إلى مذهب أصحابنا فى أن أعمال الجهاد مخلوقة لهم ، لأن فائدة هذا القيد ، وهو
قوله : « انفرد به » إنما تظهر بذلك .

وأما الآيات المقدسة ، فالرواية المشهورة « مُكْرَمُونَ » وقرئ : « مُكْرَمُونَ »
بالتشديد ، وقرئ « لا يسبقونه » بالضم ، والمشهور القراءة بالكسر ، والمعنى أنهم يتبعون
قوله ، ولا يقولون شيئا حتى يقوله ، فلا يسبق قولهم قوله ، وأراد أن يقول : « لا يسبقونه
بقولهم » ، فحذف الضمير المضاف إليه ، وأتاب اللام منابه

(١) ديوانه ٥٢ ، وروايته : « أُنْثَى أَيْتِ الْمَس » .

(٢) سورة الملك ٤ . (٣) سدر : أى كل وأعيا .

(٤) من قوله تعالى فى سورة نالر . ﴿ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولَى الْأَجْنَحَةِ ﴾

ثم قال : « وهم بأمره يعملون » ؛ أى كما أن قولهم تابع لقوله ؛ فعملهم أيضا كذلك فَرَعَ على أمره ، لا يعملون عملا ما لم يؤمروا به ؛ وجاء فى الخبر للرفوع عن رسول الله صلى الله عليه وآله : « أنه رأى جبرائيل ليلة للمعراج ساقطا كالجلس من خشية الله » . والجلس : الكساء الخفيف .

والزائغ : العادل عن الطريق ، والإخبث : التدبّل والاستكامة . وأبوأبا دُلّلا ، أى سهلة وطينة ، ومنه : دَابَّةٌ ذَلُولٌ ؛ وتماجيده : الشاء عليه ما لحد . والمؤميرات : المثقلات والإصر : الثقل .

وتقول : « ارتحلتُ » البعير ، أى ركبت ، والنعمة : النومة ، والجمع عُقَب . ومعنى قوله : « ولم ترعهم عُقَبَ الليالى والأيام » . أى لم تؤثر فيهم نوبات الليالى والأيام وكروورها ، كما يؤثر ارتحال الإنسان البعير فى ظهره . ونوارعها : شهواتها النازعة الحركة ، وروى : « نوازعها » بالعين للحمية ، من نَزَعَ بينهم ، أى أفسد . ولم نترك الطنون ، أى لم نردم الظنون على بقيتهم الذى عقدوه .

والإحْن : جمع إحنة ، وهى الخقد ، يقول : لم تقطع قوادح الحقد فى ضائرم . ومالاق ، أى ما التصق ، وأثناء صدورهم : جمع نَى وهى التصاعيف . والرَيْن : الدَّئْس والملبة ، قال تعالى : ﴿ كَلَّا تَلَّ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ ^(١) .

وتفتزع ، من الاقتراع بالسهم ، بأن يتقارب كل من الوسوس عليها . وىروى : « فيفتزع » بالعاء ، أى تعلق برئتها ، فرّعه ، أى علاه .

والغنام : جمع غنامة ، وهى السعابة والدَّلَح : الثقال ، جاء يذّاح بحمله ، أى جاء مثقلا به . والجبال الشُّمَخ : العالية الشاهقة .

وقوله : « فى فترة الظلام » ، أى سواده . والأَيْهَم : لا يهتدى فيه ، ومنه

قَلَاةٌ يَهْمَاءُ . وَالتَّخْوَمُ ، بضم التاء : جمع تَخْمٌ وهو منتهى الأرض أو القرية ، مثل فَلْس وفُلوس ، ويروى : « تَخْوَم » بفتح التاء على أنها واحد ، والجمع تَخْمٌ مثل صُور وصُور .
 وريح هَفَافَةٌ ؛ أى ساكنة طيبة ؛ يقول : كَانَ أَقْدَامُهُمُ الَّتِي حَرَقَتْهُمُ الْهَوَاءُ إِلَى حَضِيضِ
 الْأَرْضِ رَاوَاتٍ بِيضٍ تَحْتَهَا رِيحٌ سَاكِنَةٌ لَيْسَتْ مَصْطَرِبَةٌ ؛ فموج تلك الرايات ؛ بل هى
 ساكنة تحبسها حيث انتهت ، وجاء فى الخبر أن لإسرافيل جناحين أحدهما فى أقصى المشرق
 والآخر فى أقصى المغرب ، وأنَّ للعرش على كاهله ، وإياه ليتصامل أحيانا لمظلة الله ، حتى
 يمود مثل الوضع وهو المصفور .

نَمْ ، قَالَ : « قَدْ اسْتَفْرَضْتُمْ أَشْعَالَ عِبَادَتِهِ تَعَالَى » أى جمعتهم طارغين إلا منها .
 ويروى : « وَوَسَّلْتَ حَقَائِقَ الْإِيمَانِ » ، بالسین المشددة ، يقال : وَسَّلَ فلان إِلَى دَرَجَةٍ وَسِيلَةً ،
 والوسيلة ما يقرب به ؛ والجمع وسيل (ووسائل) ؛ يقال : وَسَّلْتُ إِلَيْهِ وَتَوَسَّلْتُ
 إِلَيْهِ بِمَعْنَى .

وَسَوِيْدَاءُ الْقُلُوبِ : جمع سَوِيْدَاءٌ ؛ وهى حَبَّةُ الْقَلْبِ . وَالْوَشِيْعَةُ فى الْأَصْلِ : مَرْقُ
 الشَّجَرَةِ ، وهى هنا استعارة . وَحَنِيْتُ صُلَى ، أى عَوجَهَا . وَالرَّبْقُ : جمع رِبْقَةٍ ؛
 وهى الحبل .

قوله : « وَلَمْ يَقُولُوا لَهُمُ الْإِهْبَابُ » ؛ أى لم يستول عليهم . وَاللَّهْوُوبُ : الجَذُّ وَالْإِهْبَادُ .
 وَالْأَسْلَاتُ : جمع أَسَلَةٍ ؛ وهى طرف اللسان ومستدقه ، وَالْجُزَارُ : الصَّوْتُ الْمَرْتَفِعُ ، وَالْهَمْسُ :
 الصَّوْتُ الْخَفِيُّ ، يقول : لَيْسَتْ لَهُمْ أَشْعَالٌ خَارِجَةٌ عَنِ الْعِبَادَةِ ، فَيَكُونُ لِأَحْلِيهَا أَصْوَاتُهُمْ
 الْمَرْتَفِعَةُ خَافِيَةً سَاكِنَةً . لَانْدُؤُ ، من آدَا عَلَيْهِ ، إِذَا قَهَرَهُ وَظَلَمَهُ ، وَهُوَ هَاهُنَا اسْتِعَارَةٌ .
 وَلَا تَنْتَضِلُ الْخُدَائِعُ فى هَمَمِهِمْ ؛ اسْتِعَارَةٌ أَيْضًا مِنَ التَّنْصَالِ ؛ وَهُوَ الرَّمَامَةُ بِالسَّهْمِ . وَذُو
 الْعَرْشِ : هُوَ اللَّهُ تَعَالَى ؛ وَهَذِهِ لَفْظَةٌ قَرَأْنِيَّةٌ ؛ قَالَ سُبْحَانَهُ : ﴿ إِذَا لَا يَتَقَنَّوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ ﴾

سَبِيلًا ﴿١﴾. يَنْبَغِي لَا بُدَّ لَكُمْ أَنْ تَتَوَكَّلُوا عَلَى اللَّهِ تَعَالَى سَبِيلًا ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ۖ فَعَالٌ لَمَّا يُرِيدُ ﴾ ﴿٢﴾ ، وَالْإِسْتِهَارُ : مَصْدَرُ اسْتَهَرَ فَلَانَ نَكْدًا ، أَيْ لَازِمًا وَأَوْلَعَ بِهِ .

وَقَوْلُهُ : « فَيَتَوَكَّلُوا » أَيْ فَيُضَعِّفُوا ؛ وَتَوَكَّلَ : بَنَى . وَالْحَلَّةُ : الْاجْتِهَادُ وَالْإِنْكَشَافُ . ثُمَّ قَالَ : إِنَّهُمْ لَا يَسْتَعْمِلُونَ عِبَادَتَهُمْ ، وَلَوْ أَنَّ أَحَدًا مِنْهُمْ اسْتَعْمَلَ عِبَادَتَهُ لَأَذْهَبَ خَوْفُهُ رَجَاءَهُ الَّذِي يَقُولُ مِنْ اسْتِعْظَامِ تِلْكَ الْعِبَادَةِ ؛ بِصِفَتِهِمْ بِعَظَمِ التَّقْوَى .

وَالْإِسْتِعْوَاذُ : الْمَلَبَةُ ، وَالْمِلُّ : الْحَقْدُ ، وَتَشَعُّبَتُهُمْ : تَقَسَّمَتُهُمْ وَفَرَّقَتُهُمْ ؛ وَمِنَ الْقِيلِ لِلْمَنِيَةِ شُمُوبٌ ، أَيْ مَفْرَقَةٌ . وَأَخْيَافُ الْمَهْمِ ، أَيْ الْمَهْمُ الْخُتْلَفَةُ ؛ وَأَصْلُهُ مِنَ الْخَيْفِ ؛ وَهُوَ كَعَمَلِ أَحَدِي الْمَيْتِينَ دُونَ الْآخَرِ ؛ وَمِنْهُ الْمَثَلُ : النَّاسُ أَخْيَافٌ ؛ أَيْ يَخْتَلِفُونَ ، وَالْإِهَابُ : الْجِلْدُ . وَالْحَافِدُ : الْمَسْرَعُ ؛ وَمِنْهُ الْهَدَاءُ : الْمَهْمُ إِلَيْكَ تَسْمَى وَنَحْفِدُ .



وَاعْلَمْ أَنَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ إِنَّمَا كَرَّرَ وَكَسَّدَ صَعَابَتَهُمْ عَمَّا وَصَفَهُمْ بِهِ ؛ لِيَكُونَ ذَلِكَ مَثَلًا يَحْتَذِرُ عَلَيْهِ أَهْلُ الْعِرْفَانِ مِنَ الْبَشَرِ ؛ فَإِنَّ أَهْلَ دَرَجَاتِ الْبَشَرِ أَنْ يَنْشَبَهُ بِالْمَلَكِ ، وَخُلَاصَةُ ذَلِكَ أُمُورٌ :

مِنْهَا الْعِبَادَةُ الْقَائِمَةُ .

وَمِنْهَا أَلَّا يَدْعَى أَحَدٌ لِنَفْسِهِ الْحَوْلَ وَالْقُوَّةَ ، بَلْ لِحَوْلٍ وَلَا قُوَّةَ .

وَمِنْهَا أَنْ يَكُونَ مُتَوَاضِعًا ذَا سَكِينَةٍ وَوَقَارٍ .

وَمِنْهَا أَنْ يَكُونَ ذَا يَقِينٍ لَا تَقْدَحُ فِيهِ الشُّكُوكُ وَالشُّبُهَاتُ .

وَمِنْهَا أَلَّا يَكُونَ فِي صَدْرِهِ إِحْنَةٌ عَلَى أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ .

وَمِنْهَا شِدَّةُ التَّعْظِيمِ وَالْمُهَيْبَةِ لِمَخْلُوقِ الْخَلْقِ ، تَبَارَكَ اسْمُهُ .

وَمِنْهَا أَنْ تَسْتَعْرِغَهُ أَشْعَالُ الْعِبَادَةِ لَهُ عَنْ غَيْرِهَا مِنَ الْأَشْعَالِ .

(١) سُورَةُ الْإِسْرَاءِ : ١٧ .

(٢) سُورَةُ الرُّوحِ : ١٥ ، ١٦ .

ومنها أنه لا تتجاوز رغبته مما عند الله تعالى إلى ما عند غيره سبحانه .
ومنها أن يستقد ضميره وقلبه على محبة الله تعالى ، ويشرب بالكأس الروية من حبه .
ومنها عظم التقوى بحيث يأمن كل شيء عدا الله ، ولا يهاب أحداً إلا الله .
ومنها الخشوع والخضوع والإخبات والذل لجلال عزته سبحانه .
ومنها ألا يستكثر الطاعة والعمل ، وإن جَلَّ وعَظُم .
ومنها عظم الرجاء الواقع في مقابلة عظم الخوف ؛ فإن الله تعالى يحب أن يُرجى ،
كما يحب أن يخاف .

• • •

[أبحاث تتعلق بالملائكة]

واعلم أنه يجب أن تُعلم أبحاث متعددة تتعلق بالملائكة ويقصد فيها قصد حكاية
المذهب خاصة ، وكل الاحتجاج والمظهر إلى ما هو مدغم في كتيبا الكلامية .
البحث الأول في وجود الملائكة ، قال قوم من الباطنية : السبيل إلى إثبات الملائكة
هو الحس والمشاهدة ؛ وذلك أن الملائكة عند أهل الباطن .

وقالت الفلاسفة : هي العقول المفارقة ؛ وهي جواهر محررة عن المادة لا تعلق لها
بالأجسام تدويرا ، واحتزوا بذلك عن النفوس ؛ لأنها جواهر مفارقة إلا أنها تدبر
الأبدان ، وزعموا أنهم أثبتوها نظرا .

وقال أصحابنا المتكلمون : الطريق إلى إثبات الملائكة الخبر الصادق المدلول على
صدقه ؛ وفي المتكلمين من زعم أنه أثبت الملائكة بطريق نظري ؛ وهو أنه لما وجد
خلقاً من طين وحب في العقل أن يكون في الحيوانات خلق من الهواء وخلق من النار
فالخلق من الهواء هو الملك ، والخلق من النار الشيطان .

البحث الثاني في بنية الملائكة ، وهيئة تركيبهم ، قال أصحابنا المتكلمون : إن الملائكة أجسام لطاف ، وليسوا من لحم ودم وعظام ، كما خلق البشر من هذه الأشياء . وقال أبو حفص المود القرينسي من أصحابنا : إن الملائكة من أجسام من لحم وعظم : إنه لا فرق بينهم وبين البشر ؛ وإنما لم يَرَوْا لبعده المسافة بينا وبينهم .

وقد تبهم على هذا القول جماعة من معتزلة ما وراء النهر ، وهي مقالة ضعيفة لأن القرآن يشهد بخلافه في قوله : ﴿ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ^(١) ﴾ ، وقوله : ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشَّمَالِ قَمِيدٌ ^(٢) ﴾ ؛ فلو كانوا أجساما كثيفة كأجسامنا لرايناهم .

• • •

البحث الثالث في تكليف للملائكة ، حكى عن قوم من الخشوية أنهم يقولون : إن الملائكة مضطرون إله جميع أصنامهم ، وليسوا مكلفين . وقال جمهور أهل النظر إنهم مكلفون .

وحكى عن أبي إسحاق النظام ، أنه قال : إن قوما من المعتزلة قالوا : إنهم جعلوا على الطاعة لخالفه خلقهم حلقة المكلفين ، وأنهم قالوا : لو كانوا مكلفين لم يؤمن أن يعصوا فيما أمروا به ، وقد قال تعالى : ﴿ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ^(٣) ﴾ .

وقال قوم : إن أكثر الملائكة مكلفون ، وأن فيهم من ليس بمكلف بل هو مسخر للملائكة المكلفين ، كما أن في الحيوانات ما هو غير مكلف ، بل هو مسخر للبشر ومخلوق لمصالحهم .

قالوا : ولا شك أن يكون الملائكة الذين ذكر منهم أنهم حافظ الأجسام وعظم الخلق والتركيب بحيث تبلغ أقدامهم إلى قرار الأرض ؛ قد جعلوا عمداً للسموات والأرض ؛ فهم

(٢) سورة الزمر ٨٠ .

(١) سورة النجم ٦ .

(٣) سورة في ١٧ .

يحملونها بمنزلة الأساطين التي تحمل السفوف العالية ولم يرشعوا لأمر من الأمور سوى ذلك .

البحث الرابع : فيما يجوز من الملائكة وما لا يجوز ؛ قال شيخنا أبو القاسم : حكى أبو الحسن الحياط عن قدماء المنزلة ، أنه لا يجوز أن يعصى أحد من الملائكة ؛ ولم يذكر عنهم علة في ذلك .

وقال قوم : إسم لا يعصون ، ولا يجوز أن يعصوا ؛ لأنهم غير مطيعين الشهوة والمضب ، فلا داعي لهم إلى المعصية ؛ والفاعل لا يعمل إلا بداعي إلى الفعل .

وقال قوم : إسم لا يعصون ، لأنهم يشاهدون من مجاثب صنع الله وآثار هيئته ما يهرم من فعل المعصية والقمع إليها وكذلك قال تعالى : ﴿ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾ ^(١) .

وقال قوم : إنما لم يجوز أن يعصوا ، لأن الله تعالى أحقر عنهم أنهم لا يعصون ، ولا يتكر مع ذلك أن يكون منهم من يتغير حاله ويتبدل بها حالة أخرى ويعصى ، على ماورد من خبر الملوكين يبابل ، وخبر إبليس ، وإنما يلب عنهم المعصية ماداموا على حالهم التي هي عليها .

وقال شيوخنا أصحاب أبي هاشم رحمه الله تعالى : إن المعصية تحوز عليهم ، كما تحوز علينا ، إلا أن الله تعالى علم أن لهم أطافا يمتنعون معها من القبيح أعمالها ، فامتنعوا من فعل القبيح اختيارا ، فكانت حالهم كحال الأنبياء من البشرية يدرون على المعصية ولا يفعلونها ،

(١) سورة الأنبياء ٢٨ .

اختياراً من أنفسهم باعتبار الألفاظ المنعومة لهم ، ولو كان لإبليس أو فرعون أو نمرود
الطاف بعلم الله تعالى إذا فعلها فعملوا الواجب ، وامتنعوا من فعل القبيح ففعلها بهم ، ولكانوا
معضومين كالأنبياء والملائكة ، لكنه تعالى علم أنهم لا يؤمنون ولو فعل مهما فعل ، فلا
لطف في العلوم ، وهذا عندهم حكم عام لجميع المكلفين من الإنس والجن والملائكة .

• • •

البحث الخامس في أن أي القبلين أفضل . الملائكة أو الأنبياء ؟ قال أصحابنا : نوع
الملائكة أفضل من نوع البشر ، والملائكة المقرنون أفضل من نوع الأنبياء ، وليس كل
ملك عند الإطلاق أفضل من محمد صلى الله عليه وآله ، بل بعض المقرنين أفضل منه ،
وهو عليه السلام أفضل من ملائكة أخرى غير الأولين ، والمراد بالأفضل الأكثر ثواباً ،
وكذلك القول في موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء . والذي يحكيه قوم من أرباب
المقالات أنه المعتزلة ، قالوا : إن أدنى ملك في السماء أفضل من محمد صلى الله عليه وآله ليس
بصحيح منهم .

وقال أهل الحديث والأشعرية : إن الأنبياء أفضل من الملائكة .

وقال الشيعة : الأنبياء أفضل من الملائكة ، والآئمة أفضل من الملائكة

وقال قوم منهم ومن الحشوية : إن المؤمنين أفضل من الملائكة .

• • •

البحث السادس في قدم الملائكة وحدوثهم ، أما الفلاسفة القائلون بأنهم العقول
المفارقة ، فإنهم يذهبون إلى قدم للملائكة .

وقال غيرهم من أهل الملل : إنهم محدثون .

وقال قوم من متأخري الحكماء : إن نفوس البشر إذا فارقت الأبدان بالموت بقيت
قائمة بأنفسها غير مدبرة لشيء من الأبدان ، فإن كانت خشيعة صالحة فهي الملائكة ،

وإن كانت شريعة ردة دينه الجوهري في الشياطين؛ فالملائكة عند هؤلاء محدثون؛ وعندهم أن هذه النفوس تساعد نفوساً أخرى متعلقة بتدبير الأبدان، إما على الخير أو على الشر، فما ينسب في الكتب الإلهية إلى إغواء الشياطين للناس وإضلالهم، فليراد به تلك النفوس الشريرة، وما ينسب فيها إلى إغواء للملائكة لم على الخير والملاح، فليراد به تلك النفوس الخيرة.



البحث السابع في إبليس، أهو من الملائكة أو ليس منها؟ قال شيخنا أبو عثمان وجماعة من أصحابنا: إنه من الملائكة، وذلك استثناء الله تعالى، فقال: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَتَعْمُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ﴾^(١).

وقال قوم: إنه كان من الملائكة بإزالة هذه الآية، لكن الله مَنَّه حيث خالف الأمر، فهو بعد السجود خارج عن الملائكة، وقد كان قبل ذلك ملكاً، قالوا: ومعنى قوله: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ أي من حزان الجنة، وروى ذلك عن ابن عباس، قالوا: ويحمل على معناه أنه صار من الجن، فيكون «كان» بمعنى «صار» كقوله تعالى: ﴿كَيْفَ نَكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي النَّهْرِ صَبِيًّا﴾^(٢)، أي من صار، لأنهم لو كانت «كان» على حقيقتها، لوجب ألا يكلم بعضهم بعضاً، لأنهم كانوا صبياناً في اليهود.

قالوا: ومعنى صيرورته من الجن صيرورته ضالاً، كما أن الجن ضالون، لأن الكفار بعضهم من بعض، كما قال تعالى: ﴿وَالْمَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾^(٣).

(١) سورة مريم ٧٣، ٧٤.

(٢) سورة مريم ٢٩.

(٣) سورة التوبة ١٩.

وقال معظم أصحابنا : إن إبليس ليس من الملائكة ، ولا كان منها ، وإنما استثناه الله تعالى منهم ، لأنه كان مأمورا بالسجود معهم ، فهو مستثنى من عموم للأمرين بالسجود ، لامن خصوص للملائكة .

• • •

البحث الثامن في هاروت وماروت ، هل هما من الملائكة أم لا ؟ قال جمهور أصحابنا : لأيهما من الملائكة ، وإن القرآن العظيم قد صرح بذلك في قوله : ﴿ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ﴾ ^(١) ، وإن الذي أنزل عليهما هو علم السحر ، ابتلاء من الله تعالى للناس ، فمن تعلمه منهم وعمل به كان كافرا ، ومن تجنبه أو تعلمه لا يعمل به ولكن لينتبه كان مؤمنا : قالوا : وما كان هذان للكان يعلمان أحدا حتى ينبيهاه وينصحاء ، ويقولان : ﴿ إِنَّمَا تَحْنُ فِتْنَةٌ ﴾ ، أى ابتلاء واختبار من الله ، ﴿ قَلَّا تَكْفُرُ ﴾ ، ولا تعلمه مستقدا أنه حق .

وحكى عن الحسن البصري أن هاروت وماروت ملجانان أتلفان من أهل بابل ، كانا يعلمان الناس السحر ، وقرأ الحسن : ﴿ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ ﴾ ، بكسر اللام .

وقال قوم : كانا من الملائكة ، فعصيا الله تعالى بالحيف في الحكومة ، وقد كان استقصاها في الأرض ، وركب فيهما الشهوة والغضب ، هل محو ما ركب في البشر ، امتعناهما لهما ، لأيهما قد كانا عبرا للبشر بالمعصية ، فلما عصيا حبسهما الله تعالى وعاقبهما بعباب معجل ، وألمهما كلاما إذا تكلم به سكن بعض ما بهما من الألم ، وإن السحرة يستمعون ذلك الكلام فيحفظونه ، ويترقبون به بين المرء وزوجه ، فإنهما يتقدمان إلى من يحضرهما عندهما يتكلمان بالزجر عن العمل بذلك الكلام ، ويقولان : ﴿ إِنَّمَا تَحْنُ

فَيْثَنَةُ فَلَا تَسْكُرُ) ، وهما لم يكفرا ، ولا دَعَمُوا إلى السحر ؛ وإن عذابهما سيقطع وقد جاء في الأخبار ما يوافق هذا .

وقال قوم من الحشوية : إنهما شربا نحر وقتلا النفس ، وزنيا امرأة اسمها «باهيد» فسخت ؛ وهي الزهرة التي في السماء .

الأصل :

ومنها في صفة الأرض ودحوها على الماء :

كَبَسَ الْأَرْضَ عَلَى مَوْرِ أَمْوَاجٍ مُسْتَفْجِيَةٍ ، وَتَلَجَّ بِحَارٍ رَاحِرَةٍ ، تَلْتَلِمُ أَوَاذِي أَمْوَاجِهَا ، وَتَصْطَلِقُ مُتَفَادِفَاتُ أَثْنَاهَا ، وَتَرْغَمُ زَبَدًا كَالْفُحُولِ عِنْدَ هِيَاحِهَا ، فَتَخْضَعُ جَنَاحُ الْمَاءِ الْمُتَلَالِمِ لِثِقَلِ تَحْدِهَا ، وَيَسْكُنُ هَيْجُ أَرْيَافِهَا إِذْ وَطِئَتْهُ بِكُلْكِهَا ، وَذَلَّ مُسْتَحْذِبًا إِذْ تَمَكَّتْ عَلَيْهِ يَكْوَاهِلُهَا ؛ فَأَصْبَحَ تَمَدُّ أَصْطِحَابِ أَمْوَاجِهَا سَاحِيًا مَقْهُورًا ، وَفِي حَكْمَةِ الذَّلِّ مُتَفَادًا أَسِيرًا ، وَتَسَكَّتِ الْأَرْضُ مَذْحُوتَةٌ فِي لُجَّةِ نَهَارِهِ ، وَرَدَّتْ مِنْ نَحْوَةِ بَأْوِهِ وَأَعْيَلَانِيهِ ، وَتُخْوِجُ أَغْنِيهِ وَتُؤَوِّ غُلَوَانِيهِ ، وَكَعَمَتْهُ عَلَى كِفْطِهِ جَرَبَتِيهِ ، فَهَمَدَ نَرَقَاتِيهِ ، وَلَبَدَ بَمَدَ زَبَانٍ وَتَبَانِيهِ .

فَلَمَّا سَكُنَ هَيْجُ الْمَاءِ مِنْ تَحْتِ أَكْثَافِهَا ، وَتَحَلَّ شَوَاهِقُ الْجِبَالِ الشَّمْعِ الْبُذْخِ عَلَى أَكْثَافِهَا ، فَجَرَّ بِسَابِيعِ الْعُيُونِ مِنْ عَرَانِينَ أُنُوفِهَا ، وَفَرَّقَهَا فِي سُهُوبٍ بِيَدِهَا وَأَخَادِيدِهَا ، وَعَدَّلَ حَرَكَاتِهَا بِالرَّاسِيَّاتِ مِنْ جَلَامِيدِهَا ، وَدَوَّاتِ الشَّفَاخِيْبِ الشَّمْعِ مِنْ صَيَاخِيدِهَا ، فَسَكَنَتْ مِنَ اللَّيْدَانِ لِرُسُوبِ^(١) الْجِبَالِ فِي قِطْعِ أَدِيمِهَا ، وَتَمَلَّقَتْهَا مُفَسَّرَةٌ فِي حَوْبَاتِ خَيَاشِيمِهَا ، وَرُكُوبِهَا أَعْدَقَ سُهُولِ الْأَرَصِينِ وَجَرَائِيمِهَا ، وَفَسَحَ

(١) مغلطة النهج : « برسوب » .

بَيْنَ الْجَوِّ وَبَيْنَهَا ، وَأَعَدَّ الْهَوَاءُ مُتَنَمِّمًا لِبَاكِهَا ، وَأَخْرَجَ إِلَيْهَا أَهْلَهَا عَلَى
تَمَامِ مَرَاتِبِهَا .

ثُمَّ لَمْ يَدَّخْ جُرَدَ الْأَرْضِ الَّتِي تَقْصُرُ مِبَاهُ الْعُيُونِ عَنْ رَوَايِبِهَا ، وَلَا تَجِدُ
جَدَاوِلَ الْأَنْهَارِ دَرَبَةً إِلَى مُلُوحِهَا ، حَتَّى أَنْشَأَهَا نَاشِئَةً سَحَابٍ تُحْيِي مَوَاتَهَا ،
وَتُسْتَخْرِجُ بَنَاتَهَا ؛ أَلَمْ نَحْمَسْهَا نَمْدًا أَفْزَاقٍ لَمَعَةٍ ، وَتَسَابُنٍ قَزَعَةٍ ، حَتَّى إِذَا تَمَخَّضَتْ
لُجَّةُ الْمَزْنِ فِيهِ ، وَالتَّمَعَ بَرَقُهُ فِي كَفِّهِ ، وَلَمْ يَنْمُ وَمِصْصُهُ فِي كَنْهَوْرٍ رَبَابِهِ ،
وَشَتَا كَيْمِ سَحَابِهِ ، أَرْسَلَهُ سَعَامًا تَدَارِكًا ، قَدْ أَسَفَ هَيْدُهُ ، يَمْرِي الْخُوبُ دِرَرًا
أَهَاصِيهِ ، وَدَفَعَ شَايِبِيهِ .

فَلَمَّا أَلْقَتْ السَّحَابُ بَرَكَ يَوَاسِمِهَا ، وَتَمَاعَ مَا اسْتَقَلَّتْ بِهِ مِنَ الْعِبْءِ الْمَحْمُولِ
عَلَيْهَا ، أَخْرَجَ بِهِ مِنْ هَوَامِدِ الْأَرْضِ النَّبَاتِ ، وَمِنْ رُغْرِ الْجِبَالِ الْأَعْشَابَ ، وَبَيْنَ
تَنْهَجِ بَرِيقَةِ رِيَابِهَا ، وَتَرْدِهِ بِهَا الْمَهْجَةَ مِنْ رِبْطِ أَرَاهِيرِهَا ، وَحِلْيَةِ مَا سَمِطَتْ بِهِ
مِنْ مَاصِرِ أَنْوَارِهَا ، وَجَمَلَ ذَلِكَ بِلَاعًا لِلْأَنَامِ ، وَرِزْقًا لِلْأَنْعَامِ ، وَحَرَقَ الْفِجَاجَ
فِي آفَاقِهَا ، وَأَقَامَ الْمَارَ لِلسَّالِكِينَ عَلَى حَوَادِ طُرُقِهَا .

• • •

الْبَرْخُ :

كَبَسَ الْأَرْضَ ، أَيْ أَدْحَمَهَا فِي الْمَاءِ بِقُوَّةٍ وَاعْتِمَادٍ شَدِيدٍ ؛ وَيُقَالُ لَضَرْبِ مِنَ الثَّمَرِ :
الْكَبْسُ ؛ لِأَنَّهُ يَكْبَسُ حَتَّى يَنْزَامَ . وَلِلْوَرْدِ : مَصْدَرٌ « مَار » أَيْ ذَهَبَ وَجَاءَ .
وَمُسْتَفْعَلَةٌ : هَائِجَةٌ هَيَّجَانُ الْفَعُولِ . وَاسْتَفْعَلَ الْأَمْرَ : تَفَاقَمَ وَاسْتَدَّ . وَزَاخَرَهُ ، زَخَرَ الْمَاءُ
أَيْ امْتَدَّ جَدًّا وَارْتَفَعَ .

وَلَاوَذَى : جَمَعَ آدَى ؛ وَهُوَ الْمَوْجُ وَنَحْوُهُ : يَضْرِبُ بِمَعْصَا بَعْضًا . وَالْأَثْبَاجُ هَاهُنَا :

أعلى الأمواج ، وأصل الشَّج : ما بين الكاهل إلى الظهر ؛ فنقل إلى هذا الموضع استمارة
وترغو : تصوت صوت المعير ، والرعاء : صوت دات الخلف ؛ وو للثل : كفى
برغائها مناديا ؛ أي أن رُغاء سير المصيف يقوم مقام مدائه للضيافة والقرى . وربدا
على هذا منصوب بفعل مقدر ؛ تقديره : وترغو قاذفة ربداً ، والزُّبد : ما يطير فوق
الليل ؛ يقال : قد أريد البحر والسيل ، وبحر مُرَبِد ؛ أي ما لم يقذف بالزبد . والفحول
عند هياحها ؛ فحول الإبل إذا حاجت للمصراع .

وجاح الماء : صعوده وعلَيَّاه ، وأصله من جماع المَرَس ، وهو أن يمرّ فارساً ويبدله .
والجوح من الرجال : الذي يركبُ هواء فلا يمكن رده . وَخَصَع : دل . وهيج الماء :
اضطرابه ، حاج هيجاً وهياجا وهيجاً ؛ واحتاج ، وهيج ، كله بمعنى ، أي ثار ، وهاجه
غيره ، يستعدي ولا يستعدي . وهيج ارتعاشه ، ومعنى تفاعله وتلاطمه ، يقال ارمي القوم
بالسهم وبالجملة ارتعاشاً وكثيكتهم : صدرها ؛ وجاء كئكل : لكاء درءاً جاء
في ضرورة الشعر مشدداً ، قال :

كَانَ مَهْوَاهَا عَلَى الْكُتْكَرِ مَوْضِعُ كَثْبٍ رَاهِبٍ مُصَلِّيٍّ^(١)

والستعدي : الخاضع ؛ وقد يهمر . وقيل لأعرابي في مجلس أبي زيد : كيف تقول :
استغذات ؟ ليتعرف منه الهمزة . فقال : العرب لا تستعدي ، وهمزة ؛ وأكثر ما يستعمل
عليها ؛ وأصله من خَذَا الشيء يَخْذُو خَذْوً ، أي استرخى ؛ ويجوز خَدِي ، بكسر الدال ، وأذن
خَذَوَاهُ : يَدُّهُ الخذاء ، أي مسترخية .

ونمكت : تمرغت ، مستعار من نمكت الدابة في الأرض ؛ وقالوا : نمكت الأديم ،
أي دلسته^(٢) . وكواهاها : جمع كاهل ؛ وهو ما بين الكتفين ، ويسمى الحارك .

(١) البحر المحور بن مرند الأسدي ، اللسان ١٤ : ١١٧ . (٢) ب : د : دلت .

وامصطخاب أمواجه : افعال من المصحب ؛ وهو المصباح والنجابة ، يقال : مصحب
الرجل فهو صحبان ، وامصطعب ، افعال منه ، قلل :

• إن الصفادع في المدران تصطخب^(١) •

والساجي : الساكن : والحكمة : ما أحاط من المعام بحكك الدابة ؛ وكانت العرب
تتخذها من القيد والأبق ؛ لأن الزينة لم تكن قصدم ، قل زهير :

القائد الحيل مكيوباً دوابرها قد أحكت حركات القيد والأبقا^(٢)

واستعار الحكمة هاهنا ، فجعل ليدل حكمة بنقاد الماء بها ويدل إليها .

ومدحوة : مدسوة ، قال تعالى : (وَأَلْأَرْضُ يَمْدَدُ ذَلِكَ دَحَاهَا)^(٣) . ويحوران تكون
« مدحوة » هاهنا بمعنى مقذوفة مرمية ؛ يقال : لم حرت الحصاة أي قدوتها ؛ ويقال لللاعب
المحور : ادح وأبعد المدى . والتجارة : أعظم لموج واجتهت : أعفقه والباو : السكب والقهر ؛
تقول : بارت على القوم أبى ناوا ، قال حاتم :

فما رادنا بأوا على ذي قرابة غيما ولا أررى بأحسانا الفقر^(٤)

وهذا الكلام استعارة ؛ يقال : كسرت الأرض سورة الماء الجامع كما تكسر سورة
بأو الرجل المتكبر المتعبر والاعتلاء : التيه والتكبر . والشموخ : العلو ، مصدر شمع
بأنه أي تكبر ، والجبال الشوامخ : الشاهقة والسو : العلو ، وسمو علوانه أي غلوه
وتجاوزة الحد .

(١) اللسان ٢ : ١٠ من غير لغة .

(٢) ديوانه ٤٩ ، والأبق : حة الكتان

(٣) سورة التارعات ٣٠ .

(٤) ديوانه ١١٩ .

وَكَمَعَتْهُ ، أى شَدَّتْ فيه لِمَا هَجَ ، من الكِمَام وهو شئٌ يحمل في قَم البعير ،
وامير مَكْعُوم .

والكِطَّة : الجهد والنَّقل الذى يمتري الإنسان عند الامتلاء من الطعام ، يقول :
كَمِيتَ الأرض الماء حال كونه مكْطُوطاً شدة امتلائه وكثرتِه واردة حام أمواجه . فَمَدَّ
أى سَكَنَ ، هَمَدَتِ الدَّارُ تَهْدُ ، بالهمزة همودا ، أى طمِئَتْ وذهبت ألمَتَا . والحمود دون
الحمود . والترقات : الخفة والطيش ، تَرَقَّ الرجل بالكسر ، يَرَقُّ تَرَقًّا . والترقات :
الدهفات من ذلك .

ولَبِدَ الشئ بالأرض بَلْبَدَ ، باسم لبودا ، أى لصق بها ساكنا . والزَّيْفَان :
التيخترى المشى ، زاف البعيرُ يَرْبِفُ ، والزَّيْفَانُ من الثوق المختالة ، ويروى : « وَلَبَدَ
بمَدَّ زَفَيَان وثباته » ، والزَّيْفَان : شدة هبوب الريح ، يقال زَفَتَهُ الريحُ زَفْيَانًا ، أى
طردته ، وبافَ زَفَيَان : سربية ، وقوم زَفَيَان : سربية الإرسال للسهم وأكافها :
جوابها ، وكلفا الطائر جناحاه ، وبقل صِلَا ، مُكْتَفٍ^(١) ، أى أحيط به من جوابه ،
ونكفَّه القوم واكتنفوه أحاطوا به .

والجمال الشواحق : العالية ، ومنه الدُّخ . واليربين أوَّل الأنف تحت مجتمع
الحاجبين . واليمابيع : جمع يَمْبُوع ، وهو ما انفجر من الأرض عن الماء . والشُّهوب :
جمع سَهْب ، وهو العَلَاة . واليَيْد : جمع يَيْدٌ ، وهى العَلَاة أيضا .

والأخاديد : جمع أخدود ، وهو التثقب فى الأرض ، قال تعالى : ﴿ قَتَلَ أَصْحَابُ
الْأَخْدُودِ ﴾^(٢) . والراسيات : التَّمَال . والشناخيب : رموس الجبال . والشَّم : العالية ،
والجلايد : الصحور ، واحدها جُلُود . والصَّيَّاحيد : جمع صَيَّحُود ، وهى الصخرة العلية .

(١) الصلاء : الوفود ، أو النار . (٢) سورة البروج ٤ .

وَالْهَذَانِ : الصَّعْرُوكَ وَالْاضْطِرَابَ ، وَمَادَ الرَّحْلَ يَبْدُ أَي تَبْخُتَر . وَرَسُوبُ الْجِبَالِ : نَزُولُهَا
رَسَبَ الشَّيْءُ فِي الْمَاءِ ، أَي سَفَلَ فِيهِ ، وَسَيْفُ رَسُوبٍ : يَنْزِلُ فِي الْعِظَامِ .

وَقَوْلُهُ : « فِي قِطْعٍ أَدِيمٍ » جَمْعُ قِطْعَةٍ ، بَرِيدٌ فِي أَحْزَانِهَا وَأَسَافِهَا . وَيُرْوَى فِي
« قِطْعٍ أَدِيمٍ » ، بِصَمِّ الْقَافِ وَفَتْحِ الطَّاءِ ، جَمْعُ قُطْعَةٍ وَهِيَ الْقُطْعَةُ مَفْرُوزَةٌ ^(١) مِنْ
الْأَرْضِ ، وَحَكِيَ أَنَّ أَعْرَابِيًّا قَالَ وَرَثْتُ مِنْ أَبِي قُطْعَةً . وَيُرْوَى : « فِي قِطْعٍ أَدِيمٍ » ،
بِسُكُونِ الطَّاءِ ، وَالْقِطْعُ : طَيْفِيَّةُ الرَّحْلِ ، فَفُتِلَ ذَلِكَ إِلَى هَذَا الْمَوْضِعِ اسْتِمَارَةً ، كَأَنَّهُ جَعَلَ
الْأَرْضَ نَاقَةً ، وَجَعَلَ لَهَا قِطْعًا ، وَجَعَلَ الْجِبَالَ ثَائِيَةً فِي ذَلِكَ الْقِطْعِ .

وَأَدِيمُ الْأَرْضِ : وَجْهُهَا وَظَاهِرُهَا . وَتَعْمَلُ لِمَاءِ فِي الشَّجَرِ : دَحْوُهُ وَتَحْدَلُهُ فِي أَصُولِهِ .
وَعُرُوقُهُ مُتَسَرِّبَةٌ ، أَي دَاحِلَةٌ ، تَسْرِبُ الشَّلْبُ أَي دَحَلَ الشَّرْبُ ، وَجَوَابَاتُ : جَمْعُ حَوْبَةٍ
وَهِيَ الْمَرْجَةُ فِي جَبَلٍ أَوْ غَيْرِهِ . وَحَيَاشِيَتُهَا : جَمْعُ حَيْشُومٍ وَهِيَ أَقْصَى الْأَنْفِ ، وَتَقُولُ :
خَشِمْتُ الرَّجُلَ خَشْمًا ، أَي كَسَرْتُ حَيْشُومَهُ . وَجَرَائِيَتُهَا : جَمْعُ جَرَّوْمَةٍ ، وَهِيَ أَصْلُ
الشَّجَرِ . وَقَسَحَ : أَوْسَعَ . وَمَتَدَّيًّا ، بِعَنَى مَوْضِعِ النَّسِيمِ . وَالْأَرْضُ الْحَرُّرُ الَّتِي لَا بَيَاتَ
فِيهَا لَا انْقِطَاعَ لِلْمَطَرِ عَنْهَا ، وَهَذِهِ مِنَ الْأَلْفَافِ التَّمَرَّاتِيَةِ ^(٢) . وَالرَّوَايُ : النَّقْلُ وَمَا عَلَا مِنْ
الْأَرْضِ . وَالْحُدَاوِلُ : الْأَنْهَارُ الصَّغِيرُ ، جَمْعُ جَدُولٍ . وَالذَّرْبَةُ : الْوُصْلَةُ .

وَنَاشِئَةُ سَحَابٍ : مَا يَبْتَدِئُ ظُهُورَهُ . وَالْمَوَاتُ ، بِهَتْجِ الْمِيمِ : الْفَقْرُ مِنَ الْأَرْضِ ،
وَاللَّمْعُ : جَمْعُ لَمْعَةٍ ، وَهِيَ الْقِطْعَةُ مِنَ السَّحَابِ أَوْ عِبْرَةٍ . وَتَبَايَنَ قَرْعُهُ ، الْقَرْعُ : قِطْعٌ مِنْ
السَّحَابِ رَقِيقَةٌ وَاحِدُهَا قَرْعَةٌ ، قَالَ الشَّاعِرُ :

(١) فِي الْأَصْلِ : « مَفْرُوزَةٌ » ، تَصْغِيرٌ ، وَاحْتِرَاقُ الْمَاءِ (اطْلُع)

(٢) مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ السَّعَةِ ٢٧ : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْحَرْرِ

فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا) .

• كَانَ رِيحَالَهُ قَزَعُ الْجَهَامِ (١) •

وفي الحديث «كانهم قزع الخريف» (٢). وتباينها: افتراقها. وتمخضت: تفرقت بقوة، يقال: تمخض الابن إذا تحرّك في المخصصة، وتمخض الولد: تحرّك في بطن الحامل، والماء في «فيه» ترجع إلى اللزّن بأي تحرّكت لجة اللزّن في اللزّن نفسه، أي تحرّك من السحاب وسطه وتبجّه. والتمخّع البرق ولمع أي أصاء، وكُفّفه: جمع كُفّه والكُفّة كالأداة تكون في السحاب. وكان الأصمى يقول: كل ما استطال فهو كُفّة بالضم؛ نحو كُفّة الثوب؛ وهي حاشيته وكُفّة الرمل، والجمع كفاف، وكل ما استدار فهو كُفّة بالكسر؛ نحو كُفّة الليزان، وكُفّة الصائد وهي حبالته، والجمع كنف. ويقال أيضا: كُفّة لليزان بانفتاح، والوميص: الضياء واللمعان.

وقوله: «لم يمْ» أي لم يفر ولم ينقطع، فاستعار له لفظة النوم. والكُفّور: العظيم من السحاب. والرتاب: الغمام الأبيض، ويقال: إنه السحاب الذي تراه كأنه دون السحاب، وقد يكون أبيض، وقد يكون أسود، وهو جمع، والواحدة رابة، وبه سميت المرأة الرّباب. والمترام: الذي قد ركب بعضه بمصا، والميم بدل من الباء. وسَحَا: صَبَا، وسحابة سَحُوح، وتسَحَّسَحَ الماء: سال، ومطر سَحَّاسَحَ، أي بسح شديدا. ومتداركا: يلحق بعضه بعضا من غير انقطاع. وأسف: دنا من الأرض. وهَيَذَبَه: ماتهذب منه، أي تدلّى كما يتدلّى هذبُ العين على أشجارها ويمرّ الجنوب، وهو بمعنى يحاب ويستلذ، ويروى «تمرّبه الجنوب» على أن بعدّى الفعل إلى المفعولين، كأنقول حلّبت استقلبتنا. ويروى: «تمرّبه الجنوب» وهو بمعنى تمرّبه، من مرّبت القرس وامرّيته، إذا استخرجت بالسوط ما عنده من الجري، وإنما

(١) في الرمة، ديوانه ٩٧: يصف ملاء، وسنره:

• تَرَى عُصَبَ الْقَطَا هَمَلًا عَلَيْهِ •

(٢) في النهاية لابن الأثير ٣: ٢٥١: من حديث لعل.

خصّ الجنوب بذلك لأنها الريح التي يكون عليها المطر . والدّثر : جمع دِرة ، وهي كثرة اللبن وسيلانه وصّبه . والأعاضيب : جمع مضاب ، والمضاب : جمع مضب ، وهي حلقات القطر بعد القطر . والدّفْع : جمع دُفْعَة ، بالضم وهي كالدّفْعَة من المطر بالضم أيضاً والشّايِب : جمع شؤبوب وهي رشة قوية من المطر ، تنزل دفعة بشدة ، والبرك : المدر ويوانبها ، ثنية يوان على « فِعال » بكسر الفاء وهو عمود الخيمة ، والجمع نُون بالضم ، قال الشاعر :

أَصْبَرِ مِنْ ذِي ضَاعِطٍ عَرَكُوكِ أَلْقَى يَوَانِي زَوْرَهُ لِلْبَرْكِ^(١)

ومن روى : « يَوَانِيهَا » أرادوا صفها ، من قولك : قوس بانية إذا انصرفت بالوتر . والرواية الأولى أصح . وتعام السحاب : ثقله بالمطر ، قال امرؤ القيس :

وَأَلْقَى يَمْحَرَاءَ الْمَيْطِ نَعَامَهُ نُزُولَ الْيَمَانِ بِالْعِيَابِ الْمَنْقَلِ^(٢)

والعبء : الثقل ، واستظلت : ارتفعت ونهضت ، وهوامد الأرض ، هي الأرضون التي لا نبات بها . ورُغِرَ الجبال : جمع أوعر ، والمراد به قلة العشب والخلج^(٣) : وأصله من الزعر ، وهو قلة الشعر في الرأس ، قال :

مَنْ يَلِكُ ذَاتُهُ يَرْجُلُهَا فَاسْتَيْ عَيْزُ ضَايِرِي زَعْرِي

وقد زعر الرجل بزعر : قلّ شعره . ونهيج : نسر وتفرح ، نقول : نهيجي أمر كذا بالفتح ، وأبهني معاً ، أي سرتي . ومن رواه بضم الهاء أراد يحسن ويخلص ، من البهجة ، وهي الحسن ، يقال نهيج الرجل بالضم ، بهاجة ، فهو بهيج ، أي حسن ، قال الله تعالى : « مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٌ »^(٤) ، ونقول : قد أسهت الأرض بالهمزة ، أي بهيج نباتها وحسن .

(١) المركوك : الجمل الملبط القوى ، والرحر في صحاح الجوهري ؛ وهو في القام أيضاً بلسنته إلى حلحلة بن قيس بن أشيم .

(٢) ديوانه ٢٥ .

(٣) الخلل : الرطب من النبات ، وهو السكلا .

(٤) سورة الحج ٥ .

وتردّهي ، أى تعكبر ، وهى اللفظة التى حكاه ابن دريد ، قال : تقول : زها الرجلُ يزْهُو زَهْوًا ، أى تكبر^(١) وعلى هذه اللفظة تقول : ازدهى الرجلُ يزدهى ، كما تقول من «علا» اعتلى بمنى ، ومن «رمى» ارتنى يرتنى ، وأما «ن رواها» وتردّهي بما البسته «على ما لم بسم» فاعله ، فهى اللفظة المشهورة . تقول : زهى فلان عينا ، وللعرب أحرف تفكّم بها على سبيل المفعول به ، وإن كانت بمعنى الفاعل ، كفولهم : عى بالأمر ، وتفتح الناقدة ، فتقول على هذه اللفظة : فلان يزْدهى بكذا .

والرّبط جمع ربطة ، وهى الملاءة غير ذات سفين والأزاهير : التّور ذو الألوان . وسمّيت به : علق عليها الشّوط ، جمع منقط وهو المقد ، ومن رواه «شملت» بالشين المعجمة ، أراد ما خالط سواد الرياض من التّور الأبيض كالأنصوان ونحوه ، فصارت الرياض كالشعر الأشمط . والناضر : ذو النصارم ، وهى الحزم والطراوة وبلاغا للأثام ، أى كفاية . والآفاق : التّواحي ، والمار : الأعلام .



[فصول متنوعة تتعلّق بالخطبة]

وينبى أن تتكأّم فى هذا الموضع فى فصول :

الفصل الأول فى كيفية ابتداء خلق الأرض :

ظاهر كلام أمير المؤمنين عليه السلام أن لاء حاق قبل الأرض ، وقد ذكرنا فيما مضى أنه قول لبعض الحكماء ، وأنه موافق لما فى التّوراة إلا أن فى كلامه عليه السلام فى هذا الموضع إشكالا ، وذلك أن لقائل أن يقول . كلامه يشمر بأن هيّجان الماء وعلياته ومواجه

(١) ظله صاحب السان و رها

سَكَنَ بوضع الأرض عليه ، وهذا خلاف ما يشاهد ، وخلاف ما يقتضيه العقل ، لأن الماء
لما كن إذا جُمِلَ فيه جسم ثقيل اضطرب وتموج ، وصعد علواً ، فكيف الماء التسوُّج بسكن
بطرح الجسم الثقيل فيه ؟

والجواب أن الماء إذا كان تموجه من قِبَل رِيح هائجة ، جاز أن يسكن هيجانه بجسم
يحول بينه وبين تلك الريح ، ولعلك إذا جئت في الإماء ماء وروحناه عروحة تموجه ، فإنه
يتحرك ، فإن جعلنا على سطح الماء جسماً يملأ حافات الإماء وروحناه بالروحة فإن الماء
لا يتحرك ، لأن ذلك الجسم قد حال بين الهواء المختل بالروحة وبين سطح الماء ، فن الجائر
أن يكون الماء الأول هائجاً لأجل رِيح محرّكة ، فإذا وصمت الأرض عليه حال بين سطح
الماء وبين تلك الريح ، وقد مرّ في كلام أمير المؤمنين في الخطبة الأولى ذكر هذه الريح ،
فقال : « رِيح اعتم مهتها ، وأدام مَرِبَّها وأعصف كحراها ، وأبعد منشأها ، فأمرها تصفيق
الماء الزحار ، وإثارة موج البعائر ، فخصت بحص السقاء ، وعصفت به عصفاً بالقضاء » .



العصل الثاني في بيان قوله عليه السلام : « فلما سكن هيج الماء من تحت أكتافها ،
وحل شواحق الجبال المدخ على أكتافها ، فجز ينابيع الميون فيها ، وعدل حركاتها
بالراسيات من جلا مبيدها » :

وذلك لأن العامل في « لَمَّا » يجب أن يكون أمراً مبايناً لما أضيفت إليه ، مثله :
لما قام بدقام عمرو ، فقام النامية هي العامة في « لَمَّا » ، فيعوز أن تكون أمراً مبايناً لما أضيف
« لَمَّا » إليه ، وهو قيام زيد ، وهما نقد قل عليه السلام : لَمَّا حل الله تعالى شواحق الجبال على
الأرض عدل حركات الأرض بالجبال ، ومعنى لَمَّا أن أحد الأمرين هو الآخر .

والجواب أنه ليس أحد الأمرين هو الآخر بيته ، بل الثاني معلول الأول ، وموجب

هذه لأن الأول هو محل الجبال عليها ، والثاني تعديل حركاتها بالجبال المحمول عليها ، فكأنه قال : حل عليها الجبال ، فانقضت ذلك الحل تعديل حركاتها ؛ ومعلوم أن هذا الكلام منتظم .

الفصل الثالث في قوله : « إن الجبال هي المسكنة للأرض » :

فنعول : إن هذا القول يخالف قول الحكماء ؛ لأن سكون الأرض عند الحكماء لم يكن لذلك ، بل لأنها تطلب المركز ، وهي حاصلة في حيزها الطبيعي ؛ لكننا وإن كان مخالفاً لقول الحكماء ، فإننا نتقدم دينا ومذهباً ، وسدل من قول الحكماء ، لأن اتباع قوله عليه السلام أولى من اتباع أقوالهم .

الفصل الرابع في ذكر طائر لما وصف به المطر والسحاب :

من ذلك ما رواه عبد الرحمن ، ابن أبي الأصمى ، عن عه قال : سئل أعرابي عن مطر ، فقال :

استقل سدى مع انتشار الطفل ، فشما وأخزال ، ثم اكتمرت أرجاؤه ، واحومت أرجاؤه ، وانزعرت فوارقه ، وتصاحت بوارقه ، واستطار وادقه ، وأرسمت جوبه ، وارتمن هيذبه ، وحسكت أحلافه ، واستقلت أردافه ، وانتشرت أكنافه ؛ فالرعد يرتجس ، والبرق يحنس ، والماء ينبس ، فائرع العذر ، وأنبت الوجر ، وحلط الأوعال بالآجال ، وقرن الصيران بالرمال ، فلالودية هدير ، ولشراج حرير ، ولتلاخ زفير ، وحط النبع والغم من القتل الشم إلى الغيمان الضخم ، فلم يبق في القتل إلا شميم

مُجَرَّبِينَ ، أو داحض مَحْرَم ، وذلك من فضل رب العالمين ، على عباده المذنبين .
 قلت : السَّدَّ : السحاب الذي يَسُدُّ الأفق . وأصل الجبل . والظُّفْل : اختلاط الظلام
 وانتشاره حال غروب الشمس . وشصا : ارتفع وعلا . وأَحْرَأَلْ : انتصب . واكْفَهَرَتْ
 أَرْجَاؤُهُ : غَلُظَتْ نواحيه وجوانبه وتراكمت . واحمومت : اسودت مع مخالطة حرة
 وأَرْجَاؤُهُ : أوساطه . وانزعرت : تفرقت . والقوارق : قِطْع من السحاب تتفرق عنه
 مثل فِرَق الإبل ؛ وهي النوق إذا أرادت الولادة فارقت الإبل وبعُدَتْ عنها حيث
 لا تُرَى . وتضاحكت بوارقه : امت . واستطار : انتشر . والواديق : ذو الودق ، وهو
 مطر كبار . وأرست جُوبَهُ ، أى تلامت فُرْجُهُ والتعمت . وارنمن : استرخى .
 وهَيْدَبُهُ : ما تدلّى منه . وحسكت أسلافه : امتلأت مروعته . وأرداه : ماخره .
 وأكنافه : نواحيه ، ورنحس : بصوتهم والرنحس : الصوت . ويختلس : يستلبُ
 البصر . وينبَحس ينصب : فأنزع الدَرَجَ مَلَاها ، جمع غدير . وأنبت الوَجُر : حفرها ؛
 جمع وِجَار ؛ وهو بيت الصبح والآجال : جمع إحْل ؛ وهو قطع البئر : والصَّيْرَان مثله ،
 جمع صُوار . والرتال : جمع رَأْل ؛ وهو فرخ النعام . والمدير : الصوت . والتشراج : جمع
 شَرْج ؛ وهو ميل الماء إلى الحرّة . وحرير الماء : صوته . وزفير النَّلَاع : أن تزفر
 بالماء لفرط استلثائها . والنَّيْع : شجر ، والعَم : شجر آخر ؛ وكلاهما لا يبيت إلا في رموس
 الجبال . والشَم : العالية . والصَّعْم : السود التي تضرب إلى الصفرة ، والمُعَم : المتعَم
 الملتحي . والمجرثم : المتقيص ، والداحض : الزالق الواقع . والمحرم : المصروع .

• • •

ومن ذلك ما رواه أبو حاتم ، عن الأصمعي ، قال : سألت أعرابيا من بني عامر
 ابن صعصعة ، عن مطر أصاب بلادهم ، قال :
 شأ عارضا ، فطلع ناهضا ، ثم ابسَم وامصا ؛ فاعتن في الأقطار فأشعها ، وامتد في

الآفاق فغطاها ، ثم ارتجس فنهتهم ، ثم دوى فأظلم ، فأرك ودفث ، وبشش وطش ، ثم قطط فافرط ، ثم ديم فأنعط ، ثم ركذ فأنجم ، ثم وبّل فسحم ، وجاد فأنم ، فقمس الرّيا ، وأفرط الرّثي سيّاً^(١) تباعا ، يريد انقشاعا ؛ حتى إذا ارتوت الخزّون ، وتضعضعت المتون ، ساقه رثك إلى حيث يشاء ، كما جلبه من حيث شاء .

قلت : للمارض : سحاب يعترض في الأفق . واعتن : اعترض وأشجهاها : ملأها فكان كالشجى في حلقها . وارتمس : صوت . والهمهمة : صوت الرعد . ودوى : أحدث دويّاً . فأظلم : أعدم الضوء من الأرض شكائعه . فأرك ، أي مطر ركّاء ، والرك : المطر الضعيف ، وكذلك الدث والشمس والطنش ، وفوق ذلك القمط . ودّيم : صار ديمةً وهي المطر أيا ما لا يقلع . وأنعط ، أي دام . وأنجم : أقام . وبّل : جاء بالوايل ؛ وهو المطر العظيم : وسجّم : صبّ . وأنم : بالغ وقمس : قوّم في الماء . وأفرط الرّثي : مملأها ، جمع رنية ؛ وهي حفيرة تعمّر الوحوش في مكان مرتفع . والخزون : السحح حزن ، وهو ما غلط من الأرض . والمتون : جمع من ؛ وهو الصاب من الأرض وتضعضعت : صار فوقها صحاح من الماء ؛ وهو الرقيق .

ومن ذلك ما رواه أبو حاتم أيضا ، عن الأصمعي ، قال : سألت أعرابيا عن مطر أصابهم بعد جذب ، فقال :

ارتاح لما رثك بعد ما استولى اليأس على الظنّون ، وخامر القلوب القنوط ؛ فأنشأ نوح الحمة قرعة كالفرص من قبل العين ، فاحرألت بعد ترحل النهار لأدم الشرار ؛ حتى إذا نهضت في الأفق طالعة ، أمر مسحها الخلوب فتدتمت لها ، فانتثرت^(٢) أحصائها ، واهومت أركانها ، ونسق عنائها ، واكهمرت راحاها ، وابهمعت كلالها^(٣) ، وذمرت

(١) سباح الماء سيّاً جرى واسطرب ، وفي الأصون : « سيّاً » . صحيح

(٢) « ذمرت » . « انتثرت » . « كلة السحابة » . أصحها

أخراها أولاها؛ ثم استطارت حقائبها، وارتفعت بوارقها، وتمقتت صواعقها، ثم ارتفعت جوانبها، وتداعت سواكبها، ودزت حولها؛ فكانت للأرض طبعا شج فهضب، وعم فأحسب؛ فدل القيمان، وضخص النيطان، وصوح الأصواج، وأترع الشراج، فالحمد لله الذي جعل كفاء إساءتنا إحسانا، وجزاء ظلمنا عفوانا.

قلت : نوء الجبهة محمود عندم المطر ، والقزعة : القطعة الصغيرة من السحاب .
والقرص : الشمس . والمين ماعن يمين قبلة العراق . وترجل النهار : انبساط الشمس .
والأدم : أحد ليالي السرا ، والأحصان : النواحي . واحومت : اسودت . وبسق : علا .
والعنان : ما يمرض من السحاب في الأفق . وابهمت : امتقت . وذمرت : حصت .
والغائق : البروق . وارتفعت : اهترت وارتعدت . وطبقا ، أى غطت الأرض . وهضب :
جاء بالطرقة فدفة . وأحسب : كفى . وحل القيمان : سقاها مرة بعد أخرى ، والبيطان :
جمع غائط وهو ما سفل من الأرض . وصوح الأصواج : هدم الأجواف . وأترع الشراج : ملأ السيلات .

مختار من قصيدته

...

ومن ذلك ما رواه ابن جرير ، عن عبد الرحمن ، عن عمه الأصمعي ، قال :
سمعت أعرابيا من بني عامر يصف مطرا ، قال : شأ عند القصر بنوء القفر حيتا عارضا حكا
وامسا ، فكللا ولا ما كان حتى شحيت به أقطار الهواء ، واحتجبت به السماء ، ثم أطرق
فأكفهر ، وتراكم فادلم ، وبسق فارلأم ، ثم حدث به الريح نغرة ، والبرق مرتعج ، والرعد
مبتووج ، والمطج مبتعج ، فأنجم ثلاثا ، متعيرا ههنا ، أحلافه حاشكة ، ودفعه متواشكة ،
وسوامه متعاركة . ثم ودع ضحما ، وأفلح ههنا ، محمود البلاء ، مترع النهاء ^(١) ، مشكور الغماء ،
بطول ذي الكبرياء .

قلت : القصر : العشي . والقفر من نجوم الأسد . والحيا : الدأني من الأرض .
وقوله : « كللا ولا ما » أى في زمان قصير جدا . وشحيت به الأقطار : صار كالشجى لها .

(١) نهاء : جمع نهى ، وهو الندير .

وازلأم : انكصب، والرنج : للتدارك والبتروج : العالي الصوت، والحدج : التحلب أو تل ما ينشأ - ويبتجج : يشقق - وأنجم : دام مصغرا ، أى كأنه قد نخبز لا وجه له يقصده .
والهشبات : للداخل - وأخلافه حاشكة : أى ضروعة ممثلة . ودغنه متواشكة ، أى مسرعة .
وسوامه متماركة ، شبه قطع السحاب سوام الإبل . ومُنجمًا : مقلما . ومثنيًا : يسير نحو تهامة :



الفصل الخامس في بيان أنه عليه السلام إمام أرباب صناعة البديع

وذلك لأن هذا الفن لا يوجد منه في كلام غيره من تقدمه إلا ألفاظ يسيرة غير مقصودة ؛ ولكنها واقعة بالاتفاق كما وقع التجليس في القرآن العزيز اتفاقا غير مقصود ، وذلك نحو قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا عَلَىٰ يُونُسَ ﴾ ^(١) ، وكما وقعت للقبالة أيضا غير مقصودة في قوله : ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴾ ^(٢) على أنها ليست مقابلة في المعنى ، بل من اللفظ خاصة . ولما تأمل العلماء شعر امرئ القيس ووجدوا فيه من الاستعارة يتقا أو يهين نحو قوله يصف الليل :

فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا تَعَلَّىٰ يَصْلُبُ وَأَرَدَتْ أَنْجَازًا وَنَاءَ بِكَ لِكُلِّ ^(٣)

وقوله :

وإن بك قد ساءتلك منى حابئة فسلني ثيابي من ثيابك تفسل ^(٤)

ولم يفتشدوا مثل ذلك في أشعار الجاهلية ، حكوا له بأنه إمام للشعراء ورئيسهم .

وهذا الفصل من كلام أمير المؤمنين عليه السلام قد اشتمل من الاستعارة العجيبة وغيرها من أبواب البديع على ما لو كان موجودا في ديوان شاعر مكبر ، أو مترسل مكتر

(٢) سورة الرحمن ٨ .

(٤) ديوانه ١٣ .

(١) سورة يوسف ٨٤ .

(٣) ديوانه ١٨ .

لكان مستحق التقديم بذلك؛ ألا تراه كيف وصف الأمواج بأنها مستفحلة، وأنها ترغور غاء
 لحول الإبل . ثم جعل الماء جحاحاً ، ثم وصفه بالخضوع ، وجعل للأرض كسكلاً، وجعلها
 واطئة للماء به ، ووصف الماء بالقل والاستخذاء لتاجل الأرض متمسكة عليه كما
 يمسك الحمار أو الفرس ، وجعل لها كواهل، وجعل للدل حكمة، وجعل للماء في حكمة
 القل منقاداً أسيراً ، وساجياً مقهوراً . وجعل الماء قد كان ذا نخوة وبأو واعتلاء ، فردته
 الأرض خاضعاً مسكيناً، وطأطأت من شموح أنفه ، وسُمّت غلوانه، وجعلها كاحمة له، وجعل
 الماء ذا كِبَطة باستلانه ، كما نعتى الكفظة المستكثر من الأكل . ثم جعله هامداً بعد أن
 كانت له نزقات ، ولا بدأ بعد أن كانت له وثبات ، ثم جعل للأرض أكتافاً وعرايين ،
 وأنوقاً وخياشيم؛ ثم نفي النوم عن وميض البرق، وجعل الحبوب مارية دِرَر السحاب، ثم جعل
 السحاب صدراً وبواناً، ثم جعل الأرض متهتمة مكرورة مردهة، وجعل لها رِيظاً من لباس
 الزهور ، وسُمّوطاً تملئ بها . فياق وللمحب من قوم رَعُوا أن الكلام إنما يفصل بمعه
 بمصا لاشتماله على أمثال هذه الصنعة، فإذا وجدوا في مائة ورقة كلمتين أو ثلاثاً منها، أقاموا
 القِيامة، ونفَعُوا في الصور، ومثلوا الصحف بالاستحسان لتلك الاستظراف، ثم يمزون على
 هذا الكلام للشعون كله بهذه الصنعة على الطف وحه ، وأرصع وجهه ، وأرشق عبارة،
 وأدق معنى ، وأحسن مقصد ، ثم يحملهم الهوى والعصية على التسكوت عن تفصيله إذا
 أجملوا وأحسنوا، ولم يتمصبوا لتفصيل غيره عليه على أنه لا عجب، فإنه كلام على طلبة السلام،
 وحفظ الكلام حفظ التكلم؛ وأشبهه امرأً بعض برء!

وهذا آخر الجزء السادس من الأجزاء العشرين من شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد
 المعتزلي على ما جراه^(١) .

(١) ج : « ثم الجزء السادس من أجزاء شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد على ما جراه ، وبتلوه
 الجزء السابع والحمد لله وحده » .

فهرس الخطب •

الصفحة	
٤٠٤ •	٦٦ - من كلام له عليه السلام في معنى الأنصار
٥٣	٦٧ - من كلام له لما قلد محمد بن أبي بكر مصر فلكت عليه وقتل
١٠٢	٦٨ - من كلام له في ذم أصحابه
١١٢	٦٩ - من كلام له في سيرة اليوم الذي ضرب فيه
١٢٧	٧٠ - من كلام له في ذم أهل العراق
١٣٨	٧١ - من خطبة علم الناس فيها الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله
١٤٦	٧٢ - من كلام له قاله لمروان بن الحكم بالبصرة
١٦٦	٧٣ - من كلام له لما عزموا على بيعة عثمان
١٦٩	٧٤ - من كلام له لما بلغه اتهام بني أمية له بالمشاركة في دم عثمان
١٧٢	٧٥ - من خطبة له في الزهد
١٧٤	٧٦ - من كلام له في شأن بني أمية
١٧٦	٧٧ - من كلمات له يدعو بها
	٧٨ - من كلام له قاله لبعض أصحابه لما عزم على السير إلى الخوارج
١٩٩	وقوله في النجوم
٢١٤	٧٩ - من كلام له بعد فراغه من حرب الجبل في ذم النساء
٢٣٠	٨٠ - من كلام له في الزهد أيضا
٢٣٨	٨١ - من كلام له في صفات الدنيا
٢٤١ - ٢٧٩	٨٢ - من خطبة له وهي للمساء بالغراء

الصفحة

- ٢٨٠ - ٨٣ - من كلام له في ذكر عمرو بن العاص
- ٣٤٨ - ٣٤٥ - ٨٤ - من خطبة له في تمجيد الله سبحانه وتعالى ، وفيها وصف الجنة
- ٣٥٤ - ٣٥٠ - ٨٥ - من خطبة له في الوعد
- ٣٨٢ - ٣٦٣ - ٨٦ - من خطبة له ، ذكر فيها صفات من يحب الله وحال أمير المؤمنين مع الناس
- ٣٨٤ - ٨٧ - من خطبة له ذكر فيها وصف ما عليه الناس من الخطأ
- ٣٨٧ - ٨٨ - من خطبة له ذكر فيها حال الناس قبل البعث وأن الناس اليوم لا يختلفون عن سلفهم
- ٣٩٥ - ٣٩٢ - ٨٩ - من خطبة له في تمديد بعض صفات الله عز وجل
- ٤٣٨ - ٣٩٨ - ٩٠ - من خطبة له ، وتعرف بخطبة الأشباح ، فيها وصف السماء والأرض والسحاب والملائكة وغير ذلك

مركز تحقيق التراث

فهرسالموضوعات (٥)

صفحة	
٤٥ - ٥	أخبار يوم السقيفة ^(١)
١٧ - ١٤	قصيدة أبي القاسم الغربي وتمصيه للأنصار على قرش
٤٥ - ١٨	أمر المهاجرين والأنصار بعد بيعة أبي بكر
٥٢ - ٤٦	ما روى من أمر فاطمة مع أبي بكر
٦٧ - ٥٥	محمد بن أبي بكر وذكر ولده
٥٦ - ٥٥	هاشم بن عتبة بن أبي وقاص ونسبه
٦٥ - ٥٧	ولاية قيس بن سعد على مصر ثم عزله
٩٤ - ٦٥	ولاية محمد بن أبي بكر على مصر وأخبار مقتله
١٠٠ - ٩٤	خطبة على بعد مقتل محمد بن أبي بكر
١٠١ - ١٠٠	مقتل محمد بن أبي حذيفة
١٠٧ - ١٠٤	الأشعار الواردة في ذم الجبن
١١١ - ١٠٧	أخبار الجبناء وذكر نوادرهم
١٢٦ - ١١٣	خير مقتل على كرم الله وجهه
١٣٤ - ١٢٩	ذكر مطاعن النظام على الإمام والرد عليه
١٣٦ - ١٣٤	خطبة على بعد يوم النهروان
١٣٧ - ١٣٦	من خطب على أيضا
١٤٥ - ١٤٣	معنى الصلاة على النبي والخلاف في جواز الصلاة على غيره
١٦٥ - ١٤٨	مروان بن الحكم ونسبه وأخباره
١٦٨ - ١٦٧	من كلام له أيضا قبل البابية
١٧٨	من أدعية الرسول المأثورة

(٥) وهي الموضوعات التي وردت أثناء الفرج .

(١) انظر أخبار يوم السقيفة في الجزء الأول ٢١ - ٦١

صفحة	
١٨٧ - ١٨٨	أدعية الصعيفة
١٨٧	من الأدعية الماثورة عن عيسى عليه السلام
١٩٦ - ١٨٧	الأدعية الماثورة عن بعض الصالحين
١٩٧ - ١٩٦	آداب الدعاء
٢١٣ - ٢٠٠	القول في أحكام النجوم
٢٢٩ - ٢١٥	أخبار عائشة في خروجها من مكة إلى البصرة بمد مقتل عثمان
٢٣٧ - ٢٣١	الآثار والأخبار الواردة في الزهد
٢٧٤ - ٢٧٣	فصل في ذكر القبر وسؤال الملوك
٢٣٠ - ٢٨١	نسب عمرو بن العاص وطرف من أخباره
٢٩٤ - ٢٨٥	مفاخرة بين الحسن بن علي ورجال من قريش
٢٩٥ - ٢٩٤	عمرو بن العاص ومعاوية
٢٩٧ - ٢٩٥	عهد الله بن جعفر بن العاص في مجلس معاوية
٣٠٣ - ٢٩٨	عهد الله بن العباس ورجال من قريش في مجلس معاوية
٣٠٧ - ٣٠٤	محارة بن الوليد وعمرو بن العاص في الحبشة
٣١٢ - ٣٠٧	أمر عمرو بن العاص مع جعفر بن أبي طالب في الحبشة
٣١٧ - ٣٠٢	أمر عمرو بن العاص في صفين
٣١٩ - ٣١٨	القول في إسلام عمرو بن العاص
٣٢٠ - ٣١٩	بمث رسول الله عمرا إلى ذات السلاسل
٣٢١ - ٣٢٠	ولايات عمرو بن العاص في عهد الرسول وأتلفاء
٣٢٤ - ٣٣١	نبذ من كلام عمرو بن العاص
٣٣٧ - ٣٣٠	أقوال وحكايات في المزاح
٣٤٤ - ٣٣٧	فصل في حسن الخلق وسدحه
٣٦٢ - ٣٥٧	فصل في ذم الكذب وحقارة الكذابين
٣٧٢ - ٣٦٥	فصل في العباد والزهاد والمارفين وأحوالهم